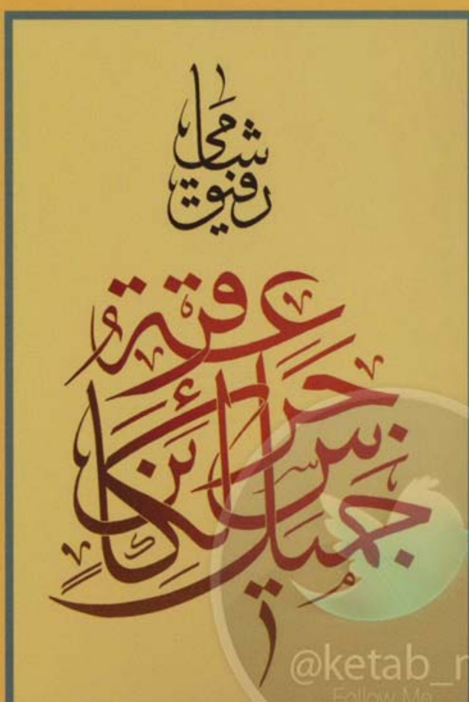
@ketab_n
Follow Me
13.5.2014

رفيق شامي

قرعة جرس
لكائن جميل



@ketab_n
Follow Me

منشورات الجمل

رفيق شامي

قرعة جرس لكائن جميل

@ketab_n
Follow Me

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

رفيق شامي : قرعة جرس لكائن جميل

Twitter: @ketab_n

ولد رفيق شامي (اسمه الحقيقي سهيل فاضل) في دمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء كي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث أكمل دراسته في الكيمياء وحاز على الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لسنوات عدة في اختصاصه. صدر كتابه الأول بالألمانية عام ١٩٧٨ وتفرّغ للعمل الأدبي منذ ١٩٨٢. مُنح عشرات الجوائز تقديراً لأعماله في ألمانيا وفي خارجها، ويعتبر اليوم واحداً من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. تُرجمت أعماله إلى ٢٤ لغة. صدر له باللغة العربية: **التقرير السري عن الشاعر غوته** (٢٠٠٥)؛ **يدٌ ملأى بالنجوم** (٢٠٠٨)، **حكواتي الليل** (٢٠١٠).

تصميم وخطوط الغلاف: عصمت أميرالاي، كذلك الصفحات الداخلية في الصفحات ٧٨، ٩٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٠، ٢١١، ٢٤٨

رفيق شامي: **قرعة جرس لكائن جميل**
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة **لمنشورات الجمل**، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٢
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

© *Al-Kamel Verlag* 2012
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

الإهداء

إلى

بطرس البستاني

هادي العلوي

طه حسين

فدوى طوقان

وبوعلي ياسين

نجوم فريدة في ليل طال ظلامه

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قصة هذا الكتاب

لكل كتاب قصة تسبقه ولا تُروى على الأغلب، لكن لهذا الكتاب قصة جديرة أن تُروى، لأنها تبين الطريق المعقّد الذي تجتازه الفكرة حتى تثمر.

عندما قدّمت في ربيع عام ١٩٨٢ إستقالتي لمدير شركة الأدوية العالمية وصارحته بقراري أن أتفرغ نهائياً للأدب، نظر إليّ بدهشة لا تخلو من الشك. ظن لأول وهلة أني أنوي ـ بعد أن تدربت لسنوات في هذه الشركة ـ الذهاب إلى شركة أخرى لأنها أغرتني بوظيفة أفضل، طمأنته أني أشعر بالإمتنان له بعد هذه السنوات الطويلة في عِشرته الجميلة. وأكّدت له أنه ليس هناك شركة في العالم تستطيع إغرائي بأحسن مما أنا عليه. لكني قررت أن أعمل ما أحلم به منذ عشرات السنين وَأَجْبَنُ لهذا السبب أو ذاك من ممارسته، الآن أو لن أستطع ذلك أبداً.

تجهم وجه الرجل الذي برهن لي وعبر السنوات أنه يملك أعصاباً يخجل الفولاذ من صلابتها. خشي أن تكون أعصابي قد أصيبت في الأشهر الماضية بعطب، إذ كنا نعمل يومياً ولأكثر من عشر ساعات في بناء فروع جديدة داخل ألمانيا وخارجها.

Twitter: @ketab_n

كنت إذ ذاك مساعد رئيس قسم شمال أفريقيا. ولقد حصلت على هذه الوظيفة الهامة بعد حصولي على درجة الدكتوراه في الكيمياء العضوية المعدنية وباختصاص إضافي في علم تأثير العقاقير (خاصة المضادات الحيوية) على الإنسان. هذا الإختصاص ساعدني على الدخول إلى الشركة، وأهّلني إتقاني لعدة لغات، خاصة اللغة العربية أن أرتقي شيئاً فشيئاً، وأن أقوم بدورات مكثفة في الإدارة، الإقتصاد والتسويق. وهذا ما كان يرهقني إذ كنت «عصفور طيار» كما نقول بالعامية الدمشقية، أتنقل من قسم إلى قسم ليوم أو يومين في الأسبوع، لأتعلم كل خفايا هذا العمل الذي يدر الملايين على الشركة. فإلى جانب الالكترونيات تُعَدّ صناعة الأدوية من أربح صناعات العالم. غرام واحد من مواد مضادة حيوية، ينتج بشكل آلي ويباع أغلى من الذهب. وكان رئيسي دمث الأخلاق، مجتهد في كل شيء ومتواضع إلى أبعد الحدود. لكنه بلغ سن الرابعة والستين وكان يبحث عن خليفة ليدربه قبل أن يُحال إلى التقاعد. وكنت أنا ذاك الخلف.

وقد قال لي صديق مغربي، عاش في فرنسا وفي المانيا: «هذا هو الفرق بين الألمان والفرنسيين. الفرنسي يعمل لآخر نهار، يشرب ليتر نبيذ بعدها، وينسى الشركة إلى الأبد ليتمتع بتقاعده. أما الألماني فلا يهدأ له بال، ويظل ضميره قلقاً إلى أن يجد خلفاً له (يكمل عمله). يدرب هذا الخلف على كل صغيرة وكبيرة، ليذهب إلى البيت ويبدأ تقاعده وهو نصف راض عن نفسه، ثم يأتي بين

Twitter: @ketab_n

الحين والآخر إلى الشركة، ويقول إنه مر (بالصدفة) من هنا، وأراد فقط الأطمئنان أن كل شيء على ما يرام».

نصحني المدير بأخذ عطلة قصيرة على حساب الشركة لإراحة أعصابي. لكني ضحكت قائلاً: إن أعصابي لم تكن يوماً بأفضل مما هي عليه الآن، ولولا ذلك لما كان بوسعي اتخاذ مثل هذا القرار.

ما أن استقلت وبدأت العمل بالذي تاقت نفسي إليه، حتى انهالت المصائب عليّ، وبعد أقل من سنة خسرت كل شيء، بيتي الجميل في هايدلبرغ وسيارتي وكل ما ادخرته، ليكون سنداً لي في السنتين الأوليتين لأني قدرت بواقعية أن المرحلة الأولى ستكون عملاً أدبياً دؤوباً، لكنها ستكون بالتأكيد دون مورد مالي. وبدأت الديون تتراكم ببطء، وكنت لا أرى في الأفق أية بارقة أمل. عشت على أرض واقعي الحزين كل الأمثال الشعبية التي طالما رددت حقيقة كثرة الرفاق وقت الفرج وقلّتهم وقت الضيق. وحمدت الله على أني كنت آنذاك أعزب، لا مسؤولية على عاتقي تجاه عائلة أو أطفال.

لا أنسى ما دمت حياً تلك اللحظة، حين ولجت شقتي الصغيرة على سطح بناية في أطراف مدينة مانهايم الصناعية. وقفت مذهولاً لهذا الإنهيار المفاجئ. سقطت الحقيبة من يدي في الممر الصغير، الذي يربط باب الشقة بالغرفة الوحيدة ويتفرع في نهايته إلى حمام صغير ومطبخ أصغر. إستندت على الحائط وأحسست بدوار، فقد كنت آنذاك قد بلغت السادسة والثلاثين، وها أنا أتراجع للوراء بعد

Twitter: @ketab_n

اثنتي عشرة سنة في الغربة وأعود كما في بدايتي كطالب جامعي فقير بحقيبة وغرفة.

فجأة سمعت صوتاً من أعماقي يؤنبني: «ولِمَ الحزن؟ وعلى أي شيء تافه خسرته؟ ألا يكفيك أنك صرت الآن كاتباً؟».

شعرت بالقوة من جديد وقررت أن أهاجم تعاسة حظي باجتهاد وعمل دؤوب أكثر. وبأقل من نصف ساعة رتبت ثيابي القليلة وأواني مطبخي وحضرت إبريقاً من الشاي، أشعلت شمعة صغيرة وبدأت بالكتابة على آلتي القديمة، إذ لم أملك يومها للكتابة باللغة الألمانية سوى آلة ميكانيكية، تزعج بضجيجها جاري المرهف الحس. كان موسيقياً فقيراً، يؤلف سيمفونيات لا يريد أحد سماعها، ويروي لي دوماً عن أوجه الشبه بين حياته وحياة موزارت. لم أر من كل ما عدده سوى الفاقة. وضعت بطانية قديمة تحت الآلة الكاتبة ككاتمة صوت، وفعلاً قل الضجيج ونواح جاري. كنت أكتب كمن أصابه مس، ولا أتوقف إلا عند الساعة الثالثة صباحاً... لأزحف بعدها منهكاً وسعيداً، كما لم أشعر من قبل إلى فراشي، ولأنام لساعات قليلة توقظني بعدها قافلة من الأفكار لكتب جديدة، فأسجلها بسرعة في دفتر قبل أن يبتلعها وحش النسيان.

كنت أشعر بعزلة لكنها كانت عزلة مثمرة، زادت نفسي شجاعة وإيماناً بطريقي الجديد، وقناعة أن الإنسان يمكنه الإكتفاء بالقليل. وعبر تركيز العمل على موضوع الأدب وحده، تبلورت أفكاري

Twitter: @ketab_n

حول كل فكرة بشكل أفضل بعيداً عن ثرثرة الناس، وكنت أسجل ذلك في دفاتر يوميات عملي، لكي أعود إليها عند يأسي. لم أندم ولا لحظة واحدة على قراري. في البدء كان بعض أشباه الأصدقاء يزورونني، ويجيلون نظراتهم التي تقطر شفقة، ليكرروا نصائحهم البليدة، والمتلخصة بأن أعود للشركة ما دام رئيس قسمي لا يزال يرحب بذلك، كنت أبتعد عن مقدمي النصائح هؤلاء الذين لم يتذوقوا قط طعم المغامرة بكل شيء من أجل حب أو فكرة أو معتقد. هؤلاء يُولَدون وهم بنفسية موظف دولة، وما أن يبدأوا عملهم حتى يشرعوا بإحصاء الأيام والسنين التي تفصلهم عن تقاعدهم. كنت ولأول مرة لا أشعر أني أعمل عندما أغوص في أعماق روايتي، أبحث وأنقب، أصيغ وأعيد الصياغة. ذهب الإغتراب بيني وبين ما أعمله إلى جهنم. كنت أعمل يومياً لأكثر من أربع عشرة ساعة وأنا أتمنى ألا ينتهي النهار.

بدأ إسمي بعد عام تقريباً بالإنتشار شيئاً فشيئاً في الأوساط الأدبية لكني ظللت بلا مدخول مالي، أعيش متقشفاً في كل شيء، وأنظر كل نهاية أسبوع بفرح إلى ما حولته من مشاريع ملأت في عشرات السنين الماضية دفاتر وملفات إلى قصص متكاملة ومطبوعة بآلة كاتبة. ونمت روايتي «الوجه المظلم للحب» همي الأدبي الأكبر. لكن الفقر بدأ يحتل شيئاً فشيئاً مساحات من يومي وأصبح تأمين غذاء وإجرة الغرفة والرسوم المختلفة هم وهدف بحاله.

وأذكر أنه أتتني في تلك الأيام العصيبة رسالة ناشر عربي شاب

Twitter: @ketab_n

يطلب فيها مساعدتي المادية، لأنه يريد طباعة كتب كثيرة لم تنشرها دار عربية قبل الآن، ولديه مئات الأفكار لكتب رائعة. ضحكت بمرارة وكدت أكتب له ما كانت جارتنا تعيد على مسمع كل من يطلب منها نقود: «ليس لديّ سوى قملاتي فإذا أردت أهديتك نصفهم والعوض على الله».

في يوم من أيام صيف ١٩٨٣ هاتفتني إحدى زميلاتي. كانت رئيسة قسم في دار شهيرة للترجمة المحلفة. عرضت عليّ ترجمة كتيب لشركة بناء المانية بحوالى ثمانين صفحة وبدخل حوالى عشرين ماركاً ألمانياً للصفحة. كان الأجر زهيداً، فالكتاب علمي صعب وبلغة مركزة صعبة الفهم حتى باللغة الألمانية. لكن ظرفي لم يسمح لي بالنقاش فجملة السيدة الأخيرة كانت صارمة كالسيف: «إذ لم يعجبك ذلك، فلدينا طابور من الأكاديميين العرب يتمنون أن يقوموا بمثل هذا العمل. نحن، كما تعلم، لا نجبر أحداً»، وبالواقع هم لم يجبروا أحداً، بل استغلوا بوقاحة الوضع الإقتصادي المزري للمهاجرين العرب.

بدأت بالترجمة. وكلما ترجمت ثلاث صفحات وضعت العمل جانباً وعدت لأدبي.

الترجمة فن رفيع لا يُقدَّر حق قدره لا مادياً ولا معنوياً. وهو عمل صعب وأنا أقول ذلك ليس لأن شعوراً إنسانياً غمر قلبي، وأجبرني على الرأفة بأصحاب هذه المهنة، بل لأني منذ سن مبكرة واجهت هذه المهمة الصعبة، ولا زلت أمارسها في مهجري. فأنا وليد حضارتين الآرامية والعربية. لغتي الأم هي الآرامية ولغة

Twitter: @ketab_n

طفولتي وشبابي وثقافتي وانتمائي الوطني هي العربية، ولغة المدرسة كانت لسنوات طويلة (منها ثلاث في دير للرهبان المخلصيين في لبنان) الفرنسية، ثم تلتها الإنكليزية (من الصف السابع في دمشق وحتى نهاية أطروحة الدكتوراه عام ١٩٧٨) ولغة مهجري وأدبي المهجري هي الألمانية. الترجمة فن كبير، وهي إبداع جديد للنص الأصلي في لغة أخرى، وسواء سماها البعض «إعادة إبداع» أو «إبداع جديد» فهذا بالنسبة للمترجم سواسية، فهو يعيد بشكل أو آخر إنتاج محتوى النص في لغة جديدة. أقول إنتاج متعمداً لأن البعض يختصر العملية إلى صب المحتوى بثوب كلمات جديدة. الكلمة أكثر من ثوب، وهي تتداخل مع المحتوى والمعنى وتضرب جذوراً في لغة وتاريخ الشعب الذي ينطقها لا تقابلها جذور الكلمة الأقرب إليها في اللغة الجديدة. فإذا لم يهتم المترجم بهذه الفروق أنتج في النهاية نصاً غريباً، لا يمت للنص الأصلي إلا بشبه بعيد. لذلك تتطلب الترجمة الجيدة ثقافة عالية وقدرة جيدة على فهم اللغة الأصل، ومهارة في صياغة اللغة الهدف، وصبر أيوب!

ترجمت خلال الأشهر التي تلت حوالى عشرة كتيبات بمواضيع مملة مثل شرح حقوق وواجبات العاملين في فروع للشركات الألمانية في البلاد العربية، كتيبات عن مواد البناء المستعملة في ورشات بناء ألمانية في السعودية أو الكويت ومخططات لمختبر تدريب الطلبة السعوديين في فرع الكيمياء.

Twitter: @ketab_n

عملت في مقهى كنت أزوره باستمرار عندما مرض صاحبه وأُجبر على البقاء في المستشفى. كان الدخل ممتازاً لكن العمل كان يرهقني ولا يسمح لي بالكتابة، وحمدت الله على عودة الرجل معافى إلى مقهاه.

أصابني بعدها شيء من الحظ بالحصول من زميل دراسة يعمل في شركة كيميائية على عمل جميل جداً وهو مرافقة زوار عرب مهمين للشركة أثناء تواجدهم في المانيا لإجراء مباحثات. حصلت مقابل خمسة أيام عمل، أكثر مما كنت أجنيه خلال شهر من الترجمة. وكنت أرتاد مع مدراء الشركة وضيوفهم أفضل المطاعم والمقاهي.

قد يعجب القراء العرب أنه رغم حيازتي على شهادات عالية كنت لا أخجل من الأعمال الصغيرة. كنت أنا أيضاً أكره كل عمل شاق جسدي، لكن رياح الغربة رمتني في مجتمع يقدس العمل، والمهاجر يتأقلم مع المجتمع الذي يحتضنه، وأنا الذي لم يعرف في عمره الدمشقي موعداً لباص، صرت بعد ثلاثة أشهر أذهب لموقف الباص في مدينتي الألمانية بكل دقة، لأن سائقي الباصات ينطلقون من محطاتهم، ولا يقفون لمن يلوح أو حتى يصل إلى المحطة ويضغط على زر الباب حتى ولو كان تأخره لم يتجاوز الثواني. ولا يساعدك رجاء أو غضب... خاصة وأن تأخرك هذا سيجر عليك تخلفاً في موعد، أو بدء عمل في شركة لا ترحم أي متأخر. ويتعلم الألماني منذ نعومة أظافره على الإستيقاظ باكراً (حوالى الساعة السادسة صباحاً، سواء كان الطفل في المدرسة أو رياض الأطفال)

Twitter: @ketab_n

لأن السفر إلى المدرسة يستغرق وقتاً لا بأس به خاصة في الشتاء، وكم كان منظر الأطفال يثير إعجابي عند صباح رمادي وفي جو قارس البرد (حتى عشرين تحت الصفر) وهم يسيرون باتجاه المدرسة. طبعاً يتذمرون من ذلك ككل أطفال العالم، لكن المجتمع يدربهم ولسنين على بدء اليوم باكراً وبجد وسعي. وسائق الباص يعرف ذلك ولا يتأخر دقيقة عن موعده.

الدقة أساس المجتمع الصناعي وهي باردة بلا شك، لكن لا غنى عنها إذا أراد الإنسان العصري أن تسير كل الأمور بسرعة من بريد وإنتاج ومواصلات كثيفة. عمل أي فرد هنا يمثل حلقة في سلسلة لا تُؤخَر أو تُعاق من الحلقة التي تسبقها ولا هي تؤخِر وتعيق الحلقة التي تليها. هكذا صارت الرسالة هنا لا تتحمل أكثر من نهار واحد بين مرسلها ومستقبلها، رغم أن المسافة التي تفصلهما تبلغ ٧٠٠كم.

لقد مارست هنا أعمالاً عديدة أثناء حياتي كطالب فقير، وكنت لقوتي البدنية أختار العمل الأصعب في مصانع الحديد، السيارات، الكيمياء، وفي ورشات البناء، إذ يبلغ الأجر هناك أضعاف ما يحصله الطلاب كخدم في المطاعم والمطابخ. رغم أني كنت أحياناً أضطر أيضاً للعمل كخادم في مطعم أو مقهى.

هذا العمل قدم لي هديتين كبيرتين:

الأولى: كنت أعيش بكفاية ودون أية فاقة ودون ترف، لكني تحررت بعمل يدي من العشيرة والدولة. وكم من مأساة عشتها عن قرب،

Twitter: @ketab_n

هدمت حياة طلاب أتوا على نفقة أهلهم الأغنياء أو دولتهم. كان البعض منهم يدرس ما يكرهه لأن أبيه قرر ذلك، وقد انتحر أحد السوريين بعد أسبوع من موت أبيه، وظل آخر يرسل لأهله في الأردن صوره بالمعطف الأبيض والسماعة الطبية قرب باب مستشفى، وهو الفاشل المتسكع في الشوارع. وترى طالب ببعثة من بلده لم يكن ليتجرأ على قول كلمة نقد لدولته، مع علمه الأكيد عبر الصحافة العالمية الحرة بكل ما يجري في بلده ويستحق النقد. عايشت أشخاصاً يتبجحون بثورجية تترك ماركس في منتصف الطريق، ويبدو لينين مقارنة بهم جباناً رجعياً. إلى أن يقرر شيخ العشيرة أن يزور ابنه المترف في المانيا. ينقلب الرجل في أسبوع قبل وصول والده إلى جبان رعديد. يمنع صديقته أو صديقاته من زيارته، يبعد كل الكتب الثورية واللوحات والمناشير من غرفته وتراه أنيقاً مرتباً وكأنه توأم لمن عرفته قبلاً. يأتي الوالد فترى صاحبنا، يقبّل يده، يذهب ليصلي معه في الجامع أو الكنيسة. ثم ماذا؟ يعود هذا الجبان إلى الوطن ليتزوج ابنة عمه أو عمته التي فرضها أبوه أو قررتها أمه الأرملة. وما الذي سيمثله هذا الشخص مهما عليت منزلته؟ مواطن؟ لا، أبداً، بل حرباء تغير ألوانها حسب ما يفرضه محيطها عليها.

كنت أصل بعد العمل منهكاً، لكني ما أن أستحم حتى أغسل التعب من جسمي وأعود قوياً لأتذكر آنذاك حكمة المثل الشعبي: إن قال لك شاب إنه جائع، صدقه، ولا تصدقه حين يقول لك إنه

Twitter: @ketab_n

تعب. وفي كل ليلة كنت أغمض عيني فخوراً باستقلالي. والشيء الغريب حقاً أني منذ تلك الفترة بدأت بحب أمي وأبي كما لم أحبهما من قبل في حياتي. كنت أقول لهم رأيي بكل شيء، دون وجل، وكانوا يقبلون قراراتي كلها بسرور أو امتعاض، لكنهم لم يتدخلوا في أي قرار اتخذته.

الثانية: هناك في المصانع والورشات، تعرفت على الشعب الألماني بكل شرائحه وطبقاته بدقة، ولم تقتصر معرفتي على شريحة المثقفين وأشباههم في الجامعة. هناك تعلمت اللغة الألمانية بمرونة ودقة لا يقدمها أي معهد. هناك تعلمت أن أشرح قضايانا للناس البسطاء، الذين لم يروا قبلها عربياً واحداً، ولم يسمعوا أننا شعب بحضارة أهدت العالم الكثير. وهذا يعود أيضاً لأن كل سفارات العربان لا تهتم بالثقافة، وتتصرف في أفضل الأحوال وكأنها مكتب سياحي أو شركة إستيراد وتصدير. وكم من مرة ألقيت محاضرات في المدن الألمانية الكبيرة، ولم أصادف هناك، رجلاً واحداً من سفارات بني يعرب، التي لا تبعد مئة متر عن قاعة المدينة المكتظة حتى آخر كرسي فيها بالمستمعين. على عكس تصرف سفارات أمريكا اللاتينية مثلاً، والتي تحضر بكاملها لمحاضرة أي كاتب أمريكي لاتيني.

كان جو العمل في الشركات والورشات صعباً للغاية لشرح أي شيء، لم نجلس في قاعة مؤتمر هادئة ومكيفة، بل كنا بين

Twitter: @ketab_n

الآلات، وتعلمت الإختصار والتركيز لتدخل الجملة بسرعة إلى رأس مستمعي، قبل أن يبتلع الضجيج نصفها. هناك تعلمت على بناء الجسور بين العامية الألمانية والفصحى. لذلك كان أول كتاب إشتريته بعد قاموسي السيء (ألماني - عربي) وكتاب «الأمير الصغير» السهل الممتنع كان قاموساً ألمانياً يعنى بجذور الكلمات واشتقاقاتها وأصلها التاريخي (Etymologie) وهنا وجدت مئات الكلمات ذات الأصل العربي، وكنت أشرحها للزملاء في الورشات والمصانع بشكل مرح فيضحكون، لأنهم فجأة وبدون أي تعب تعلموا كلمة عربية وهم يتناولون طعامهم أو يدخنون. مثل(Admiral) أمير البحر، (Arsenal) دار الصناعة، (Haschisch) حشيش، (Scheck) صك، (Kadi) قاضي، (Laute) العود، (Tarif) تعريفة، (Magazin) مخزن، (Safari) سفر، (Safran) الزعفران، (Sahara) الصحراء، (Tamarinde) تمر هندي، (Ziffer) صفر، (Kalif) خليفة المسلمين، (Algebra) الجبر، (Alkohol) الكحول وكثير من مفردات الدين الإسلامي وعلوم الفضاء والكيمياء والرياضيات.

في تلك المصانع وليس في قاعات الجامعة بدأت بعشق اللغة الألمانية، وتعلمت الحرص على بناء الجملة، ومخارج الكلمة ولفظها، بحيث تخلصت لغتي من كل الهفوات الصغيرة واللكنة الغريبة. وبذلك كنت أجبر المتحدثين معي أن يتكلموا لغة سليمة وليس «لغة طرزان» المشوهة، التي يستعملها الألمان عادة في الحديث مع العمال الأجانب، ظانين خطأ أن الأجنبي يسهل عليه فهم تلك اللغة، والعكس صحيح.

Twitter: @ketab_n

كانت هذه الأيام أقسى مدرسة لغوية لي، ولم أعجب بعدها عندما كنت أسمع أكاديمياً (طبيباً كان أم مهندساً) عربياً يعيش منذ ثلاثين سنة في المانيا، ومتى خرج الموضوع عن اختصاصه تراه يتكلم مثل طرزان.

تعلمت بعد استقالتي من الشركة ألا أترفع عن عمل يؤمن لي عيشي ويضمن لي إستمرارية عملي في موضوع واحد وهو الأدب، ما دام هذا العمل لا يهين كرامتي، ولا يشغل فكري لدقيقة واحدة بعد انتهائي منه. وهكذا عملت كموزع للبريد، خادم في مطعم، عامل في مصانع وورشات بناء عديدة، في مستودع للأنابيب ومستودع للأدوية، إلى ما هنالك من أعمال، ولم أخرج من أي هذه الأعمال لا أكثر ولا أقل شرفاً بل أكثر دراية بالحياة.

لكن العمل الأجمل كان كما ذكرت أعلاه، هو مرافقة وفد أو رجل أعمال كمترجم. كان العمل بحد ذاته يتطلب مرونة وخبرة لغوية عالية أملكها، وقد رافقت أحد العراقيين الأغنياء الذي ابتاع بالملايين أجهزة صناعية، وآخر سوري إشترى بمبالغ كبيرة أجهزة الكترونية. وكنت أرافق كل منهم طوال النهار ونفترق بعد العشاء المشترك مع مدراء الشركة في مطعم ما. ولم أدهش أن كلا رجلي الأعمال، السوري والعراقي، طلبا مني مرافقتهم إلى حانات الليل ومواخيرها، فرفضت بأدب وإصرار، لا تظاهراً مرائياً بالتدين ولا عفة لم أملكها مذ كنت في الخامسة عشرة من عمري، بل احتراماً

Twitter: @ketab_n

للمرأة. قلت لكل منهما: «هناك لا تحتاج ترجمتي، فدولاراتك تتكلم. لغة مفهومة من بلاد الأسكيمو وحتى جنوب إفريقيا»، وتقبل الرجلان ذلك.

تطلبت ترجمة المفاوضات صبراً، فرجال الأعمال العرب تجار، على الأغلب لا يعرفون أية تفاصيل للأجهزة التي يريدون شراءها، وكل ما هناك كانت مفاوضات دقيقة عن السعر وشروط الدفع والشحن والتأمين. لا تكفي الترجمة الحرفية لما يقال، فغالباً ما تأتي جملة معترضة مهمة جداً على شكل مثل شعبي أو حكمة. والعرب يستعملون بطلاقة وكثافة الأمثال الشعبية التي لا يصح ترجمتها حرفياً، فعندما يقول العراقي: «بابا، آغاتي، كل له: راح الآكو والماكو» ومثلها «راح الخيط والعصفور» فمعنى ذلك باللهجة العراقية (البغدادية) هو خسارة كل شيء. أو أن يقول للتأكيد على شدة العداء بين شخصين أو شركتين: «بابا، صار بينهم كسر عظام» أو يقول فجأة: «ضرطة تايهة بسوك الصفافير» وهو سوق النحاسين (النحاس بعامية بغداد صفر) وهذا السوق يقع كما أخبرني التاجر العراقي في محلة باب الآغا، في رصافة بغداد. ويتميز هذا السوق كسوق النحاسين في دمشق بكثرة الضجيج، من أصوات المطارق الكبيرة والصغيرة على الأواني النحاسية، وتكاد تصم الآذان. وهناك لا يمكن أن تُسمَع ضرطة، فقالوا هذا المثل وله معنيان: عن الأمر المشين لا يعرف فاعله، وثانياً لوصف توافه الأمور، التي لا تهم أحد.

Twitter: @ketab_n

أو أن يقول التاجر السوري: «والله ما عاد نعرف راسنا من دك البستان» ليدل على تشوش أفكاره. أو أن يقول: «الجنازة حامية والميت كلب» ليدل على تفاهة يعمل الآخرون قيمة لها. وشبيه بها مقولة: «بيعمل من الزبيبة خمارة» أي يبالغ بكل شيء. أو أن يقول لمفاوضه من الشركة الألمانية: «شو أخي، جِدي بدو يلعب بعقل تيس؟» ويريد من مثله أن يقول للألماني (الجدي) ألا يحاول أن يلعب عليه فهو (تيس) خبير ومثل ذلك تأكيد الدمشقي أنه «مُقَلِعْ أسنانه في مسألة ما» أي أنه خبير عركه الدهر. فعلى الترجمان أن يفتش بسرعة عن كلمات تعطي المعنى بدقة، دون التقيد بالمثل كلمة فكلمة.

كانت هذه الأعمال تدر عليّ أجراً محترماً، لكنها كانت لا تحرك في أعماق نفسي أي شعور. لكن في يوم من الأيام دعيت إلى مستشفى العظمية بالقرب من مدينتي، فهناك، كما حدثني رئيس قسم الجراحة العظمية، إمرأة عربية ترفض منذ يومين أن تتناول أي طعام، ولا تكف عن الصراخ في وجه كل من يدخل غرفتها. أسرعت للمستشفى.

كان العمل صعباً ومهدداً بالفشل في كل لحظة. لم تكف الترجمة وحدها. كان عليّ مد الجسور بين إنسانة مسلمة محافظة، ومن عشيرة تسود بلدها، ولذلك كانت هناك تأمر فيهرع الخدم، ولم تستطع، وهي لأول مرة في أوروبا، أن تفهم أن أصغر ممرض هنا يُحْتَرَم وله حقوق وسلطة أكثر من سلطتها وحقوقها كمريضة غريبة.

Twitter: @ketab_n

وعلى الجانب الآخر جراح ليبرالي لا يعتقد حتى بدينه المسيحي، وكل همه النجاح في عملية معقدة جداً، ويواجه مشكلة ثقافية لم يدرسها في الجامعة.

المرأة أصيبت بكسور من جراء حادث في الصحراء وهي زوجة وزير، وأنا أعجب اليوم عند كتابة هذه السطور، بعد حوالى ثلاثين سنة، لماذا تركها زوجها دون أية مساعدة. أخبر المستشفى ببرقية أن شركة التأمين العالمية تتحمل سائر النفقات، ودعمت هذه الشركة قول الوزير بتأكيدها خطياً، أنها تتحمل كل تكاليف هذه العملية.

رفضت المرأة كل طعام، لأنها خشيت أن يحتوي لحم خنزير أو أن تكون الصحون والملاعق والسكاكين قد لمست لحم خنزير. لم يفهم البروفسور الجراح ما ترجمته أنا له، ولم يفهم أن المرأة لا تريد أن يمسها ممرض. شرحت له خلفية الأمور وكان الحظ حليفي فخلال دقائق، وبعد أن تكلم الطبيب مع قسم العاملين، حضرت ثلاث ممرضات إندونيسيات مسلمات كن يعملن في أقسام مختلفة من المستشفى ووكلهم الطبيب بالعناية المستمرة بالمرأة وفعلاً ما أن مضت ساعة حتى أكلت المريضة العربية ما طبخته إحدى ممرضاتها بشهية. وبعد أيام عادت النضارة لتكسو وجه المرأة الجميل.

رافقتها أسبوعاً، ولا زلت حتى اليوم أذكر لحظة الوداع المؤثرة. شكرتني المرأة بكل أدب. أثناء الحديث القصير قالت لي: «صلِّ على النبي»، فأجبتها كما يجيب كل مسيحي أو يهودي على هكذا دعوة من إنسان مسلم: «اللهم صلِّ على كل الأنبياء». فهمت المرأة

Twitter: @ketab_n

الذكية، أني لست مسلماً. سألتني بشيء من التعجب وببراءة طفلة إذ إنها لم تصادف مسيحي في بلدها: «أنت من الكفار؟».

قلت لها ضاحكاً: «لا ياسيدتي، إنما أخذ أجدادي طريقاً آخر للوصول إليه، جل جلاله»، ضحكت بدهشة ومدت يدها لتصافحني مودعة. وبعد شهر عادت إلى بلدها وقد تعافت.

مضت عشر سنوات على وداعي للمرأة وسنة ونصف على استقالتي لأتفرغ للأدب، حين تلفن لي كلاوس شميت، أحد زملاء الدراسة الجامعية. كنا نسكن نفس الطابق في بيت الطلبة الجامعيين، ونذهب سوية كل صباح. وكان معهد الطب، حيث كان يقوم كلاوس بأبحاث عن جراحة القلب، لا يبعد أكثر من مائة متر عن معهد الكيمياء، حيث كنت أحضّر أطروحة الدكتوراه. وكانت علاقتنا أثناء الدراسة علاقة زميلين لا أكثر.

كان كلاوس رجلاً ألمانياً خجولاً ينزع للوحدة. وكان الوحيد بين سكان طابقنا دون صديقة. دعوته عدة مرات إلى أمسية من الأمسيات الأدبية التي نظمتها للطلبة، وكنت أحكي لهم في تلك الأمسيات عن حياتنا في دمشق وعن القضية الفلسطينية. ولم يتجاوز عدد الحضور آنذاك عشرين شخصاً. لكن هؤلاء العشرين كانوا أكثر عدداً من جمهور السفارات العربية بكاملها في عشرين سنة. فالسفارات لم تقم آنذاك بأي نشاط ثقافي يذكر، اللهم إلا بإزعاج الطلبة العرب التابعين لها. وهذا أيضاً ثقافة!

في إحدى تلك الأمسيات أتى كلاوس، وصارحني أنها سهرته

Twitter: @ketab_n

الأدبية الأولى، فهو لا يقرأ منذ نيله الشهادة الثانوية (البكالوريا) إلا كتب الطب. في تلك الليلة رويت للحاضرين بعض القصص العجائبية من قريتي الآرامية معلولا. وكانت إحدى القصص حزينة ومؤثرة، فبكت طالبة فلسفة جلست بجواره. واساها ودعاها بعد الأمسية لمقهى وعشقها وعشقته. بعد سنتين دعاني، دون الآخرين، لحفلة زفافه حيث ألقى خطاباً قصيراً قال فيه للحاضرين إني جمعت قلبيهما بقصة.

حدثني على الهاتف، روى لي أنه يدير قسم جراحة القلب في مستشفى الجامعة، وأن مريضاً غريب الأطوار يحتاج لعلاج قد يستمر لشهرين، وهو أمير دولة صغيرة في الخليج العربي. ورجاني أن أساعده. سألته عما يعنيه بـ«غريب الأطوار»؟!

ضحك الزميل: «طلب من مساعدي أن يحضر له سميراً يؤانسه. أنا لم أهتم بالمسألة أولاً، لكن عندما أخبرني مساعدي أن الأمير طرد ثلاثة أكاديميين عرب، بعد أن مكث كل منهم عدة ساعات عنده، وعاد ليطلب عربياً آخر. يئس مساعدي ولذلك أطلعني على الأمر قائلاً: «نحن جراحو قلب ولسنا ملهى أو مسرح». فقلت له: لكن راحة الأمير شرط من شروط تحسن حاله. وطمأنته قائلا، إني أعرف رجلاً كفؤا لهكذا مهمة صعبة، وقد حصلت على رقم هاتفك من أحد أصدقائنا المشتركين. لماذا غادرت هايدلبرغ دون أن تخبرني؟ هل اشتريت بيتاً أفضل؟».

Twitter: @ketab_n

نظرت حولي وضحكت: «بالطبع فمثل هذه الفيللا التي أسكنها هنا على السطح لا مثيل لها في هايدلبرغ»، صدقني وبارك لي من كل قلبه، رجوته المعذرة لهذه الكذبة، وشرحت له وضعي المادي العسير، فتأثر ثم أردف قائلاً: «أنا متأكد أنك ستنجح لكنك تناطح الصخر بإصرارك أن تكتب أدباً باللغة الألمانية، فستلاقي عداء أكثر بكثير مما لو كتبت بالعربية، وترجم آخر أعمالك. فأنت ساعتها لا تنافس الكتّاب الألمان في عقر دارهم».

لا زلت حتى اليوم أعجب لأمر هذا الطبيب الذكي كيف تنبأ بما لا يدريه. فهو، كما أسلفت، منغمس حتى أذنيه في أدبيات الطب ولا يقرأ رواية. كان محقاً وقد لمس الجرح فأحببت تغيير الموضوع: «وما الذي يعرضه هذا الحاكم لأزيل همه؟» سألته وتعمدت أن تكون لهجتي مرحة.

«هل تكفي ٥٠٠ مارك في اليوم؟» ظننته يمزح، لكنه كان جاداً. وافقت شاكراً لفتته الكريمة. جلست مع ورقة وقلم أحسب وأطرح وأجمع عدد الأيام اللازمة لأفي ديوني، وكنت قد أقسمت أن أدفعها كاملة، لأني كنت ولا زلت أحتقر من يتلقى مساعدة، ويتناسى بعد فرجه رد الجميل، أو على الأقل دفع ديونه.

توجهت في صباح يوم صيفي إلى المستشفى، وتوقعت الكثير ولكني لم أتوقع أن هذا اللقاء سيكون يوماً موضوع كتاب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

اللقاء

رافقني زميلي، رئيس قسم جراحة القلب بعد الترحيب بي إلى جناح المرضى الأغنياء وهو جناح جميل بغرف كبيرة، تطل نوافذها على حدائق المستشفى.

طرق الباب ودخل محيياً الرجل العربي الراقد في فراشه بالإنكليزية قائلاً وهو يضحك: «إن لم يرضك رفيق لا يبقى لدينا سوى إحياء شهرزاد» إلتفت الرجل إليّ بوجه جميل دقيق الملامح يشبه وجه أبناء الهند، وحياني بالعربية الفصحى مرحباً بي. صافحته وكانت يده نحيلة كيد الأطفال.

«تفضل»، قال لي وأشار إلى كرسي، وودع الطبيب. إلتفت هذا إليّ، عندما مر بجانبي في طريقه إلى باب الغرفة، وهمس بجد: «إن ألقى بك خارج غرفته سأطرده من المستشفى، وليذهب للشيطان ليؤنسه ويداوي قلبه». قالها وموه كلماته الألمانية بابتسامة لطيفة.

حملت الكرسي إلى مقربة من سرير الرجل وجلست صامتاً. لم أدر كيف أبدأ حديثاً مع أمير. صمت هو أيضاً، وطال صمتنا حتى خلته دهراً. تذكرت دورة تدريبية قاسية في شركة الأدوية، كان

Twitter: @ketab_n

هدفها تدريبنا على أفضل الطرق للقيام بالحوار البنّاء، الذي يصل إلى الهدف الذي بُدِءَ لأجله، دون أن يتحلحل بثرثرة أو يتصلب كالجبس، ولا يتقدم بعدها خطوة واحدة. ومن تلك القواعد التي تعلمتها، أن الصمت والسيطرة على الأعصاب في بداية حوار يعتبر قوة. إبتسم قائلاً: «هل تعرف المثل القائل: الصديق هو من تستطيع الحديث والصمت معه؟».

لم أسمع بهكذا قول.

«لا أحب الثرثارين»، قالها بصوت منخفض وكأنه يتحدث لنفسه. لم يحمل صوته أي عجرفة أو كبرياء. تنفست الصعداء. حدثني عن نفسه. الأمير حكيم بن عقلان حاكم إمارة صغيرة في الخليج. لم أصدق أن حاكماً يأتي بمفرده للعلاج دون مرافقيه وحراسه. لقد ترجمت قبل سنين لأمير سعودي، كان يود شراء قصر قرب فرانكفورت وكان برفقته ستة رجال، وكأنهم أبناء غوريلا. كانوا يفتشونني كل صباح، وكادوا، في أحد المرات، يكسرون أضلاع أحد العاملين في الفندق الذي حل الأمير فيه، عندما تعثر المسكين، وهو يحاول تجاوزنا على الدرج، ورمى عن غير عمد الأمير أرضاً ليسقط أيضاً إلى جانبه، وبدل مساعدة المسكين إنقضّ إثنان منهم عليه، بينما تولى الأربعة الآخرين حماية الأمير. لوى أحدهم بسرعة البرق ساعد الرجل، وداس الثاني بقدمه على ظهره، فصار المسكين يولول حتى تدخل مدير الفندق، ورجا الرجلين أن يتركا الخادم البريء.

Twitter: @ketab_n

علمت فيما بعد أن هذا الأمير يحيط بنفسه بأحفاد الغوريلا هؤلاء ليزيد من أبهته، فهو كما يعلم السعوديون، يُعتَبَر، كما نقول في الشام، صفر على الشمال (أي لا قيمة له) في العائلة السعودية الحاكمة.

إبتسم الأمير حكيم، لا ليست المسألة جرأة، فهو وإمارته أصغر من أن يهم أحد. كل سكان الإمارة أقل من سكان مدينة في المانيا، قالها ضاحكاً. كان الأمير مجبراً على البقاء لمدة تزيد عن الشهرين، فإلى جانب عمليتين للقلب كان عليه أن يعيد تجبير ساقه، الذي جبر قبل عام، بعد حادث في رحلة صيد، بطريقة خاطئة.

«وكما ترى فإني أتيت لألمانيا ليصلحوا لي موتور ودواليب سيارتي لأصبح بعدها صالحاً للعشق والطرقات، فكيف تريد أن تعشق بقلب يطرق خطأ ويغمى عليه بعد كل قبلة»؟

«حسنا، هنا في المانيا تفحص السيارات كل سنتين لتتأكد مصلحة السير إن كانت السيارة لا تزال صالحة للطرقات. فيا أهلاً وسهلاً بك كل سنتين. لأني بك سأقبر فقري».

ضحك لأول مرة بصوت عال: «فال الله ولا فالك، يا رجل. أنا أكره المستشفيات وكل خوفي أن تكون جهنم مستشفى، فكل ما عدا ذلك مقبول».

سألني عن حياتي فأجبته باختصار برقية، كان يصغي بهدوء حتى يكاد المرء يظنه شارد الأفكار، ولكنه كان فجأة يسأل عن تفاصيل، يلمح لتناقض بين ما سمعه الآن وقبل دقائق، يسأل، يسمع الجواب ويعود إلى سكينته.

Twitter: @ketab_n

الأمر الذي أدهشني أن الأمير لم يستغرب قراري بمهاجرة الوظيفة العالية لأمارس مهنة الكاتب الأديب. لكنه سألني وكرر السؤال عن سبب بقائي في المهجر. كان عليّ أن أختار بين جواب دبلوماسي وآخر صريح. قررت أن أقول الحقيقة رغم تخوفي أن ذلك سيكون سبب طردي من هذا العمل المغري. قلت له: الحكومات العربية بأكملها تتعمد مضايقة المثقفين والأكاديميين ليهاجروا وتنفرد بالسيطرة على شعب أعزل ١٠٠٪. وليس صدفة أن يكون عرب طردوا وهم لا يحملون سوى حقيبة هزيلة عتيقة ونار متأججة في قلوبهم وتبوأوا في أوروبا أو أمريكا أعلى المراكز، وأن الأطباء السوريين في المانيا مثلاً يشكلون أكبر مجموعة غير ألمانية بين الأطباء. وهم على الأغلب محترمين من مرضاهم وزملائهم.

إنتفض في سريره غاضباً، جادلني لأكثر من ساعة، وكان في رأيه الكثير من الصواب، لكنه في بعض نواحيه يبرر تصرف الحكام ويخفف مسؤوليتهم، لأنهم حسب قوله لم يهبطوا من السماء، بل هم نتيجة وضع مرضي في المجتمع العربي برمته. كما أكد أن بعض الحكام ليسوا سوى دمى في يد الروس أو الإنكليز أو الفرنسيين أو الأمريكيين. لم أقبل هذا التعميم رغم قناعتي أن للقبيلة أثر مرضي في كل نفس عربية وللغرب أهدافه في سرقة كل خيراتنا، لكن أن يهبط مستوى الحكام العرب إلى هذه الدرجة من التخلف، فهذا يعود إليهم وإليهم فقط، ولا مجال لتحميل أمريكا وروسيا وبلاد الواق واق المسؤولية. وكأننا جميعاً دمى لا إرادة لها.

Twitter: @ketab_n

صَمَتَ لفترة وصَمَتُّ خجلاً لأني شعرت أني أخطأت، فأنا أثيره بدل أن أساهم في الترويح عن نفسه. إبتسم وقال بهدوء غريب: «العراك الفكري جميل معك، خاصة عندما تغضب ولا تجد منفذاً، فيرتفع صوتك لتعوض بذلك ثغرة الدلائل».

«وأنت أغرب أمير صادفته في حياتي. تدفع لي أجراً لكي أنتقدك وأعكر مزاجك بدل أن أوفر لك الهدوء».

«هدوء؟» صاح مستغرباً: «في القبر هدوء للأبد».

تنفست الصعداء.

كان الأمير حكيم بن عقلان ضليع بالأدب ويمتلك ذاكرة قوية وشعرت بسرور كبير وأنا أصغي لما يرويه من الشعر القديم والحديث. كان لا يردد القصائد هكذا ظهراً عن قلب، بل يتذوق كل كلمة وكأنها حلوى. كان نقاشنا في الأيام التالية يقفز من قصيدة لقصيدة، يتوقف عند حقبة، يزيد معرفة كل منا بما يعلمه الآخر. وكان رأيي في بعض القضايا شديد الشبه برأيه، مثلاً في تقدير جهود المفكر الكبير طه حسين في مسألة الشعر الجاهلي، خاصة في فرضية نشوء هذا الشعر ليس في الجاهلية بل بعد ظهور النبي العربي، الذي وحد لغة العرب على لهجة قريش، بينما لم يكن هناك قبل ذلك إلا لهجات إختلفت من موقع جغرافي لآخر ومن قبيلة لأخرى ولذا لا يمكن بحكم المنطق أن يقول كل من عنترة بن شداد وامرئ القيس وطرفة بن العبد ولبيد والحارث بن حلزة وزهير ابن أبي سلمى شعره بنفس اللغة وكل منهم كان يتكلم لهجة قبيلته.

Twitter: @ketab_n

وقد يكون كل منهم قد نظم الشعر وقد يكون أيضاً شاعر قبيلته لكنه أبداً لم ينظم شعره على هذه القوافي الفصحى وبهذه المفردات كما تعرّفنا عليها باسم المعلقات.

وكنا نختلف إلى حد التضاد في تقديرنا لشاعر ما، فالأمير يعشق المتنبي وأنا أكرهه، لأنه كان إنساناً دون أخلاق. وكنت كأغلب التلاميذ العرب قد حفظت الكثير من عبقريات المتنبي. لكن في مرحلة حياتي الطلابية تعرفت على أوجه أخلاقية تعيسة لهذا الشاعر الكبير، فقرفت نفسي من كل بهلوانياته اللغوية. فلم أر فيه سوى مربي لأجيال تلت من شعراء أقل موهبة منه، لزموا البلاط وخانوا شعوبهم. تأثرت آنذاك بدراسة رائعة لطه حسين عن المتنبي يبين فيها كيف تنقل هذا الشاعر من موقف لموقف كتاجر صغير النفس عبقري اللغة. فهو الذي بدأ ثائراً قرمطياً رافضاً لكل شيء إلا عربيته، صار يهجو القرامطة ويتمسح بالحمدانيين، ليؤثر بعدها رفقة إبن العميد وعضد الدولة على صديقه سيف الدولة الحمداني، وليتجول من بلاط إلى آخر لا يأبه إلا بما يُدفَع له من أجر، فيمدح علي بن صالح الروذباري والي دمشق، وإبن رائق في بغداد (وهو قائد عسكري سيجرم بحق عبقري الخط إبن مقلة كما سنرى في فصل إبن مقلة)، ثم كافور الإخشيدي عدو سيف الدولة الحمداني اللدود في مصر ليتذلف بقصيدة طويلة غبية يقول فيها:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
فـإنـي أغـنـي مـنـذ حـيـن وتـشـرب

Twitter: @ketab_n

إذا لـم تـنـط بـي ضـيـعـة أو ولايـة
فـجـودك يـكـسـوني وشـغـلـك يـسـلـب

لينقلب عليه، عندما رفض كافور أن يوليه ليس فقط على ولاية أو ضيعة، بل على زريبة حمير، بعنصرية قصيدته الشهيرة:

لا تـشـتـرِ الـعـبـد إلا والـعـصـا مـعـه
إن الـعـبـيـد لأنـجـاس مـنـاكـيـد[1]

وأنا أقدر أبا العلاء المعري كأحد الشعراء الفلاسفة القلائل في العالم وهو لا يطيق تشاؤمه ورفضه للملذات ولترف العيش. وظللنا نناقش لساعات دور اللغة بشكلها الجمالي ومحتواها الإنساني، وكان هو على حق في حكمه على أديب أو شاعر ما، بمقاييس صارمة لما ينجزه، وفصل تام بين خلقه ومُنْجَزه. أي أن قصيدة، رواية، مسرحية أو مقال تستحق المديح، إن كانت جيدة، حتى ولو كتبها سفاح أو انتهازي. بينما غلب على حكمي فكرة (كان يسميها هازئاً أيدولوجية) العمل الفني كجزء لا يتجزأ من وعي مُنتِجه. أقول الآن، بعد ثلاثين سنة، معه الحق بعد أن راجعت السير الذاتية لأكثر من مائة كاتب عالمي وعربي. بعضهم كان بلا شك عظيم النفس كريم الأخلاق، رقيق القلب عفيف النفس، لكن كل ما كتبه

---

(١) حسين، طه، مع المتنبي، دار المعارف، القاهرة ١٩٣٧، ص٣٧٢ ـ ٣٧٣. أنظر أيضاً ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠، ص١٣٩ ـ ١٤٢.

Twitter: @ketab_n

هش لم يصمد أمام الزمن، بينما أنتج سكير عربيد، محتال وعديم أخلاق روايات أو قصائد هزت الإنسانية، وهذا يسري على فن الموسيقى والرسم والنحت أيضاً. ما يبقى للإنسانية هو الأساسي وليس تصرف الفنان الشخصي. لكن الحديث عن المحتوى رغم أهميته لم يحمل ثماراً رائعة كذلك الحديث عن جمال اللغة لفظاً وشكلاً، كما سأسرد بعد قليل.

نجحت العملية الأولى وهي العملية الأخطر. وظل حكيم في قسم العناية المشددة، ولم يُسمَح لي أن أراه لأكثر من دقائق في كل نهار. فالعملية كانت معقدة وأي التهاب أو تردي كان سيؤدي للموت. وحرصاً على عدم القيام بأية هفوة، أقنعني زميلي مدير القسم، أن أستغني عن زيارته لثلاثة أو أربعة أيام. عدت إلى البيت وشعرت بوحدة غريبة. فجأة شعرت بخوف شديد، لأن الطبيب لمح لي عندما سألته في اليوم الثاني للعملية على الهاتف عن صحة الأمير، أن هناك بعض المضاعفات التي ظهرت فجأة وأنهم يسعون، بكل ما لديهم، لإنقاذ حياته. وقد حدثني صديق لي أن عمليات القلب وإن نجحت في غرفة العمليات، فهي تظل عرضة لتطورات مفاجئة سلبية قد تودي بحياة المريض بعد أن تطمئن أهله على صحته. لم أستطع النوم في تلك الليلة. ما الذي يدفعنا أن نحب غريباً أكثر من إخوة لنا من دمنا ولحمنا؟

مرت الأزمة على خير وأعيد الأمير إلى جناحه وعدت لزيارته والحوار معه. كنت أتركه في فترة الظهيرة ليأخذ قسطاً من الراحة.

Twitter: @ketab_n

وأغادر المستشفى إلى مقهى هادئ على شاطئ نهر، أكتب فيه ملاحظاتي وأفكار خطرت لي أثناء الحديث معه.

وفي يوم من الأيام تحاورنا عن وقع اللغة على الأذن عبر نظم وزنها ولفظها الذي يصل في الشعر العربي إلى قمة من قمم الإبداع الصوتي (وأحياناً الموسيقي) بغض النظر عن المحتوى. تحدثنا طويلاً عن ضياع تلك الموسيقى في الشعر الحديث كثمن لحرية رائعة، تحرر الشاعر من القافية التي كبلت لسانه لقرون. وأورد الأمير أمثلة من الشعر القديم فارغة المحتوى، رنانة، طنانة.

كان حكيم أول من نبهني إلى أن اللغة العربية تعنى كثيراً بأناقة اللفظ ووقعه على الأذن، فالشعر كان في الماضي يُنشَد ولا يُقرَأ، ولذلك حرص الشعراء على رنين ووزن كلماته الموسيقية.

في فرصة الظهر أسرعت إلى غرفتي الصغيرة وأخذت للأمير كتاباً عن الخط العربي صدر في لندن، هدية صغيرة وجميلة ليسلي بها نفسه، خاصة وأن إنكليزيته متينة وهو الذي درس لأكثر من ١٢ سنة في لندن ولم يحب ضبابها.

سر حكيم أيما سرور بهذا الكتاب الجميل قلباً وقالباً. ولا زلت أذكر حديثنا عن جمالية الخط العربي وكيف تصفح الأمير الكتاب بين الفينة والأخرى وكيف أشرق وجهه كطفل سعيد عند بعض اللوحات الفنية. فجأة وضع الكتاب جانباً وصمت تاركاً نظره يسرح عبر النافذة في أرجاء الحديقة.

«أليس من الغريب أن يطارد العرب كل أنبيائهم ويحاربونهم بينما

Twitter: @ketab_n

يعشقهم الغرباء. كم واجه النبي صلى الله عليه وسلم من عداوة، وكم قاتله أبناء مدينته بدل أن يفخروا به، وهو من لحمهم ودمهم. ألم ينكر أتباع موسى نبيهم عندما غادرهم كليم الله لأيام ليعبدوا العجل، ألم يصلب اليهود، حسب إيمانكم، المسيح عليه السلام وهو الذي كان يناديهم بالمحبة، لا بل كان يسامحهم وهم يعذبوه. ألم يُقتل الحلاج؟ ألم يُعانِ العالم الجليل سفيان الثوري ألم الذل والملاحقة من المنصور وابنه المهدي؟ ألم يساق أبو حنيفة مكبلاً كمجرم في عصر المأمون؟ وهو من أكبر العلماء ويجلد هذا العالم العفيف بوحشية سادية في حضور المعتصم الذي خلف المأمون؟ ألم تقطع أصابع إبن المقفع وأعضاؤه بإمرة من الخليفة المنصور ويقتل شر قتلة وهو المفكر والمترجم الكبير وكأنه لص؟ ألم يسجن ويحاكم ويقتل لسان الدين بن الخطيب العالم والطبيب الموسوعي الأندلسي صاحب الموشح الرائع «جادك الغيث إذا الغيث هما»[1]. كان رحمه الله صديقاً ودوداً ومخلصاً للمؤرخ العبقري إبن خلدون ولكثير من المفكرين والشعراء. تقلد الوزارة في الأندلس والمغرب. وقتله الأوغاد ومثلوا بجثته[2] هكذا يكافأ واحد من أكبر علماء العرب

---

(١) ومع صباح فخري أو مع ألحان الرحبانيين وصوت فيروز سيظل لسان الدين ابن الخطيب في قلب ملايين العرب بينما اندثر أعداؤه كالرماد لا وجه ولا ذكر لهم.

(٢) فيما بعد وجدت وصف هذه الجريمة الشنعاء بحق أحد أكبر مفكري التاريخ العربي. وهناك عدة مراجع تتحدث عن محنة لسان الدين بن =

Twitter: @ketab_n

= الخطيب (الإستقصاء للناصري ونفح الطيب للمقري) لكن أفضلها وأدقها يظل وصف إبن خلدون لموتة صديقه الشنيعة. أنظر تاريخ إبن خلدون (العبر في ديوان المبتدأ والخبر...)، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ج٧، ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.

«ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين وسبعمائة واستقل بسلطانه والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه، وسليمان بن داود رديف له، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزير لملك الأندلس. فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه، فلما استولى السلطان على البلد الجديد أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه فقبضوا عليه وأودعوه السجن، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد تابع السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس، حتى أعاده الله إلى ملكه. فلما استقر إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان. فصده الوزير ابن الخطيب بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من آل عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة، فرجع سليمان يائساً وحقد ذلك لابن الخطيب. ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات يَنْفِثُ كل منهما لصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما. وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن زمرك، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في=

Twitter: @ketab_n

ويموت كمجرم حرب ذنبه أنه ألف ما يزيد عن ستين مؤلفاً في خلاصة الفكر والتاريخ والطب.

ألم يدع العبقري إبن الهيثم الجنون لينقذ نفسه من انتقام الحاكم بأمر الله؟(١) ألم يسجن العالم الموسوعي إبن الجوزي وهو شيخ

= مجلس الخاصة وأهل الشورى، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه، فعظم عليه النكرير فيها، فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ثم تل إلى محبسه وتشاوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلا ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقاً قي محبسه، وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على شأفة قبره طريحاً وقد جمعت له أعواد وأضرمت عليه ناراً فاحترق شعره واسود بشره، وأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته».

(١) ولهذا قصة طريفة أن العالم العبقري إبن الهيثم قال يوماً في بغداد: «لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملاً يحصل النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان». لما سمع حاكم مصر الفاطمي الحاكم بأمر الله ذلك دعا إبن الهيثم وأغراه بمكافأة عظيمة ليحل مشكلة فيضان النيل واستقبله بتبجيل مبالغ. ولما فحص إبن الهيثم مجرى النيل وتبين له أن منع الفيضانات شيء يقارب المستحيل ولما شعر أن الحاكم بأمر الله سيقتله كما قتل الكثيرين، ممن خيبوا أمله أو خالفوه، إدعى ببراعة الجنون، فلم يصدقه الحاكم بأمر الله وأمر بتكبيله ومراقبته. وظل إبن الهيثم يلعب دور المجنون ببراعة فائقة حتى مات الحاكم بأمر الله عام ١٠٢١ (يقال إن أخته كانت وراء اغتياله واختفاء جثته). فعاد عقله إليه وأكمل أبحاثه وكتاباته.

Twitter: @ketab_n

في الثمانين من عمره؟» تساءل الأمير ولم ينتظر إجابتي بل أكمل سرده: «وما الذي جناه العبقري إبن مقلة ليعذب ويموت موتة الكلاب؟ وهنا في هذا الكتاب يفرد له كاتب إنجليزي صفحتين كاملتين. لقد أعجبت بابن مقلة منذ شبابي حيث تعلمت الخط على يد شيخ جليل يقدر فضل هذا العبقري على لغتنا وثقافتنا. ولم أجد بالعربية عشر صفحات عادلة بحق مهندس الحروف الأكبر. كل ما وجدته يجتر ببلادة ما قيل منذ القدم كذباً».

جمدت المفاجأة لساني. لاحظ دهشتي، قلت له: «أليس من الغريب أن يجمعنا، دون رياء، إحترام عميق وجريح لفنان عظيم غدر أهل زمانه به؟ لقد كتبت قبل سنتين مقالة عن العبقري إبن مقلة للألمان، ولم تهم مقالتي أي عربي».

«أنت؟ كتبت عن إبن مقلة؟ للألمان؟».

«نعم، يا سيدي، أردت من جهة رد اعتبار هذا العبقري في مواجهة المؤرخين الكاذبين، ومن جهة أخرى كنت بهذا المقال أكمل الجسر الذي ما كللت وأنا أبنيه بين الحضارة العربية وأختها الألمانية. أردت أن أوضح للألمان في زمن سيء لا يذكر فيه العربي إلا كرديف للبترول، للإرهاب والتعصب والحرب، أننا أبناء ثقافة كبيرة تمتلك، إلى جانب الظلام، وككل ثقافة، أوجه جميلة نيرة. وقد عجبت لهذا الكم من التزوير الذي مني به هذا العبقري، وظل يلاحقه حتى بعد مماته: هذا يؤكد فرضيتك عن معاداتنا لكل جميل يبرز بين صفوفنا».

Twitter: @ketab_n

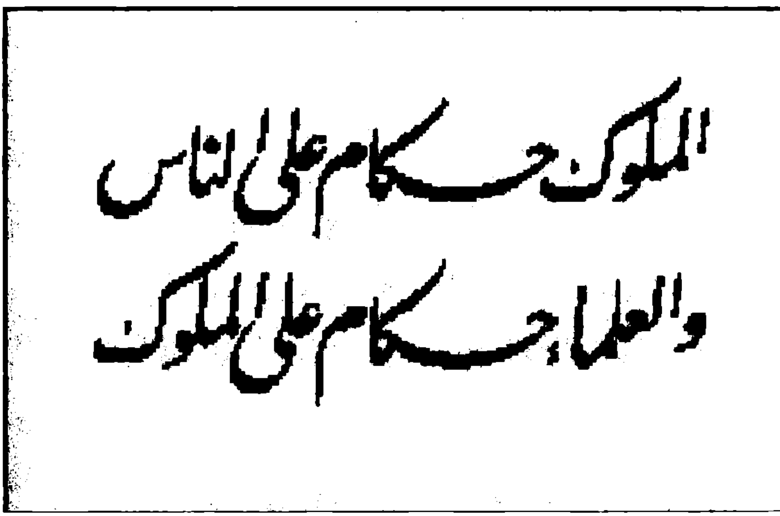
«وهل يمكن لك أن تترجم لي المقال؟».

«بكل سرور».

«ومتى؟».

«هذه الليلة فهو قصير؟».

أسرعت إلى غرفتي لأترجم للأمير ما كتبته عن إبن مقلة.



Twitter: @ketab_n

ابن مقلة وسره الدفين

محاولة لإعادة الاعتبار لعبقري عربي ظلمه مزوّرو التاريخ

«قال ابن الزنجي: أصلح الخطوط وأجمعها لأكثر الشروط ما عليه أصحابنا في العراق، فقيل له: ما تقول في خط ابن مقلة؟

قال: ذاك نبي فيه، أفرغ الخط في يده كما أوحى إلى النحل في تسديس بيوته».

أبو حيان التوحيدي في رسالته «علم الكتابة»[(1)].

الخط العربي هو الفن الأكبر شأناً في ماضينا وحاضرنا. ولو سألت أي عربي هل هناك تمثال واحد لابن مقلة أو ابن البواب أو على الأقل لياقوت المستعصمي في بلدك؟ هل تطلقون اسم أحدهم على جامعة أو معهد ما؟ أم تحمل أكبر ساحاتكم على

(١) ثلاث رسائل لأبي حيانٰ التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١، ص٣٧.

Twitter: @ketab_n

الأقل اسم ابن مقلة؟ ولا حتى شارع؟ ولا زقاق؟ ولا حتى حارة مسدودة؟

الجواب بالنفي يفاجئ حقاً إذا نظرنا إلى الاسماء التي تطلق على أحيائنا ومعاهدنا. هل يعني ذلك أننا لا نعي قيمة هؤلاء العباقرة الذين أفنوا العمر وهم يربون شتلة الأحرف العربية لتنمو إلى زهور ورياحين للعين. عندما تصفحت تاريخ العديد من رواد الخط لم أجد واحداً أصابه من الذل والتعذيب والتنكيل مثلما أصاب سيدهم ورائد الخط الأول بلا منازع ابن مقلة.

لا شك أن قطع يده ولسانه ببربرية كانت في حينه إحدى بوادر الانحطاط التي أصابت منذ زمن رأس الخلافة وعشعشت في كل أعضاء جسم الدولة ولتؤول شيئاً فشيئاً إلى الاندثار. ولا شك أيضاً أن قطع يد فنان كبير لها دلالة أعمق حتى مما فكر به جلادوه، فاليد كانت أداة صيرورة الإنسان وسبب انتقاله من جنة وحشيته إلى مصنع مدنيته. فبدون اليد لا تقوم كتابة، فإذا أضفنا إليها قطع اللسان، عماد الثقافة الإنسانية ومترجم العقل، فإننا نفهم مدى بربرية الجلادين.

لكن العقاب الأكبر الذي ناله ابن مقلة وكل من لوحق وعُذب واَضطُهد لفكره النير، هو أن تصمت الدهور عن مأساته، فيشارك الخلف السلف في عملية الإضطهاد. كيف نهمل من شذب ونظم الحروف واخترع الوسائل والقواعد لتصبح لغتنا جميلة؟ هل يدل كل هذا الإهمال على انحطاط حقبتنا الثقافية؟ أم أن ذلك يؤشر

Twitter: @ketab_n

لعلاقتنا السيئة بلغتنا وجمالها؟ أم ترى من شوه التاريخ قد بلغ اربه في طمس معالم هذا الرجل الذي ندين له بالفضل حتى اليوم في كل ما نكتب؟ قد يكون الجواب الصحيح مزيجاً من العوامل الثلاثة.

بعد دراسة وافية أظنني لا أبالغ بالقول: لو كان هناك «ليوناردو دافنشي» للخط العربي لكان حتماً هو، أبو علي محمد علي بن حسن بن مقلة، أو ببساطة «ابن مقلة»، الذي وُلد عام (٢٧٢هـ/ ٨٥٦ م) في أحد الأحياء الفقيرة لمدينة بغداد.

كان اسمه ـ منذ ميلاده ـ لا يخلو من طرافة: «مقلة»، كلمة شاعرية مرادفة للعين، وهو الاسم الذي كانت تُلقب به أمه. كان أبوها يناديها «يا مقلة أبيها» معبراً عن مدى حبه لها من بين جميع أخواتها الأخريات. وهي التي تزوجت فيما بعد أحد الخطاطين الفقراء، وحملت العائلة منذ تلك اللحظة لقب الأم لا لقب الأب، على غير العادات العربية التي كانت شائعة في ذاك الزمان ولا زالت حتى يومنا هذا.

جده وأبوه وأخوه حسن (خطاط بلاط الحمدانيين في حلب) وأولاده وأحفاده كانوا جميعهم خطّاطين، إلاّ أن محمد بن مقلة، كان أكثرهم شهرة، على الاطلاق.

تعلم ابن مقلة فن الخط منذ نعومة أظفاره، كان أبوه أول معلميه وكذلك كان أستاذه إسحاق بن إبراهيم الأحول صاحب كتاب «تحفة الوامق»، وتتلمذ ابن مقلة أيضاً على يد ابن دريد. مارس

Twitter: @ketab_n

مهنة كاتب وناسخ في بعض دواوين بغداد مقابل أجر لا يتجاوز الستة دنانير شهرياً. ثم وهو في السادسة عشرة من عمره تتلمذ على يد الخطاط البارع أبي الحسن بن فرات، الذي تمتع فيما بعد بمرتبة وزير لدى الخليفة، فقام بالتوسط لابن مقلة ليحصل على أول وظيفة رسمية لدى الخليفة كجابٍ للضرائب، فصار غنياً... بل غنياً جداً.

كانت الدولة العباسية آنذاك تُمثل أقوى حضارات الدنيا، إلاّ أن «العصر الذهبي» الذي رافق الخلفاء التسعة الأوائل كان قد أفل إلى غير رجعة. إلا أن الاهتمام بالكتب وفن الكتابة كان في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادي ـ وهو العصر الذي عاش فيه ابن مقلة ـ ما يزال مزدهراً.

كان إنتاج بغداد من الورق والكتب يضاهي إنتاج أوروبا بأكملها، وتجاوزعدد المكتبات التي كانت تزخر بها المدينة جميع مكتبات الدنيا[1]. أما من الناحية السياسية فقد بدأت الدولة تتهاوى بشكل ملحوظ، ليس فقط في أطراف تلك الامبراطورية الشاسعة (كحال

---

(١) لدراسة أسباب النهضة الهائلة والقفزة الرائعة التي تمت في النصف الأول للعصر العباسي ولماذا كان العراق أكثر تأهلاً من الجزيرة العربية والشام للقيام بمثل هذا الدور التاريخي إقرأ التفسير الممتاز الذي قدمه العلامة أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.
أمين، أحمد، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ج١، ص٢١؛ ١٩٩٨، ج٢، ص١٣.

Twitter: @ketab_n

دمشق وحلب والقاهرة وبلاد المغرب والأندلس وغيرها من البلدان) والتي كان يتمتع حكامها بنوع من الاستقلالية الذاتية، بل بدأت الثورات والحروب تقترب من مركز الدولة العملاقة وتزلزل أركانها. فقد وصل المتمردون إلى بغداد ومكة بموجة الثورات الطاحنة التي كان يقودها المتمردون الشيعة (نذكر كمثال على ذلك القرامطة) أو الشعوب الأعجمية الثائرة، وكانوا يذلون فيها الخليفة السني ويدكون عاصمته ومدنه الكبرى المرة بعد الأخرى (كما حدث في مدينة البصرة سنة ٩١٢ وسنة ٩٢٤ وفي مكة سنة ٩٢٩م). هذا بالإضافة إلى حملات لا حصر لها لهذا القائد العسكري ضد ذاك الذي زاد نفوذه، دون أن يستطيع الخليفة إيقاف هذه المناوشات التي كانت في بعض الأحيان تأخذ شكل حرب طاحنة.

وكانت سلطة موظفي وحريم القصر والأمراء وقواد الجيش والشرطة في بغداد تزداد يوماً بعد يوم لتقلص بذلك سلطة الخليفة. أمسى كورقة خريف تتنازعه الرياح: يُخلع من مجموعة ويعزل ويعتقل، لتقفز بعد حين مجموعة قوى أخرى فتفك أسره (إن كان اللهم لا يزال على قيد الحياة) وتبايعه خليفة قديماً جديداً عليها.

في هذا الجو المشحون بالخلافات عاش ابن مقلة. ويمكن اعتباره ـ دون مبالغة ـ أكبر خطّاط عربي عرفه التاريخ. وقد خلّده الثعالبي بقوله: «خط ابن مقلة يضرب مثلاً في الحسن، لأنه أحسن خطوط الدنيا، وما رأى الراؤون، بل ما روى الراوون مثله، في ارتفاعه عن الوصف، وجريه مجرى السحر». وقد قال فيه الثعالبي

Twitter: @ketab_n

شعراً ينسب أحياناً خطأ للبحتري:

سقى اللّه عيشاً مضى وانقضى
بلا رجعة أرتجيها ونقلة
كوجه الحبيب وقلب الاديب
وشعر الوليد وخط ابن مقلة[1]

كان مهندساً لهذا الفن الجميل، فهو لم يقم فقط بتطوير وتحسين الكثير من الخطوط (كالثُلث والنسخ)، بل أسس بالتعاون مع أخيه أبي عبدالله الحسن، قواعدَ علمية لهذا الفن، وكان أول من وضع مقاييس الحروف وأبعادها وضبطها ضبطاً جيداً. وقد ضاعت أكثر آثاره العلمية وبقي منها رسالتان في الخطِّ، الأولى هي (ميزان الخطِّ) وهي موجودةٌ في مكتبة العطارين في تونس، والأخرى هي (رسالة في علم الخطِّ والقلم) وهي موجودةٌ في دار الكتب المصرية[2].

وما زالت قواعد نظام هندسته للخط سارية المفعول حتى يومنا هذا، وبتطبيق قواعد هذا العلم صار باستطاعة كل خطاط أن يدرك بسهولة إن كان خط ما صحيح أم لا.

---

(١) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢١٠.

(٢) بالإضافة إلى هاتين المخطوطتين فلقد استند القلقشندي في تحديد الطريقة الصحيحة لكتابة كل حرف عربي أولاً بما حدده إبن مقلة وبعدها بمن تبعه من الخطاطين. (أنظر صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٤، ج٣، ص٣٧ ـ ٣٨).

Twitter: @ketab_n

اختار ابن مقلة حرف الألف ليكون مقياساً لجميع الحروف، ومن أجل ذلك فإن أي خطاط يضع أول ما يضع نصب عينيه مقدار طول حرف الألف، كمقياس لطول الأحرف الأخرى، ويأتي الحساب بنقاط متتابعة ومرسومة بشكل عمودي.

النقطة في العربية هي عبارة عن مُعيّن تختلف مساحتها (أبعادها) بحسب الريشة المستخدمة في رسم الخط. يتم كتابة النقطة بضغط الريشة على الورقة. جميع الأحرف الأخرى ـ سيان كانت عمودية أم أفقية ـ لها أبعاد تم حسابها من قبل ابن مقلة بعدد معين من النقاط. كذلك تكور بعض الأحرف يتبع دائرة قطرها بطول حرف الألف. ويقاس بالنقطة كل حرف **والفراغ** حوله كما تظهر الرسوم في الأمثلة التالية.



أمثلة لحساب النقط

تعتمد قواعد الخط على علاقة وثيقة بين النقطة والخط والدائرة

Twitter: @ketab_n



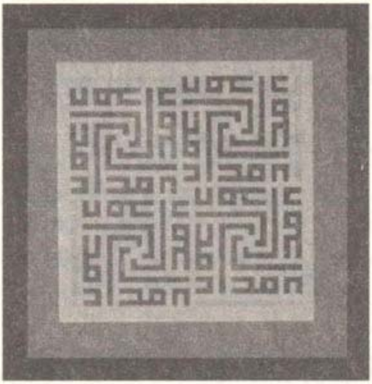
لاحظ أيضاً قياس الفراغ وحسابه بالنقط

وتناسق أحرفها يعتمد أخذ مقاييس حرف الألف كما ذكرنا كمعيار لبنية كل الأحرف التي تنسب إليه ولهذا دعي هكذا خط بـ«الخط المنسوب». ويستطيع كل خطاط متمرس أن يتقن هذا التناسق للحروف بطريقة تلقائية بعد تدرب وممارسة لبضع سنوات. إلاّ أن النقاط تُمكن من يشاء دائماً من فحص تناسق الخط ومعرفة ما إذا كان صحيحاً أم لا.

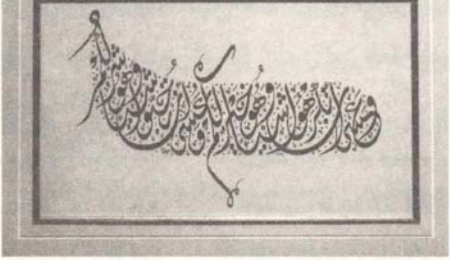
وقد دقق الخطاطون مثل ابن البواب وياقوت المستعصمي والخطاطة العبقرية زينب بنت أحمد الأبري البغدادي الملقبة بـ(شهدة) قواعد هذا الفن الرفيع التي وضعها ابن مقلة. وطوروا أسلوبه، دققوه وتجاوزوا حدوده الجمالية بخطوط أجمل. هكذا يكون التقدم أو لا يكون.

الالتزام بهذه المقاييس للأحرف هو أشبه ما يكون بالالتزام بالإيقاع في مقطوعة موسيقية. فقط عند الإلتزام بها يبدو الخط متناسقاً وينتج لحناً لموسيقى عينية يتمتع بها حتى من لا يحسن قراءة المكتوب وفك طلاسمه (مثلا في تعقيدات الخط الكوفي أو الديواني الجلي أو بالنسبة لأجانب لا يتقنون اللغة العربية ويشعرون بجمال خطها).

Twitter: @ketab_n



كان ابن مقلة موهوباً في الرياضيات وعالماً في الطبيعة، وكان كذلك كاتباً بارعاً وشاعراً يكتب شعراً بعيداً عن التكلف وخارجا عن المألوف. وكان قد اطّلع على كل ما كتبه علماء الدين والملحدون معاً، أمثال ابن الراوندي (ولد عام ٨٢٦م) وابن المقفع (٧٢٤ ـ ٧٥٩م)، والرازي (٨٦٤ ـ ٩٢٣م) والفارابي (ولد عام ٨٧٤م). إلاّ أنه كان أكثر إعجاباً بالعالم الموسوعي الجاحظ (٧٧٦ ـ ٨٦٩م). لكنه كان على عكسه يلازم الخلفاء، في حين أن الجاحظ لم يطق البقاء أكثر من ثلاثة أيام في بلاط الخليفة المأمون الذي كان يُشجع العلم والأدب في عصره.



Twitter: @ketab_n

تمتع ابن مقلة بمرتبة الوزير الأول في بلاط الخليفة، وهذا المنصب يعادل في أيامنا منصب رئيس الوزراء، وهو الرجل الوحيد في التاريخ العربي الذي مارس وظيفة الوزير الأول لدى ثلاثة من خلفاء الدولة العباسية (الخليفة الثامن عشر، التاسع عشر والعشرين). إلا أن قربه من بلاط الخلفاء جرّ عليه البلاء في نهاية المطاف.

وهذا ما كتب فيه ناقداً ذاته (حيث يندر نقد الذات في الأدب العربي)[1] عندما قطع جلادو الخليفة يده اليمنى:

ما سئمتُ الحياة لكن توثقـ
تُ بأيمانهم فبانت يميني
بعت ديني لهم بدنياي حتى
حرموني دنياهم بعد ديني
ولقد حُطتُ ما استطعت بجهدي
حفظ أرواحهم فما حفظوني
وليس بعد اليمين لذةُ عيش
يا حياتي بانت يميني فبيني

---

(١) باستثناء الهجّاء الكبير الحطيئة الذي قال: أرى لي وجهاً قبح الله خلقته فقبح من وجه وقبح حامله كما ولسان الدين بن الخطيب الذي نظم في سجنه قصيدة حزينة مطلعها:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت — وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة — كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً — وكنا نقوت فها نحن قوت

Twitter: @ketab_n

لاحظ ابن مقلة أن الخط ليس هبة إلَهية كما كان يدّعي بعض علماء المسلمين المتزمتين في ذلك الوقت، بل إن اليد البشرية هي التي تبتدعه. كان مفتوناً بجمال الحرف العربي، ويعرف في الوقت ذاته نقاط ضعفه، لذا بدأ مبكراً بالتفكير بطريقة يستطيع فيها وبحذر إعادة إصلاح الأبجدية العربية، حجر الأساس في اللغة والخط.

كان يجري تجاربه، يُسجل ملاحظاته وينتظر اللحظة المناسبة. كانت مدينة بغداد في ذاك الوقت عاصمة إمبراطورية عالمية ومركز قوة الإسلام الدينية والدنيوية، وكان كثير من العلماء والفقهاء والمترجمين آنذاك يعانون من نقص بعض الأحرف العربية التي يحتاجونها للتعبيرعن العديد من الألفاظ والاسماء التي تزخر بها لغات أخرى. كما أن اتقان كتابة العربية بدون أخطاء، كان صعب المنال على أبناء الشعوب غير عربية لأن كل حرف عربي يكتب على أربعة أشكال:

في أول الكلمة (بدئي)، أو وسط الكلمة (وَسَطي)، أو في آخرها (ختمي)، أو منعزلاً عن أي اتصال (معزول). مثلاً في كتابة حرف (الهاء: هـ، ـهـ، ـه وه) أي أن على العربي تعلم أكثر من ١٠٠ رمز للأحرف ليستطيع الكتابة بينما يكتفي كل من يكتب اللاتينية وكل مشتقاتها في اللغات الأوروبية بتعلم شكلين للحرف أحدهما كبير (maiusculus) والثاني صغير (miniscululus) على الأغلب شكلها متطابق (مثل P,p, ,C, c U,u, S ,s).

Twitter: @ketab_n

هذه المعرفة شجعت ابن مقلة على المضي قدماً في طريقه. إلاّ أن أعداء الإصلاح من المتطرفين الدينيين، كانوا (ولا يزال بعضهم إلى اليوم) يعتبرون الحروف العربية مقدسة، لا يُسمَح المساس بها لأنها هي الحروف التي كُتب بها القرآن.

كان ابن مقلة يعلم بأن اللغة العربية خضعت لإصلاحات عديدة، وقد غيرت إحدى هذه الخطوات الراديكالية شكل الحروف تغييراً جذرياً، لأنها حولتها إلى حروف دقيقة بعد أن كانت ولقرون حروفاً ضبابية. كان ذلك قبل ١٥٠ سنة من ميلاده. كانت اللغة العربية قبل هذا الإصلاح من غير تنقيط (تحت وفوق الحروف) وغير شكل (بالفتحة والضمة والكسرة)، وكان تشابه بعض الأحرف يؤدي إلى صعوبة بالغة في القراءة (تصحيف)، مما أدى لسوء فهم بعض الكلمات أو لخطأ في تفسيرها، حتى ولو تمت قراءتها من قبل العلماء والشعراء أنفسهم (كمثال بسيط: الفرق بين الكلمات التالية: زيت، زنت، رنت، ربت، رتب، ريت، زنب، ريب، زين...إلخ هو النقاط فقط).

وقد جرى كثير من المحاولات البسيطة لإصلاح الخط، إلا أن الإصلاح الجذري وجد النور في بداية القرن الثامن، فقد تمّ إضافة نقطة أو اثنتين أو ثلاث نقاط فوق أو تحت أكثر من نصف حروف اللغة العربية. كان هذا الإصلاح ثورياً، قفز بالأبجدية إلى قمة عالية من قمم الدقة. ولهذا لا يستغرب أن تصبح جملة «وضع النقاط على الحروف» مثلاً يفهمه كل عربي بمعنى تدقيق الأمور. ويقول الفقيه

Twitter: @ketab_n

العلامة وإمام زمانه عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي: «إعجامُ الكتابِ نُورُه»[1].

ولا زال المؤرخون يختلفون حتى اليوم حول الشخصية الرائدة التي قامت بهذه القفزة الإصلاحية للحروف، بعضهم قال إن الحجاج بن يوسف الثقفي لما رأى اختلاف الناس في قراءة ولفظ كلمات القرآن، أمر الحسن البصري ويحيى بن يعمر (وهما تلميذا أبي الأسود الدؤلي) فقاما بذلك. وبعض المصادر تؤكد على أن أول من نقط المصاحف هو أبو الأسود الدؤلي (وهي تخلط بين الشكل والإعجام فأبو الأسود وضع رمز للفتحة والضمة والكسرة على شكل نقاط أي أنه شكل الحروف ولم يعجمها). يشتد الخلط بين التعابير، لأن عدة مصادر قديمة كانت تعني بكلمة «التنقيط» وضع الفتحة والضمة والكسرة فوق أو تحت الكلمة وهذا ما نسميه اليوم شكل، حركة أو تشكيل الحرف. وأمَا النقطة كما نفهمها اليوم فقد سُميت على الأغلب بمصطلح «الإعجام» أي بمعنى وضع نقطة أو أكثر فوق أو تحت الحرف.

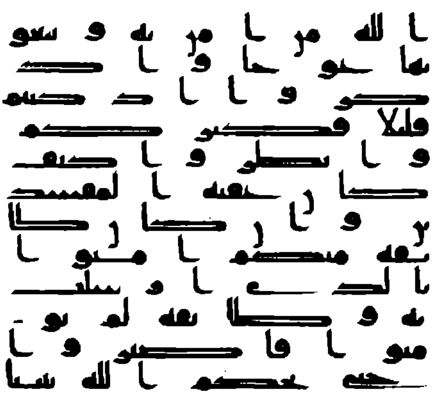
هناك من يميل للإعتقاد بأن نصر بن عاصم الليثي هو الرائد في هذا الإصلاح، وآخرون يؤكدون أن العلامة والقاضي الجريء يحيى بن يعمر البصري هو من قام بذلك. كما أنه من المؤكد أن للعلامة الكبيرالخليل بن احمد الفراهيدي فضل كبير في تدقيق

---

(١) العسكري، شرح في التصحيف والتحريف، تحقيق عبد العزيز أحمد، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٣، ، ص١٤.

Twitter: @ketab_n

تشكيل الحروف (الفتحة على شكل ألف مبطوحة والضمة كواو صغيرة فوق الحرف والكسرة كياء تحت الحرف إلى جانب الشدة على شكل شين بدون نقط، والسكون برمز كالدائرة التي رمزت للصفر أي بدون حركة والهمزة على شكل رأس العين لتشابه مخرجهما. بهذا أنهى العبقري الفراهيدي مشكلة كبيرة وهي الخلط بين نقاط الإعجام ونقاط الشكل التاء المفتوحة صارت بعد إدخال النقط تكتب بثلاث نقط: نقطتان لتمييز التاء ونقطة كفتحة فصارت تلفظ خطأ كثاء والنون المفتوحة كتاء والباء المكسورة كياء). الرموز الجديدة الواضحة أزالت كل التباس ولا نزال نستعمل أغلبها حتى اليوم، كما وضعها هذا العالم الكبير[1].



الآيات ٨٦ و٨٧ من سورة الأعراف كتبت بخط كوفي بدون تنقيط وتشكيل

---

(١) الداني، المحكم في نقط المصاحف، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر دمشق ط ٢، ١٩٩٧، ص٧.

Twitter: @ketab_n

وقد اهتم أعظم مؤرخينا ابن خلدون في مقدمته الشهيرة في (الباب السادس) منها بتطور اللغة في الجزيرة العربية، وبشكلها الذي عرفه في أيامه (والذي لا يختلف كثيراً عن وضع اللغة العربية اليوم التي لم يسعفها إصلاح واحد منذ أكثر من ألف عام).

من يقرأ بتمعن سيصل إلى نتيجة، أن تراكم خبرات الكتابة والقراءة بالعربية والتي فجرها ظهور الإسلام، أدت إلى اختمار فكرة الإصلاح. فلقد كُتِبَ في مئة عام ما لم يكتب في الجزيرة قبل ذلك خلال ألفي سنة. هذه الكتابة المستمرة والمكثفة بينت نواحي قوة وضعف الأحرف. لقد أعطى الإسلام قيمة ومكانة للكلمة والكتابة لم تعهدها قبله، فأول آية كانت مديحاً لا مثيل له في لغة أخرى للقلم وللّغة والخط: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

لطيفة:

قرأت في كتاب مفاتيح الغيب المسألة الخامسة في تفسير ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾: «يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام، فقال: ريح لا يبقى، قال: فما قيده، قال: الكتابة... ويتابع الرازي قائلا: ولا تَقُلْ القلم نائب اللسان، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم»[1].

(١) تفسير الفخر الرازي، المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الرازي، فخر الدين، محمد، دار الفكر، بيروت ١٩٨١، ج٣٢، ص١٧. =

Twitter: @ketab_n

خلاصة القول إن هناك عدة خطوات إصلاحية تراكمت حتى لحظة القفزة النوعية للأبجدية وعلينا ألا ننسى أن تأويل سبب تطوير الخط بالشكل (أي إزالة الإشكال بإدخال حركات الإعراب من فتح وضم وكسر وسكون) والإعجام (إضافة النقط لبعض حروف الأبجدية) هو دخول أمم غير عربية في الإسلام (فرس، هنود، حبش إلخ) وازدياد التصحيف واللحن في القراءة، كما يشدد بعض المؤرخين بعنجهية وكأن العرب تحلوا يوماً بعصمة وراثية عن الخطأ في القراءة واللفظ. التصحيف واللحن كان بالتأكيد أحد الأسباب لكنه ليس أهمها. السبب أبسط من ذلك بكثير: إن كثرة الكتابة في العصر الأموي والتي بلغت مئات أضعافها عن القرون السابقة قد أضعف إمكانية الإعتماد على الذاكرة في لفظ الكلمات بشكل صحيح كما سادت في المرحلة الأولى للحضارة العربية الإسلامية. وستضعف الكتابة باستمرار دور الذاكرة.

وقد دخل تشكيل وإعجام الحروف اللغات السامية الأخرى (كالسريانية والعبرية) قبل العربية لتسهيل قراءتها. وبهذا كان من المنطق أن يلجأ العرب وبذكاء ومرونة رائعة إلى أخذ هذه الفوائد من لغات الجيران وتطبيقها بدراية ووعي وإحساس عبقري على الحروف العربية.

= فخر الدين الرازي (٥٤٣ ـ ٦٠٦هـ) وهو عالم موسوعي وإمام شافعي وهو غير أبو بكر الرازي (٢٥٠ ـ ٣١١هـ) الفارسي الأصل وأحد أعظم أطباء الإنسانية.

Twitter: @ketab_n

ويقال إن إضافة الحركات كانت نقطة الإنطلاق في تأليف كتب النحو والإعراب ويقال إن أبا الأسود الدؤلي وبتشجيع من علي بن أبي طالب (الذي علمه بعض أبواب النحو) بدأ بذلك. ويحكى في ذلك قصة طريفة: «أن زياد بن أبيه والي العراقين طلب من أبي الأسود أن يضع طريقة لإصلاح الألسنة عند القراءة، فتردد أبو الأسود ولم يجبه إلى ذلك، ثم سمع أبو الأسود من يقرأ القرآن ويلحن في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بكسر اللام، فعظم على أبي الأسود وقال: عز وجه الله تعالى أن يبرأ من رسوله، وقيل إن زياداً هو الذي أوعز للقارئ أن يقعد في طريق أبي الأسود ويتعمد اللحن، حتى يستجيب أبو الأسود لطلب زياد، فعاد أبو الأسود الى زياد وقال له: قد أجبتك على ما سألت، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، فأبغي كاتباً، فبعث اليه ثلاثين كاتباً فاختار واحداً منهم رجلاً من عبد القيس»[1].

ولعل القصص التالية على مقدار عنفها وخيالها الذي يقلل من مصداقيتها فإنها تعطي فكرة لما هو أجسم لكنه مخفي عن الأنظار والذي يرافق كل لغة لا تتقدم مع العصر: «يروى في سبب مقتل عثمان بن عفان أنه كتب إلى أهل مصر في تولية رجل وقال: «إذا أتاكم فاقبلوه» وكان الخط بلا نقط فقرأها الناس: «إذا أتاكم فاقتلوه» فكان ذلك سبب الفتنة ومقتل عثمان (السيوطي: تدريب

---

(١) الجبوري، يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤، ص١٠٢.

Twitter: @ketab_n

الراوي ص ١٥١) ومن التصحيف الشديد أيضاً ما كتبه سليمان بن عبدالملك إلى عامله في المدينة: أن (احص المخنثين) فقرأها الكاتب (اخص المخنثين) فخصي تسعة منهم»[(١)].

المهم أن أغلب المراجع ترجح القول إن الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥)، الخليفة الخامس للأمويين كان هو الشخص الأكثر تأثيراً في هذا الإصلاح الجذري. وإن السيرة الواردة في وفيات الأعيان (ج: ٢، ص: ٣٢) هي الأكثر مصداقية: «وحكى أبو أحمد العسكري في كتاب التصحيف أن الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفاً وأربعين سنة، إلى إيام عبدالملك بن مروان، ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف الثقفي إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف فأحدثوا الإعجام».

والتصحيف هو القراءة (والكتابة) الخاطئة لتشابه بعض الأحرف والذي كان مشكلة كبيرة قبل إدخال النقط (الإعجام) على خمسة عشرة حرفاً عربياً. مثال على التصحيف: غدا وعدا، تحويها وتَحْوِ بها، الخلائق والخلائف، غَمرَهُ وعُمْرِه، مراحم ومراجم ومزاحم.

---

(١) الجبوري، يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤، ذيل صفحة ١٠٥.

Twitter: @ketab_n

يستعمل أحياناً مصطلح «التحريف»، التحريف هو تغير أكبر في حروف الكلمة يغير المعنى، مثال مسحور ومحسور، حاجة وحاجب. لكن أغلب النحاة لا يفرقون بين التصحيف والتحريف ويعتبرانهما مترادفين.

ألف الحسن بن عبدالله أبو أحمد العسكري (وهو خال ومعلم العلامة الأشهر أبو هلال العسكري) في هذه الصعوبات كتاباً كاملاً يقع في حوالى ٦٠٠ صفحة (شرح في التصحيف والتحريف)، كما ألف حمزة الأصفهاني كتاب (التنبيه على حدوث التصحيف) وحوى كل من كتاب السيوطي (المزهر) وكتاب ابن جني (الخصائص) فصلاً كاملاً عن التصحيف والتحريف.

لكن، وللدقة فقط ودون أن ننقص من قيمة القفزة الثورية النوعية في تدقيق الحروف التي تمت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، نضيف أن هناك شواهد عديدة تدل على محاولات للتعجيم (وضع النقاط على الحروف) قد بدأت قبل ذلك بكثير فهناك برديتان ترجعان إلى سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣ م عُلِمت الحروف «خ» و«ن» من خلال وضع نقطة فوق كل منها و«ش» من خلال نقاط ثلاث وضعت متجاورة. كما وجد الباحثون شواهد أخرى في سد قرب الطائف وفي فسيفساء قبة الصخرة[١].

ووضع النقاط بهذا الشكل ليس بالأمر البديهي السهل، بل يحتاج

---

(١) فيشر، فولف ديتريش، الأساس في فقه اللغة العربية، ترجمة سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة ٢٠٠١، ص٨٦.

Twitter: @ketab_n

لعمل شاق ودراية موسوعية بالألفاظ العربية وإعرابها. وقد ألف العلامة أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (٣٧١ ـ ٤٤٤ هـ) كتاباً كاملاً بأكثر من ٣٠٠ صفحة عن تنقيط حروف المصحف[١] وفيه بحث مستفيض وجميل عن سبب وضع النقاط بهذا الشكل وليس بشكل آخر. أسئلة لا تخطر على بالنا اليوم ونحن نستخدم الأحرف ببديهية لم تكن آنذاك من المُسَلّمات. فالسؤال مثلاً: لماذا تُكتَب نقطة الباء تحتها وليس فوقها لتتماشى منظراً وشكلاً مع التاء والثاء اللتين تأتيان بعد الباء ولهما نقاط فوق الحرف وليس تحته؟ الجواب مدهش بذكائه: لأن الباء تأتي غالباً كحرف جر في مطلع الكلمات وهي مشكلة بالكسرة كما في الجملة الأكثر تكراراً في الصلاة وفي يوم المسلم عموماً: «بِسمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم» ولذلك فإن نقطة الباء أجمل وأيسر أن تكون مع الكسرة تحت لا فوق الحرف[٢].

طرفة فريدة: يورد العلامة الكبير ابن جني في كتابه «سر صناعة الإعراب» تعريفاً للإعجام يخالف ١٠٠٪ ما يمثله هذا التعبير في إعجام الخط بمعنى وضع النقاط على الحروف. يقول ابن جني: «وقد اعترض فصلنا هذا أمر لا بد من شرحه وإبانته بالاشتقاق، اعلم أن ع ج م إنما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإفصاح من ذلك قولهم رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا

---

(١) الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد، المحكم من نقط المصاحف، تحقيق عزة حسن، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

(٢) الداني، المصدر نفسه، ص٤٠.

Twitter: @ketab_n

لا يفصحان ولا يبينان كلامهما».[1] وقد أورد ابن جني كل أطياف هذه الكلمة:

عجم: وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإفصاح.

العجمة: الحبسة في اللسان.

رجل أعجم، امرأة عجماء: إذا كانا لا يفصحان لا يبينان كلامهما.

الأعجم: الأخرس.

العجم، العجمي: غير العرب لعدم إبانتهم أصلاً.

استعجم القراءة: لم يقدر عليها لغلبة النعاس عليه.

العجماء: البهيمة لأنها لا توضح ما بنفسها.

استعجم الرجل: سكت.

وقد جاراه في ذلك الفيروزابادي في «القاموس المحيط، باب الميم» وهناك نقرأ عن معنى عجم: «من لا يفصح» و«مقفل» و«سكت» وفي «لسان العرب، باب العين» (الأَعْجَمُ الذي لا يُفْصِحُ ولا يُبَيِّنُ كلامَه) هذا إلى جانب المعنى المشهور الأعجمي = غير العربي كالفارسي والتركي إلخ. بينما تعني جملة «أعجمت الكتاب» أزلت استعجامه.

---

(١) ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط. ٢، ١٩٩٣، ج١، ص٣٦ ـ ٤٠.

Twitter: @ketab_n

ويناقش ابن جني بذكاء ثعلب التناقض الذي لمحت إليه قائلاً:

«... وأنت إذا قلت: أعجمت الكتاب، فإنما معناه: أوضحته وبينته، فقد ترى هذا الفصل مخالفاً لجميع ما قدمته، فمن أين لك الجمع بينه وبين ما ذكرت؟

فالجواب: إن قولهم «أعْجَمْتُ» وزنه «أفْعَلتُ» وأفعلت هذه وإن كانت في غالب أمرها إنما تأتي للإثبات والإيجاب، نحو: أكرمت زيداً، أي: أوجبت له الكرامة، وأحسنت إليه: أثبت الإحسان إليه، وكذلك أعطيته وأدنيته وأنقذته، فقد أوجبت جميع هذه الأشياء له ـ فقد تأتي «أفعلت» أيضاً يراد بها السلب والنفي، وذلك نحو أشكيت زيداً: إذا زُلْتَ له عما يشكوه»[١].

لقد كان الخليفة عبدالملك بن مروان من العلماء وأيقن أن حضارة تريد أن تغزو العالم لا يمكنها الوصول إلى ذلك بأبجدية ناقصة يتعثر فيها حتى علماؤها عند قراءتهم لأيٍّ من نصوصها. فالأحرف العربية تشكل مجموعات وكأنها قبائل شديدة التشابه (قبل إضافة النقط). ع غ/ د ذ/ ر ز/ ج ح خ/ ص ض/ ط ظ/ س ش/ ف ق/ ب ت ث ن/ ك ل.

كان عبدالملك بن مروان قد وصل في فترة عصيبة إلى الحكم وكان أعداؤه يهددون الإمبراطورية العربية. لذلك قام هذا الخليفة بسحق كل المعارضة بيد حديدية دموية. وكان أخلص عماله السفاح الحجاج بن يوسف الثقفي والذي لم يتردد حتى عن قصف مكة،

---

(١) ابن جني، المصدر السابق، ص٣٧.

Twitter: @ketab_n

وهي المدينة المقدسة لدى كل المسلمين، بالمنجنيق عندما رفض عدو الخليفة ومنافسه عبد الله بن الزبير الإستسلام. وقد كافأه الخليفة فيما بعد بتوليته على العراق، الذي كان آنذاك يغلي بثوراته ضد الحكم في دمشق، فقتل الحجاج آلاف العراقيين وسجن أضعاف أعدادهم. وهو ما زال حتى اليوم من الشخصيات المكروهة لدى الشيعة، حتى أن العالم الرزين هادي العلوي رحمه الله، يفقد كل رزانته عند ذكر الحجاج ويقارنه بهتلر وهذه مقارنة ضعيفة الحجة ولا تجوز علمياً[1].

إذاً فإن كل ما يذكر في هذه المصادر عن إدخال النقاط فوق وتحت ١٥ حرفاً وعن نسخ القرآن بالخط الجديد وتثبيته رسمياً لكل المسلمين، وينسب للحجاج، كله يعود عملياً إلى خليفته وسيده عبد الملك. وبالرغم من ثقافة الحجاج الواسعة واجتهاداته اللغوية الذكية ما كان ليجرؤ على القيام بمفرده بمثل هذه الخطوة الجبارة والتي لاقت الكثير من الرفض والخوف خاصة من علماء الدين المتشددين الذين خشوا أن تقع بلبلة في قراءة وتفسير القرآن.

وفي هذا الشأن يكتب العلامة أحمد شلبي أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية: «كُتِبَ القرآن بالخط الكوفي بلا نقط ولا شكل ـ أي تشكيل ـ وبلا مد ـ أي بلا ألف ـ فلم يظهر فرق بين الكلمات الآتية: عباد ـ عبد ـ عند ـ أو بين يخادعون ـ يخدعون أو

---

(١) العلوي، هادي، فصول من تاريخ الإسلام السياسي، مركز الأبحاث والدراسات الإشتراكية، نيقوسيا، ١٩٩٥، ص٣٤٩ ـ ٣٦٤.

Twitter: @ketab_n

بين فتبينوا ـ وفتثبتوا»[1] وبدون الشكل والتشكيل كذلك الإعرابي الذي قرأ الآية ٣ من سورة التوبة بشكل خاطئ «﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بكسر اللام في كلمة رسوله وكأن المقصود أن الله بريء من المشركين ورسوله بينما تعني الآية أن الله ورسوله بريئين من المشركين».

وقد خصص الداني كتاباً كاملاً عن تنقيط القرآن[2] وقد أكد أن التنقيط والإعجام لم يلق رضاءً من كثير من علماء الدين والمفكرين[3] كإبن سيرين والإمام مالك بن أنس وقد ذكر السيوطي أن «مسلمين كثيرين كرهوا هذا الأمر واعترضوا عليه مثل ابن مسعود وابن سيرين وإبراهيم النخعي وقالوا إن القرآن لم ينزل بهذه النقط وهذا التشكيل ثم يضيفون إن أبا بكر وعمر وعلي وعثمان وزيد بن ثابت وغيرهم لم يقوموا بهذا العمل ؛ فلماذا يقوم به من يأتي بعدهم ولماذا تم وضع النقط والتشكيل؛ هل من وضعها هو أحكم من الله ومن جبريل..»[4]؟

---

(١) شلبي، أحمد، موسوعة الحضارة الإسلامية، ج٨ التشريع والقضاء في الفكر الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٩٨٩، ص٤٩.

(٢) الداني، عثمان بن سعيد، المحكم في نقط المصاحف، تحقيق عزة حسن، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

(٣) المرجع السابق ص١٠ ـ ١١.

(٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق سعيد المندوب، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦، ج٢ ص٤٥٥.

Twitter: @ketab_n

كما ذكر السجستاني في «كتاب المصاحف» عن معارضة عنيفة لإدخال النقط على حروف القرآن: «حدثنا عقبة، يعني ابن علقمة عن الأوزاعي عن قتادة قال: وددت أن أيديهم قطعت»[1].

لكن عبدالملك بن مروان بشخصيته القوية وانتصاراته الداخلية والخارجية خلال فترة حكمه التي دامت عشرين سنة خنق كل الأصوات التي كانت تعادي التغيير اللغوي.

أصبحت اللغة، بعد وضع النقاط على حروفها، دقيقة جداً بحيث يمكن لكل تلميذ نبيه بسن العاشرة من عمره أن يقرأ أي نص دون أخطاء. وقد حظي هذا الاصلاح باستمرارية (وهي الأساس في دوام إصلاح ما) في فترة حكم الخليفة السادس الوليد ابن عبدالملك والتي دامت لعشر سنوات (٧٠٥ ـ ٧١٥) والذي تابع خطوات أبيه واحتفظ بالحجاج (على عكس أخيه سليمان الخليفة السابع وعمه عمر بن عبد العزيز الخليفة الثامن اللذين كرها الحجاج وكل ما قام به) وبالتالي فإن جيلاً كاملاً وعي على هذه الأحرف الجديدة الواضحة في فترة تعتبر من أكثر فترات الحكم الأموي نجاحاً.

لكن ـ وكمعترضة فكاهية فقط ـ أليس من الغريب أمام هذه الحقائق كلها أن يدّعي أحدهم أن اللغة العربية ولدت مقدسة ولم يمسها مخلوق؟

---

(١) السجستاني، ابو بكر عبد الله: كتاب المصاحف تحقيق آرثر جفري، الرحمانية، القاهرة ١٩٣٦، ج٤، ص١٤١.

Twitter: @ketab_n

كل إصلاح للغة هو إصلاح للإنسان. هذا الإصلاح اللغوي الثوري الذي «وضع النقاط على الحروف» جلب معه سواء عن قصد أم عن غير قصد شيئاً من الديمقراطية والهواء المنعش لكيان اللغة، فلم تعد القراءة وقفاً على قلة من العلماء، فيقومون بتأويل ما يقرأون بحسب أمزجتهم، بل صار الحرف مصقولاً كفولاذ دمشقي، لا يترك مجالاً للشك، وصار سهل المنال رشيقاً في خطواته على الورق. وهذا ما ساعد بدوره ليس على زيادة انتشار القرآن وفهمه فحسب، بل زاد أيضاً من دقة الكتابات العلمية والأدبية والفلسفية.

إلا أن هذا الإصلاح ما كان له أن يرى النور لولا سلطة الخليفة المذكور. ابن مقلة كان يعلم هذه الحقيقة، ومن أجل ذلك كان عليه أن يجد الخليفة الذي يمتلك العقل التنويري والبصيرة الثاقبة التي تساعده على فهم حاجات الإصلاح الملحة.

كان ابن مقلة يعشق الخط ويحبه، حبه لابنه، ولهذا سخّر لخدمته كل ما يملك وخسر في النهاية كل شيء من أجله. هل قام بفعل ذلك للوصول إلى سلطة ما كما يدّعي أعداؤه، الذين قاموا بتزوير تقارير ضده مليئة بالحقد عليه، وكتبوا كتباً مليئة بالخداع والتزوير؟ كلا، فقد كان ابن مقلة قد وصل إلى كل ما أراد (ثلاث مرات كوزير أول عند ثلاثة خلفاء على التوالي) قبل أن يقود الحركة الجذرية لتغيير الخط، الأمر الذي جلب له الويلات.

لقد كان الخليفة الراضي بالله (حكم ٩٣٤ ـ ٩٤٠) تلميذاً له، فقد

Twitter: @ketab_n

رباه طفلاً في بيت أبيه الخليفة المقتدر بالله[1] (حكم ٩٠٨ ـ ٩٣٢) ولقنه علوم الفلسفة والرياضيات وعلّمه اللغات في خلافة عمه القاهر بالله (حكم ٩٣٢ ـ ٩٣٤) الذي استوزر ابن مقلة، وكان ابن مقلة بالنسبة للراضي بالله كحال أرسطوطاليس للإسكندر الكبير، إلا أن هذا الخليفة لم يمتلك، لتعاسة حظ ابن مقلة، قامة وفكر ذاك المحارب المقدوني الذي فتح العالم. لكن حتى في هذه الحال فقد افترق الإثنان، أرسطوطاليس والإسكندر، بعد شجار واختلاف بالرأي.

---

(١) ويحكي الفخري قصة تنصيبه أنه عندما مات الخليفة العباسي السابع عشر المكتفي بالله عزم وزيره على مبايعة عبد الله ابن الخليفة الثالث عشر(المعتز الذي قتله الأتراك شر قتلة) فحذره أحدهم لأن عبدالله هذا كان من المفكرين الضليعين بالأدب والفلسفة. قال له: هذا الرأي الذي رأيته في مبايعة إبن المعتز ليس بالصواب. قال: كيف ذلك؟ قال: أي حاجة لك أن تُجلسَ على سرير الخلافة من يعرف الذراع والميزان والأسعار ويفهم الأمور ويعرف القبيح من الحسن ويعرف دارك وبستانك وضيعتك؟ الرأي أن تجلس صبياً صغيراً، فيكون اسم الخلافة له ومعناها لك. فتربيه إلى أن يكبر، فإذا كبر عرف لك حق التربية وتكون أنت قد قضيت أوطارك مدة صغره فشكره الوزير وعدل عن عبدالله بن المعتز إلى المقتدر وعمره ثلاث عشرة (الفخري، في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص٧ ـ ٨) كان المقتدر مبذراً للأموال. كان في قصره أحد عشر ألف خادم خصي. حكم المقتدر حتى عام ٩٣٢ وقد قتل وزيره السفاح حامد بن العباس المفكر الصوفي الكبير الحلاج. (الفخري، ص٢٦٠ ـ ٢٦١).

Twitter: @ketab_n

الأمر الذي لا مراء فيه هو أنه كانت لابن مقلة سلطة عظيمة وملك من المال الشيء الكثير. وكان هذا يغيظ حاسديه وبخاصة «المظفر بن ياقوت» المقرب للخليفة والقادة العسكريين «بجكم التركي» و«ابن رائق» الذي استولى من وراء الستار على السلطة الفعلية للحكم، إلى درجة أن اسمه قد قرن باسم الخليفة في الدعاء على المنابر. ابن رائق هذا ظل يتلاعب مع الخلفاء وبهم حتى مقتله على يد الحمدانيين وقد مدحه المتنبي الشاعر الكبير لما عُرف عنه بمدح كل صاحب سلطة ومال.

لم يكن أي حسد أو مؤامرة ضد ابن مقلة لتعني شيئاً لو امتلك الخليفة «الراضي» شخصية قوية أو حتى سلطة يستطيع فرضها، لكن الأمر لم يكن كذلك. وكان من الممكن أن يبقى ابن مقلة مصوناً من أعدائه لو أن العلماء المسلمين في ذلك العهد لم يقفوا ضده ولم يصدروا الفتاوى لعقابه، فقد اشتد حنقهم عليه على مر السنين وكانوا ينظرون لما يقوم به بعين الريبة والشك.

عندما كان ابن مقلة ما زال يتربع على قمة السلطة، بنى لنفسه قصراً في بغداد يحاكي بجماله الأساطير. وأحاطت بالقصر حديقة كبيرة وعظيمة، قام بتحويلها إلى حديقة حيوانات فريدة من نوعها تجول فيها الحيوانات حرّةً طليقة في بساتين خاصة بكل صنف منها. ولكي تتمتع الطيور بحريتها بنى لها في سماء الحديقة شبكة من الحرير، ووظف لهذه الحديقة خدم وعمال وأناس متخصصين للعناية بالأشجار والحيوانات والطيور وتوفير العلاج لها. وقد

Twitter: @ketab_n

وصف هذا البستان ابن كثير في «البداية والنهاية» وذكره ابن الجوزي فيما بعد في «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» وعلى ما يبدو أن ابن مقلة كان يهتم اهتماماً شديداً بتهجين الطيور والحيوانات حتى أنه، كما يذكر ابن الجوزي، كان يسر أيما سرور عندما يخبره أحد العاملين بنجاح عملية تهجين بين فصائل مختلفة، ويجازي المبشر بهكذا خبر بمائة دينار.

كان ابن مقلة وزير أول بارع وخبير، وامتلك شبكة من المراسلين في أصقاع البلاد تمده عن طريق الحمام الزاجل بأخبار من كل الأنحاء، مما كان يساعده على معرفة أي تطور قبل أن يصبح ذلك خطراً، لكنه لم يراع ما يدور حوله مباشرة. فلقد أدى فخره وعزة نفسه لإثارة حساده، قيل إنه كان فخوراً بكل ما يقوم به، وهو الآتي من الفقر، وقيل إنه حفرعلى أكبر حجر من أحجار سور الحديقة الداخلية عبارة «ما أصنعه سيبقى للأبد»، وسيقال أكثر من ذلك في كل إنسان فريد لا تحيط بمواهبه أذهان العامة، فيسهل ذلك انتشار الشائعات الهدامة والخطيرة في الوقت نفسه.

يستشهد ابن كثير بأحد الأشعار التي كتبت ضد ابن مقلة. وفي هذه الأبيات دلائل كثيرة:

قل لابن مقلة لا تكن عجلاً
واصبر فإنك في أضغاث أحلام
تبني بأحجر دور الناس مجتهداً
داراً ستهدم قنضاً بعد أيام

Twitter: @ketab_n

أراد ابن مقلة أن يفهم قصة الخلق عن طريق مراقبته وفهمه لعالم الحيوان، إلاّ أن أعماله هذه التي أثارت إعجاب الكثيرين، أثارت أيضاً أحقاداً وخوفاً لدى المتزمتين في القصر. ولكي نفهم محنة إبن مقلة التي دمرته، علينا أن نلقي نظرة عن علاقة القصر بالمفكرين وأصحاب الكلمة وإن كان ذلك باختصار شديد فإنه يساعد على فهم الوضع الذي دمر خطاطنا العبقري.

علينا دوماً أن نتذكر أن كل ما نقرأه اليوم عن حوار وأبحاث وجدل أو سجال شعري كان يجري في قصر الخلفاء بعيداً عن الشعب، ولذلك لم يكن رفع أو إسقاط أحد الفلاسفة أو العباقرة إليهم أحداً في شوارع بغداد، القاهرة أو دمشق، ناهيك عن المدن النائية والريف. ومن الجهة الثانية لم يخش من يبتعد عن القصر ظلم الخليفة ولدينا أقوال عديدة جريئة ومعادية لكل تملق، وأحياناً عديمة الرحمة تجاه الخلفاء لسفيان الثوري ولأبي حيان التوحيدي والجاحظ والمعري وغيرهم ورغم ذلك لم يتعرض لهم هؤلاء ما داموا بعيدين عن مركز السلطة.

علينا من جهة أخرى ألا ننسى مركز الشعراء في المجتمعات العربية القديمة. كان الشاعر في القبيلة العربية «شخصية فذة فريدة جذابة. ويبدو أن القوم كانوا يظنون أن في الكلام قوة سحرية وأن الإلهام الشعري هو نوع من السحر، وأن الشاعر كثيراً ما يوجهه الجن في كلامه»[١].

---

(١) زيادة، نقولا، عربيات، نجيب الريس، لندن، ١٩٩٤، ص٢١١.

Twitter: @ketab_n

ولذلك اهتم كل سلطان بعقل وحنكة سياسية بجذب الشعراء إلى خيمته وشراء ضميرهم بما يرضي شراهتهم، ليصبحوا أداة له. وبذلك أصبح الشعراء أبواق شيخ العشيرة ثم الخليفة وحتى سلطان مدينة أو والي منطقة، فهم إذاعته ينشرون دعايته (كإعلاميي أيامنا)، التي كانت تتجاوز حتى حدود خلافته جغرافياً وزمنياً. ويصيب المفكر الراحل هادي العلوي عندما يقول: «الشعر كان الألصق بالسلطة ومجمل ديوان الشعر العربي بعد الجاهلية وصدر الإسلام مكرس للإرتزاق ولا يعني ذلك انعدام عنصر الإبداع»[1] وليس مديح بعض الكتاب والشعراء لديكتاتور بلده اليوم بالشيء الجديد.

فهذا النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر:

كأنك شمس والملوك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهذا جرير يمدح عبدالملك مؤكدًا أن الله حباه الخلافة لأنه أحق بها وأجدر:

الله طوقك الخلافة والهدى

والله ليس لما قضى تبديل

ولي الخلافة والكرامة أهلها

فالملك أفيح والعطاء جزيل

---

(١) العلوي، هادي، حوار الحاضر والمستقبل، دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٩، ص٤٧.

Twitter: @ketab_n

وهذا الفرزدق يمدح هشام بن عبدالملك برياء ما بعده رياء:

هشام خيار الله للناس والذي
به ينجلي عن كل أرض ظلامها
وأنت لهذا الناس بعد نبيهم
سماء يرجى للمحول غمامها

وهؤلاء الثلاثة عباقرة اللغة ومرتزقة الكلمة.

وهذا ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بكلام تظنه لُفِقَ من عبد الرزاق عبد الواحد في سيده صدام حسين:

ما شئتَ لا ما شاءَتِ الأقدارُ
فاحكُمْ فأنتَ الواحد القهّارُ
وكأنما أنتَ النبيُّ مُحمّدٌ
وكأنما أنصارُكَ الأنصارُ

حقيقة طريفة: لم يهتم الخلفاء رغم رعايتهم للفلاسفة أن يقوم هؤلاء كالكتاب والشعراء بإبداء الطاعة علناً، مما سمح لكثير من الفلاسفة بالقيام بأبحاثهم حتى ولو كانت جوانب من هذه الأبحاث على الأقل لامست الإلحاد. لكن كل هذا سمح الخليفة أو السلطان به، ما دام رأي الفيلسوف لم يتعارض علناً مع فكر دولته. وهذا هو السبب الرئيسي في سجن وتعذيب إبن رشد وقتل الحلاج وعدم تعرض الفارابي لمحنة رغم راديكالية أفكاره وخطرها على السلطة لانزوائه في بيته.

Twitter: @ketab_n

كانت منابر الجوامع بمثابة المحكمة العليا والفقهاء بمثابة المدعي العام. وقد ذاق أروع الكتاب والشعراء والفلاسفة ما يسمى عادة بـ: «المحنة» ـ ذاقوا العذاب بين يدي الخليفة ذاته الذي كال المديح والهبات على هؤلاء بدون حساب قبل أيام وأحياناً قبل لحظات، فقط لأنهم وقفوا رسمياً ضد فكره أو حاولوا إبداء رأي نقدي علني لهذا الفكر. وكم من كتاب قيم أُحرِقَ، غُسِلَ أو دُفِنَ، لأن الخليفة أو السلطان المحلي لم يعجبه ما أتى به هذا الكتاب من حقائق.

يُذَكِرُ الباحث والمفكر جورج طرابيشي بذلك في كتابه المهم «هرطقات» مستشهداً بنص من «طبقات الأمم» لمؤلفه صاعد الأندلسي (توفي عام ١٠٧٠ م): «فقد روى أن الأمير الأموي الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) ـ الذي شاء على ما يبدو أن يجسّد بشخصه طبعة أندلسية من الخليفة العباسي المأمون ـ كان مولعاً بالكتب، جمّاعاً لها، فـ (استجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق عيون التواليف الجليلة والمصنفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع فيها في بقية أيام أبيه (عبد الرحمن الناصر) ثم في مدة ملكه من بعده ما كان يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، وتهيأ له ذلك بفرط محبته للعلم وبعد همّته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك. فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلّم مذاهبهم. ثم توفي في شهر صفر من سنة ست وستين وثلاثمائة. وولي بعده ابنه هشام المؤيد بالله وهو يومئذ غلام

Twitter: @ketab_n

لم يحتلم، فتغلب على تدبير ملكه حاجبه أبو عامر... وعمد أول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصه من أهل العلم بالدين، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في المنطق وعلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطب والحساب. فلما تميّزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المباحة بمذاهب الأندلس ـ إلاّ ما أفلت منها، وذلك أقلها ـ فأمر بإحراقها وإفسادها، فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر، وهيل عليها التراب والحجارة، وغيّرت بضروب التغايير، وفعل ذلك تحبباً إلى عوام الأندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم مذمومة بألسنة رؤسائهم. وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة، مظنوناً به بالإلحاد في الشريعة. فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخمدت نفوسهم وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم»[١].

ونجد أمثلة كثيرة في كل كتب السير أو التاريخ القديم عن حرق وطمر وغسل الكتب. ولقد جمع الكاتب السعودي ناصر الحزيمي حزمة حزينة من الأمثلة في كتيبه «حرق الكتب في التراث العربي» (منشورات الجمل ٢٠٠٣).

---

(١) طرابيشي، جورج، هرطقات، دار الساقي، لندن، ٢٠٠٦، ص٤٩.

Twitter: @ketab_n

قد ينفع أيضاً التذكير ببعض خصائص الخلافة لنفهم محنة ابن مقلة:

إعتبرالخلفاء أنفسهم، دون أي تواضع، ظل الله على الأرض. وقد بدأ ذلك معاوية ففي خطبته في الكوفة قال شامتاً: «لكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون».... وحاول معاوية أن يصور للناس بأن تعيين يزيد من إرادة الله التي لا مفر منها، فكان يقول: «إن أمر يزيد قضاء وقدر وليس للعباد الخيرة من أمرهم»[1].

وذهب المنصور إلى اعتبار نفسه يحكم بأمر من الله مباشرة «إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده»[2] وسيأتي فيما بعد خليفة فاطمي يسمي اسمه الحاكم بأمر الله. كان الخليفة الحاكم المطلق يقبض بيده على السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية. الخليفة هو القائم على بيت المال وقائد الجيوش. وبهذه السلطة المطلقة ما كان لأي من بني البشر أن يحتفظ بخلق حميد. وإن احتفظ به، كما في بعض الحالات النادرة في التاريخ، عجل زبانية القصر على التخلص منه.

كان مقر الخليفة العاصمة ومقر عُماله وممثليه المدن التي ولوا عليها، وهذا كأغلب مجتمعات الإنتاج في النمط الآسيوي الذي اختلف كثيراً عن نظام الإقطاع الأوروبي. الإنتاج الآسيوي يقوم

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ج٨، ص١٢٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص٥٣٣.

Twitter: @ketab_n

على مبدأ لا ملكية خاصة للأرض أي أن الدولة تملك الأرض وتسمح للرعية أن تنتفع منها شرط أن تدفع «خراج». والمدينة لم تنشأ في الشرق مثلاً كمركز للطبقة البورجوازية التي تناهض الإقطاع وتنتصر بديناميكيتها الثورية المتجددة أبداً عليه لتقود المجتمع، بل نشأت كمركز للحاكم وكل عسكره في نظام امبراطورية شديد المركزية (مصر القديمة، دمشق، بغداد إلخ). وهكذا فالمدينة العربية كانت مقر الخليفة ومفكريه وشعرائه وعلماء الدين والتاريخ واللغات والفلكيين. وهنا في هذه المدن الشرقية كان كل ما يتم، يتم تحت الإشراف المباشر للخليفة ورجاله المقربين وعيون شرطته. الحرية هنا كانت هي ما يسمح به الخليفة، وليس ما ينتزعه المواطن من حقوق بعيداً عن سلطة الإقطاعي. بالطبع كان هناك مفكرون خارج فلك الخليفة، لكنهم كانوا قلة وكانوا يتعرضون للملاحقة والمحاصرة (حتى الفقر المدقع) وكانت أعمالهم الأدبية والعلمية والفلسفية تحرق وتدفن وتغسل إذا رغب الخليفة أو أحد عسسه بذلك. فإذا تنعمت البلاد بخليفة ذكي، متسامح يحب العلم والشعر والفكر (حتى ولو لم يكن ذلك سلوكاً دائماً) فلا بد أن يزدهر العلم بذلك، حيث ستكون قصوره حضانة للتقدم والإزدهار، فنحن مدينون لهؤلاء تشجيعهم للفلسفة والعلوم الطبيعية وأجمل ما نُظم من الشعر في العالم كله. إلاّ أنه لم يكن هناك خليفة واحد يضمن أخلاق وبصيرة خلفه.

كان القصر إذاً حاضنة للشعر والفلسفة والرياضيات والتصوف،

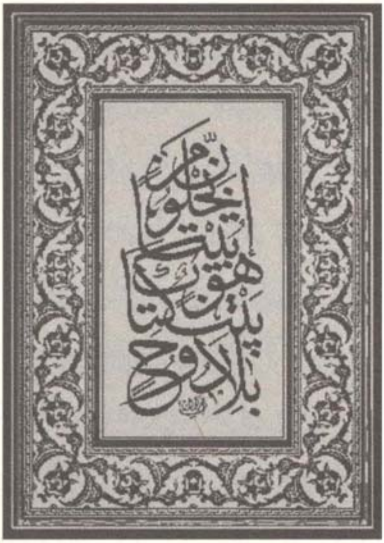
Twitter: @ketab_n

لكنه كان أيضاً مقصلتها. وإن كان قبلة كل ذي موهبة، فإنه كان كالمغناطيس يجذب كل متزلف من أبعد أصقاع الإمبراطورية. وكان الخليفة لا يرضى نقاشاً فرأيه إلّه الموقف. قد يستمع لرأي، قد يدرس لفيلسوف لكنه كان بقناعة إلّهية متعالية، وعلى الأغلب متعجرف متقلب الهوى لا يؤمن له جانب. يجلد من بجّلهم بالأمس ويقطع رقاب معلميه لأقل هفوة. ولذلك لم يتحمل جور الخلفاء إلا من فقد كل عمود أخلاقه الفقري، كالمتنبي وأبي نواس وهم من العباقرة اللغويين وقفزة كمية تاريخية في الشعر. لكن إلى جانب هذه الاسماء اللامعة كانت جيوش من مرتزقي الكلمة تعمل ليل نهار كجوقة موسيقية للخليفة، يطبلون له ويهجون بقذاعة لا مثيل لها خصومه. لذلك ابتعد شرفاء الكلمة كالجاحظ والمعري وأبو حيان التوحيدي وغيرهم عن القصور وعانوا الأمرّين من العزلة، لكنهم تركوا للبشرية أزخر وأنقى إنتاج للعقل. فعندما نقرأ اليوم آراء المعري يمتلئ قلبنا وعقلنا إعجاباً بهذا المفكر الجريء الذي قام في القرن الخامس الهجري بثورة تنويرية كاملة، بينما ينادي بعض الإسلامويين المهلوسين اليوم بأن الحكم الديني (العودة للخلافة وللشريعة) هو الحل السحري لمشاكلنا في القرن الواحد والعشرين.

ابن مقلة لم يبتعد عن القصر وكان هذا بالضبط مطب فرسه. كان سخياً إلى حد التهور، محباً للعلم والأدب والفلسفة. وكان يتابع أعمال عماله في حديقته بكل اهتمام رغم مشاغله في الوزارة (وهو بذلك يشبه الشاعر والباحث الألماني العبقري غوته الذي كان غزير

Twitter: @ketab_n

الإنتاج والبحث العلمي، إلى جانب وزارته، خاصة في علم الضوء) وقد حقق عمال ابن مقلة بعد مرور فترة زمنية نجاحاً طفيفاً بتجاربهم في عالم الطيور، والكلاب والقطط، والخراف والماعز، والحمير والأحصنة، إلاّ أن الكثير من هذه التجارب باءت بالفشل.



وقد شجع التقدم العلمي الذي تحقق آنذاك ابن مقلة على أن يقوم بخطوة أخرى، الخطوة التي كان لها لو تكللت بالنجاح لتحمل اسمه إلى أقاصي المعمورة: ألا وهي توسيع نطاق الخط العربي ليتقاطع مع اللغات الأخرى.

كان ابن مقلة قد درس اللغة العربية والفارسية والآرامية واليونانية واطلع على تطور الخط العربي منذ بدايته حتى أيامه. وكانت الدراسات الدقيقة التي أجراها قد مكنته من أن يبتكر أبجدية عربية جديدة يمكن بها وعبرها نطق أحرف وأصوات كل اللغات التي كانت شائعة في ذلك الوقت. هذا هو سره العظيم الذي حمله لسنوات طويلة في قلبه وعقله.

كان الخليفة «الراضي بالله» يميل إليه، إلاّ أن ابن مقلة كان قد بالغ في ثقته العمياء بنفسه وفي تقدير مكانته وسلطته، فقد ظن أن الخليفة سيقف إلى جانبه لتمرير خطته عبر مضايق الفكر السلفي.

Twitter: @ketab_n

كان «الراضي» آنذاك في الرابعة والعشرين من عمره وكان منفتحاً على العالم وينظم الشعر ويحب النساء والخمرة. إلاّ أنه لم يكن طليق اليد في بلاطه، حاله في ذلك حال الكثيرين من الخلفاء الذين أتوا قبله وبعده[1]، فلقد كان قصره يعج بالخدم والعبيد والحريم

---

(١) وهذه السلطة للخدم والعسكر والحريم لم تبدأ في عصر الراضي بل قبله بكثير. فالخلفاء الراشدين حكموا رغم كل مظاهر ضعف بيعتهم على الأقل برأي أغلبية أصحاب النفوذ في الجماعة وبمشورتهم. عندما استولى الداهية معاوية على الحكم إنتقل به إلى خلافة وراثية في فرع عائلة واحدة من قبيلة. كان الرد العباسي عليها رد عائلة أخرى من القبيلة نفسها لكن هذا لم يتم بأيدي أبناء القبيلة وحدهم بل بمساعدة غرباء. مع دخول العصر العباسي تفاقم وضع الحكم وإن كان النظام قد جلب على الأقل في نصفه الأول إرتقاء ثقافي حضاري علمي لا يضاهى في التاريخ. لكن سلطة الحريم والخدم والأمراء بدأت تأكل أرضية حكم العائلة الواحدة. فالخليفة العباسي الهادي بن المهدي قتله خدم الخيزران أم هارون الرشيد لما علمت أنه يريد حرمان إبنها من ولاية العرش. وابن الرشيد الخليفة العظيم المأمون صعد إلى الحكم على جثة أخيه الأمين بعد أن قتله الجنود الفرس. ومن هنا بدأ الصراع على السلطة يأخذ منحى آخر، أصبح الخدم شركاء فيه. فالغلام بدر ـ خادم المعتضد ـ تولى قيادة الجند، ونقش إسمه على التروس والأعلام. والغلام بجكم ـ خادم المكتفي ـ ترقى في المناصب ـ حتى صار أمير الأمراء وهي أكبر وظيفة في الدولة وجوهر الصقلي ـ خادم المعز ـ تولى قيادة الجيش المتجه لغزو مصر وودعه أولاد الخليفة وأهله ومشوا بين يديه، حتى خرج موكبه من المدينة. وكافور النوبي ـ خادم الإخشيديين ـ وضع يده على عرش مصر وحكمها. وماذا عن حكم المماليك الذين حكموا مصر والشام والعراق لأكثر من قرنين ونصف (١٢٥٠ ـ ١٥١٧)؟=

Twitter: @ketab_n

وأمراء الجيش الذين كانوا يحيكون المؤامرات ويُبعدون فيها كل الإصلاحيين عن الخليفة.

كانت شهرة ابن مقلة وعلمه وثروته الهائلة وبالاً جرّ عليه حقد الآخرين، فلقد كان آنذاك في أوائل الأربعين من عمره وبلغ قمة مجده وغناه. أدرك إبن مقلة حينها بأن الخلافة قد أصابها العفن في

= كانوا برمتهم عبيداً، تسلقوا عبر براعتهم في الجيش إلى أعلى المناصب. ولهم بالطبع إنجازات تاريخية كصد المغول وبناء القاهرة. لكن غالبيتهم تسلطوا عبر مذبحة في القصر. حتى الظاهر بيبرس الشهير قتل سيده قطز بمؤامرة حيث أخذ يده ليقبلها فانحنى الحاكم طرباً لخنوع لتنهال عليه السيوف وتقطع رأسه وتمثل بجثته. وينقل الكاتب الليبي الصادق النيهوم عن الفخري سيرة مؤثرة:

«لما تولى المعتز، قعد خواصه، وأحضروا المنجمين، وقالوا لهم: «أنظروا كم يعيش الخليفة، وكم يبقى في الخلافة؟» وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: «أنا أعلم من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته.» فقالوا له: «فكم تقول انه يعيش، وانه يملك؟» قال: «مهما اراد الأتراك». فلم يبق أحد في المجلس إلا وضحك.

لكن النكتة لم تكن طريفة إلى هذا الحد. فقد قام الأتراك فعلاً، بقتل الخليفة المعتز، بعد أن جروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر» (النيهوم، الصادق، محنة ثقافة مزورة، نجيب الريس، دمشق ١٩٩٧، ص١٠٤).

... «وكان بعضهم يلطمه، وهو يتقي بيده، ثم جعلوه في بيت وسدوا بابه حتى مات، بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه» (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ص٢٤٣).

Twitter: @ketab_n

رأسها، فخشي ألاّ تتحقق أمنيته بتنفيذ خطته التي كانت تجول في رأسه. هذا بالذات أدى إلى تسرعه.

كانت بغداد تموج بالثورات والمؤامرات، وكان ابن مقلة على طبيعته، التي يشاركه فيها كل العباقرة تقريباً من سقراط إلى موزارت وبيكاسو وأينشتاين، معتداً بنفسه، يميل للكبرياء والسخرية، عنيفاً في حبه، وفي بغضه، يكيل لمن يبغضه الصاع صاعين، ويهيل لمن يرضى عنه بلا كيل ويقال إنه وصف نفسه قائلاً: «إذا أحببتُ تهالكت، وإذا أبغضتُ أهلكتُ، وإذا رضيتُ آثرتُ، وإذا غضبتُ أثّرتُ»[1].

كان كثيراً ما يغضب ويفقد صبره فيُعامل موظفي البلاط بخشونة، فخلق بذلك لنفسه في محيط الخليفة أعداءً وأبعد أصدقاءً. إلاّ أنه مع وجود كل هذه الأحقاد والمؤامرات ظل ولفترة طويلة محبباً للخليفة الشاب، وهذا ما أدى إلى زيادة تشبثه بفخره وثقته بذكائه، الأمر الذي أدى إلى عزلة تامة في قصر الخليفة. وقد نصحه بعض الأصدقاء ـ وكانوا محقين بقلقهم عليه ـ أن يبتعد عن القصر وأن يتمتع بشهرته كخطاط موهوب، إلا أن ابن مقلة كان مصرّاً على تنفيذ خطته بإصلاح الأبجدية، والتي احتاج لتنفيذها إلى مساندة الخليفة لمناطحة السلطة الدينية الممثلة بالمسجد. كان يعلم بأنه حتى مجرد الحديث العلني عن الحاجة

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت ١٩٧٧، ج٥/ ١١٧، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار الآفاق، بيروت ج٢/ ٣١١.

Twitter: @ketab_n

لتطوير الخط والأبجدية، سيثير ثورة غضب الأئمة وأنه سيُشتم من فوق المنابر وأن المتزمتين سيتهمونه بالكفر وهذا يقارب الحكم بالإعدام.

كان الخلفاء في تلك الحقبة غريبي الطباع، كانوا يقيمون الليالي الحمراء خلف أسوار قصورهم، وكان في بعض الأحيان أكثر من أربعة آلاف جارية إلى جانب عدد هائل من الغلمان يروّحون عن نفس الخليفة المصاب بمرض الملل المزمن وحاشيته المتكالبة على لذات الزمن، وكان الخلفاء يوقرون الخمر أكثر من الدين، لكنهم كانوا في العلن يرتدون قناع الورع والتعبد، وحتى أحيانا التقشف، يساندهم في ذلك طابور من المنتفعين من فتات طاولاتهم، وكان هؤلاء ينشرون بألسنتهم وأقلامهم الكاذبة قصصاً وقصصاً عن ورع وتقشف خليفتهم، طالما هو على رأس السلطة، ليمتدحوا في اليوم التالي من أسقطه فخلفه، شاتمين الخليفة المخلوع بأقذع الشتائم. لذلك كان الخليفة على علاقة تعايش متبادلة مع أبواق دعايته، يدللها ما دامت تطبل وتغني له، فيمدحونه بدورهم طالما يضمن عيشهم الكسول الطفيلي. وكان فقهاء القصر موكلين بترتيب المحاكمات لمن يغني خارج الجوقة.

كان ابن مقلة يحلم أن يحقق بخطته لإصلاح الخط هدفين اثنين: الهدف المباشر هو التوصل إلى كتابة الخط بطريقة تجعله واضحاً ومفهوماً تسهّل قراءته. أما الهدف البعيد والأهم فقد كان خلق

Twitter: @ketab_n

أبجدية جديدة قادرة على أن تجمع أصوات لغات الأرض كلها وجعل الأحرف أكثر وضوحاً بالنطق وأسهل للكتابة.

ولجعل الخط واضحاً وضع العبقري ابن مقلة إلى جانب مقاييس الحروف خمس قواعد ليصبح شكلها خالياً من العيوب ونسميها هنا باختصار: التوفية، الإتمام، الإكمال، الإشباع والإرسال وتعتني بحسن شكل كل حرف، وأضاف ابن مقلة أربع قواعد وشروط كالترصيف والتأليف والتسطير والتنصيل وهذه القواعد تعنى بحسن وضع الحرف ضمن الكلمة واتصاله أو انفصاله عن الحروف الثانية وكذلك شكل السطر وتنسيقه (باستعمال المدة في الموضع المناسب) بحيث يصبح جميل البداية والنهاية. كما أنه وضع قواعد دقيقة لبدايات الحروف ونهاياتها، وفي علل المَدّات، وأنواع الأحبار، وفي أصناف بري القلم.

لم يكن ابن مقلة يدري بأنه بهدفه الأول وقواعده هذه سيساند أهل السنة وخليفتهم بحربهم ضد الشيعة، حيث كانت الطوائف المغالية منهم، مثل الطائفة الاسماعيلية، يعتبرون القرآن حمّال أوجه ويُخفي في طياته (باطنه) الكثير من التفاسير. وراحت بعض الفرق المغالية إلى أبعد من ذلك، فادعت بأن ما يفهمه العوام من القرآن هو «الظاهر»، وبأن الظاهر هذا ليس إلاّ الغطاء الذي يخفي تحته اللب، «الباطن» في معاني الكلمات، ولهذا سميت هذه الفرقة بـ«الباطنية». وبناءً على تعاليمهم فإن كل كلمة في القرآن لها أكثر من معنى. وقد رفض أنصار السنة هذه الفكرة، وقالوا: ليس لكلمات

Twitter: @ketab_n

الله من تفاسير أخرى غير تلك الواضحة في القرأن أو أوضحها حديث مسند.

كان الخليفة في بغداد ومستشاروه وفلاسفة البلاط والعلماء كلهم ينتمون إلى الطائفة السنية، وكانوا يتسترون في قيادة الحرب ضد الشيعة خلف ادّعائهم بأن هذه الحرب إنما هي معركة الخليفة المؤمن، الذي اختاره الله تعالى، للقضاء على المرتدين والكافرين. لهذا سرهم قيام ابن مقلة بتطويرالخط النسخي وخط الثلث أيما سرور، ليكون بالمقدور كتابة النصوص الدينية وأولها القرآن بخط واضح رقيق، بعيداً عن الزخارف المشوشة للقراءة، ويمنع بذلك الغموض ويعيق فرضية أن للكلمات معان أخرى. وبذلك أصبح الخط النسخي أكثر الخطوط استعمالاً لنسخ القرآن والكتب الدينية الأخرى. وهذا الخط هو الأكثر استعمالاً في طباعة الكتب إلى يومنا هذا.

إذاً صار ابن مقلة سلاح الخليفة يُشهر في الحرب ضد المعارضة الشيعية. إلاّ أنه ـ لا الخليفة ولا العلماء المسلمين ـ كانوا يعلمون بأن ابن مقلة يحمل في قرارة نفسه مخططاً إصلاحياً جذرياً يطول فيه جذور الحروف.

كان الخليفة الراضي يحب ابن مقلة، وكان لا يتوانى عن مدحه في العلن، ولكن لما همس ابن مقلة له ببعض من خطته الإصلاحية أصابته الصدمة، لا سيما بأنه كان قد تم تحريضه ضد هذا الخطاط من قبل أعدائه. فقام الخليفة بتحذير ابن مقلة وبخاصة من ابن رائق، وأشار إليه بأن أعداءه يريدون القضاء عليه.

Twitter: @ketab_n

فهم ابن مقلة من هذا التحذير بأن الخليفة سيكون حليفاً له، وعده بأن يقوم بتنفيذ خطته بحذر أكبر، وبقي مصمماً على ما يريد، وبدأ بنشر أفكاره بحذر في محيط أصدقائه.

كان عدد غير قليل من العلماء والمترجمين المعروفين يشاطرون ابن مقلة الرأي بخصوص أهمية إحداث تغيير جذري في الخط واللغة، لكنهم كانوا على علم بمدى خطورة هذه الخطوة، ففضلوا أن يبقى رأيهم مستتراً.

لم يقم ابن مقلة لهذا الخطر وزناً، لظنه بأن الخليفة الراضي يقف خلفه. تسربت أفكار وخطط ابن مقلة شيئاً فشيئاً إلى أعدائه، فأسرعوا للخليفة يبثون سمومهم وربطوا مشروع الإصلاح اللغوي بشكل مباشر بما فعله إبن مقلة في حديقته من تهجين للحيوان، وقالوا له: إن هذا يدل على أن ابن مقلة لا يريد من خلال ذلك إلاّ الإستهزاء بالذات الإلهية، ولينصب نفسه خالقاً بدلاً منه. والآن يريد التطاول على لغة القرآن! عندها حذر الخليفة ابن مقلة بخطورة الوضع، ونصحه أن يخلع هذه الفكرة من رأسه، إلاّ أن ابن مقلة ـ الذي كان مؤمناً ببصيرته، واثقاً إلى حد كبير بنقاء قلبه ـ لم ير بأن ما يرمي إليه كان مصدره نقد للقرآن أو التشكيك به، فأكّد للخليفة بأن الموت أحب إليه من أن يشكك بكلمة واحدة من هذا الكتاب، بل وعلى العكس، إنه يريد تبسيط وتوسيع الخط العربي واللغة العربية وفتح بابها ليدخلها أبناء الشعوب المسلمة. ثم تفرق الإثنان بسوء فهم خطير، حيث ظن كل منهم بأنه قد أقنع الآخر بفكرته.

Twitter: @ketab_n

إستخف ابن مقلة بأعدائه، فكان هذا خطأه الأكبر.

لم يرفض الخليفة في البداية مشروع الإصلاح الذي كان ابن مقلة ينوي القيام به بشدة، إلاّ أن رجال الدين هددوه ـ في حال رضي بتغيير الخط ـ فإنهم سيرفضون طاعته ويبقون أوفياء للإسلام فيلجأون لقادته العسكريين.

لكي نفهم موقف الراضي دون أن نقبله، علينا أن نعرف أن هذا الخليفة قد عاش عن قرب مقتل أبيه المقتدر على يد بعض الغوغائيين، وشاهد عزل عمه «القاهر» واعتقاله[1]، ونجا هو أيضاً بإعجوبة من محاولة اغتيال أرادت رأسه، كان يعلم ما الذي يعنيه رجال الدين بتهديدهم هذا.

هنا حدث شيء ألقى ضوءاً غريباً على شخصية الخليفة الضعيفة أو لِنَقُلْهَا بشكل آخر، على دهاء وزرائه وحاشية قصره. فقد تم اختطاف ابن مقلة من قبل غلمان عدوّيه المظفر بن ياقوت وابن رائق في أحد ممرات القصر، بينما كان هذا في طريقه إلى الخليفة

(١) خُلع المقتدر وبويع عبد الله بن المعتز كخليفة لكن ليوم واحد فقط!!! إذ هاجمه أتباع المقتدر وأعادوا المقتدر للسلطة، الذي أمر فوراً بقتل عبد الله ابن المعتز. لم ينعم المقتدر طويلا بخلافته إذ إن أمير جيشه مؤنس المظفر ثار عليه فقاتله وقتله في عام ٩٣٢ (الفخري، ص٢٦٥) وبايع أخي المقتدر القاهر بالله. وكان هذا طائشاً عنيفاً سفاكاً للدماء، مثّل بأهل بيت أخيه كوحش دنيء ولم يخجل من تعذيب الأطفال والنساء. هاجمه الجنود بعد سنتين فقط من توليه السلطة وطردوه بعد أن سملوا عينيه، فدار يشحذ على أبواب الجوامع (الفخري، ص٢٧٦).

Twitter: @ketab_n

الذي دعاه لزيارته، وقام المراوغون بتعذيبه وقالوا للراضي بأن الخطاط قد تآمر عليه وبأنه كان يخطط للإطاحة برأسه وإسقاطه عن عرشه. عندها غضب الخليفة وأمر باعتقال ابن مقلة (المعتقل في قصره!!!)، بدون أن يسأله بنفسه أو حتى يراه.

وتنقل لنا الأخبار قصة اعتقال ابن مقلة وكأنها مأخوذة من فيلم عربي بوليسي سيء الإخراج.

تقول هذه الرواية: حاك المظفر بن ياقوت في عام ٩٣٦ مؤامرة ضد ابن مقلة، واحتال في القبض عليه (ويقال إن الخليفة أذعن لأمر ابن رائق المشترك بالمؤامرة وأرسل يدعو ابن مقلة لزيارته، وللسكن في قصره حرصاً على سلامته. وقيل الكثير غير ذلك) فاتفق مع الغلمان الذين يعملون في دار الخلافة بإلقاء القبض عليه فور دخوله دهليز دار الخلافة، وأفهم الوزير المظفر الغلمان أن الخليفة لا يعارض هذا الإجراء وربما سره ذلك لأنه هو الذي أمر بالقبض على الكافر إبن مقلة متى دخل هذا دار الخلافة، فلما مرّ ابن مقلة في الدهليز هجم عليه ابن ياقوت والغلمان فقبضوا عليه واعتقلوه ثم أرسل ابن ياقوت بياناً للخليفة في سبب الاعتقال عدّد فيه ذنوبه وأخطاءه التي تستدعي ما فعله به (أنظر بربك إلى هذه الكذبة فبدلاً من أن يسوقه كأسير إلى الخليفة يرسل اليه تقريراً وهوعلى بعد أمتار من مكان القبض على ابن مقلة). ووافق الخليفة على تقرير ابن ياقوت وعزل ابن مقلة عن الوزارة، وقلّدت لعبد الرحمن بن عيسى الذي راح يهين ابن مقلة (وفي بعض الروايات

Twitter: @ketab_n

تناوب ذلك مع ابن ياقوت)، ويضربه بالمقارع، ويكيل له ألوان التعذيب من التعليق بالحبال والضرب وغير ذلك. ثُم صودرت أمواله. وحرق قصره وما لم تلتهمه النيران من القصر سرقه جياع بغداد.

أشاع الدساسون بأن ابن مقلة قد تآمر على الخليفة، وكان أصدقاؤه من الجبن بمكان فلم يدافعوا عنه أو يقوموا بأي شيء لرد الإعتبار إليه، وتركوا أعداءه يعيثون فساداً في تاريخ هذا العبقري.

والتفسير المنطقي أن الخليفة الراضي لم يكن ليرغب أن يعاقب ابن مقلة وجهاً لوجه، فهو وزيره ومربيه، فأمر أمراءه وموظفي بلاطه بالقيام بهذه المهمة الوسخة، لكن ابن مقلة ـ على ما يبدو ـ لم يُذعن برغم العذاب، ولم يفشِ بتفاصيل ما يريده من إصلاح. فثأر أعداؤه منه بقطع يده اليمنى بإيعاز مباشر من ابن رائق، وفي بعض المصادر تخترع جلسة للخليفة مع قواده العسكريين، الذين اقترحوا عليه عقاب ابن مقلة بقطع يده، لأنه بحسب هذه الرواية كان يذم بكتاباته ابن رائق الذي اغتصب أمواله. هكذا عند الذهبي في سير أعلام النبلاء حيث يكتب: «حدثنا الحسن بن مقلة عن سبب قطع يد أخيه فقال: «كان سبب قطع يد أخي كلمة. كان قد استقام أمره مع الراضي، وابن رائق، وأمرا بردّ ضياعه، ودافع ناس (يعني عن تصرف ابن رائق تجاهه) فكتب أخي يعتب عليهم بكلام غليظ، وكنا نشير عليه أن يستعمل ضد ذلك فيقول: «والله

Twitter: @ketab_n

لا ذللتُ لهذا الوضيع». زاره صديق ابن رائق، ومدبّر دولته، فما قام له».

فما هذه السير المتضاربة؟ حتى إن ما يقال على لسان أخيه لا يمكن أن يكون سبب قطع يد أو لسان لرجل بوزن ابن مقلة.

... ثم يقال إن الخليفة إستفتى الفقهاء فأشاروا عليه بقطع يد ابن مقلة (هكذا في سير أعلام النبلاء).

وبدلاً من أن يبحث مؤرخونا الأشاوس عن مبرر لهذا العقاب، الذي يوصف أولاً بأنه جزاء على مؤامرة ضد الخليفة، ويتحول إلى جزاء على صراع بين مراكز القوى في بلاط الخليفة، وليُمسخ أخيراً إلى قزم، إلى مجرد صراع على استرداد أملاك صودرت مما لم يستوجب يوماً قطع أيادٍ. وفجأة يفتي الفقهاء في صراع مدني حول ملك وسلطة بقطع يد لها فضل كبير على العربية والإسلام. تدهشني صفاقة مزوري التاريخ، فبدل أن يهتم المؤرخون بهذه التناقضات الصارخة، يتسابقون لإعلان ما لا قيمة له وبدقة تصل إلى التشويق الرخيص، وكأنهم كتّاب صحف رخيصة. إن يده المقطوعة ألقيت في دجلة، ولم يبق من اجتهاد لهم، إلا أن يحددوا نوع السمك الذي التهمها.

وهنا تأتي قمة ثانية من قمم السخف القصصي: فهذا الخليفة الذي قيل له إن ابن مقلة تآمر عليه، عاد وندم على إصداره ذلك الأمر المجحف بحق أعظم خطاطي التاريخ العربي، وأمر طبيبه الخاص بمعالجة المتآمر عليه في سجنه، وفي ذلك قال ابو الحسن

Twitter: @ketab_n

ثابت بن سنان بن قرة (وهو طبيب ومؤرخ بغدادي له أكثر من مئة وخمسين كتاباً)، طبيب الخليفة الخاص، الذي زار ابن مقلة في سجنه لمعالجته: «كنت إذا دخلت عليه في تلك الحال يسألني عن أحوال ولده أبي الحسين، فأعرفه أحواله، فتطيب نفسه، ثم ينوح على يده ويبكي، فأسليه وأقول له: (هذا انتهاء المكروه وخاتمة القطوع») فينشدني ويقول: «إذا ما مات بعضك فأَبكِ بعضاً فإن البعض من بعض قريب».

وتتابع الرواية أن هذا الظلم لم يرق للخليفة (أي بقاء ابن مقلة في السجن) فأرسل إليه من يخلي سبيله وأكرمه وصار يجالسه كصديق ورشحه للوزارة من جديد.

هذه الأقوال تفضح كذبة التآمر على الخليفة، التي أشاعها مؤرخو القصر ويدحضها من أساسها بأن ابن مقلة لم يُقتل ـ كما كان العقاب الشائع آنذاك لكل متآمرعلى سلطان الخليفة ـ بل إن الخليفة أرسل إليه طبيبه الخاص ليعالج جروحه وحتى أنه قد دعاه للطعام بعد أيام، وعينه مجدداً وزيراً له.

وقد قال إبن مقلة منادياً أصحابه الذين تخاذلوا وابتعدوا عنه أيام محنته:

تحالف الناس والزمان
فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم
فانكشف الناس لي وبانوا

Twitter: @ketab_n

يـا أيــهــا الــمــعــرضــون عــنــي

عــودوا فــقــد عــاد الـــزمـــان[1]

ظل ابن مقلة طوال عمره يشكو تشويهه ويقول: «يدي قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء، وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص».

كان عمره آنذاك خمسون سنة ولم يرض الإستسلام للأمر الواقع، فاخترع رباطاً ثبت فيها ريشته على معصمه المقطوع وبدأ يخط من جديد. إلاّ أن خطه فقد الكثير من جماله.

أسس ابن مقلة أول مدرسة للخط ليهب علمه للآخرين، ولكي يخلق مجموعة من الموهوبين الذين يفهمون خطة الإصلاح، التي كان يصبو إليها ليحتفظوا بها ويمنحوها لمن بعدهم فيما لو أصابه مكروه. لقد أراد أن يزرع معرفته ويقينه في قلوب الخطاطين الشباب، كي ينتصر على الموت. إلاّ أنه لم يكن يدري بأنه بذلك قد خطا خطوة أخرى باتجاه الفخ الذي نصبه له أعداؤه، فقام هؤلاء وصوّروا للخليفة بأن خططه في المدرسة ما هي إلاّ مؤامرة جديدة هدفها الإطاحة برأسه. غضب الخليفة على ابن مقلة لأنه لم يصغ لنصائحه، فطلب من ابن رائق أن يضعه تحت الإقامة الجبرية في بيت معزول عن المدينة، وبأن يمنعه من إباحة أسراره

(١) الأبشيهي، شهاب الدين، المستطرف في كل فن مستظرف، دار الفكر (بدون تاريخ ومكان الطبع) ج٢، ص٤٦.

Twitter: @ketab_n

لأي إنسان كان. فقام ابن رائق بقطع لسان العبقري ابن مقلة ورماه في سجن يقع على حدود الصحراء، كي يعيش هناك معزولاً ذليلاً لا يقدم له أحد جرعة ماء، إذ كان عليه أن يستقي الماء من بئر وكان يستعين بيده اليسرى تارة وبأسنانه طورا للإمساك بحبل الدلو. ولم تتمكن أصوات المعارضة التي انطلقت من أفواه الشعراء والعلماء أن تسعفه، فلقد كانت سلطة القصر قد آلت عملياً إلى ابن رائق.

مات ابن مقلة في سنة (٣٢٨ هـ/ ٩٤٠م) ذليلاً، وكانت شهرته آنذاك قد طارت فملأت العالم العربي والإسلامي كله... وما زالت إلى اليوم رغم أنف أعدائه.

كل سيرة هذا العبقري التي ثبتها أعداؤه في كتب كثيرة، تعتبر برأيي كذبة رخيصة. حتى بعد مماته لم يكلوا عن تشويه تاريخه. فبدل أن يفتش من سمّوا أنفسهم مؤرخين عن السبب وعن رمز قطع اليد اليمنى التي وهبتنا جمالاً لا يقاس لخطاط ومثقف، وعن رمز قطع اللسان في قصر لم يترك إباحة إلا وقام بها. إخترعوا ثلاثية ليصبح كل شيء في ضباب الصدفة والقدرية. ليصبح خرافة مهلهلة تثير الضحك والعجب. أكدوا ـ وقد نُسِخَ هذا الخبر السخيف من كل من تَبِعَهُم ـ أن ابن مقلة هو الوحيد الذي تقلد ثلاث مرات الوزارة عند ثلاثة خلفاء وقام بثلاث رحلات واختفى ثلاث مرات وأن منازله أحرقت ثلاث مرات وأنه دفن ثلاث مرات. لنترك هذه الخرافات التي تثير ضباباً بدل أن تنير ظلمة، ولنعود إلى برهاننا أن

Twitter: @ketab_n

كل السيرة التي كتبت رسمياً عن إبن مقلة كاذبة وأن شطحات خيال هذه الأسطر لتكريمه فيها حقيقة أكثر مما قدمه كل مؤرخي السلاطين... الفصل الأخير من المأساة.

وقف أكبر شعراء عصره مثل ابن الرومي والصولي حينها على قبره ينعون وفاته. ولو كان ابن مقلة متورطاً بمؤامرة ضد الخليفة أو ضد القرآن ـ كما كان يدّعي أعداؤه ـ لما تجرأ أي شاعر كان على أن يمدحه أو يبدي الحزن على رحيله علناً.

أنشد الصولي محدداً بدقة وشجاعة سبب قطع يد هذا العبقري:

لئن قطعوا يمنى يديه لخوفهم
لأقلامه لا للسيوف الصوارم
فما قطعوا رأياً إذا ما أجاله
رأيت الردى بين اللها والغلاصم

وقال ابن الرومي على قبره:

كذا قضى الله للأقلام منذ بُريت
أن السيوف لها منذ أُرهفت خدم
وكل صاحب سيف دائماً أبداً
ما زال يتبع ما يجري به القلم

وابن الرومي كان من فطاحل عصره وعبقري لغة، سليط اللسان على أعدائه، وقد رفع أبو العلاء المعري قدره مع الشاعر دعبل الخزاعي كأفضل شاعرين في القرن الثالث الهجري قائلاً:

Twitter: @ketab_n

لـو أنــصــف الــدهــر هــجــا أهــلــه

كـــأنـــه الـــرومـــي أو دعـــبـــل

لكن للرومي قصائد تفتت القلب في رثاء أولاده الذين ماتوا أطفالاً.

طرفة عن شجاعة إبن الرومي

كان عفيف النفس، عاش فقيراً، إبتعد عن وظائف القصر ومعشر الخلفاء ولم يتقلد رغم ذياع صيته كعلامة لغوي وشاعر فطحل حتى وظيفة كاتب لدى وزير. لكن حتى هذا لم يشفع له، فلقد قتله الوزير أبو الحسين القاسم بن وهب الذي خشي هجاء إبن الرومي، فدس عليه ابن فراش فأطعمه هذا سماً وهو في مجلسه، فلما أحس إبن الرومي بالسم قام، فقال له الوزير ساخراً: «إلى أين تذهب؟» فأجاب إبن الرومي: «إلى الموضع الذي بعثتني إليه»، فقال له: «سلم على والدي». فأجاب إبن الرومي: «ما طريقي إلى النار».

لا شك أن مقولة «ما اصنعه سيبقى للأبد»، التي تلصق بابن مقلة للدلالة على إعجابه وفخره بذاته فيها الكثير من العجرفة وقصر النظر في أمور دنيانا الفانية. لكن قواعد الخط التي وضعها مهندسنا العبقري لا تزال سارية المفعول وتحمل رغم أنف أعدائه اسمه بعد أكثر من ألف سنة، بينما اضمحل أثر أعدائه لغبار لا وجه ولا اسم له.

قرأ الأمير المقالة وتحدثنا عن بعض فرضيات هذه الوريقات

Twitter: @ketab_n

وكان الأمير يؤيد أغلبها. وأمضينا ذلك النهار في رحاب فن إبن مقلة، وعندما حان موعد عشائه وانصرافي، نهضت مودعاً فأمسك يدي: «هل كتبت شيئاً آخر عن الخط للألمان؟ لديّ شعور أن لديك أكثر من هذا؟» ضحكت وقلت له: «كتبت مقالتين في هذا المضمار واحدة عن موسيقى الخط العربي وواحدة عن حاجة اللغة العربية للإصلاح».

«حسناً»، أجاب الأمير، «غداً سأجري العملية الثانية وسيجبرني الأطباء على قطيعتك لأيام فأرجوك ان تترجم المقالتين».

لم يسمح لي الوقت سوى بترجمة المقال الصغير عن موسيقى الخط العربي. فما أن عدت يومها إلى البيت حتى جرفتني مشكلة لم يكن لها حسبان. كانت المسألة خطيرة وعرضتني لفقدان الحق بالإقامة في المانيا وإجباري على مغادرة البلد خلال فترة قصيرة. والقصة أسخف من أن يخترعها مؤلف من الدرجة العاشرة، لكن هكذا هي الحياة تمطر علينا مآسٍ بطولية وسخافات منهكة. كنت قبل أشهر قد طلبت من سفارتي تجديد جواز سفري، فماطلت ثم جددته، ولم أراقب وأقارن تاريخ إصدار جواز السفر الجديد وتاريخ انتهاء صلاحية جواز السفر القديم. لكن موظف الأحوال المدنية الألماني لاحظ، وهو الخبير الخبيث بالتفتيش عن العثرات، أن هناك فارق أسبوع بين تاريخ جواز السفرين القديم والجديد وهذا يعني، حسب القانون الألماني، أني أمضيت أسبوعاً كاملاً بلا أوراق ولا سماح بالإقامة، وجزاء مثل هذه «الإقامة

Twitter: @ketab_n

السرية غير القانونية» حسب تعبير الموظف البولوني الأصل، والذي تبين لي فيما بعد أنه يكره العرب، هو الطرد. لم تشفع لي شهادة رئيس الأطباء في المستشفى أني كنت طوال ذلك الأسبوع أرافق رسمياً مريضاً مهماً (وأكد الرجل الشهم في رسالته أن عملي مهم للعلاقات بين ألمانيا والإمارة البترولية) ولم يشفع لي قبول السفارة السورية أن تتحمل هي المسؤولية، وكانت هذه الإلتفاتة مدهشة لي، لأني تلفنت آنذاك للمسؤول الثقافي بغضب قائلاً له: «يا سيد، إن كنتم تكرهون شخصي فهذا حقكم، وهو كره متبادل، لكن أن توقعوا بي، وأنا مواطن سوري، أمام السلطات الألمانية لتطردني من المانيا، فهذا خسيس وجبان». نعم خسيس وجبان قلت له. تأثر الرجل ولم يغضب. قال: «نحن لدينا اختلاف معك، لكننا أبداً لن نعرض سوري لرحمة السلطات الألمانية. هذا خطأ موظف لدينا ونحن سنتحمل أعباء هذا الخطأ». إعتذرت عن كلماتي النابية. بعد يومين وصلتني نسخة رسالة رسمية من سفارتي للسلطات الألمانية. لكن الموظف الألماني رفض ـ بعد تشاوره مع خبير في الحقوق الدولية أحقر منه ـ تصحيح السفارة بحجة أن السفارة لا حق لها بالتدخل في القانون الألماني الذي خالفته أنا. وأعطاني أمر مغادرة البلد خلال ثلاثة أسابيع. لكن محاميّ متخصص بقضايا الأجانب قال لي: إن هذا الموظف لا يحق له أصلاً طردي، وإننا سنرفع دعوى عليه وعلى الدولة التي سمحت له (لأن رئيس دائرة الهجرة وافق وهو ممثل الدولة على طردي بتوقيعه الأمر وختمه بخاتم

Twitter: @ketab_n

الدولة دون أن يقرأ ما تحتويه الورقة من مغالطات حقوقية). كسبت وقتاً لأن السلطات وافقت على تمديد الإقامة حتى انتهاء القضية في المحكمة. وهذا ما سمح لي بالعودة لمرافقة الأمير. ولإختصار الحديث أقول إني ربحت الدعوى بعد ثلاثة أشهر ضد الدولة الألمانية بسلطة القضاء النزيه وبراعة المحامي، الذي مدح دوري الثقافي في المانيا. فليتصور القارئ هذا الأمر: أجنبي فقير «مقطوع من شجرة» كما نقول بالعامية الدمشقية، يقاضي الدولة ويربح الدعوى ضدها!!!



بعد حوالى الأسبوع سمح لي رئيس القسم بزيارة حكيم في جناحه. كانت العملية الثانية أصعب مما توقعه الخبراء، لكنها نجحت وكان الطبيب المسؤول متفائلاً في أن نقاهة الأمير وشفاءه يسيران على ما يرام. زرته وأعطيته المقالة لكنه رجاني أن أقرأها له.

Twitter: @ketab_n

الخط العربي موسيقى تطرب العيون

اللغة العربية هي اللغة الأم لأكثر من ٣٠٠ مليون عربي، ويستعمل الخط العربي اليوم أكثر من مليار مسلم في الكثير من الدول (منها الباكستان وإيران، إلخ..) وهي من أكثر لغات العالم إنتشارا إلى جانب اللاتينية والمندرينية (الصينية).

كان اختراع الأبجدية من قبل الفينيقيين حدثاً ثورياً لا يمكن قياس تأثيره على الإنسانية جمعاء. وكان تأثيره يضاهي اختراع العجلة حيث ساهم بقفزة هائلة في تطور الثقافة الإنسانية.

الأبجدية الفينيقية تركت طريق التعبيرعما يريد الإنسان قوله بالصور والرموز واعتمدت على تصوير الصوت بحروف. وكل حرف لا يمثل بحد ذاته شيئاً، ولا معنى له لكن وظيفته تكمن في تسجيل أبدي لصوت من الأصوات الصادرة عن الفم. وكأنه آلة مسجلة تعيد إعطاء الصوت كلما قرأنا الحرف. وانتصرت هذه الأبجدية الجديدة على الأبجديات السائدة بفضل ديناميكيتها وقدرتها عن التعبير بأحرف قليلة عن الكثير من المصطلحات المادية، أوحتى المُجرّدة والقيام بكتابتها بوضوح أكثر بكثير من كل

Twitter: @ketab_n

الرموز والصور الأخرى (الهيروغليفية مثلاً). ومن هذه الأبجدية تطورت أبجديات أخرى، كاليونانية والآرامية.

إنتشرت الآرامية من سوريا إلى شمال أفريقيا، وعبر الشرق والجزيرة العربية حتى وصلت إلى الهند. ومن الآرامية تطورت بدورها كل من العبرية والعربية.

هناك شبه كبير بين الآرامية والعربية يبرهن على صلة القربى بينهما، ويزداد هذا التشابه ليصبح شبه تطابق مع النبطية التي انحدرت من الآرامية. والأنباط عرب عاشوا في جنوب العراق وسوريا وشمال الحجاز والأردن وفلسطين وحتى سيناء، وكانوا أصحاب تجارة وزراعة، وتركوا أروع الآثار: مدينة البتراء المنحوتة بالصخر.

النبطية تكتب من اليمين لليسار دوماً، تملك ٢٢ حرفاً كلها موجودة بالعربية، وفيها شبه شديد للغتنا العربية الحالية مثل الحروف التي لا تتصل يساراً (د، ز، ر، و) هي نفسها باللغتين...إلخ. فالأبجدية العربية أخذت إذن طابعها النهائي عبر المرور بمرحلة إنتقالية عن طريق الأبجدية النبطية لتتجاوزها فيما بعد عبر توسع رقعة البلاد العربية والإسلامية.

لكن اللغة العربية كانت ككل اللغات قبل أن تكتب ولمئات القرون لغة شفهية. تعددت لهجات العرب قبل الإسلام واختلفت اللهجة من قبيلة وموضع إلى قبيلة وموضع آخر. واللهجة لغة تعني: لَهِجَ بالأَمرِ لَهَجاً، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ كلاهما: أُولِعَ به واعْتادَه، وأَلْهَجْتُه به. واللَّهَجُ بالشيء: الوُلوعُ به.

Twitter: @ketab_n

واللَّهْجَةُ واللَّهَجَةُ: طَرَفُ اللِّسان. واللَّهْجةُ واللَّهَجةُ: جَرْسُ الكلامِ، والفتحُ أَعلى. ويقال: فلان فصيحُ اللَّهْجَةِ واللَّهَجةِ، وهي لغته التي جُبِلَ عليها فاعتادَها ونشأَ عليها.

لغتنا العربية اليوم هي ابنة لهجة قريش، التي انتصرت سياسياً وتاريخياً بظهور النبي العربي على كل القبائل الأخرى. ومما لا شك فيه أن لهجة قريش تأهلت تاريخياً، حتى قبل الإسلام، لتصبح أغنى اللهجات العربية، وذلك لكون قريش قد تنعمت بموقع جغرافي مناسب جداً، وهذا الموقع أثّر أيضاً على أبناء هذه القبيلة فاهتموا بالتجارة. وكلا العاملين ـ الموقع والتجارة ـ سمحا لقريش بالإختلاط بالأمم والقبائل الأخرى أكثر من أية قبيلة أخرى، فلقد كان لقريش احتكاك وعلاقات مع بلاد الشام والعراق ومصر والحبشة واليمن وفارس والهند. لكن هذا التفوق لم يكن كاسحاً ساحقاً كما يبين فاروق مواسي: «ثم إن الأسواق التجارية الأدبية كعكاظ مثلاً لم يكن لقريش فيها هيمنة لغوية، فالنابغة الذبياني الذي ضربت له قبة من أدم ليحكم بين الشعراء، وكذلك الخنساء وحسان بن ثابت ممن كانوا يتنافسون على القول، فهؤلاء لم يكونوا من قريش، بل لا نعلم عن أي حَكَم قرشي في هذه الأسواق المختلفة... من هنا أصل إلى أن الفصاحة لم تكن لقريش حصرًا وقصرًا، وهذا لا ينفي بالطبع أنها فصيحة ـ شأنها شأن القبائل الأخرى، فليس ثمة إثبات قاطع على أن القرآن نزل بلغة قريش بالذات»(١).

---

(١) مواسي، فاروق، الفصاحة ودلالتها، وهل هي لغة قريش تخصيصًا، =

Twitter: @ketab_n

ويؤكد المفكر والمؤرخ العراقي جواد علي في بحث تفصيلي عن اللهجات واللغة الفصحى ولغة القرآن على امتداد أكثر من مئة وثلاثين صفحة من موسوعته التاريخية: «أن القرآن نزل بلسان عربي مبين: و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[1]، ولم يذكر القرآن أنه نزل بلغة قريش بالذات وبالحصر، فلغة العرب تشمل المهاجرين والأنصار والبادين والحاضرين والقبائل، والمنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية وخارجها، بمعنى آخر قريش وسواها»[2].

يبدو أن زعامات قريش المتتالية ـ كما يؤكد المؤرخون ـ وإن لم تسيطر قبيلتهم بقوة السلاح على الجزيرة، كانوا من أذكى زعامات العرب وأكثرهم حنكة سياسياً، فلقد أدخلت هذه الزعامات شيئاً ما من النظام إلى فوضوية البدو. وهي، كما تبين الدلائل التاريخية، التي أقنعت البدو بتحريم الغزو والقتال والثأر في أربعة أشهر «الأشهر الحرم» من كل عام ليتيح ذلك لها عقد لقاءات واحتفالات وأسواق شعرية وتجارية في مكة، وبالتالي أصبحت مكة، حتى قبل الإسلام، مركزاً يتمتع بجاذبية كبيرة. وقريش إستفادت من ذلك

= موقع جمعية الترجمة وحوار الثقافات، أيلول ٢٠٠٦ وأعيد نشرها في عدة مواقع منها مجلة نزوى الثقافية في ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٩. كما أن للباحث فاروق مواسي موقعاً مميزاً في الإنترنت.

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٢) جواد، علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ط ٢، ١٩٧٨، ج٨، ص ٥٦٢ ـ ٦٩٣.

Twitter: @ketab_n

بتمرير قوافلها بأقل ما يمكن من النفقات عبر أراضي القبائل الأخرى، وسمحت هذه المركزية لمكة بالتطور السريع لتفوق كل حواضر الجزيرة العربية. ويقال إن قريش لم تبخل على أية قبيلة بنصب أصنام تقدسها هذه القبيلة، حتى بلغ عدد الأصنام في مكة ثلاثمائة وستين صنماً تحت قيادة «هبل» شيخ الأوثان وصنم قريش المفضل.

طرفة:

يذكر البلاذري في «فتوح البلدان» أسماء أربعة وعشرين شخصاً من مكة كانوا يعرفون الكتابة والقراءة في تلك الفترة. سبعة عشر من الذكور وسبع من النساء. وهذا يعود لتمتع مكة كما ذكرنا بمميزات المركز التجاري الأكبر والذي ألزم أهاليها بعقد المعاهدات والصفقات التجارية وحتى الصكوك التي عرفها أهل مكة والتي سيصبح مفردها الصك مصدر لكلمة شيك التي يستعملها العالم المصرفي اليوم. أما في يثرب فقد كانت الكتابة أقل انتشاراً، إذ لم يكن فيها إلا عدد صغير ممن يعرفون الكتابة في فجر الإسلام.

على أي حال، بانتصار قريش إنتصرت لهجتها وأصبحت اللغة العربية الرسمية. ولم يتوان أنصار قريش عن مدح لهجتها وذم اللهجات الأخرى وفي ذلك يقول السيوطي نقلاً عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب: «إرتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء».

Twitter: @ketab_n

أنظر لمزيد من المعلومات، لا يتسع لها المجال هنا، البحث الشيق الذي أنجزه العلامة المصري إبراهيم أنيس في أواسط الأربعينيات من القرن الماضي وجمع نتائجه في كتابه الفريد «في اللهجات العربية» الذي صدر بعدة طبعات، وقد خصص هناك ملحقاً هاماً بعشرين فقرة[1] للدلالة المعجمية على أصول اللهجات ونسبها لقبائل أو أمكنة محددة في شبه الجزيرة العربية. وقد اعتمد المفكر لويس عوض في كتابه «مقدمة في فقه اللغة العربية» في شرح أغلب اللهجات على هذا الكتاب القيم، وزاد باجتهاده بعض اللهجات التي اكتشفها وأطلق عليها إسما خاصا[2].

قبل الخط إعتمد العربي على ذاكرته. ويكتب المفكر الراحل عبد الكبير الخطيبي في هذا الشأن: «من أجل تعويض غياب الخط تُنظِّمُ الذاكرة الفضاء وتنسقه في بعض القصائد والأمثال، هذه الجغرافية، الحقيقة المجموعة في الأمثال التي تَمكِّن البدوي من التحكم في الصحراء، وبالتالي فإنه يجد طريقه وهو مزود بهذه القصائد والأمثال»[3]. وهذا ما سيشجع تدريب ذاكرته على الحفظ التي

---

(١) أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، دار المكتبة المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٩٦٥، ص ٢٠٩ ـ ٢٧٩.

(٢) عوض، لويس، مقدمة في فقه اللغة العربية، دار رؤية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٦٤ ـ ٦٨.

(٣) الخطيبي، عبد الكبير، الإسم العربي الجريح، ترجمة محمد بنيس، منشورات الجمل، بغداد ـ بيروت، ٢٠٠٩، ص٢٩.

Twitter: @ketab_n

كانت في زمن الشفاهية نعمة وستصبح سالفاً نقمة إسمها «الحفظ بصماً دون فهم». (أنظر فصل: أسباب خمود الإصلاح اللغوي) والتي سنمر عليها فيما بعد.

إنتقلت العربية إذن عبر مخاض طويل من الشفاهية إلى الكتابية وتطورالخط العربي أيضاً[١]. وبمرور القرون تحول الخط العربي شيئاً فشيئاً حتى أخذ صورته الحالية وهذا ما سنعود إليه. من جهة أخرى طورالنحاة عبرعدة قرون تلت ظهور الإسلام قواعد وأسس لهذه اللغة زادت من متانتها من جهة، وعقدتها بدون مبرر إلى حدود مذهلة من جهة أخرى، وكأن الهدف منها إبعاد غالبية الشعب عن الإمساك بنواصي اللغة، نذكر منها حذلقة كان وأخواتها وإن وبنات عمها.

إنتشرت الأبجدية العربية انتشاراً بطيئاً، بالرغم من الإكتساح العسكري السريع، الذي مكن العرب خلال أقل من مئة سنة من أن يصبحوا الإمبراطورية الأكثر ديناميكية في ذاك الوقت في آسيا وعبرحوض البحر المتوسط إلى شمال أفريقيا ومنها إلى تخوم أوروبا الجنوبية. وبما أن القرآن لم يُسمَح بترجمته إلى اللغات الأخرى، كان على الشعوب التي دخلت الإسلام تعلم اللغة العربية حتى يتسنى لها الصلاة. لكن انتشار اللغة العربية كبديل للغات

---

(١) أنظر البحث الشيق حول مغامرات الخط وتطوره في موسوعة جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٤٤ ـ ٢٩٠، وكتاب فوزي سالم، نشأة وتطور الكتابة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠.

Twitter: @ketab_n

المحلية لم يحظ بحظ النصر العسكري. فكثير من الشعوب احتفظت بلغتها وظلت العربية لغة المسجد والدوائر والقصور. هذا لم يمنع من استخدام الحرف العربي في كتابة كثير من اللغات آنذاك كالفارسية والعثمانية ـ التركية ولغة الأوردو والكردية وكثير من لغات البلقان وآسيا الجنوبية وإفريقيا، وفي بعض الأوقات كانت حتى اللغات الإسبانية والبرتغالية والسواحلية تُكتب بالحروف العربية، التي كانت آنذاك لغة المدنية كما هو الحال في أيامنا مع اللغة الإنكليزية.

تُكتب اللغة العربية من اليمين إلى اليسار، وتتألف أبجديتها من ثمانية وعشرين حرفاً منها ثلاثة حروف تُسمى حروف المد واللين (حروف العلة الطويلة)، وهي «الألف» و«الواو» و«الياء».

تتم كتابة الكلمات العربية بوصل الحروف مع بعضها في أكثر الأحوال، سواء أكانت الكتابة بخط اليد أم طباعة، ويُكتب كل حرف فيها، كما قلنا أعلاه، بأربعة أشكال مختلفة، تختلف بحسب موقع الحرف في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها أو معزولاً، وبذلك تختلف عن الأبجدية اللاتينية التي تُكتب الأحرف مطبعياً منفصلة عن بعضها وبطريقتين فقط، بالحرف الكبير أو الحرف الصغير كما ذكرنا أعلاه.

الصعوبة الأخرى التي تتسم بها اللغة العربية تكمن في إمكانية وصل كل حرف من إثنين وعشرين حرفاً منها بحرف آخر يساراً ويميناً، وأما الحروف (أ، ر، ز، د، ذ، و) فلا يصح ربطها

Twitter: @ketab_n

بحروف أخرى تليها. فإذا توسط أحد هذه الحروف الكلمة يتوجب كتابة الحرف التالي لها وكأنه يقع في أول الكلمة (كمثال: رواية وجديد) أو كأنه معزول (كمثال: مقاولون وضروري).

وهناك حرفين لهما صورة أخرى وهي الألف (ا و ى) والتاء (ت و ة)[1]. وقد نبه أحمد زرقة ببحث دقيق وشيق بنفس الوقت عن إشكالية خاصة إضافية لحرف الألف وما علق به من صفات تثقل استعماله كحالة فريدة بين الأحرف (نذكر فقط وباختصار تعدد أشكال هذا الحرف وتشابكه مع الهمزة والمدة واختفائه في حالة



«اتق شر من أحسنت إليه» بخط الثلث الجلي كتبها الخطاط ماجد الزهدي سنة ١٣٨٦ هـ

إبن وإبنة عندما تقع هذه الكلمة بين علمين...إلخ). وقد بحث أحمد زرقة في اللغات الثانية ودرس بإمعان ما أنجزه العبقري إبن جني وتجاوزه متمماً له ليتماشى مع متطلبات عصرنا، وبالتأكيد كانت مهمته صعبة في «حل مشكلة لغوية قديمة ـ جديدة تتنازعها قدسية

(١) أنظر للتفصيل كتاب يحيى وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤.

Twitter: @ketab_n

الموروث وصعوبة التحديد لاختلاف أئمة اللغة في كيفية معالجتها، ولكثرة التعقيدات التي تلف موضوعها»[1]. وقد لخص بحثه واقتراحاته لتيسير استعمال حرف الألف في كتيب أصدره عام ١٩٩٠ بنفسه دون دار نشر بعنوان «ميزان الألف»، كما اصدر بعده كتاب أسرار الحروف (دار الحصاد، دمشق ١٩٩٣).

حظيت الكلمة على عكس الصورة بمكانة جليلة في الثقافة العربية لم تحصل عليها في أية ثقافة إنسانية أخرى. يعيد البعض سبب تأخر فنيّ الرسم والنحت العربيين إلى الإسلام، الذي لم يشجعهما لأسباب لاهوتية تعود إلى فكرة كمال الله ومخلوقاته وفي عدم جدوى وصلاح تقليدها رسماً أو نحتاً. هذه الفرضية محببة لدى المفكرين السطحيين (خاصة بين أوساط المستشرقين الأوروبيين ومقلديهم من بني يعرب) في أن الإسلام هو السبب وراء تأخر فني النحت والرسم. الحياة تبرهن على ما ينفي ذلك لأن الدين لا يمكنه كبح ما تمليه طبيعة الإنسان من ميول خيرة للجمال. فالعرب لم ينجزوا حتى ما قبل الإسلام فناً متميزاً في الرسم والنحت. عرف العرب في زمن الجاهلية (أي قبل الإسلام) كل الديانات المنتشرة آنذاك، كما وتعرّف العرب عن طريق التجارة وطرقها (طريق الحرير، طريق البخور، طريق الجزيرة العربية إلى بلاد الشام) على العديد من الثقافات الإنسانية. هذا ضروري معرفته للتفريق بين الجاهلية والجهل.

---

(١) زرقة، أحمد، ميزان الألف، إصدار خاص، ١٩٩٠، ص١٢٢.

Twitter: @ketab_n

لنعود إلى فن الرسم: باختصار شديد يمكن القول إن طبيعة الصحراء لا تشجع العين عبر تبدل طبيعتها (في تضاريسها وطقسها) البطيء ولا تحث اليد على تقليد ما ترى، بل تشجع اللسان على الحديث، لأن السكون يسودها مما يجبر اللسان على ابتداع الجمال بألوان الكلمة السحرية. كل هذه الشعوب التي استوطنت الجزيرة العربية لم تقدم في أية مرحلة صورة أو تمثالاً يضاهي تلك الصور والتماثيل الفائقة الجمال التي أنتجها المجتمع اليوناني والروماني بمرحلتيه ما قبل وما بعد ظهور المسيحية. هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يمنع الإسلام أن يتطور فن الرسم في إيران وأفغانستان والصين، فابتدع الفنانون في هذه البلدان رسوم المنمنمات (الصور الصغيرة والتي تدعى في أوروبا مينياتور Miniatur) الرائعة والتي لم يسبق هذه الشعوب في دقتها وجمالها شعب آخر في تزيين الكتب بها.

من جهة أخرى رفع الاسلام من مكانة الكلمة إلى حدود القدسية، واعتنى العرب بتطوير جمالها بالإعتناء الفائق بفن الخط الذي كان في البدء يُستخدم لأغراض دينية روحانية، ثم ما لبث أن دخل القصور، وسُطّر في الكتب ورُسم على الأواني والحلي والسجاد والجدران. مع ذلك احتفظ الخط دوماً على جانب من القدسية.

المساجد تخلو من الصور والتماثيل، إلاّ أنها كانت تُحلّى بالخطوط الجميلة ـ وكأنها كتاب صفحاته الجدران والأقواس

Twitter: @ketab_n

والأعمدة ـ التي ساهمت بزيادة أو تركيز روحانية المكان عبر تكرار هندسي، بإيقاع يشبه إيقاع الموسيقى وانعكاسات جميلة للخط، وكأن هناك مرآة خفية تكرر صورة الحروف في عدة إتجاهات حول مركز كمركز الدائرة يدفع النفس للتركيز والهدوء. الخط العربي يؤكد في كل تظاهراته على تنوع في وحدة، ووحدة في التنوع.

يكتب المفكر المغربي الراحل عبد الكبير الخطيبي متأثراً بالمفكر الكبير كلود ليفي ستروس[(١)]: «الخط بلاغة هادية، تفجر الدليل اللغوي، بل إن الحركة الخطية تدفع بالدليل اللغوي إلى أبعد من ذاته، أي إلى فضاء مرسوم لا يخضع إلى قوانين اللغة. ولهذا فإن الحرف المخطط ليس كلياً حرفاً، إنه بالأحرى شيء يتموضع بين الكتابة والموسيقى»[(٢)].

ليس من العجب أن يحتل الخطاطون مكانة مرموقة في العالم الإسلامي. وبنظرة إلى التاريخ يزداد اليقين، أنه لا يمكن أن يبالغ المرء في وصف أهمية مكانة الخطاطين العرب والفرس والعثمانيين. حتى وصل احترام السلاطين العثمانيين إلى درجة تواضعهم ليحملوا وعاء الحبر لخطاطيهم وكأنهم تلاميذهم.

بعد المرحلة الأولى في تاريخ الخط كفن إسلامي تجاوز الخط العربي شيئاً فشيئاً إطاره الديني ليصبح فناً مستقلاً بجماله الأخاذ بغض النظر عن محتوى ومعنى كلماته.

---

(١) خاصة في كتاب «النيء والمطبوخ» لهذا الكاتب العظيم.

(٢) عبد الكبير الخطيبي: الإسم العربي الجريح، ص٦٧.

Twitter: @ketab_n

حقق هذا الفن قفزته الأولى في بغداد، ليس فقط على يد العبقري ابن مقلة، بل أيضاً على أيدي تلامذته، الذين قاموا وعلى مدى ثلاثمائة سنة بتدقيقه إلى كمالية الخط العربي. فيما بعد حمل الخطاطون في اسطنبول هذه المهمة على عاتقهم، فقاموا بمتابعة تطوير الخط العربي والإعتناء به. والتزم كل الخطاطين بقوانين صارمة ما زالت تحكم فنهم منذ أيام المعلم ابن مقلة.

لكن هذه القوانين الفنية لم تغل أيدي الخطاط، بل كانت له حرية اختيار العديد من الأنماط، وكان كل نمط منها يتمتع بإمكانيات كثيرة (كالإنعكاسات والتكرار والربط بين الحروف بقصرها وطولها)، بحيث تيسر للخطاط اختيار ما يشاءه من بين عدد هائل من الطرق للوصول إلى كمال خطه.



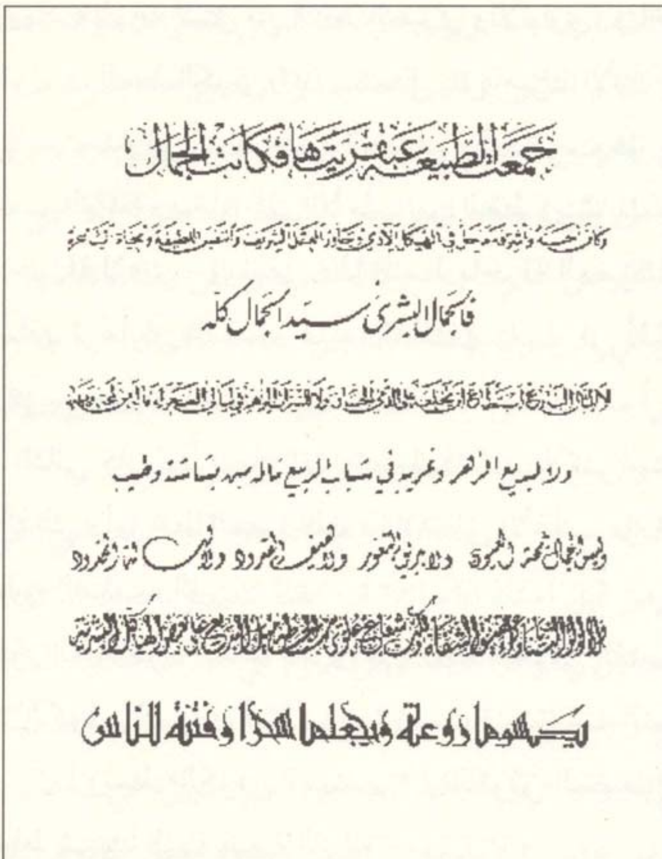
أنواع الخط العربي

على مدى القرون المتعاقبة تم تطوير أنماط مختلفة للخط، وظهرت مع ظهور الكمبيوتر، الحاسوب كما يسميه البعض، مئات من الخطوط الجديدة، دون أن يزيد هذا الكم الهائل إلى الخطوط القديمة أي تطور كيفي ونوعي. كل خطوط الكمبيوتر إنما هي

Twitter: @ketab_n

تنويعات متواضعة لما قدمه الأقدمون، بينما هناك اليوم خطاطون عرب في البلاد العربية والمهجر ممن يقدمون بروح فنية ويد ماهرة جماليات رائعة ليس عليها أن تخجل من المقارنة مع ما قام به السلف.

الخطوط الأساسية ستة أنواع أو أشكال:



الخطوط العربية الأساسية:

ثلث، نسخي، فارسي، ريحاني، رقعي، ديواني، ديواني جلي وكوفي

لمقالة قصيرة كتبها أحمد شوقي في مجلة الهلال المصرية عام ١٩٣٥

Twitter: @ketab_n

الخط الكوفي: وسُمي كذلك نسبة إلى المدينة العراقية «الكوفة»، لكنه لم يخترع فيها كما يظن البعض، بل حسّن خطاطو الكوفة من جمال هذا الخط القديم وهذبوا حروفه وابتكروا إضافات جديدة تزين أحرفه. وبما أن الكوفة ازدهرت أثناء إتساع رقعة أراضي الخلافة فقد رحل هذا الخط من الكوفة إلى الأصقاع المترامية ونسب إليها. يقال إنه اشتق من الخط الحيري والأنباري. وباختصار يمكن القول إن الخط الكوفي كان يستعمل باتجاهين، الأول صلب ثقيل كان يستخدم في الحفر على الخشب والحجر، وهو جميل معقد صعب القراءة، يخلو على الأغلب من النقط ويتشابك بشكل زخارف جميلة للعين، ويضفي هذا النمط بأحرفه العمودية التي تشابه المآذن نوعاً من القدسية عليه، لذلك استعمل في أغلب ما استعمل لتزيين جدران المساجد.

النمط الثاني كان ليناً سهل القراءة، ولهذا كان الأكثر استعمالاً للكتابة آنذاك. وأما خط المصاحف فكان على الأغلب مزيجاً من كلا النمطين الصلب واللين.

وقد طوّر الخطاطون أنماطاً أخرى من الخط الكوفي القديم كان أشهرها «الكوفي المورق أو المزهر» حيث تنبثق منه النباتات والزهور، كما ونمط «الكوفي المهندس» و«الكوفي المضفر» وكل هذه الأنماط شديدة الزينة صعبة القراءة.

خط الثلث: (ويسمى بالتركية السُّلس)، وهو أكثر الخطوط صعوبة لذلك يطلق عليه بعض الخطاطين اسم «أم الخطوط»، وكان

Twitter: @ketab_n

معلمو الخط ورواده لا يقدّرون خطاطاً لا يتقن خط الثلث. وقد أخذ اسمه من عرض رأس الريشة التي يُكتب بها، كانت أكبرها (الطومار) بعرض ٢٤ شعرة (من شعر البرذون وهو كما يقال هجين أمه أتان وأبوه حصان على عكس أبوة وأمومة البغل وفي لسان العرب: هو من الخيل ما كان من غير نتاج العرب وجمعه براذين) وخط الثلث يكتب بريشة عرضها ثماني شعرات. وكان هناك أقلام أخرى كقلم الثلثين وقلم النصف. وقد تطور هذا النوع من الخطوط ما بين القرنين السابع والعاشر الميلاديين، حتى وصل إلى كماله الذي أدى إلى تسميته فيما بعد «بالخط المحقق» لأن كل حرف فيه يحقق الغرض المراد منه. وكان للعبقري ابن مقلة وتلاميذه فيما بعد الفضل في الوصول بهذا الخط إلى حدود الكمال.

كثيراً ما يُستعمل خط الثلث لطباعة الكتب المميزة والنصوص الدينية وتزيين جدران المساجد والدوائر الرسمية.

خط النسخ: تم ابتكار خط النسخ (أو النسخي) في القرن العاشرمن قبل أستاذ الأساتذة ابن مقلة لتسهيل عملية الكتابة والقراءة الواضحتين للقرآن، ويُستعمل اليوم في طباعة غالبية الكتب، فهو واضح وجميل. ويقال إن ابن مقلة أطلق عليه تسمية «الخط البديع»، وقد لاقى الخط النسخي عناية كبيرة في العصر العباسي كما وفي عصر «الأتابكة»، الذين أحلوه محل الكوفي في تزيين المساجد وكتابة المصاحف. والخط النسخي قريب من خط الثلث لكنه أسهل كتابة وقراءة.

Twitter: @ketab_n

الخط الرقعي (أو الرقعة بضم الراء): خط سهل يجمع بين القوة والبساطة والجمال وهو أكثر الخطوط استعمالاً في الكتابة اليدوية. يقال الكثير عن مخترع أو مخترعي هذا الخط، فالبعض يؤكد أن ابن مقلة طوره عن النسخي لكتابة الرقع بسهولة (ومن هنا تسميته، والرقع أوراق تكتب لتلمس مساعدة أو لشكوى أو رجاء لحاكم أو رسائل) ويؤكد بعض المؤرخين أنه اخترع أيام السلطان العثماني محمد الفاتح، لكن أغلب المصادر تقول: إن ذلك كان بدايات بسيطة وأن الخط كما نعرفه اليوم كان من اختراع الخطاط الكبير أبي بكر ممتاز أفندي (فيما بعد ممتاز بك) في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٦٣) وسمي آنذاك بخط همايون.

يمتاز الخط الرقعي ببساطة حروفه واستقامتها. جميع حروفه مطموسة ما عدا الفاء والقاف. ويعد من أسهل الخطوط للكتابة والقراءة وهو خط صغير، متلاصق ودون تشكيل وزخرفة، ملائم للكتابة باليد، وقد انتشر بسرعة، وكثيراً ما يُستعمل في كتابة العناوين الكبيرة في الصحف.

الخط الفارسي: (ويُسمى أيضاً التعليق لأنها معلقة بين خطي النسخ والثلث أو النستعليق وهي تسمية تؤكد دور النسخ في تصميم حروف الخط الفارسي) ووصل إلى قمة جماله في القرن الثالث عشر.

إمتلك الفرس قبل الإسلام العديد من الخطوط الصعبة (يحدد ابن النديم في كتابه الفهرست عددها بسبعة خطوط) وبعد دخول

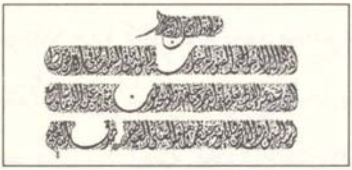
Twitter: @ketab_n

الآرامية إلى البلاد استعمل الفرس أحرفها ثم خطاً دعي بالفهلوي وهو تطوير عن الآرامية وكتب من اليمين إلى اليسار وكان له نمطان الفهلوي الأشكاني والفهلوي الساساني. أخذ الفرس بعد اعتناقهم للإسلام الخط العربي، وأضافوا إلى الأبجدية العربية أربعة أحرف لتصبح قادرة على الإيفاء بحاجتهم اللغوية. ودخلت كل أنواع الخط إلى الأدبيات الفارسية.

وتمتاز حروف الخط الفارسي بالرقة والديناميكية وغالباً ما يكون مائلاً. وتمتاز زواياه القليلة بأنها غالباً ما تكون مستديرة. حروفه سخية ورشيقة لكنها لا تحتمل التشكيل والزخرفة فجمالها يكمن بخلوها من الزركشة. وتمتاز أحرفه الأفقية منها بامتداد عريض، وكأنه نوع من الموسيقى المرئية يعطي راحة في إيقاع الأحرف. وهذا النوع من الخطوط هو الخط السائد اليوم في إيران.

الخط الديواني: طور هذا الخط في العصر العثماني. وكثر استعماله في الدوائر الرسمية للدولة العثمانية (الديوان). وهو خط







Twitter: @ketab_n

رائع جميل تأخذ حروفه على الغالب شكل دائرة قطرها يساوي طول حرف الألف. ويقال أيضاً إنه كان أولاً مخصصاً لقصر السلطان وكتابة ما يمليه من أوامر ورسائل وفرمانات.

فيما بعد طور الخط الديواني الجلي وهو خط ديواني ترافقه زخارف كثيفة تملأ المستطيل الذي يحيط بحروفه حتى يبدو كل سطر كلوحة والذي يصعب أحياناً فهم كلماته.

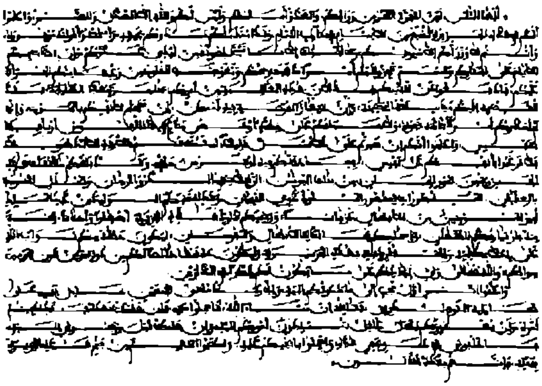
والخط الديواني جميل وإن كان في بعض الأحيان ولزيادة تشابك أحرفه وكلماته صعب القراءة. لكنه يحمل طابعاً ملكياً أو على الأقل رسمياً لذلك تطبع أغلب الوثائق والأوسمة والشهادات بهذا الخط

الخط المغربي: يكتب الخط المغربي بأنواعه بقلم حاد الرأس ليست له قطة ويختلف في ذلك عن أقلام الخطوط العربية الأخرى. ويعد المصحف المخطوط في الأندلس عام ٧٠٣ هـ من أندر ما كتب بهذا الخط. ولم يعثر الباحثون على موازين نقطية للخط المغربي كتلك المستعملة في الشرق العربي. وهناك محاولات جادة حديثة لوضع مقاييس لهذا الخط (المسمى الخط المغربي المبسوط) ويؤكد الكاتب محمد الشريفي أن عدم التقيد بهذه القواعد أعطى للخطاط في الغرب حرية أكبر مما يؤكد شخصية الخطاط أكثر... لكنه يكون أكثر عرضة للفوضى في غياب القواعد الضابطة[١].

---

(١) الشريفي، محمد، الخطوط المغربية، مجلة حروف عربية، العدد ١، ٢٠٠٠، ص٦ ـ ٧.

Twitter: @ketab_n



خطبة طارق بن زياد بالخط المغربي

وتظهر الأبحاث أن هذا الخط مر بمرحلة أولى (الخط القيرواني) وكان لا يزال قريباً من الخط الكوفي وبدأ هذا الخط الذي عاصر إبن خلدون ـ وقد ذكره في مقدمته الشهيرة ـ بالتراجع أمام الخط الأندلسي الذي نشأ لينافس الهيمنة الشرقية (العباسية) لا ليقلدها، وانتشر من الأندلس في كل المغرب العربي[١].

خط الطغراء: يسمى أحياناً خط الطرة أو الطغرى. وهناك من يفرق بين الطرة والطغرى (كالقلقشندي) حسب استعمالها. لكن كلا اللفظين أصبح فيما بعد يرمز لشيء واحد. انقرض هذا الخط الآن، وشكله يُشبه بصمة الأصابع وكان محتكراً من قبل السلطان، حيث كان يحتوي على اسمه وفي بعض الأحيان لقبه أيضاً، حيث لزم وضع الاسم في الأوامر والرسائل السلطانية كما وعلى النقود. فيما

---

(١) المغراوي، محمد، الخط المغربي عند إبن خلدون. مجلة حروف عربية، العدد ٤، ٢٠٠١، ص ٨ ـ ١٣.

Twitter: @ketab_n

بعد، استعمل هذا النوع من الخطوط لكتابة الحكم الدينية ليصبح بذلك كأيقونة دينية. ولم تكن كتابته باليد لتلتزم قواعد الكتابة العادية من اليمين إلى اليسار، بل كان مساره يتبع متطلبات الشكل المرسوم.



طغراء قديمة للسلطان العثماني

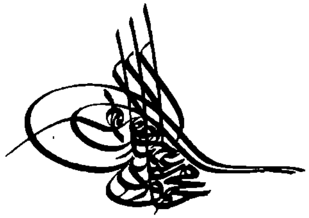
أورخان غازي ويقال إنها أول محاولة في كتابة الطغراء

وتُروى قصة طريفة عن نشوء هذا الخط: فقد وقع خلاف طويل بين زعيم المغول «تيمورلنك» والسلطان العثماني «بايزيد» بن مراد الأول (١٣٤٧ ـ ١٤٠٣)، وبما أن «تيمورلنك» كان أمياً، فقد كان يُصدّق خطاباته التي يمليها على كاتبه ببصمة إبهامه، وكان السلطان العثماني يُجيب بكتابة اسمه بخط يده ويكتبه بطريقة في غاية التعقيد. فقد كان يأمر الخطاطين برسم الخط كبصمة الإبهام ليُظهر لعدوه بهذه الطريقة المستوى الرفيع الذي وصلت إليه الحضارة العثمانية. لكن هذا لم ينقذه للأسف من هزيمته الشنعاء التي مني بها على أبواب أنقرة (كانت آنذاك قرية صغيرة) في عام ١٤٠٢ ووقع أسيرا ومات في سجنه في معسكر تيمورلنك بعد عام.

Twitter: @ketab_n



السلطان عبد الحميد الثاني



السلطان محمود الثاني

موسيقى للعيون

هناك فرق كبير بين اللغة العربية والعديد من اللغات المكتوبة في العالم. ففي اللغات العبرية واللاتينية والسريانية والكيريلية واليونانية والصينية يتألف الخط من وحدات عديدة منفصلة عن بعضها. وعلى الكاتب ضغط الريشة على الورقة ورفعها بشكل مستمر. تضطر العين عند القراءة إلى القفز من حرف إلى حرف أي

"起来！
不愿做奴隶的人们！
把我们的血肉，筑成我们新的长城！
中华民族到了最危险的时候，
每个人被迫着发出最后的吼声，
起来！起来！起来！
我们万众一心，
冒着敌人的炮火前进！
冒着敌人的炮火前进！
前进！前进！进！"

خط صيني

Вэнн ду дас лезэн
каннст, бист ду кеин
унвиссендер
Вестеуропаер

خط كيريلي

Ich schwöre bei Apollon dem Arzt und bei Asklepios, Hygieia und Panakeia sowie unter Anrufung aller Götter und Göttinnen als Zeugen, daß ich nach Kräften und gemäß meinem Urteil .

خط لاتيني (ألماني)

Twitter: @ketab_n



خط عربي

إلى قطع سيولة القراءة بشكل مستمر. أما في اللغة العربية فتتم الكتابة كما ذكرنا آنفاً بوصل الحروف مع بعضها سواء بكتابته يدوياً أم طباعة. فالكلمات تتألف من تدفق خطي واحد، ساعدت بنية الحروف هذه، وما تتمتع به من مرونة وطواعية وقابلية للمد والضغط والاستدارة والتشابك والتداخل والتركيب على إضفاء خاصية للخط العربي تجعله قادراً على تلحين موسيقى للعين.





مثالين جميلين لموسيقى تتمتع بها العين في خط قديم بدون أية زخارف

وخط حديث جميل مع كل التشكيلات الضرورية ليكتمل وقع موسيقى الكلمات

وهكذا، فكما أن الأذن تستمتع بسماع الموسيقى فإن العين تستمتع برؤية الخط العربي، حتى في حال عدم القدرة على قراءته،

Twitter: @ketab_n

لأن هذا الخط يحمل في طياته موسيقى خفية بوقع ونغم عيني. فتراه ينساب برشاقة وغنائية، أو يتهادى صلبًا متزنًا يشغل حيزه بجلال وثقل يمتد إلى ما حوله، أو أن الصلابة واللين يتبادلان ويتناغمان عبر الأسطر.



وبما أن الحروف العربية تُكتب دائماً متصلة ببعضها، فإن مقدار مد الحروف يلعب دوراً كبيراً في عملية التلحين. فمد الحروف أو تقصيرها هي بالنسبة للعين أشبه ما تكون بتطويل أو تقصير النغمة الموسيقية بالنسبة للأذن.





حرف الواو بشكله الرائع للخطاط التركي أوجازي

Twitter: @ketab_n

يمكن مقارنة حرف الألف ودوره في بناء الموسيقى العينية للخط العربي بإيقاع قرعات طبل في قطعة موسيقية للأذن. الألف بشكلها العمودي تعطي إيقاعاً خفياً لموسيقى العين. وبما أن أبعاد حرف الألف كما وضعها العبقري ابن مقلة هي المعيار الذي تلتزم به أبعاد كل الحروف فإن حرف الألف له دور بارز في تحديد وقع وتجانس وعذوبة موسيقى الخط العينية التي تمس ككل موسيقى شغاف القلب.



كذلك اختلاف ثخن الحرف بين بنية رقيقة مرهفة الحس دقيقاً كالشعرة أو حاداً كالسيف ليتحول في مواضع أخرى عريضاً قوياً كالنهر ينساب عمودياً أو أفقياً، كما أن شكل ونسبة رأس الحرف مقارنة بجذعه يؤثران على موسيقى العين هذه.



إن مد الحروف الأفقية، والتبديل في انسياب الخط على محيط دائرة غير مرئية، أو على شكل زاوية حادة أو قائمة غير مرئية أيضاً لكنها محسوسة كما في حال الدائرة، كل هذه العوامل تلعب دوراً

Twitter: @ketab_n

هاماً في خلق لحن الكلمات المرسومة وتخلق جواً خفيفاً يشرح الصدر، أو حزيناً تنقبض لها النفس. ويتطلب العزف بالحروف إذا أراد الخطاط أن تكون موسيقاه سيمفونية رائعة وليس فقط لتلفت النظر لإعلان تجاري، يتطلب أن يفهم الخطاط معنى الفراغ بين الأحرف من جهة وبين الكلمات من جهة أخرى. إن العمل بالفراغ يتطلب مهارة خاصة، فالفراغ حساس جداً كلحظة الصمت في خطاب، أو السكون في قطعة موسيقية. وكما هو الحال في الموسيقى العربية يعتمد الخط العربي على إعادة بعض عناصره، التي تُولد ليس فقط وقعاً يرقص معه الجسد بل تحلق معه الروح إلى ما هو أبعد من العالم الحسي.

وهذه الموسيقى حولت العمارة الإسلامية بهندستها وبفضاءاتها المفتوحة وأقواسها وترادف ألوانها (كما في خان أسعد باشا العظم في دمشق) كما وبهذه الهندسة مضافاً إليها خطوطها كما في الجوامع والقصور (الحمراء) لسيمفونية رائعة تحتفل العين به في حضرة الصمت الرائعة.

وليس هذا التذوق لجمال الخط وموسيقاه إبن عصرنا فقد سبقنا





Twitter: @ketab_n

آلاف المفكرين إليه منذ بدايات الحضارة العربية والإسلامية. ولابن الهيثم مقولات ذكية عن جمال الفن العربي وتذوقه سواء كان خطاً أو زخرفة أو هندسة. (إبن الهيثم كتاب المناظر: ص٣٠٧ ـ ٣٠٨) كما ولإخوان الصفا (الرسائل: ج١، ص٢٤ ـ ١٦٦)

وهذه الموسيقى تتغير إن تغيرت ألوان الحروف كما تبين لوحات الخطاط عصمت أميرالاي بوضوح في هذه التجربة الفنية الرائعة.





هناك خطاطون رائعون يذهبون قدماً في تطوير الخط العربي فيأخذون معنى الكلمة ويدخلوه كعامل من عوامل التأثير على شكل الكلمة الإجمالي، لتكون موسيقى الكلمة تناغماً مع معناها أيضاً. ومن أجمل المحاولات وأذكاها هي خطوط الخطاط الفلسطيني الأستاذ نهاد دخان[١].

---

(١) نهاد دخان، فنان فلسطيني وأستاذ جامعي لمادة الهندسة الميكانيكية في جامعة ديترويت مرسي (University of Detroit Mercy) بولاية ميشيغن الامريكية وله العديد من الأبحاث وعدة براءات اختراعات في اختصاصه. درس الخط عند الخطاط والأستاذ التركي الشهير حسن چلبي وحصل منه على إجازة في خطيّ الثلث والنسخ.

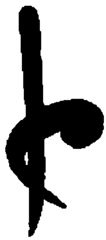
Twitter: @ketab_n



ملاك



قلم



أم



الأرض



جاز (موسيقى)



حرية

وهذا يختلف كل الإختلاف عن محاولات قديمة وجديدة ليست موفقة في تحويل الخط العربي لأداة رسم لوحات وصور للأشكال سواء احتوى النص ما يعني الشكل أم لا. هذه اللوحات التي راجت في السنين الأخيرة تلوي عنق الأحرف ليناسبوا إطاراً موضوع مسبقاً ولا ترقى إلى مستوى اللوحات المرسومة أو المصورة عن الطبيعة مباشرة وهذا ما ينزل من مكانة الخط العربي بدل رفعها، بينما لا يمكن لكاميرا مصورة ولا ريشة لرسام أن يضاهي جمال كلمة الأم الحانية على طفلها كما استطاع الفنان نهاد دخان بحرفين لا أكثر.

Twitter: @ketab_n

وهنا يخطر للبال عند تأمل هذه اللوحات أنها جدل مثمر مع الخط المغربي ومع الموسيقى.



صورة صقر وحمار وحش بكلمات عربية

كان العبقري «غوته» ـ كما بيّنت آثاره ـ يتدرب على كتابة الخط العربي، دون أن يكون قادراً على قراءة العربية في أي وقت من الأوقات أصلاً، وكان يقوم بذلك لا سيما في الأوقات التي كان منهمكاً في دراساته المكثفة للشرق، كإعداد لديوانه الشعري «الديوان الغربي ـ الشرقي». لماذا؟

لاحظ «غوته» بأن الخط العربي بأشكاله يختلف كلياً عن خطوط اللغات الأخرى، من حيث قدرته على التعريف بالثقافة العربية حتى لهؤلاء الذين لا يفهمون فحوى الكلمات. وفي عام ١٨١٥ كتب لكريستوف شلوسر، بأنه ليس هناك لغة أخرى «تجمع بين الروح والكلمة والخط» كما هو الحال في اللغة العربية.

وهكذا كان «غوته» يملأ الصفحة تلو الأخرى بتدربه على الخط العربي، وكأنه كان يريد من وراء مجهوده التقني والعقلي، الوصول إلى معرفة الطريقة التي يفكر ويشعر بها العرب، وكأنه أراد أن يصير

Twitter: @ketab_n

إنساناً شرقياً. وكان في تمريناته يلتقط لحن موسيقى الخط بعينه ولتخطها يده بشكل رائع جميل.

أنا متأكد بأن «غوته» كان يسمع همسات ووقع موسيقى الأحرف في قرارة نفسه وهو ابن حقبة زمنية مضى عليها أكثر من مئتي سنة وكم أتمنى أن يحمل مثقفو أوروبا اليوم نصف ما كان يشعر به هذا الإنسان العظيم من احترام ومحبة للشرق.

كلمة وداعية قبل مغادرة فصل التذوق الجمالي للخط

الجمال وعلمه بحر واسع لا يصح معالجته في فقرة وداعية. لكن من المفيد أن نتذكر أن للجمال وتذوقه ـ حتى ولو أهملنا اختلاف الذوق الذاتي باختلاف الشخص ـ علم وقاعدة تساعد في الحكم على الجمال بشيء من الموضوعية، وهذا الحكم يتعلق بالحقبة الزمنية (ما كان جميلاً في القرن العاشر قد لا يبدو كذلك في عصرنا) والمحيط الثقافي الإجتماعي الذي ينتمي إليه متذوق الجمال (قد لا يقبل عربي وصف صورة أو وجبة طعام بالجمال مع أن السويدي أو الكندي يعتبران وصفه بالجميل بديهي).

ومن المؤكد أيضاً أن عملية النقد البناءة في جو ديمقراطي وحر، تساهم مساهمة فعالة في تطور الفن نحو الجمال، فالنقد ما هو إلا محاولة لبناء تذوق جماعي لفن ما وبنفس الوقت ترمي المحاولة تطوير الوعي الجمالي للمجتمع. والنقد الذي أقصده سواء كان سلبياً أو إيجابياً هو ذاك الناتج عن معرفة ووعي وتقدير إنساني لما يقوم به فنان ما.

Twitter: @ketab_n

يعيق تطور الخط العربي وجماله غياب شبه كامل للنقد الفني الجمالي كالذي بدأ ينمو في مجالات الفن الأخرى من نقد للشعر والرواية والمسرح والفيلم، وهذا الغياب «أثّر تأثيراً كبيراً في موضوع الخط العربي، وجعله متوقفا ـ أو بطيئاً ـ عن التطور والإبداع بما يليق بمكانته وعمق ماضيه الأصيل»[١].

لغياب هذا النقد أسباب عديدة ليس أولها التأخر ولا آخرها القدسية التي أحاطت بالحرف العربي. النقد غائب كلياً، لا بل ليس هناك حتى اليوم لغة لهذا النقد الفني، وتتضارب الآراء حتى في مسائل مبدئية أساسية، فبينما يؤيد الباحث والشاعر شاكر لعيبي فصّل وميّز الخط عن الكتابة كما لمّح إليها قبله المفكر الكبير أبو حيان التوحيدي (في البصائر والذخائر) حيث قال: «والفرق بين الكتابة والخط أن الخط قد يكون كتابة، والكتابة لا تكون خطاً» ويذهب شاكر لعيبي إلى أبعد مما كتبه التوحيدي مفصلاً أدوات النظر إلى الخط كفن مستقل عما يتضمنه الكلام المخطوط من معنى. لا بل لا علاقه له به ويدافع عن فن الخط حتى باستعمال حروفه مجردة من أي معنى (ما يطلق عليه غالباً تسمية الحروفية). فالخط بوجهة نظره «يمثل محاولة عربية جدية في استخدام الأشكال التجريدية والهندسية في خلق عالمه وهو يؤيد أن الخط فن حتى ولو كان

---

(١) شيرزاد، صلاح الدين، واقع الخط في غياب النقد الفني، مجلة حروف عربية، العدد، ٢، ٢٠٠١، ص١٤.

Twitter: @ketab_n

محض أشكال دون معانٍ»[1]، يرفض أستاذ الخط العربي إدهام محمد حنش في مقال له في نفس عدد المجلة (ص. ٢٢) الحركة التشكيلية الحديثة (الحروفية) لأنها «لا تنتمي، قلباً وقالباً، إلى فن الخط، ولا تمت إليه بأية صلة فنية نوعية»، ويصر على الحفاظ على تقاليد الخط التي يعتبرها من أسباب خلود الخط ولا يعتبر الحفاظ على التقاليد كابحاً للإبداع، بل إن هذا يسمح بالتجويد في «مساحة واسعة ومفتوحة من الإبداع والتجديد في الأساليب والتكوينات»، لكنه يعود بعد سنوات ليعامل «الحروفية» باحترام وليأخذ برأي أحد فنانيها، عثمان وقيع الله، بعين الإعتبار فيما يقوله عن موسيقى الحروف، أثناء نقاشه لموسيقى الخط العربي في دراسة له بعنوان: «مرسوم الخط العربي»[2].

---

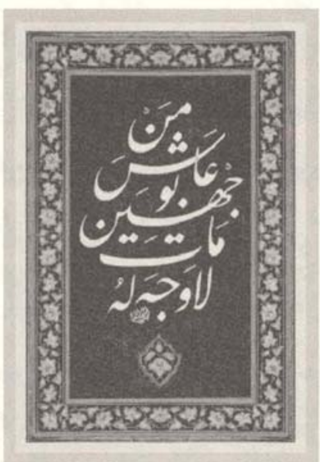
(١) لعيبي، شاكر، مقدمة في جماليات الخط العربي، مجلة حروف عربية العدد ١٤، ٢٠٠٥، ص٤ ـ ٧. وهذه المقدمة تصدرت فيما بعد كتابه الجميل «الخط العربي: نظرية جمالية وحرفة يدوية، منشورات دائرة الثقافة والإعلام/ الشارقة، ٢٠٠٧».

(٢) حنش، إدهام، مرسوم الخط العربي، مجلة حروف عربية، العدد ٢٥، ٢٠١٠، ص١١. لكن ما أثار دهشتي وأوقعني بيأس تجاه هكذا تخبط في النقد الفني أن يكون رأيه هذا الإيجابي تجاه الحروفية ليس جديداً، بل إنه كان قد نشره قبل مقالته الرافضة للحروفية عن بكرة أبيها في كتاب له يذكره كمرجع في نهاية المقال هذا. صدر كتابه «الخط العربي وإشكالية النقد الفني» عن دار الأمراء للنشر في بغداد عام ١٩٩٠ أي قبل خمس عشرة سنة من رفضه للحروفية عام ٢٠٠٥ وقبل عشرين سنة من احترامه لها.

Twitter: @ketab_n

لا يمكن البت بسهولة في مسألة أساسية كهذه. لنأخذ فن الزخرفة بالخط (الأرابسك) فهناك «يتم توظيف «الحروفية» في سياق التداعيات الخطية القادمة من لا بداية والذاهبة إلى اللانهاية... إن هذه الفكرة الجوهرية تجعل من الحروفية العربية مشروعاً ينطلق بصرياً دون حد أو حدود»[١].

السؤال أعقد من أن يتوقف عند حدود الذوق الشخصي. وهو بالتأكيد أعقد من أن نصنف كل الرافضين للحروفية كمحافظين، والمؤيدين كتقدميين، كما أن التقسيم التالي طفولي: الخطاطين المتخصصين بالخط يرفضون الحروفية بينما يؤيدها كل الفنانين التشكيليين. شخصياً كنت بين أولئك الرافضين للحروفية واعتبرتها



خط فارسي لعصمت أميرالاي

(١) عبد العزيز، عمر، سيمياء الحروف، مجلة حروف عربية، العدد ١، ٢٠٠٠، ص٩.

Twitter: @ketab_n

كتمرين للمبتدئين يخطون بها حروف عشوائية على ورقة، لكن السنوات العشر الأخيرة علمتني أن هناك أعمالاً تستند كلياً أو جزئياً على الحروفية (فالحدود ليست إسمنتية بين الخط العربي التقليدي والحروفية) وتأخذ لب القلب بجمالها وجرأتها وموسيقاها العينية.

مضت الأيام ونهض الأمير من سريره معافى وانتقل إلى قسم الجراحة العظمية حيث أجريت له عملية معقدة في ساقه. كان على الأطباء أن يكسروا العظم ويجبروه مرة ثانية بشكل صحيح. وكان عليّ أن أسافر قبل يوم واحد من عملية الساق لأحاضر في النمسا لمدة أسبوع في مهرجان ثقافي متعدد النشاطات. كانت هذه الفرصة الأكبر التي حصلت عليها لأقرأ أمام جمهور كبير وفي أكثر من خمس مدارس. وقبل سفري سلمت الأمير نصاً طويلاً نسبياً لكي يقرأه، تمنيت له التوفيق والسلامة في العملية المقبلة، وسألته إن كان يحتاج لسمير ومواسٍ، فلديّ صديقة مصرية مرحة جداً، وصديق عراقي يستطيع إلقاء محاضرة شيقة عن كل مسألة في تاريخ العراق منذ جلجامش وحتى اليوم. إبتسم قائلاً: «حياك الله، وكأنك أمين الجامعة العربية».

«لكنها جامعة عربية، كردية، إيرانية وتركية للمنكوبين من الشرق وبه».

أراد ان يقرأ كل ما كتبته عن اللغة. لم يبق لي عذر وسلمته ما كنت أود قراءته معه، دفتراً صغيراً يحتوي على كل ما لخصته عبر

Twitter: @ketab_n

السنين عن لغتي التي أحب. قلب صفحات الدفتر، «سيكون لديّ الكافي من العمل حتى تعود»، قالها وابتسم.

عدت إلى البيت كما في كل مساء وسددت رمقي، ثم جلست لأكتب كل شيء قبل أن أسافر، فلقد خشيت أن أنسى، عبر السفر والمهرجان، ما دار بخلدي أثناء الحديث مع الأمير. وهذه الملاحظات كانت حجر الأساس لما أصيغه اليوم بعد اطلاعي الأوسع على مواضيع عدة في اللغة. وكمثال أورد هنا مسألة سألني الأمير عنها أثناء حديثنا: «هل تعتقد أن وراء الأحرف عوالم مختفية لا يفهمها إلا قلائل؟» أجبته نافياً ومؤكداً ان الحروف أداة صوتية لا أكثر. لكن جوابي كان يترنح لعدم تعمقي في الموضوع. اليوم أستطيع الإجابة بشكل أفضل على مثل هذا السؤال.

Twitter: @ketab_n

الحروف، ما تعطيه وما لا تعطيه، حتى بِلَوْي عنقها

الحرف:

حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده (والعامية الدمشقية تستعمله بهذا المعنى) بمعنى شكله والهجاء تعني القراءة. هجاء الحروف بمعنى قراءتها. وفي لسان العرب الهجاء: تقطيع اللفظة بحروفها. وحروف الهجاء تعني الأبجدية. كلمة أبجدية تنسب إلى كلمة «أبجد» وهي أولى ست كلمات أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت وهي بالأصل تجميع للحروف الفينيقية[1] وعددها ٢٢. وزاد العرب عليها أحرفا لم تعرفها الفينيقية وهي: ث خ ذ ض ظ غ. وقد رويت قصص خيالية عن معنى ومصدر «أبجد هوز» هذه يمكن تصنيفها تحت عنوان محاولات يائسة لتفسير ما لا يلزم

---

(١) نامي، خليل يحيى: أصل الخط العربي وتطوره ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب المصرية، ١٩٣٥ مجلد ٣، ج١، ص٥. أنظر أيضا علي، جواد. تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٨، ص١٥١.

Twitter: @ketab_n

تفسيره بخيال لا يمتلك موقع قدم على أرض الواقع.

وكان الفينيقيون يلفظون كل حرف من حروف أبجديتهم كجزء من كلمة لها معنى، وطبعاً يختلف لفظ هذه الأحرف من لهجة إلى أخرى، ونحن ليس بوسعنا اليوم معرفة كيف لفظ الفينيقيون هذه الأحرف، بل يمكن تتبعها في اللغات التي اشتقت عن الفينيقية كالآرامية والعبرية والعربية، لذلك فاللفظ هنا تقريبي: (أ)لف أو أولوف = الثور، (ب)يت = منزل، (ج)مل = جمل، (د)اليت= الباب أو قفل الباب، (هـ)يه = تهليل، (و)او = النصر، (ز)ين = السيف، (حـ)يط= حائط، (ط)يت= الطاقة أو النافذة الصغيرة، (يـ)ود = يد أوذراع، (كـ)اف = كف اليد، (لـ)امد = مساس البقر، (مـ)يم = الماء الكثير أو البحر، (ن)ون = الأفعى، (سـ)امك = السمك، (ع)ين = العين، (پ/ ف = پف)اه = فاه أي الفم، (صـ)اده = الصياد، (ق)وف = قصبة الكتابة، (ر)وش = الرأس، (شـ)ين = قوس النشاب، (تـ)او = علامة التقاطع.

وقد شغلت هذه الحروف فكر الكثير من النحاة والفلاسفة القدامى كالفارابي[1] سواء منفردة أو مجتمعة (مثل لا وما ولما وإن) وتأثيرها لغوياً وفلسفياً كما وطريقة تشكيلها (بالفتح، الضم، السكون أو الكسر) ونطقها (في أي جزء من الفم واللسان) وموسيقاها بتقسيمها لفئتين الصوائت (أ، و، ي ما يدعى أحياناً

---

(١) أنظر كتاب الحروف، وكتيب الألفاظ للفارابي كلاهما تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.

Twitter: @ketab_n

حروف العلة) والصوامت (الأحرف المتبقية). والحروف تسمى معجمة (حروف منقوطة) ومهملة (حروف غير منقوطة). كما قسمت الحروف إلى فئتين الأحرف القمرية (أ، ب، ج، ح، خ، ع، غ، ف، ق، ك، م، هـ، و، ي) والأحرف الشمسية (ت، ث، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ل، ن). كما وحسب طريقة لفظها من همس وجهر، شدة ورخاوة، استعلاء وانخفاض، إطباق وانفتاح، ذلاقة وإصمات وغيرها، وحسب مناطق لفظها في الفم: حلقية، لهوية، شجرية، أسلية، نطعية، لثوية، ذلقية، شفوية، هوائية. وقد قدم الباحث اللغوي أحمد زرقة معلومات حديثة وقيمة عن هذه المواضيع(١).

لكن بعض الباحثين أقحم ـ لكثرة ما قلب الأحرف وحلبها ـ ما لا يتناسب مع كيانها الرقيق ومضمونها البسيط، وهو إعطاء صورة لصوت محدد، يشكل بإضافته لحروف (أصوات) أخرى كلمة قد تكون ذات معنى فأما الحرف بحد ذاته فهو لا معنى له إطلاقاً.

يبالغ غلاة النحاة وبعض من باحثي اللغة فيرون خلف كل حرف عالم سري بكامله. ويرون أن هناك علاقة وثيقة بين اللفظ ومعناه. هناك بالطبع صدف مثيرة في كل لغة ولهجة، وهناك بالطبع كلمات كثيرة أخذت عن وقع صوت الشيء الذي نصفه لكن أن نقيم قاعدة ونكتب كتباً في ذلك؟!!!

---

(١) أنظر زرقة، أحمد، أسرار الحروف، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٣.

Twitter: @ketab_n

أحد هؤلاء هو محمد عنبر[1] الذي يعتبر أن الوجود كله وحركته بالشيء وضده موجود في الأحرف: زل لها معنى، وعكسها لز يعاكس مبنىً ومعنىً. وليس الأمر نكتة، لكنها تبعث على الضحك لتعاليها وانتفاخ أوداجها، فالباحث هذا يعتبر اللفظ العربي «الجسر المفقود» الذي يصل المادة بالفكر!!! حياك الله على هذه الرواية الخيالية!!! وما دليله؟ باختصار: اللفظ العربي ذو وجهين: مادي، لأنه ينشأ في الفم والأنف بضغط الهواء، وفكري، لأنه يحمل في جوفه معنى أو فكرة ما ويجسدها. ما شاء الله وعين الحاسد تبلى بالعمى، وما هو فرق العربية في هاتين الصفتين عن الإسبانية والفرنسية والصينية والتركية؟

محمد عنبر يعتبر أن كل الحقيقة تكمن في تضاعيف الحرف العربي (والعربي فقط!!!). والكلمة بذاتها تعطي الحقيقة بمجرد نطقها. وبرأيه، لو اكتشف الباحثون اللغة الأساسية التي نطق بها البشر، لوضعت البشرية يدها على الحقيقة النهائية. هذا جهل بالتاريخ والانثروبولوجيا واللغة معاً. فلا الكلمة تحمل الحقيقة، ولا يوجد لغة أصلية موحدة نطق بها البشر. ويعرف علماء الألسنيات اليوم، أن الكلمات لا تحمل المعنى، بل نحن الذين نشحنها بالمعنى.

يورد الكاتب بعض نماذج التضاد في المعنى نتيجة قلب ترتيب الأحرف. ويدّعي أن كل الكلمات العربية تمتلك هذه الصفة العجائبية وهذا هراء. قمر مثلاً تعني الضياء ورمق لا علاقة لها

---

(١) عنبر، محمد، جدلية الحرف العربي، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧.

Twitter: @ketab_n

بالظلمة، إلا إذا ظللنا نلوي عنقها حتى قارب فمها شرجها، لنبرهن أن الرمق بأحرفه المقلوبة عن كلمة قمر يلزم أن يعني الظلمة. يقترب مؤيدو هذه النظرية السمجة من مريض في الرمق الأخير، فيرون عكس ما أرادوا، فوجه المسكين زاد شحوباً وبياضاً، فتظلم الدنيا أمام أعين هؤلاء النحاة فيصرخون: أتى الفرج: الرمق يسبب على أي حال ظلمة، فهو إذن عكس النور وبياض القمر».

ملايين الكلمات لا تعطي أي شيء بقلبها ولا حتى لو اقتصرنا بذلك على الكلمات الثلاثية الجذر. فكلمة جنس (بمفهومها القديم والحديث) تقلب لـ (سنج) التي لا علاقة لها بالجنس. «المعجم الوسيط» يشرح (سنجه) سنجا لطخه بلون غير لونه و (سنج) الثوب خططه. ويشترك مع «لسان العرب» و«القاموس المحيط» للفيروزابادي في الشرح التالي للكلمة: (السناج) أثر دخان السراج في الحائط و(السنجة) سنجة الميزان ما يوزن به كالرطل والأوقية (ج سنج).

وما علاقة (برق) بـ (قرب) و (قبر) و (بقر)؟ هل يعني أن البرق يُقرِبُ البقرَ من القبرِ؟

هذه الإجتهادات المبالغة والمغالية في أمر لا يعطي الكثير كانت تغري حتى العلماء مثل إبن جني الذي قال: إن الأحرف التي تشكل كلمة تظل مهما قلبنا ترتيبها قريبة المعنى متشابهته. وقد خصص لهذا الموضوع فصلاً في الاشتقاق الأكبر[1] ويقول هناك:

---

(١) إبن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المجلد الثاني، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢، ص١٣٣ ـ ١٣٩.

Twitter: @ketab_n

«وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنىً واحداً، وتجتمع عليه التراكيب الستة، وما يتصرف من كل واحد منها عليه. **وإن تباعدَ شيءٌ من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه**». أي بلوي عنقه!!!

أ. (كلم): وتقليباتها: كمل، مكل، ملك، لكم، لمك، ـ وتفيد كلها معنى (القوة والشدة)

ب. (قول): وتقليباتها: قلو، وَقَل، وَلَق، لقو، لوق ـ وتفيد كلها معنى: (الإسراع والخفة).

ج. (سمل): وتقليباتها: سلم، مسل، ملس، لمس، لسم ـ وتفيد كلها معنى (الإصحاب والملاينة).

وإبن جني يغض النظر عن تنافر في المعنى، يسكت عن المتعارف عليه إن لم يوافق ذلك ما خطر له، ويلوي ويجبر الكلمات على القول بما ليس فيها، لذلك لا يستعملها مخلوق ولذلك تبقى محنطة في كتابه، لكنه أذكى من أن ينسى أن: سمل تعني أيضاً قلع العيون بوحشية لا يضاهيها وحشية. في لسان العرب: وسَمْلُ العَيْنِ: فَقْؤُها، يقال: سُمِلَتْ عينُه تُسْمَل إِذا فُقِئَتْ بحديدة مُحْماةٍ، وفي المحكم: سَمَل عينَه يَسْمُلُها سَمْلاً.

لذلك تراه يكتب وبكل ديبلوماسية: «واعلم أنا لا ندّعي أن هذا (أي الإشتقاق الذي مارسه على الأحرف) مستمر في جميع اللغة، كما لا ندّعي للإشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة»[1].

---

(١) إبن جني، المصدر السابق، ص١٣٨.

Twitter: @ketab_n

ومع تقديري الكبير للعبقري إبن جني فإنه على خطأ ولا يجوز تأويل صدفة في بعض الألفاظ ـ لا شك مغرية ـ لصفة إلّهية. كما أن البعض ركز على أن كل حرف من الأحرف يضفي صفة مشتركة على كل الكلمات التي يقع في مطلعها. كأن تكون الغين مسؤولة عن الغياب والإختفاء ويجيئون بمثال واحد ليبنوا عليه هرماً معكوساً يرتكز على هذه الكلمة اليتيمة. يقول هؤلاء: الغين تخفي كما في غاب وغطس وغفل وغمر وغرز وغيم إلخ. ما معنى هذا الإدعاء؟ غسل توضح كل مخفي بالأوساخ وغنى لا تخفي الصوت إنما تبعثه جهاراً من الفم ليطرب الآخرين أو يزعجهم... إلخ.

ومنهم أيضاً من يصر على أن للحروف دلالة على المعاني بمعنى أن حرف الحاء مثلاً: «إذا وقع في آخر الكلمة دل على الظهور والإمتداد والتفريق، من ذلك (باح بالسر) و(أباح الشيء) و(ساح الماء)»[1] ويكرر الكاتب إنتقاء كلمات تبرهن أن الشين في أول الكلمة والثاء إذا جاء كحرف في الموضع الثاني من الكلمة، والغين في مطلع الكلمة والدال في الموضع الثاني، له تأثير على معنى الكلمة. كل ذلك يُسند بجهد لا مبرر له ببعض الكلمات المؤيدة ويغمض الكاتب عينيه بجهد أكبر عن مئات الكلمات التي تعاكس هذه القاعدة المتكلفة في حذلقتها... وهكذا اجتهاد مغالاة لا فائدة منها تثير البلبلة أكثر من الإعجاب بلغة.

---

(١) آل ناصر الدين، أمين، دقائق العربية، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٦٨، ص١٧.

Twitter: @ketab_n

طرفة:

يمكن وبجهد لا مبرر له رصف حروف لتعطي جملة ذات صفة غريبة مثل القول: «سر فلا كبا بك الفرس». فهذه الجملة تُقرأ من اليمين لليسار ومن اليسار لليمين. وقد صاغ المتنبي بيتاً شعرياً على هذا المنوال هاجياً بأسلوب المديح ويعتمد فيه أيضاً على اللعب بالحروف:

مـــودتــــه تـــدوم لـــكـــل هـــول

وهـــل كـــل مـــودتـــه تـــدوم؟

ويمكن قراءة هذا البيت بالعكس فقط بقراءة الأحرف من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين. والمتنبي ما كان ليخلد لو أنه أنتج فقط مثل هذا الشعر الركيك.

لكن لو بقي الأمر عند هذه الحدود، لقلنا هذا ما تنتجه حذلقات عزلة البحث، وازدياد التخصص حتى الهبل في موضوع واحد، ونسيان العالم المعقد حولنا. إنه خطأ الإستعاضة بغبار المكتبات عن حديقة الحياة.

لكن بعضهم ـ وهؤلاء يجوز حقاً تسميتهم أغبياء العنصرية ـ يذهب إلى شطط محاولات يائسة للبرهان أن العربية أم اللغات قاطبة. هذه البلادة تثير في البدء الضحك، لكنها عندما تنشر بإصرار بين دفات الكتب والإلكترونات فإنها تصبح قرفاً. أستميح عذر قرائي بجلب أمثلة قليلة من هذا التهريج: فلقد أعلن أحد المهووسين وسط حشد من العلماء دون أن يخشى استدعاء سيارة

Twitter: @ketab_n

اسعاف تأتي لنقله لمستشفى المجانين، أعلن عن اكتشاف لا يضاهيه اكتشاف البنيسيلين، وهو أنه متأكد أن اللغة الأولى وأصل وأم اللغات هي العربية. وبرهانه، الذي يسميه عقلي، يدّعي أن الأحرف العربية لم تتغير، وأن آدم تكلم العربية فقط، ولماذا؟ فليقرأ كل ذي عقل هذا التفسير السخيف: «يصعب بداهة تصور تعلم آدم أكثر من لغة في آن واحد لما ثبت علمياً من خطورة ذلك على الذهن وعضلات النطق وإبداع الإنسان بصفة عامة ولذا فقد ارتبطت قضية اللغة ببداية القرآن وبداية الخلق الإنساني». هذا ما قاله دكتور بجامعة الأزهرعام ٢٠٠٦ في حفل للإحتفاء باللغة العربية. فانظر إلى هذا التردي والتخلف الفكري الذي يسمي نفسه «أبحاث». وهذا آخر يأتي باكتشاف مماثل في مؤتمر بالجزائر وينعم علينا بنظرية أن اللغة العربية هي أم الفرنسية وحتى اللاتينية. وما حجته في ذلك؟

لم أصدق عينيَّ عندما قرأت برهانه الذي قدمه.

أصيب هذا العالم على ما يبدو بالملل فذهب ليفتش عن كلمات فرنسية وانكليزية وإذا اقتضى الأمر لاتينية حتى يجد فيها حرف واحد يحتويه مقابلها في العربية (ولكل كلمة، كما نعلم، مئات المترادفات لكن هذا العويلم يختار تلك الكلمة العربية التي تناسبه:

يأخذ مثلاً كلمة جريدة وليس صحيفة ليبرهن أن جورنال (Journal) تأتي من العربية لأنها تحتوي على حرف الراء... هل هذا معقول؟ كيف يهذي رجل بهذا الشكل أمام الملأ دون أن يخشى أن يتسبب في موت العديد من مستمعيه ضحكاً؟ هل يروي ذلك

Twitter: @ketab_n

للترفيه عن الجمهور لكي لا يمل من سماع محاضرات معقدة عن مشاكل اللغة العربية؟ ظننت وأنا أقرأ أن هذا الرجل يريد وبطريقة ساخرة تبيان الدرك الذي وصلت إليه أبحاثنا المنهارة. لكني أخطأت الظن، فالرجل يعني كل كلمة بجدية. ولديه قدرة عالية على التعامي، أو أنه يعتقد أن غالبية مستمعيه جهلاء أميين. فالألمانية (Zeitung) لا تعنيه ولا البلغارية (Vestnisti) أوالفنلندية (sanomalehtiä) ولا الألبانية (Gazeta) ولا الإيرلندية (Nuachtáin) ولا الإيزلندية (Dagblöō) ولا الكرواتية أو الصربية (Novine) ولا البولونية (Gazety) ولا الروسية (Gazet) ولا التشيكية (Noviny) ولا السلوفاكية (Novine) ولا الأوكرانية (Hazet) فكل هذه اللغات الأوروبية لا تحتوي على حرف الراء في كلمة الجريدة ولذلك تنغص مزاج عويلمنا فيبتعد عنها. ويعصر العويلم كلمات أوروبية بحثاً ولو عن حرف ليعلن أن كلمات السيارة والجدار ومئات غيرها ذات أصل عربي لأن فيها حرف يشابه حرف في أحد المرادفات العربية التي تعني هذه الكلمة. فإذا تذكرنا أن لأغلب المفردات العربية مرادفات تحتوي بمجموعها كل الأحرف الأبجدية (أسد، ضرغام، ليث، هزبر، غضنفر، عباس، عرندس، سبع، همام، حيدرة، حمزة وهيثم وفرناس وأربعمائة وتسعون مرادفاً للأسد لا مكان لها هنا) لوضحت لنا بلاهة الإدعاء أن تشابه حرف من كلمة روسية أو لاتينية أو إيرانية تعني أن هذه الكلمة أصلها عربي. والعويلم كسول بشكل أنه لا يفحص حتى لغتين أوروبيتين، بل يكتفي دوماً بتلك

Twitter: @ketab_n

التي تؤكد فرضيته فالنور في الفرنسية (Lumière) من أصل عربي كما يدّعي، لأن الكلمة تحتوي على الراء، لكن لا يهمه أن في الإنكليزية (light) والألمانية (Licht) وعشرات اللغات الأخرى لا وجود للراء فيها...

ولكن النكتة الكبرى هو ما توصل إليه هذا العويلم كقمة من قمم أبحاثه: يفسر إسم مدريد عاصمة إسبانيا كما يلي: «Madrid» تعني: «ما دريت، أي كنت جاهلاً بالأمر»، فيا ليته احتفظ بهذه الحقيقة، التي تصف مستوى علمه لنفسه.

وما على القراء الذين يريدون المزيد سوى التفتيش في الإنترنت عن: «العربية أم اللغات» وسيصابون بدهشة ما بعدها دهشة عن مدى تأخرنا.

هذا الحديث لا علاقة له بالفلسفة الصوفية التي تحاول دوماً النظر ليس إلى معنى الكلمة اللغوي فحسب بل بعدها الروحاني والكوني، وهذا ما أغرق التفكير به الفيلسوف الكبير إبن عربي (في الفتوحات المكية) كما وعالجها الكثير من الفلاسفة الذين نشروا فلسفتهم تحت إسم «اخوان الصفا» (في رسائلهم). أي أن فلاسفة الصوفية يحاولون وبجرأة، النظر إلى أبعد من الحروف لا ليتحذلقوا ويتعالوا بالعربية على اللغات الأخرى، بل ليسبروا باللغة أغوار النفس والكون[١]. وهذا قد يكون سمج الوقع على النفس، صعب

---

(١) لكنّ هذا لم يمنع من الوقوع في شباك مبالغات مثيرة وفارغة إلا من =

Twitter: @ketab_n

الفهم، مما دفع بعضهم لتأليف قواميس خاصة بالتعابير الصوفية، وقد يكون رقيق الوقع على النفس ثائراً على برود العصر وموت روحه كفراشة من النار كما فعل هادي العلوي بكتابه الصغير الجميل «مدارات صوفية، تراث الثورة المشاعية في الشرق» حيث شرح في مدارات كونية لأحرف النون والميم والباء والهاء كل ما يحلم به من إنسانية للشرق وروحاني للإسلام ضد السلفية الهمجية جامعاً لا مفرقاً بين كل الأديان ليجعل منها كلاً واحداً.

= الشعوذة. فبعض المتصوفين أعطى للحرف روح وجسد وقالوا إن شكله يحمل معنى سري برمز رقم. من هنا نشأ ما يسمى علم أرقام وحساب الحروف. وتنضح عشرات الكتب بتثبيت رقم لكل حرف وجمع أرقام الحروف وللدلالة من هناك بشعوذة وبله لا مثيل له أن الحدث أو الرجل الفلاني في التاريخ كان معروفاً سلفاً لأنه يحمل الإسم الفلاني. وكان لي جار في دمشق ينهكني بأسراره التي لا يحكيها «للعامة» لأنه يخشى ضحكهم. وكان لا يستحي حتى من جمع أحرف لأسماء مثل إسم المسيح ومحمد ليبين لي مدى صدق نبوءة علم أحرفه. كل ذلك كان سمجاً لكنه عندما جمع أحرف اسم هتلر وموسوليني ليبين لي أن حروف أسمائهم كانت سلفاً قد قررت أن يصبحوا مجرمين، طردته من غرفتي قائلا: «والله لو انتصروا لوجدت جمعاً آخر ونشرته بالجرائد». وكان هذا الجار يلوح لي دائما بكتيب يدّعي قدسيته وهو: «السر المظروف في علم بسط الحروف». فيما بعد وجدت الكتاب يباع على ناصية الشارع وهو كتاب مليء بالشعوذة. واليوم وبعد خمسين سنة تروج دور النشر لكتب المشعوذ أبو معشر الفلكي الذي يستطيع أن يقول لك إن كنت ستسعد مع إنسان في حياة زوجية لمجرد جمع حروف إسمه برعاية مشعوذنا هذا...

Twitter: @ketab_n

فمدار النون يبدأ بجملة :

النون حرف النور وحرف النار أيضاً..... وللنور أداة هي الشمس وهذه عامة للمخلوقات كلها. لكن للنور أداة أخرى لا يُشترك فيها وتلك هي القلب[١].

وفي مدار الميم يبدأ بميم المعارضة[٢] لكل ظلم وهي من واجبات الصوفي وينتقل إلى ميم المحبة[٣] ليشرح موقف الصوفي من المحبة، فالمحبة تحررالإنسان من رق العبودية. يميز هادي العلوي بين المحبة والحب فالأخير يغلب عليه معنى العاطفة نحو المرأة، ولهذا فقد كان الصوفية ميالين إلى المحبة لشموليتها، ولأنها تحرر الإنسان من رق العبودية، فالعبد لا يحب سيده، وعلى هذا تتأسس علاقة محبة جديدة مع الخالق قائمة على الفناء في المحبوب. ينتقل بعدها لفصل ميم المعرفة الذي يظهر فيه، خاصة بالإستناد على أكبر فلاسفة المتصوفة إبن عربي، على وحدة الأديان.

لكن أعظم المدارات بنظري هو مدار الباء، ففي مقطع الأبدال[٤] يورد تعريف الأبدال القاموسي: «في لسان العرب قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه

---

(١) العلوي، هادي، مدارات صوفية، دار المدى، دمشق، ١٩٩٧، ص١٣.

(٢) مدارات، ص٣٣.

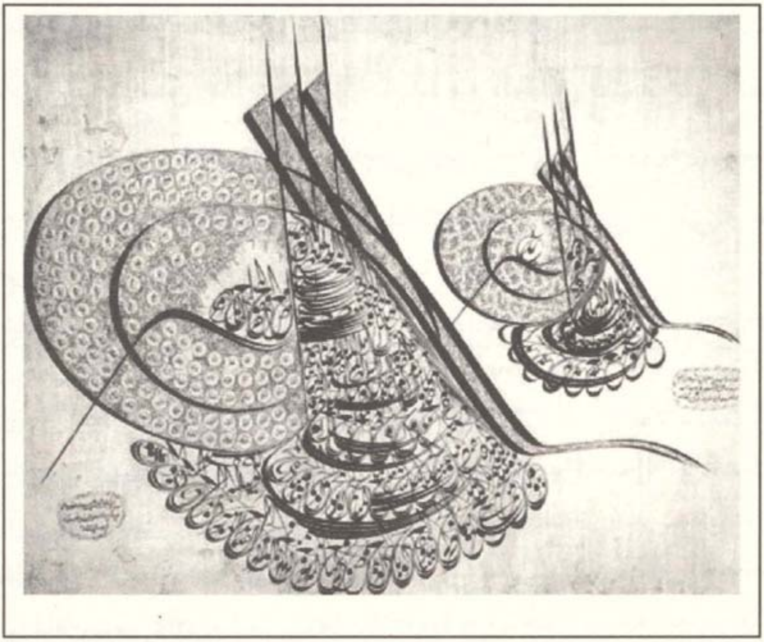
(٣) مدارات، ص٤٦.

(٤) مدارات، ص١١١.

Twitter: @ketab_n

آخر فلذلك سموا أبدالا.» و«تاج العروس» يحدد عدد الأبدال بسبعة. وهنا يبدأ هادي العلوي يعدد الأبدال على الأرض وليس فقط العرب.

بعد هذه الفقرة عن الحروف التي أتممت العمل فيها الآن أنتقل إلى الأوراق التي سلمتها للأمير ليقرأها أثناء غيابي عنه. وفي هذا الفصل أعدت كتابة الأوراق اليوم وبالإستناد على المصادر والمراجع التي لم أعرفها آنذاك ولا كانت قد صدرت أصلاً.

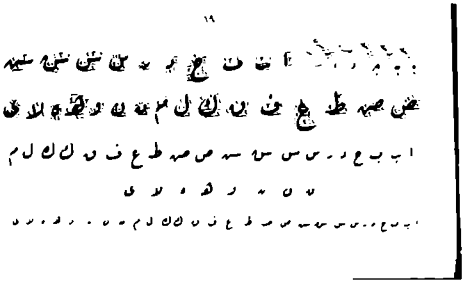


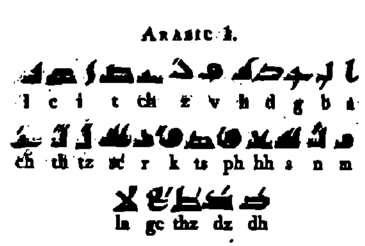
Twitter: @ketab_n

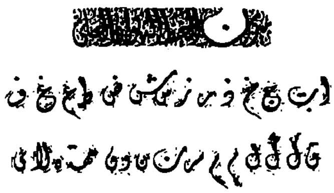
أبجدية رائعة مع بعض الثغرات

لو سألت عربيين عن عدد حروف الأبجدية العربية فإنه لمن المؤكد أن أحدهما سيجيب: «ثمانية وعشرون حرفاً بالطبع» ويجيب الثاني ـ حائراً أمام السائل الغريب ـ هامساً ومخالفاً للأول: «لا، بل هي تسعة وعشرون حرفاً، أنا متأكد يا سيدي».

تضارب الجواب وعدم دقته يوقع السائل في حيرة، فالسؤال ليس حول عدد رموز اللغة الصينية التي يحتاجها أديب صيني متمكن من هذه اللغة والتي تتراوح بين ٢٠٠٠ و٥٠٠٠ رمز.



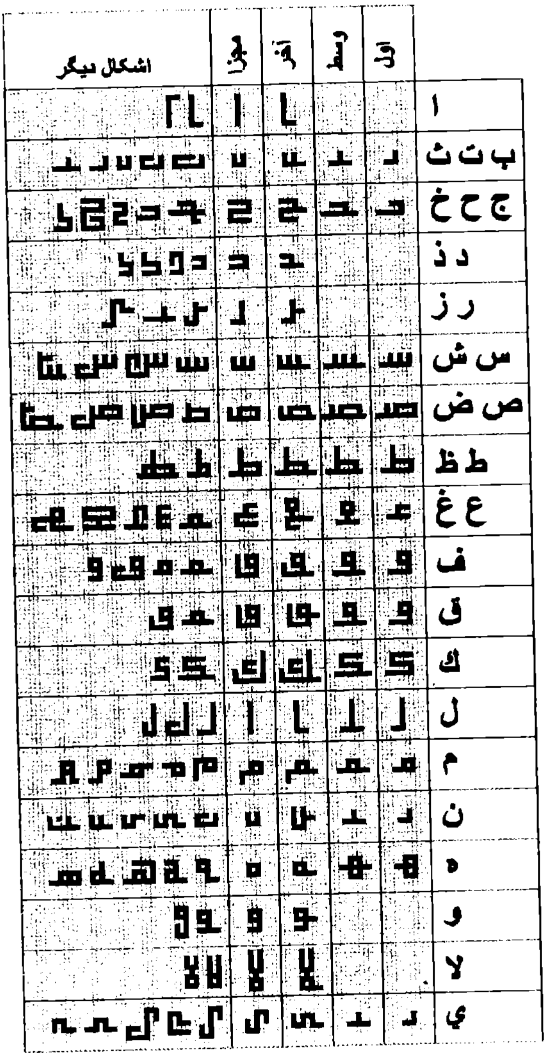




(أمثلة حديثة)

Twitter: @ketab_n

حتى في عام ٢٠٠٩ ستجد هذين العددين ثمانية وعشرين وتسعة وعشرين في أغلب كتب تعلم اللغة العربية والخط العربي، وكذا في صفحات الإنترنت وفي ذاكرة كل العرب.



وحديثة جداً على التمسك بما يسمى خطأ حرف لا.

Twitter: @ketab_n

ولكن من أين أتى هذا الإختلاف؟

تمتلك الأبجدية العربية ثمانية وعشرين حرفاً والحرف التاسع والعشرين هو «لا». هذا «الحرف» ليس حرفاً بل كلمة (تدعى رسمياً أداة) تتألف من حرفين هما: «اللام» و«الألف»، وتستعمل هذه الكلمة كأداة نفي أو نهي.

أحرف الألفباء أو الأبجدية العربية:

أ ب ت ث ج ح خ د ذ
ر ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ي

لوحة بالأحرف العربية كما سادت خطأ لقرون

الملاحظ بأن الحرف ما قبل الأخير ليس بحرف، فهو يتألف من الحرف الأول في الأبجدية، «ألف» (الحرف الأول من السطر الأول) والـ«لام» (الحرف السادس من اليمين في السطر الثالث في اللوحة أعلاه).

ولكن كيف قبل ملايين العرب ـ بما فيهم الأدباء والفلاسفة وعلماء اللغة من الأحرار والمتمردين، من مصلحين ومتزمتين لغويين مثل هذا الخطأ الفادح؟ كيف تعامى هؤلاء الذين يتناقشون أحياناً ويتشاجرون الشهور الطوال إن لم نقل السنين حول شكل من

Twitter: @ketab_n

أشكال الشعر أو حول تصريف فعل من الأفعال، أن تتعلم أجيال أبجدية فيها تكرار لأحرف؟ كيف يمكن لكل هؤلاء الذين لا يرحمون شاعراً غرق في بحر شعره، ويستلّون سكاكين نقدهم الساخرة لينهالوا بها على خصمهم الذي تاه بين فاعل ومفعول به وكأنه مجرم حرب، أو أنهم يسخرون من أحدهم لأنه ضل طريقه في متاهات كان وأخواتها وإن وخالاتها؟ كيف كان لهم أن يتعاموا عن حاجات أبجديتهم الملحة للإصلاح؟ كيف خفي عن ناظرهم أن أبجديتهم المحبوبة تعاني من نقص؟ أو أن يصمتوا لهذا النقص أو الشائبة التي ألمّت بأحرفهم وهي حجر الأساس في كل فكرة من أفكارهم لأكثر من ألف سنة؟

الجواب على هذا السؤال له علاقة بتاريخ هذا الحرف وبالمجتمع العربي نفسه، وقد روي الكثير من الأساطير حول حرف الـ «لا». وأنا أسميها أسطورة لأن إسنادها ضعيف، ولم ترد في أي من كتب الحديث الموثوقة. من النوادر الأكثر شهرة والتي تُروى في هذا السياق، أن أبا ذر الغفاري سأل النبي العربي:

«يا رسول الله كل نبي مرسل بم يُرسل؟ قال: بكتاب منزل، قلت: يا رسول الله، أي كتاب أنزل على آدم؟ قال: أ ب ت ج .. إلى آخره قلت يا رسول الله، كم حرف؟ قال تسعة وعشرون. قلت: يا رسول الله، عددت ثمانية وعشرين. فغضب رسول الله حتى احمرّت عيناه ثم قال: يا أبا ذر، والذي بعثني بالحق نبياً ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً. قلت: يا رسول

Twitter: @ketab_n

الله، فيها ألف ولام؟ فقال عليه السلام: لام ألف حرف واحد أنزله على آدم في صحيفة واحدة ومعه سبعون ألف ملك، من خالف لام ألف فقد كفر بما أنزل على آدم، ومن لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريءٌ منه، ومن لا يؤمن بالحروف وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار أبداً»[1].

النص هذا يخالف أولاً كل المعلومات الوثيقة عن النبي العربي بتسامحه الكبير في كل شؤون اللغة. أليس من الغريب أن يصدر النبي الوعيد والتهديد بالنار الأبدية من أجل حرف مركب، وللمرة الوحيدة وبمناسبة لا تدعي لهذا الغضب أو العنف؟

أليس من الغريب ثانياً أن يتغابى أبو ذر الغفاري، وهو المؤمن الثوري النقي والذكي بأن يعد ثمانية وعشرين حرفاً ليقر بعدها بالحرف التاسع والعشرين.. كيف فاته ذلك أثناء عده للأحرف إذاً؟

وثالثاً هناك خطأ كبير يهدم مصداقية هذه الرواية أن النبي العربي قال: «أ ب ت ج» الأحرف بهذا الترتيب نظمه لأول مرة نصر بن عاصم الليثي في عام ٩٠ للهجرة!!!

أليس من الواضح الجلي أن من اخترع هذا الخبر المضحك هو من نفس طينة من يدّعي اليوم أن اللغة العربية ليست مقدسة فحسب لأن القرآن كتب بها، بل هي مقدسة هكذا دون كل اللغات من أيام آدم وحتى القيامة. مقدسة بإعجازها وعصمتها عن الخطأ لمصدرها الإلهي وهي لغة الجنة!!! أي أن اللغة العربية لم يطورها ويخترعها

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج٣، ص١١.

Twitter: @ketab_n

الإنسان، بل نزلت كما هي من السماء على عكس كل لغات العالم التي تعد أكثر من ستة آلاف لغة. وسنعود لتبيان الحقيقة في مصدر اللغة بعد قليل. لكن الأهم الآن النظر إلى ما نتج عن هكذا تصور.

لنفرض أن الحديث صحيح، فهل كان أبو ذر الرجل الوحيد بين صحابة وأتباع النبي العربي الذين علموا علم اليقين أن النبي، كإنسان عظيم، يظل إنساناً كما قال النبي في أكثر من مناسبة حين غضب وشتم من أغضبه ليعود بتواضع مذهل، لا يمكن إلا للعظماء أن يتحلوا به، وليستغفر الله عما قاله ويؤكد أنه إنسان؟

إذا كان ذلك صحيحاً فلماذا صمت آلاف الخبراء عبر القرون عن خطأ كهذا، وعلموا أطفالهم أبجدية بخطأ واضح للعيان، وهي بالتالي الأبجدية الوحيدة في العالم التي تحتوي على حروف مكررة؟ ما سبب صمت آلاف العلماء والكثير ممن كان يجيد القراءة ويحب اللغة والكتابة آلاف السنين؟

تحول بعض التفاسير العرب إلى شعب من الرهبان القديسين، لطيف، مؤمن، حساس يخشى أن يدوس على ذبابة لكي لا يقطع رزق أولادها، ويطيع الرسول في كل ما يقوله. الحقيقة التاريخية تقول غير ذلك. الشعب العربي ليس أفضل ولا أسوأ من الشعوب الثانية. ولذلك لا أعتقد أنهم لم يصلحوا اللغة حرصاً منهم ألا يخالفوا نبيهم.

وكبرهان لغوي أدبي أسأل قرائي وقارئاتي: هل انتقد الرسول العربي مهنة أكثر مما هاجم فيه الشعراء؟

Twitter: @ketab_n

ألم يخص القرآن الكريم الشعراء بسورة خاصة (السورة ٢٦) ويأتي فيها ما لا يدع مكاناً للشك في احتقار الله ونبيه للشعراء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[1].

ألم تؤكد الآية القرآنية ٦٩ من سورة يس على تضاد كلي بين ما يقوله النبي وبين الشعر وتبرئته منه وكأن الشعر إثم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

من حديث للرسول قوله عندما سمع شاعراً: «لأن يمتلئ جوف الرجل قَيحاً يَرِيه خير من أن يمتلئ شعراً» رواه الكثيرون[2].

وقد قيل الكثير في القديم والحديث لتخفيف وقع هذه الصفعة للشعراء. قيل إن الآية نزلت خصيصاً ضد الشعراء الذين ناصبوا النبي العربي العداء في مكة. وكان الشعراء آنذاك بالفعل أبواق دعاية الأقوياء (ولا زال أغلبهم في بلادنا على هذه العادة النجسة). وقد ضايقوا النبي العربي مثل أمية بن أبي السلط[3]، لذلك كان لا بد

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١ ـ ٢٢٦.

(٢) سنن أبي داوود، سنن إبن ماجه، سنن الترمذي، صحيح البخاري وصحيح ومسلم.

(٣) وقصة هذا الشاعر مأساة تراجيدية من العيار الثقيل ولست أدري لماذا لم يتناولها مسرحنا حتى اليوم. كان أمية شاعراً فذاً وكان حنفياً موحداً عاصر الرسول العربي وحسده لأنه على ما يبدو إنتظر عشرات السنين ليكون هو نبي شبه الجزيرة، ويئس من أن النبي أتى في قريش، فحقد وذم النبي =

Twitter: @ketab_n

من مواجهتهم وقيل إن النبي أهدر دم الشاعر كعب بن أشرف وقيل أيضاً إنه أمر بقتله. وكان كعب قد تمادى في شعره البذيء على نساء المسلمين ونبيهم. وأهدر النبي دم عدة شعراء وأمر بقتلهم لأنهم هجوه وهجوا الإسلام بصفاقة ومنهم الشاعر أبو عفك والشاعرة عصماء بنت مروان والشاعرعبد الله الادرمي وغيرهم.

لكن النبي العربي بتسامحه وحكمته عفا عن كل من أظهر التوبة عما قاله ووعد ألا يعود لسابقاته، وهناك أمثلة عديدة على ذلك، نورد منها قصة إسلام كعب بن زهير وهو شاعر مخضرم وابن الشاعر الشهير زهير بن أبي سلمى وكان قد هجا الإسلام فأهدر النبي دمه فأتى الشاعر يطلب الرحمة من النبي وألقى «لاميته» الشهيرة:

= ومدح خصومه ورثى قتلاهم في موقعة بدر. ويكفي المرء قراءة شعره ليتبين مدى خطورة هذا الشعر الفذ واقترابه من مشارف الدعوة لدين جديد. كان لأمية أتباع ومؤيدين في كل أنحاء الجزيرة العربية، ويقال إنه أول من اخترع لفظة «اللهم» والتي أخذ بها العرب فيما بعد. وأن النبي العربي قال عندما سمع بعض شعره الديني: كاد ليسلم، أو كاد ليسلم في شعره. وفي حديث للنبي العربي قال: آمن شعره وكفر قلبه، أو آمن لسانه وكفر قلبه. وهو حيث مسند بشكل جيد...

بالغ بعض المستشرقين بخبث متعمد بدور أمية وتأثيره على صياغة القرآن وقد دحض باحثون ومفكرون عرب وأوروبيون هذا القول المغرض الذي يهدف الإساءة للإسلام. أنظر البحث الرائع عن أمية بن أبي السلط ومأساته وملابسات منع أشعاره وتأييد بعضها من قبل الرسول العربي في موسوعة جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت وبغداد ١٩٩٣، ج٦، ص٤٧٦ ـ ٤٩٦.

Twitter: @ketab_n

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ
متيَّمٌ إثرها لم يفدَ مكبولُ
نبّئتُ أنّ رسول اللّه أوعدني
والعفوُ عندَ رسول اللّهِ مأمولُ

وقد سر النبي العربي أيما سرور وعفا عن كعب وزاد في ذلك فخلع عليه بردته ولذلك سميت هذه القصيدة «البردة».

أحب النبي شعر حسان بن ثابت الذي مدح فيه النبي وذم أعداءه كما رثى موتى المسلمين. وتقدم ليصبح شاعر الدعوة الإسلامية وكان النبي يزيد من عزمه على المضي قدماً. وهكذا لا يصح تبسيط موقف الإسلام من الشعر إلى أحادية رفضه، بل إن الصورة الحقيقية معقدة ويصلح وصفها بمصداقية كما يلي: إن النبي العربي وعلماء الإسلام الأوائل قبلوا الشعر المؤمن الذي يساهم في انتشار الإسلام وفضائله ورفضوا كل شعر آخر يعنى بالخمر وبالفسق والمجون وملذات الحياة والعشق والحرمان من الحبيب والكفر بالدين والخالق ومدح الخلفاء والأغنياء بدجل ورياء وذم الآخرين ببذاءة ما بعدها بذاءة ...إلخ. لكن هذا الممنوع يشكل بالتأكيد محتوى ٩٥٪ من الشعر العربي إن لم يكن أكثر. ما يهمني في الموضوع أن هذا الشعر غير المستحب لا من النبي العربي ولا من شرّعه، أخذ موقع الصدارة في الأدب العربي منذ العهد الأموي وحتى يومنا. فأين كان هؤلاء المؤمنين المهذبين كالرهبان عندما كان الخلفاء يمنحون آلاف الدنانير (وهم بحاضرهم لا يزالون يفعلون ذلك ولكن بالدولار، لأن

Twitter: @ketab_n

الشعراء العرب لا ثقة لهم كأسيادهم بالعملة العربية) لقصائد تافهة منافية لكل ما نصه الإسلام؟ ولماذا تصدر الشعر القمة الأعلى في هرم شعبية ما يقال وما يكتب بالعربية؟

من هذا كله تتبين هشاشة الإختباء وراء حديث منسوب وغير مسنود للنبي العربي عن الأبجدية التي لم تؤذ لا مسلم ولا نصراني ولا يهودي.

لكن لنترك هذا التهويل السلفي ولنسأل بمزيد من الإلحاح: لماذا لم يلتفت الأولون لقدسية اللغة العربية ولا للحظة واحدة واجتهدوا لتطويرها بسرعة وتواتر فائقين أثناء القرنين الأولين لنهضة الإسلام وضبطوا كل شاردة وواردة فيها بقاعدة اخترعوها دون أن تكون آنذاك مقدسة ثم توقف تطورها ومنع اصلاحها لا بل مسها منذ بدء انحطاط الثقافة العربية لمدة تقارب الألف سنة؟ نعم، حُنِّطَت اللغة بتقديسها ولم تنعم بأي إصلاح كذلك الذي قام به العبقري الخليل ابن أحمد الفراهيدي[1].

---

(١) توفى فقيرا معدماً عام ٧٨٩ م. وكم يسرني اليوم أن ارى أن باحثة ومفكرة كبيرة كالسيدة يسرى عبد الغني عبدالله تهدي كتابها الكبير «معجم المعاجم العربية» الصادر في بيروت عام ١٩٩١ إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي بكلمات تدخل العقل والقلب بدون إذن. تقول: «رجل أعطى الكثير، ما أجدرنا أن نعطيه حقه احتراماً وتقديراً». وللكاتبة أبحاث مهمة في صلب الثقافة العربية، وهي لا تملك فقط قدرة كبيرة على البحث المثابر والهادئ ولغة جميلة بل شجاعة تدهش أشجع الرجال.

Twitter: @ketab_n

وبالمناسبة فلقد حدد الفراهيدي وفيما بعد تلميذه العلامة الكبيرالشهير سيبويه (٧٥٦ ـ ٧٩٦) عدد أحرف الأبجدية بتسعة وعشرين حرفاً وهي ثمانية وعشرون التي نعرفها وأضاف إليها الهمزة معتبراً إياها حرفاً كاملاً وتبعه تلميذه العبقري سيبويه في الإصرار على أن الهمزة حرف مستقل على عكس العلامة المبرد الذي اعتبر عدد الأحرف ثمانية وعشرين حرفاً لا غير. وقد أكد العلامة اللغوي أحمد بن فارس (توفي عام ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م) صاحب معجم «المقاييس» أن عدد الأحرف ٢٨ حرفاً[١].

كل هؤلاء العباقرة الذين تدين لهم العربية بالفضل لم يأخذوا ما يسمى حرف «لا» بعين الإعتبار.

ترتيب الحروف واليقين بالحاجة لحروف أكثر

من يبحث في أصول اللغة وقواعدها يكتشف شيئاً جميلاً ألا وهو الجو الجميل المعطاء الذي ساد أيام النهضة العربية وسمح لهؤلاء العلماء جميعاً، نقاش أمور لغتهم الأساسية دون أن يتهمهم أحد بالكفر. كان كل شيء موضوع على بساط البحث والجدل، حتى ترتيب الحروف لم يكن بديهياً.

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي السبّاق إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على مخارج الحروف بحسب نطقها، وكانت الأبجدية المتعارف عليها آنذاك هي أبجدية بثمانية وعشرين حرفاً لحساب

(١) ابن فارس، أحمد، المعجم، دار الكتب العلمية، لبنان ١٩٩٧، ص٦٣.

Twitter: @ketab_n

الجمل: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ ... لكن الفراهيدي رتب الحروف ابتداءً من حرف (العين) الذي وله به لأنه يصدر من أعمق وأقصى نقطة في الحلق وبعد هذا الحرف رتب الأحرف حسب مخرجها ونطقها من الحلق تدريجياً إلى أن وصل إلى الحروف التي تصدر عن الشفاه. وقد سمى الخليل كتابه هذا باسم أول حرف اعتمده، «كتاب العين». وحسب علي القاسمي يعتبر معجم «كتاب العين» (القرن الثاني الهجري الثامن للميلاد) أول معجم عربي. ولا يزال إلى اليوم قدوة لمن يعمل[١].

هذا الكتاب بُني على أساس صوتي، لذلك يعد الفراهيدي أول من قدم دراسة صوتية منظمة في تاريخ الفكر اللغوي عند العرب، ولا عجب في ذلك لأن الخليل هو صاحب علم العروض وله باع طويل في الموسيقى، فهو يعد أول من تذوق الحروف سماعاً ليتعرف على مخارجها. وقد جاء بعده من حذا حذوه. لكن سيبويه لم يتبع في ترتيب حروف الأبجدية معلمه. أبجديته بدأت بالهمزة وانتهت بالواو:

ء . ا . هـ . ع . ح . غ . خ . ك . ق . ض . ج . ش . ي . ل . ر . ن . ط . د . ت . ص . ز . س . ظ . ذ . ث . ف . ب . م . و

وقد لاحظ الأقدمون (سيبويه، الجواليقي، الأصمعي إلخ) الحاجة الماسة لأحرف جديدة للتعبير عما يعرب من ألفاظ أجنبية

(١) القاسمي، علي، مجلة اللسان العربي العدد ٤٦، ص٥٨.

Twitter: @ketab_n

تحتوي على حروف لا يقابلها ما يساويها في العربية[1]. ولم يخف عن هؤلاء أن الكثير من المصطلحات العربية ينحدر من أصول آكادية، آرامية وعبرية وفارسية وهذه اللغات بدورها اشتقت الكثير من العربية سالفاً ولاحقاً، وهذا لأن العرب قبل وبعد ظهور الإسلام كانوا على علاقة وطيدة بجوارهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى أعماق إيران والهند وجنوب أوروبا وإفريقيا. وقد قام أحد الباحثين بتحليل نص عربي بحوالى ١٠٠٠ صفحة من القرن التاسع فوجد فيه ٢٢٦ مصطلحاً من أصل أجنبي تتوزع على اللغات التالية ٨٤ آرامية، ٤٢ إيرانية، ٢٩ يونانية، ٢٢ إثيوبية، ٢٢ آكادية، ١٤ عبرية، ٤ عربية جنوبية، ٤ لاتينية، ٣ هندية، وواحدة قبطية.

هذا الإختلاط مع الثقافات الأخرى كان أخذاً وعطاءً، لذلك أضاف سيبويه إلى الأبجدية ستة حروف لتصبح أكثر قدرة على احتواء المفردات الجديدة، فصار عدد الأحرف خمسةً وثلاثين حرفاً، وهذه الستة هي فروعٌ من التسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، فلها وجود في القراءات القرآنية والشعر مما يكسبها صفة الفصاحة وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم.

---

(١) فيشر، فولف ديتريش، الأساس في فقه اللغة العربية، ترجمة سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة ٢٠٠١، ص٢٨ ـ ٣٩.

Twitter: @ketab_n

ثم أضاف إليها حروفاً ثمانيةً يصفها بأنها غيرُ مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغةِ من لا ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر بل وضعت لتحيط باللهجات المحلية المعروفة آنذاك، ولا يزال كثير من اللهجات العربية اليوم تستعمل هذه الأحرف بتحويل القاف مثلاً إلى ما يقارب الألف (في عامية دمشق آضي بدل قاضي، آل بدل قال... إلخ) او الجيم المصرية (أيضاً في عامية جنوب سوريا وحوران). وهذه الفروع هي:

الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي تقارب الكاف، والجيم التي تلفظ وكأنها تاء وشين مدغومتين (تش) مثلما نلفظ: (Chance) بالإنكليزية، والضاد الضعيفة، والصاد الخفيفة التي تلفظ كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء.

لكن سيبويه لم يكتب صيغة أو شكلاً لهذه الأحرف والأصوات لأنها ليست فصيحة، وقد ذكر في المقدمة بعد تحديد عددها أنها لا تعرف إلا بالمشافهة فالحرف عاجز عن إيصال حقيقتها للقارئ.

وقد حدد العلامة الكبير أبو القاسم الزمخشري (١٠٧٤ ـ ١١٤٣) في كتابه «المفصل في صنعة الاعراب» عدد الأحرف العربية بثلاثة وأربعين حرفاً. وقسمها كسابقيه من العلماء بين حروف الأصول (٢٨ + الهمزة) وستة حروف متفرعة لأصوات مقبولة وفصيحة كما يقول الزمخشري ووصف بقية الأحرف (ثمانية) بأنها مستهجنة[١].

---

(١) الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت بدون تاريخ، ص٣٩٤. يُسمى الكتاب هكذا في دار النشر=

Twitter: @ketab_n

جاء «كتاب» سيبويه ليستكمل ما بناه معلمه الفراهيدي وكثيرون قبله وليس كاختراع لقواعد اللغة من ألفها إلى يائها كما يصور بعض النحاة. فقد بيّن الباحث عبد العال سالم مكرم في عمل واسع[1] أن كثيرين سبقوا الفراهيدي وسيبويه في بناء قواعد للنحو والإعراب ومن أشهرهم علي بن أبي طالب وأبو الأسود الدؤلي وابن هرمز وآخرين. وهذا رأي سديد، إذ لا يمكن لإنسان أن يبني كتاباً شاملاً لقواعد اللغة دونما أسس سابقة إستند عليها ولهذه الأسس بالطبع مؤلفين وإن ظلوا مجهولين. فاللغة ليست كعلم الكيمياء أو الفيزياء حيث يمكن هناك لعالم أو باحثة أن يخترع مركباً جديداً (كيمياء) أو يبرهن علمياً على ظاهرة طبيعية أو أنه يكتشف بأجهزة قياس حديثة ولأول مرة ظاهرة ما في الطبيعة لا يشعر بها الناظر العادي (فيزياء).

= هذه وهو صورة لطبعة قديمة بعنوان يختلف قليلاً: «المفصل في صنعة الإعراب» وقد صدرت نسخ عديدة الكترونية (يمكن تحميلها) وككتاب واحد في دار ومكتبة الهلال، بيروت (١٩٩٣) وطبعة ثانية بغلاف أرخص من ذات الدار (٢٠٠٣)، وآخر عن دار الكتب العلمية (١٩٩٩) ونسخة حديثة عن مكتبة الآداب للطباعة والنشر (٢٠٠٦) وما هذا التراكم إلا دليل على رواج كتاب الزمخشري وفوضوية السوق العربية للكتاب وإهمالها لأقل حد من التنسيق.

(١) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣.

Twitter: @ketab_n

اللغة حياة وكائن حيوي معقد عمره آلاف السنين وهو بنفس الوقت طفل ينمو كل يوم ويأتي بالعجيب والغريب.

طرفة: يقال إن النحو له مصدر (بمعنى مدرسة) بصري وآخر كوفي. والبصري أسبق تاريخياً وأجود نوعياً. من النحاة البصريين: علي بن أبي طالب، أبو الأسود الدؤلي، يحيى بن يعمر، نصر بن عاصم، عبد الله بن أبي إسحاق، أبوعمرو بن العلاء، الخليل بن أحمد الفراهيدي، يونس بن حبيب، سيبويه. ويعيد بعض المحللين ذلك إلى وضع البصرة الفريد بين فارس من جهة وصحراء العرب من جهة ثانية. وسيأتي كثيرون من الموالي الفرس ليعملوا باللغة شعوراً منهم بضرورة ذلك لتخفيف اللحن وليفوزوا من جهة ثانية بمدح العرب.

ولأن كان نحو البصرة أفضل وأحب عند العلماء فإن نحاة الكوفة كانوا أقرب للخليفة، فأبو الحسن الكسائي هذب أبناء الرشيد، وأبو زكريا الفراء هذب أبناء المأمون وكان إبن السكيت ينادم المتوكل. ومن النحاة الكوفيين أيضاً: معاذ الهراء وأحمد بن يحيى ثعلب.

وهنا تحضرني فكرة الشبه الشديد بين المتطرفين سلباً وإيجاباً دون أن يقروا هم بذلك، فنرى السلفيين المتحجرين ينادون بإعجاز، لا بل بألوهية لغتنا العربية. وترى الفريق الثاني يبحث بالعدسة المكبرة عن أخطاء اللغة العربية، خاصة في لغة القرآن. ويتبارى البعض منهم لتبيان أخطاء القرآن النحوية ويقدمون عدة أدلة مقارنين آية ما بما نصه كتاب سيبويه وخلفاؤه (مثلاً آية: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ

Twitter: @ketab_n

﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾[1]، أو آيــــة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾[2]. وكأن سيبويه، الفارسي الأصل، إخترع القواعد بمفرده وبوحي إلهي. لقد ثبتها كما يقال حسبما سمع من العرب، ونعني بذلك الشعر وكان المنطق دليله. قارن ما وجده بالقرآن بكل حذر، قبل أن يثبت كل قاعدة، لئلا يخسر رأسه فيما لو بنى قواعد النحو بحيث يخطئ معها كتاب المسلمين الأرقى والأقدس. لكن سيبويه لم يكن إلّها لكي لا ينسى بعض الحالات اللغوية الفريدة (يسميها البعض أخطاء والآخرون مخالفات) أو لكي لا تحيط قواعده التي استنبطها بمزاوجة الشعر العربي مع المنطق اليوناني بكل حالات اللغة التي كانت طبيعية جداً آنذاك. هناك العديد من الأبحاث الرصينة والعلمية عن دور اللهجات في بناء اللغة العربية، وفي هذه اللهجات كان اختلاف اللفظ يصل ليس فقط لتغيير حركات مطلع ونهاية الكلمات، بل لتغيير أحرف وحتى بناء الكلمة بكاملها، ناهيك عن اختلافهم في إعراب الكلمات والجمل. ولم يخطر لعربي أن يعتبر الفتحة في نهاية مجرور خطأ[3]. ولو كانت هناك أخطاء في القرآن لما رحم أعداء النبي العربي إسلامه من التقريع والسخرية خاصة وأن اللغة كانت بمكانة عالية لدى كل من

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

(٣) أنظر بحث العلامة الرائد إبراهيم أنيس في اللهجات العربية، دار المكتبة المصرية، القاهرة، ط. ٣، ١٩٦٥.

Twitter: @ketab_n

أتقن الشعر والأدب، وكان أعداء النبي من أسياد القوم المتمرسين في اللغة والشعر وكانوا سينقضون على القرآن، لكنهم لم يفعلوا رغم تحدي النبي لهم بلغة القرآن... بكلمة أخرى لم يجدوا ـ في زمنهم ـ خطأً واحداً في كل القرآن. ويورد إبراهيم أنيس برهاناً جميلاً على إعجاب سادة قريش ورجالها بوقع لغة القرآن: فقد أسلم عمر بن الخطاب حين سمع سورة طه، وأسلم جبير بن مطعم حين دخل على النبي وهو يقرأ ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، فقال جبير: خشيت أن يدركني العذاب، ثم أسلم. كذلك ما روي من أن جماعة من قريش بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى النبي ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب الشأن، بليغ الكلام وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي سورة «فصلت» من أولها حتى انتهى إلى قوله ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ «فوثب عتبة مخافة العذاب وأسلم»[1].

والنتيجة المنطقية هي أن النحاة بعد ظهور القرآن هم الذين نسوا أن اللغة أكثر حيوية ولوناً ومرونة من قواعدهم.

وبما أني أعمل منذ أكثر من أربعين سنة في تأليف الكتب فإني أؤكد للقراء أن كل كتاب حتى ولو كان من نوع الرواية السهلة، يمر في ألمانيا حيث أعيش، عبر أكثر من عشرة فحوص أقوم بها، مفتشاً عن أخطاء نحوية وكتابية، ثم تعمل مساعدتي على الأقل دورتي

---

(١) أنيس، إبراهيم، في اللهجات العربية، ص٣٧.

Twitter: @ketab_n

فحص ثم يذهب النص للناشر حيث يعمل هناك منقح متخصص بالنحو والأسلوب وخبير متمرس بالتنقيح لا يفعل سوى ذلك لثماني ساعات يومياً. بعد ذلك يذهب النص لمنقح ثان لا علاقة له بالأول. يقوم هذا بدراسة النص ليس فنياً أو فكرياً بل كل ما يهمه هو قواعد اللغة وصحة كتابة الكلمات (أي تصحيح الأخطاء الإملائية) يضع مسطرة تحت كل سطر ويراقب الكلمات إذا كانت مكتوبة بشكل صحيح. ثم يذهب النص للمطبعة ويعود أولا بنسختين واحدة لي وواحدة لمراقب في دار النشر وأقرأ أنا كل سطر بسطر بكل تمهل ـ لأن التجربة علمتني ـ وأجد في الكتاب دوماً حوالى عشرة أخطاء ويجد المراقب ضعف هذا العدد. ثم ماذا؟ يطبع الكتاب ويأتيني، وأفتحه فرحاً به. وما الذي أراه فوراً؟ خطأ فادحاً لا يقع فيه أمي ولا يتعامى عنه قصير نظر (والأبشع من ذلك، أن أرى جملة كانت صحيحة ورشيقة في صياغتي الأولى ثم أتت أيدي المنقحين ـ الذين اسميهم أحياناً الجزارين ـ وعبثوا فيها ليحولوها إلى بشاعة لغوية أو هفوة نحوية). صرت والله أخشى فتح كل كتاب جديد.

نقوم بتصحيح هذا أو ذاك الخطأ وتظهر الطبعة الثانية وتأتيني رسالة من قارئ همام (على الأغلب أستاذ مدرسة) وينبهني بأن روايتي تحوي ١٥ خطأ في ٥٠٠ صفحة. وأرسل رأيه إلى المنقح في دار النشر بنوع من الفرح السادي لكي «أكسر عينه» كما يقول الدمشقيون، فيقرهذا، أن الأستاذ، رغم فذلكته اللغوية في عشر

Twitter: @ketab_n

حالات، على حق في خمس حالات إعرابية أو كتابية / طباعية.

إذاً، هذه هي حدود المراقبة في كتاب عادي جداً، فكيف كان وضع المسكين سيبويه الذي، كما يقال، مات دون أن يتمم «كتابه» أو يضع عنواناً له؟ كان يقوم بكل العمل لوحده وبين يديه كتاب رفيع المستوى كالقرآن... برأيي أنه كان حريصاً أن يأخذ النحو من الناس (على الأغلب من الشعر) ويقبل بحالة إعرابية نحوية بعد مقارنتها بالقرآن ويلوي عنقها إذا اقتضى الأمر ليحولها إلى قاعدة صارمة ويركب لها أرجلاً وأيدي وذيلاً ورأساً ثم يلقي عليها بزة عسكرية لتصبح القاعدة محترمة آمرة ناهية، وليس بتلك البراءة القريحية التي ولدت بها في الفم العربي عبر العصور، والذي لم يفكر قط بقاعدة والذي كان بالطبع ضابطاً للغة لكنه كان ضابطاً حيوياً وليس سادياً. ولذلك أقول ليس دفاعاً عن القرآن بل نقداً للمتفذلكين. لا جرم للقرآن، يا سادتي، إن نام النحاة عن أوجه اللغة الحيوية الأخرى التي ثبتها القرآن في حينه وهي بالتالي صحيحة سواء شاء النحويون أم أبوا. ومن السخف أن نقدس هؤلاء الذين أتوا بقواعد تتلف الزرع والضرع فقط لخدمة موسيقية وغنائية اللغة، خاصة الشعر، فسيبويه مثلاً يذكر أكثر من ألف بيت شعر كشاهد على قواعده. بينما لم يهتم أحد بالنثر ولا حتى لصياغة كلمة واحدة: إسم من يكتب النثر، رغم أن النثر وليس الشعر هو الذي يظهر بشكل أوضح ضعف منطق بناء الجملة. وفي هذا كتب الشاعر والكاتب فادي عزام: «تمت خيانة الناثر والمنثور. فالوزن واحد

Twitter: @ketab_n

والمصدر واحد لكلا الصفتين. فعل نثر. وشعر. فنقول. قال الشاعر. وجاء الشاعر. وعبّر الشاعر. بينما ينزوي الناثر تحت لواء اسم فضفاض يتسع لجمع غير متجانس. يدعى كاتب. يحمل في طياته نذل بصفة مخبر (كاتب تقرير) مُقعد حرب على باب محكمة (كاتب عرائض) مُقسم على كتاب مقدس أن يكتب بالعدل (كاتب عدل) صحفي استكتابات رخيصة (كاتب صحفي) روائي لم يفلح في مهنة سمسرة العقارات (كاتب روايات) متحدث بارع بإطلالة زاهية على الفضائيات يفهم بكل شيء يوضع له «ستراب» (كاتب ومحلل)، أو كاتب المكتوب أصلاً وهو ناسخ أو سارق.

ومن هنا يبدو الناثر غائباً. والشاعر حاضراً.

ومن هنا يتجرأ الشاعر أن يمهر كتابه بخانة النوع. ويحفر على الغلاف (شعر) وبينما سيجد فعلاً بائع الكتب والجرائد في بغداد، القاهرة أو دمشق مشكلة في وضع كتاب (النثر) على أي رف من رفوف الرصيف.

وحتى هذه اللحيظة، لم يشتق من اسم الفاعل صفة (ناثر) لتصبح حاضرة يمكن التعريف والتعارف بها. بينما الشاعر يقدم كمهنة لها البريق»[١].

لكن لماذا سيطر الشعر بهذا الشكل على اللغة العربية منذ القدم؟

إن فقر الحياة البدوية في الصحراء أعاق العقل العربي وحرمه من تخصيب حياته وفكره، ولم يسمح له بالإهتمام بالمعرفة والفن

---

(١) من رسالة لفادي عزام بتاريخ ٢١ نيسان ٢٠١٠.

Twitter: @ketab_n

والفكر. كان للعرب بالطبع حكمهم وأمثالهم الرائعة لكنها لم تتسع وتزداد في العمق والتشابك لتصبح فلسفة أو علم منطق. إن ظروف الصحراء القاسية أجبرت العرب في القدم على تركيز غالب اهتمامهم في الحفاظ على البقاء. إختصر العقل البدوي صور الحياة واختزل ألوانها إلى لونين الأسود والأبيض. زاد في تبسيط كل فكر وحكم ونقد، حتى أصبح مفيداً لهدف واحد وهو البقاء والتغلب على الآخر وإحراز السيادة. وقد سمح العقل البدوي الصحراوي لكل ما يفيد هذا الهدف سواء كان ذلك عقلانياً أو بربرياً أم لم يكن. المهم هو سحق العدو لأن الخيار الوحيد هو أن يسحقه العدو ويفنيه. سواء كان النصر يتحقق بالفروسية، أم بكرم حاتمي في الطعام أم بفصاحة شعراء متمرسين في مهنة الدعاية.

كان الصراع إذاً دموياً وبدائياً بحيث لم يترك مجالاً للظل، للشك، لطرح فرضية وإن بصوت خافت أن الآخر إنسان يستحق الإحترام وله الحق بالحياة الكريمة. وعدا التجار في بعض المدن الواقعة على طرق التجارة، لم يمارس الرجال سوى مهنة الحرب والبداوة، فإذا لم يقوموا بغزوة فإنهم يبقون عاطلين باطلين إلى الغزوة القادمة. لا صناعة ولا زراعة مكثفة ولا تجارة أو دولة، ولذلك لم يبق لهم سوى مهنة الحديث. وشيئاً فشيئاً أدرك البدوي أن هذه المهنة سلاح ماضٍ في كفاحه ضد الآخر. لذلك أجاد العرب في الجاهلية هذه الصناعة حتى أغوتهم بإمكانياتها الهائلة في مدح الذات حتى الألوهية وذم الآخر وعشيرته إلى أحقر درجات

Twitter: @ketab_n

جهنم. وكان الشعر الأداة السحرية بمقدرته عبر وقع كلماته ووزن أبياته الموسيقية على النفس من تأجيج العواطف متعامياً عن الحقيقة فهي أقل الأمور أهمية في الدعاية. وفي هكذا نزال لم يأبه أحد بالواقع والمنطق والصدق بل بمهارة وفصاحة وطنين ما يقول، فهذا وحده كان يثير إعجاب الحاضرين، ولذلك لم يظهر للنثر أي دور.

طرفة:

زرت يوما أمسية لشاعر نمساوي، صال هذا الشاعر وجال بصوته الجميل وأدخل في أبيات شعره النظرية النسبية لأينشتاين ومعادلة شرودينغر ونظرية عدم اليقين لهايزنبرج (حاز العلماء الثلاثة على جائزة نوبل لأعمالهما الخارقة في مجال الفيزياء) وبهر الحضور بهذا التحليق العلمي الرنان فصفقوا له حتى ارتجّت جدران القاعة. إلا أنا، لأني كنت أعلم علم اليقين أنه كذاب لا يعرف شيئاً مما يتكلم عنه، فلقد أمضيت أربع سنوات مضنية في دراسة الذرة ونظريات هؤلاء العلماء قبل حيازتي على الدكتوراه. والشاعر هذا ورطته كذبته أن دعاه عالم فيزيائي في نهاية الأمسية للحوار العلني عما قاله، فاعتذر الشاعر وأقر بأنه لم يقرأ صفحة واحدة من الفيزياء، بل فقط عناوين ما عمله هؤلاء العلماء.

لم يسمح جو البداوة إذاً لا بتراكم الأفكار الفلسفية (التي جالت بالتأكيد في رؤوس الكثيرين من أذكياء العرب) ولا بالعلم أو الإختراع وإنما كانت البداوة مزرعة خصبة للشعر والشعراء صاروا يتدافعون لكثرتهم أمام مضارب ذوي نعمتهم. والشعر كان لعشرات

Twitter: @ketab_n

القرون محكوماً بوزن وقافية تنتجان موسيقى تؤثر على المستمعين عاطفياً. الوزن والقافية أجبرا بدورهما الشاعر على زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير وتقصير الممدود، ومد المقصور، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ما ينصرف من الصرف، واستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تمليه ما يسمى «ضرورة الشعر» وكأن الشعر ديناً بفروض مقدسة. فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ وأما النثر فلا يحتاج إلى كل هذه البهلوانيات، فألفاظه تتبع معانيه.

والنثر فن قديم وقد انتشر حتى قبل الإسلام على شكل الحديث اليومي وقصص وحكم وأمثال شعبية تداولها الناس في أغلب الأحيان شفاهياً. في بداية العهد الإسلامي كانت الخطب والرسائل على الأغلب نثراً. ومنذ العهد الأموي تصاعدت أهمية النثر وبلغت قمتها في العصر العباسي حيث سيطر النثر على حصة الأسد من كل ترجمات ونصوص الفلسفة والعلوم.

تبين لي أثناء مطالعاتي أن اعتقاد خاطئ يسود في تفوق الشعر شكلاً والنثر مضموناً. والحقيقة أن كلا الفنين قادر على الإرتقاء في المجالين. ولا بأس أن نذكر أن الجاحظ مثلاً كان يفضل الشعرعلى النثر بينما دافع الكثيرون عن النثر نذكر منهم الكرخي، المرزوقي، القلقشندي وذكَّروا بأن القرآن الكريم نثر وأن الحديث الشريف نثر وأن النثر هو الأصل... لكن النثر هُمش باستمرار.

ولقد أكد أبو حيان التوحيدي في الليلة الخامسة والعشرين من

Twitter: @ketab_n

كتابه الرائع الإمتاع والمؤانسة أن: «النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، الأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل، لكن لكل واحد منهما زائنات وشائنات»[1] واختصر موقفه العقلاني بجملة لا يمكن صياغة أفضل وأعدل منها: «أحسن الكلام ما رق لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه وقامت صورته بين نظمٍ كأنه نثر، ونثر كأنه نظم»[2].

لكنه رغم أهمية النثر، كما سبق وشرحنا، ظل قليل التداول هامشي مقارنة بالشعر في مجالس وإعلام السلطة. إن تهميش فن النثر قد تم لأنّ الثقافة الرسمية السائدة كانت مرتبطة أشدّ الارتباط بالشعر.

وهذا التأليه للشعر ضر نحو اللغة ضرراً بالغاً، لأن الشعر على جماله لم يعتنِ بمنطقية بناء الجملة ولا بأخذ ما يلزم من المفردات، لكي يتضح المعنى ويُسَر العقل، بل أؤكد أن هم الشعراء، كان على الأغلب، البحث عما يجعل البيت الشعري رناناً، لتفرح به الأذن وتخفق له القلوب وتذرف له العيون. فالجملة بنظر النحوي صحيحة ما دامت نهاية الكلمات تحمل التشكيل الصحيح (ضمة، فتحة،

---

(١) التوحيدي، أبوحيان، كتاب الإمتاع والمؤانسة، ضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، ج١و٢و٣ في مجلد واحد، منشورات الشريف الرضي، (د.ت ومكان الطبع) ج٢، ص١٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٥.

Twitter: @ketab_n

سكون أو كسرة) وأما معناها وبنية الجملة المنطقية فهي أشياء ثانوية، وهذا عكس منطق اللغات الحديثة. ومتى تعارضت قاعدة نحوية مع المنطق، فأنا مع منطق الحياة وضد قواعد النحاة.

على أي حال توالت الدراسات اللغوية بعد الفراهيدي وسيبويه من علماء تتلمذوا على أيديهم أو ساروا في ركابهم كالأخفش الأوسط وقطرب النحوي ويعقوب بن السكيت و يحيى بن ماسويه. وكان ابن جني أول من أفرد الدراسة الصوتية بمؤلف مستقل، ونظر إليها على أنها علم مستقل بحد ذاته في كتابه (سر صناعة الإعراب) وقد ثابر عدد من اللغويين وتابعوا الطريق وقاموا بضبط قواعد كتابة أحرف اللغة العربية وترتيب أصواتها وبناء قواعدها وتشكيل كلماتها (بالفتحة والضمة والسكون إلخ).

الإصلاح اللغوي بوجهين

هناك اختلاف في معنى كلمة إصلاح لا يتعلق فقط بسوء النية أو حسنها، بل بالحقبة الزمنية التي تطرح فيها مقترحات هذا الإصلاح. فنرى مثلاً أن نشاط اللغويين والمفكرين في عصر النهضة العربية الكبيرة كان يميل إلى تعقيد اللغة، لجعلها حسب اعتقادهم آنذاك رفيعة، صعبة المنال، وهذا ما رفع قدر اللغة فعلاً ولكنه أغلق أبوابها أمام الشعب، فتكلمت الناس بما أملاه قلبها وعقلها عليها. إختارت واخترعت، نسيت وحورت كما تشاء بينما حلق علماء اللغة وحدهم في معبد شيدوه للغة، وتناحروا حول قواعدها التي اخترعوها، مشهرين ألسنتهم ضد خصومهم، أمضى من سيوف

Twitter: @ketab_n

دمشقية. ومما لا شك فيه اليوم، أن زيادة الإهتمام بإصلاح اللغة وتمتين قواعدها وبناء جملها، قد عقد في أحيان كثيرة اللغة وقلب هدف كل لغة رأساً على عقب. فاللغة تبلغ أسمى درجاتها عندما تكون أداة وضوح وتنوير، لا أداة غموض وتعتيم.

واللغة العربية صعبة المنال تستعصي حتى على فطاحل اللغة. وهي بذلك ترعب حتى عشاقها بدل أن ترغب الناس فيها. وهذه خسارة ما بعدها خسارة. في كتيّبه الطريف بيّن الدكتور صالح الأشتر مقدار التحريف والتصحيف في تراثنا. ليس عند كتاب أعاجم بل عند فطاحل اللغة، وأورد أسماء بعض من ضبط أخطاء فادحة في نصوصهم وشعرهم ومنهم أبو العتاهية، البحتري، أبو نواس، بشار بن برد، أبو فرج الأصفهاني وديك الجن الحمصي. والغريب أن الكتب هذه حُققت ونُقحت من خبراء لغويين فطاحل أيضا. لا بل يشير صالح الأشتر إلى تصحيف وتحريف قام به سواء عن عمد أم غير عمد المحققون أنفسهم[(١)].

ينزع المصلحون في عصرنا بمجملهم، على عكس النحويين القدامى، لتبسيط اللغة لما يعطيه هذا التبسيط لأي لغة من حيوية وديناميكية تمكنها من استيعاب كل جديد. وهذا التوجه لا يخلو طبعاً من خطر تساقط وتهافت اللغة. لكن بشيء من الإنضباط

---

(١) الأشتر، صالح، ألوان من التصحيف والتحريف في كتب التراث الأدبي المحققة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق ١٩٩٢.

Twitter: @ketab_n

والتنظيم يمكن الوقوف في وجه أي هدر لجمال اللغة وقوتها.

وقد عايش كاتب هذه السطور قفزة إصلاحية للغة الألمانية بمراسيم وتنظيم حديدي، لكنها شوهت اللغة الألمانية أكثر مما أفادتها لأن قرارات البيروقراطيين لا تراعي على الأغلب حاجات الشعر ولا الأدب ولا جمال الكلمة والجملة.

لكن الإصلاح رغم كل مشاكله يدفع اللغة قدماً ويجدد شبابها في مواجهة الزمن. إنتهى العمل الإصلاحي للغة العربية في نهاية القرن الثاني عشر لتخمد كل همم اللغويين وليرضوا بالموجود وليبتكروا التبريرات المضحكة عن سبب امتناعهم عن تحرير اللغة من غبار القرون.

أليس من المخجل أن يقوم العرب خلال أقل من مائتي عام بتنظيم وترتيب أبجديتهم ولغتهم ثم يناموا القرون الطويلة دون أن يشعروا أن الأوان قد آن لاصلاح لغتهم الجميلة؟ وبدل أن يجهدوا عقلهم أجهدوا لسانهم، دونما أي عقل، لتبرير قدسية اللغة وعدم جواز مسها لا بقاعدة جديدة ولا بإصلاح، مع أن أولئك الذين عاشوا في القرون الأولى للإسلام قد قاموا وبشجاعة منقطعة النظير بالتفتيش عن سبل لتتقدم لغتهم قلباً (بقواعدها) وقالباً (بخطها).

ما تفتقر إليه ايامنا هو الجرأة، جرأة من يعلم لقول ما يعلمه. وبمقارنة بسيطة لما يقوله مثقفينا بما قاله رواد النهضة قبل مئة عام ونيف، نجد أن التأخر قد أحكم قبضته على عنق المثقفين فتساقطوا خوفا إلى ما قبل عصر النهضة. أين ذلك الوضوح في المطالبة

Twitter: @ketab_n

وبالحاح بالإصلاح الديني والسياسي واللغوي؟ تجد أغلب المثقفين وقد حضر سلسلة من التبريرات لصمته «خشية الغزو الخارجي»، «خشية استغلال العدو لمواطن الضعف التي يذكرها المثقف»، وإن لم يقتنع من يطالب المثقف بموقف شجاع سحب هذا كالساحر في السيرك من كمه «خشية التهمة بالخيانة والكفر». وتراني أردد أن من كثرة خشاياه لم يخش احد بعد المثقف العربي.

ألم ينصح النبي العربي المؤمنين: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١].

لم أجد من تفاسير لهذا القول الحكيم سوى تكسير آلات الموسيقى وتحطيم زجاجات الخمر ونهي وضرب وقتل (طبعاً يتوسل بعض الشارحين، السلطات لتقوم بذلك، وهذا يناسب عقليتها العبودية المتذلفة أبداً للحكام). يا للعجب! تتعامى أجيال من أصحاب الذقون عن شمولية القول لكل منكر إجتماعي من استعباد البشر وهضم أبسط حقوقها، كما وضرورة إصلاح كل ما عطبه الزمان ليبقى المجتمع حيوياً. وهل هناك أنكر من أن تنهار لغتنا أمام الزمن؟ وهل هناك أكثر جرماً أن نرى ثقافتنا تبطح أرضاً ونحن نتفرج كالمهابيل وننتظر رحمة وشفقة الآخر بها؟

ولا يفوق هذا السخف إلا سخف السلطات التي تخشى الإصلاح في أي مجال «خشية البلبلة وتعريض الإستقرار الوطني والإجتماعي

---

(١) صحيح مسلم، الحديث الرابع والثلاثون.

Twitter: @ketab_n

للخطر» وكأن المجتمعات الحديثة الأوروبية واليابانية والصينية والأمريكية يحدث فيها كل يوم مئة انقلاب واغتيال لأنها لم تقف يوما عن إصلاح ذاتها. هذا هراء، فليس هناك مجتمعات أكثر استقراراً من تلك التي تتغير باستمرار وبدون ثورة وبخطوات بطيئة نحو الأفضل.

أسباب خمود الإصلاح اللغوي

ما هو سبب خمول العمل في إصلاح اللغة حرفاً وكلمة وإعراباً؟

بالتأكيد كانت هناك الكثير من دعوات الإصلاح التي نادى بها بعض الشجعان هنا أو هناك، إلاّ أن دعواتهم تلك لم يُكتب لها النجاح ودفنت في الرمال. السبب في جمود اللغة العربية وأبجديتها ليس الدين فقط كما يحاول البعض إظهاره ـ والدين هوالستار الذي يختبئ أعداء الإصلاح والتقدم خلفه في كل أمور الحياة، لأنه لا حجة لهم ويشتمون كل محاولة تقترب من نواحي ضعف اللغة وتحاول إصلاحها على أنها حرب ضد الله وضد القرآن مما يسهل عليهم النصر الرخيص بتكفير الآخر ـ كلاّ، الدين لا يمكن أن يكون العائق أمام تقدم اللغة.

السبب يعود باعتقادي إلى جذور القبيلة العربية وقوانينها التي تتحكم بحياتنا اليومية بشكل لا يشبهه أي تأثير آخر لا لدين ولا لمدنية غربية.

القبيلة العربية كانت الرد الأنسب على ظروف الصحراء القاحلة. لكن النظام القبلي أو«العشائري» تغلغل بعد مرور آلاف السنين إلى

Twitter: @ketab_n

أعمق أعماق النفس العربية حتى يومنا هذا وفي أكثر المدن العربية تقدماً لا تزال الصحراء تسكن أنفسنا وتملي علينا تصرفاتنا.

لغتنا العربية اليوم هي كما ذكرنا أعلاه تطوير للهجة قبيلة قريش التي انتصرت على كل القبائل العربية وسادت بسلالتها لأطول فترة حكم لسلالة في العالم أجمع، والتي لم تختف فعلاً إلا عند احتلال العثمانيين للبلاد العربية وتقويض آخر معاقل الحكم العربي. واليوم؟ الحقيقة المذهلة هي أننا لسنا بعيدين إطلاقاً عن الماضي السحيق، ليس فقط بأنظمتنا السياسية التي لم تبتعد حتى في جمهورياتها وأحزابها عن توريث السلطة إلى أبناء القبيلة. هذه الناحية قد تعمي بسخريتها جذور مصيبة تراثنا وتجعلنا نلقي النكات على الحكام في جمهوريات يورثون الحكم لأبنائهم، وكأنهم أتوا من السماء ولم ينبتوا وسطنا ويخضعوا للقوانين نفسها التي نظمت حياتنا.

لنترك السخرية جانباً ولنلقِ نظرة سريعة على نشأة الإنسان العربي لتبين لنا مدى خطر هذا الجمود ضمن حدود القبيلة.

لنأخذ كمثال طالباً صغيراً ذكياً يجلس في صف بمدرسة في إحدى المدن الليبرالية ويستمع بانتباه كلي لمعلمه، فيكتشف أن معلمه قد أخطأ، فلماذا أتوقع أنا أن احتمال صمته عن الخطأ هذا كبير إن لم نقل «أكيد»؟

هذا الطفل تعود منذ ولادته ليس على التفكير النقدي بل على إرضاء الآخرين ليكون في أعينهم ولداً مهذباً... كان أهله منذ نعومة

Twitter: @ketab_n

أظفاره يطلبون منه أن يسلم على «عمو» ويعطي قبلة «لخالو» أو «لعمته» ويردد جملاً مؤدبة وقعها على المستمع جميل لكنه لا يفهمها. لم يتعلم هذا الطفل لا الصمت ولا الإصغاء فالصمت يعتبر ضعفاً، لذلك تعلم الولد أن يثرثر بما يفهمه وبما لا يفهمه... المهم أن يدل على أنه فهيم فهلوي. ما الذي عاشه الولد هذا في بيته... أب وأم يحاولان دائماً «إنقاذ ماء وجههم» أمام الآخرين، ويراقب الولد أن ما يقوله الأهل أمام الغرباء ليس بالضرورة كل ما يعنونه، وهكذا يتعلم الولد ألا يجابه الآخرين برأيه بل أن يراوغ ويظهر لهم بمظهر أليف. وهذا ما سيجعله يعتقد أن الآخرين لا يقولون رأيهم بل يخفوه كما يفعل هو لكي يبقوا مستترين.

نحن ننقذ ماء وجهنا باستمرار حتى لا يبقى لنا وجه

تزود العائلة العربية على مر العصور الجيل الناشئ بقناع التورية والخوف من التدخل بأهم مواضيع حياتنا من جنس وسياسة ودين (رحم الله بوعلي ياسين) وإذا كان الطفل من الطبقات الوسطى والدنيا تزداد لائحة المحظورات لتضم الأدب والثقافة والمعرفة العلمية... يتعلم الطفل وفي سن مبكرة أن يقبل ويرفض كل شي ليس بتحكيم عقله بل لأن الخوف يتحكم به.

وبدل أن يسود رأي الشيخ محمد عبده الإنساني: «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه

Twitter: @ketab_n

واحد، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر» فإن المجتمع العربي يخضع لعكس هذا القانون العقلاني الإنساني، إنه يكفر كاتب صرح بمائة رأي سديد لأنه يكتشف في رأي واحد لهذا الكاتب ما يعادي اعتقاده. وأحياناً يخترع إن لم يكتشف مبرراً لتكفير من لا يريده.

العائلة العربية والمعلمون والسلطة تحشو رؤوس الأطفال بأمثلة شعبية رديئة تؤكد في مجملها أن من يتدخل في أهم أسس حياته لا يحصد سوى المهانة. تسمى أكثر الأمور أهمية في حياة الإنسان العربي على الأغلب: «هذه أمور لا تعنيك» ويحذر من التدخل فيها لكي «لا يسمع ما لا يرضيه» وأنه لمن الأفضل أن نسير من «حائط لحائط» ونرجو سلامتنا لأن كل ما يجري حولنا لا يهمنا، و«اليد التي لا نستطيع كسرها علينا تقبيلها والدعاء عليها بالكسر» و«مئة قولة جبان ولا قولة: الله يرحمو». أي أن الشجاع يموت لأنه قاوم وكأن المقاومة تعني فقط «حمل السلاح». كما ينصحنا البالغون أن «جارك صبِّحه ومسّيه ويللي ببالك خبيه»، وأن «أكبر منك بيوم أعلم منك دوم» إلخ. نحن لا نقول ما نفكر به ولا نصدق ما يقال لنا، لأننا نبحث عن المستتر ونستر ما نريد الوصول إليه. وبدل الإصغاء لما يقوله أحدهم لنا، نتحول لحفارين ومنقبين عما يختفي تحت سطح كلماته[١].

---

(١) ولا يتوقف الأمر على المستوى الشخصي بل يتعداه لكل مرافق الحياة فليس هناك مواطن عربي واحد يصدق أننا إخوة أو أن شعار الوحدة =

Twitter: @ketab_n

هذه القيود التي يفرضها ليس الحاكم بشخصه فقط، بل نظام بكامله، من الحاكم المستبد وحتى أصغر خلية إجتماعية وهي العائلة، كل هؤلاء يطبعون الإنسان العربي بعدة صفات سلبية لا ضرورة لها، تعيقه عن النمو بشخصية فريدة ذات إرادة قوية. يصف المفكر مصطفى حجازي تأثير هذه القيود السلبية مثلاً على الأبحاث بدقة: «تُفرض على الإنتاج العلمي في العلوم الإنسانية قيود كثيرة، وخطوط حمراء متزايدة، حيث يُمنع على الباحثين تناول المشكلات الاجتماعية المتفاقمة والحديث عنها، وكأن بحثها فضيحة، لأنها تقارب الفضيحة فعلياً في واقعها. وهكذا يُدفع الباحثون إلى التلهي بقضايا جانبية ثانوية لا تمس المسكوت عنه. ولأنه مطلوب الإبقاء على ستر العري الكياني من خلال الحفاظ على ورقة التين التي تستر العورات الاجتماعية، وبالتالي عورات نظم التجريم والتحريم والحجر والتطفيل. وهكذا تضيع جهود جيل

= والحرية والإشتراكية بغض النظر عن ترتيب هذه الكلمات لها أي معنى في حياة شعوب المنطقة بل هي كلام بكلام. يطرح الكاتب الليبي الصادق النيهوم في كتابه «محنة ثقافة مزورة» أسئلة محرجة جداً عن ثقافتنا العربية، مثلاً ما الذي نعنيه بكلمة وطن عربي؟ أو ما المقصود بكلمة مثقف؟ ديمقراطية؟ حزب إلخ أو لماذا يفرح الناس في بلادنا ويرتدون الثياب الجميلة ويزورون بعضهم ويأكلون الكعك في أعيادهم الدينية ولا يحتفل أحدهم بالأعياد الوطنية ولا يزور ولا يُزار؟ هذه الأسئلة ملحة وصادقة ويستحق كاتبها المديح رغم أنني لا أشاركه الرأي في كثير من وجهات نظره ولا في صداقاته مع الحكام.

Twitter: @ketab_n

بأكمله من الباحثين الذين يقتصرون على تناول القشور والتفاهات التي تملأ مجلات البحث الأكاديمي في العلوم الإنسانية، ولا تستخدم لغير أغراض الترقية. وإذا حدث أن تمكّن إبداعٌ من الإفلات من هذه البنية المتحكمة بالعقل والآسرة للفكر، فإن الرقابة له بالمرصاد على مستوى النشر والتوزيع، حيث تفرض على المؤلف والناشر قيود كبيرة تتمثل في أمزجة ٢٢ رقيباً عربياً، مما يؤدي إلى موت هذا الإبداع في صناديق في المستودعات. ولهذا يُعاني العالم العربي من انخفاض عدد الكتب الأدبية والفنية والعلوم الإنسانية بشكل صارخ عن المستويات العالمية. بينما تزداد غزارة إنتاج الكتب الدينية التي تحجر وتحرم وتطمس جذوة الحياة»[١].

وبالمقابل من ذلك يعرض مروجو الحفظ وترديد المتفق عليه منذ آلاف السنين على الإنسان العربي منذ طفولته «بر أمان»، كمنقذ له من أي خطرعواصف تطيح بمركبه. إحفظ وكرر ببغائياً ولن تصاب بمكروه. في العائلة كما في المدرسة يردد الكل على مسمع الطفل أن الحفظ عن ظهر قلب (الصم أو البصم كما يسمى) هو من دلائل الذكاء، وليس السؤال عما تعنيه كلمة، أمر من مسؤول أو معتقد يصدقه الكثيرون. وليس من النادر أن يتباهى البعض بأطفالهم الذين حفظوا بسن العاشرة ما يصعب على ابن الأربعين فهمه. وكم من كاتب يفتخر بفقرة خاصة من سيرته الذاتية، أنه حفظ القرآن وهو

---

(١) حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٥، ص١٧٣.

Twitter: @ketab_n

بسن العاشرة. ويبالغ بعض الأهل في تبيان عبقرية أولادهم بجرهم (وهم أطفال لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم) أمام عدسات التلفزيون ليكرروا دون فهم آيات من الكتب المقدسة الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية.

هذا الطفل محكوم من البدء أن يختار طريق الحفظ الببغائي لا أن يسأل لماذا؟ ومن أين؟ وما الغرض من ذلك؟ فالعالم حولنا لا نفهم دقائقه، فلا نبني رأينا عنه عن طريق دراسة بل من خلال الموروث.

تعاني ثقافتنا من تراكم المُسلَّمات الثقافية والتي تقف عائقاً في وجه النظرة النقدية البناءة للثقافة والتي لا تتطور الثقافة بدونها. وقد أصاب العلامة العراقي الكبير علي الوردي بمقولته في كتابه (في الطبيعة البشرية) «من طبيعة الإنسان أنه عندما ينشأ منذ طفولته على معتقدات وقيم معينة في بيئته المحلية يتصور أنها أفضل المعتقدات والقيم في العالم، وهو لذلك يسخط على أية دعوة جديدة تدعو إلى مخالفتها أو إصلاحها.

إن المعتقدات والقيم التي ينشأ عليها الإنسان قد تكون في بعض الأحيان سخيفة جداً وضارة بالفرد والمجتمع.لكن عقل الإنسان يعجز في الغالب عن إدراك هذا السخف أو الضرر فيها. فهو يركز نظره على معائب المعتقدات والقيم الموجودة في الطوائف الأخرى، أما معائب طائفته فهو يغض النظر عنها أو يحاول تبريرها...

...هذا ناموس بشري عام يخضع له أكثر الناس، وهو يجب أن

Twitter: @ketab_n

يعرفه كل من يريد أن يقوم بأية حركة إصلاحية أو تجديدية، أنه يجب أن يتوقع ظهور الخصوم تجاه حركته كما يتوقع تأييد أكثر الناس لهم...

... إن كثيراً من المتعلمين هم عوام في أعماق عقولهم، فهم يحفظون بعض المعلومات الدينية أو العلمية ويتحذلقون بها أمام الناس، ولكنهم في حقيقة أمرهم لا يختلفون عن العوام من حيث تمسكهم بكل ما نشأوا عليه من معتقدات وقيم...

... من الحقائق التاريخية المعروفة أنه لم يدخل في دين محمد طيلة التسع سنوات الأولى من بداية دعوته سوى أربعين. وهنا يواجه السؤال أي واحد منا: هل سيكون من بين أولئك الأربعين لو كان يعيش في زمن الدعوة المحمدية أو يكون مثل غيره من جماهير الناس الذين كذبوا النبي وقذفوه بالحجارة؟؟»[(١)].

والحفظ البصم مرض ساري تغلغل في أغلب نواحي حياتنا. هنا في المهجر صرت ألاحظ الفرق مثلاً بين الموسيقيين العرب والموسيقيين الأوروبيين. وعبر الإنترنت صارت المقارنة سهلة ففي (You Tube) ترى فرقة الموسيقى التي ترافق أم كلثوم، عبد الوهاب وفريد الأطرش مثلاً، أو حتى إلى أحدث فرق المغنين والمغنيات الجدد. وحتى فرق بدون مطربين. الكل (ما عدا الرحبانيين زياد وأبيه) يعزف هكذا بصماً بدون أوراق نوطة وحتى لو وضعت أمامه، تكون للتمويه وليس للمتابعة. ترى الموسيقي لا يَنظر إليها،

---

(١) منشورات الأهلية، عمان الأردن، ١٩٩٦ ص٧٤ ـ ٧٦.

Twitter: @ketab_n

حتى في أعقد الحالات كما في ألحان السنباطي أو بليغ حمدي... إلخ. هكذا، وكأننا في عراضة، كل يلعب على هواه، والنغم يضبط لكثرة الإعادة بشكل تقريبي، يرضي جمهور يرقص على المقاعد لكل «آه» ويتأوه لكل «يا ليل» من أم كلثوم. وهكذا فليس من العجيب أن تتسمر موسيقانا وأن يقوم مطرب ضرير من أصل فقير مدقع (الشيخ إمام) بتطوير للموسيقى يفوق كل ما سبقه ويجدد بقفزات تشابه قفزات الملحنين اللبنانيين فيلمون وهبة والرحبانيين زياد وأبيه عاصي.

الحفظ الببغائي يولد أفراد قبيلة أذلاء، مهرجين في سيرك الثرثرة اليومية وليس مواطنين أعزاء النفس، يبدعون ويجددون ويتأثرون بما يقرأوه. بينما يقبل الإنسان الذي تعوّد حفظ كل شيء دون سؤال كل ما يحفظه، فيظل هذا المحفوظ غامضاً وغريباً عنه. هذا الفرد لا يسأل عن محتوى ما يردده، وأحياناً يهتف به في تظاهرات منظمة من الدولة، التي يحتقرها سراً، صارخاً بهوس، أشبه بالمشعوذين وتكرارهم للأقوال السحرية المبهمة، والتي قد تكون ذات وقع صوتي رهيب لكنها في مجملها نفايات الفكر الإنساني.

طرفة:

يحكى في دمشق أن ديكتاتوراً ألقى خطاباً حماسياً عن تحرير فلسطين (كمئات الخطب التي مللناها) وأراد الهزء بالجمهور الذي وقف تحت نافذته يهتف: «هات سلاح وخود رجال! بالروح،

Twitter: @ketab_n

بالدم نفديك يا فلسطين! يا فلسطين جينالك...إلخ فأرسل جنوده وأمرهم أن يخبروا الجمهور أنهم سيستلمون بعد ربع ساعة أسلحة وينقلون فوراً إلى الجبهة، ولم تمض دقائق حتى خلت الساحة إلا من بعض الشجعان.

طفلنا العربي يتعلم منذ البدء أن الولاء الأول للعائلة وللقبيلة وليس لما يسمى وطن وأمة. ينتج عن ذلك أن كل ما هو خارج القبيلة عدائي يجب الحذر منه (في المدرسة والجامعة)، وتؤكد السلطة القمعية العربية أول ما تؤكد هذا بمخابراتها وأجهزتها القمعية، التي تحول الآخر إلى عدو يتربص بنا، يوشي بنا، يخوننا أو يعذبنا... مؤكدة بعنف صدق ما تمليه القبيلة، مانعة بذلك وبصورة ناجحة جداً التعاضد بين المواطنين.

الفرد ورأيه ليس لهما قيمة في القبيلة، إلا بالقدر الذي يدعمان به ديمومة القبيلة. القبيلة لا تنجو من قبضة الصحراء القاتلة ولا من الغزو ـ وكلاهما كان من يوميات حياة البدو ـ إلا إذا كانت كتلة متراصة. في هذا الجو تبدو كل معارضة أو رأي حر مثاراً للشك، لا ينظر إليه كلون جديد في قوس قزح الفكر، بل كانشقاق وخيانة. ولذلك تستعمل مفردة الخيانة بسبب وبدون سبب في يومياتنا لأن البدوي الذي في داخلنا يعتبر حتى أقل ابتعاداً أو اختلافاً في تقدير مسألة خيانة تهدد حياته.

العشيرة تعطي لأفرادها الشعور بالأمان ولكنها لا تعطي ذلك إلا بثمن ذوبان شخصية أفرادها. وفي القبيلة «تعوض كثرة العدد عن

Twitter: @ketab_n

ضعف الفرد»[1]. لكن هذا الأمان والإطمئنان يضعف المبادرة الفردية ويشل الفضول وحب اكتشاف المجهول. فالإكتشاف إنجاز فردي أو جماعي، مغامرة قد تضع كل ما هو مصطلح ومتفق عليه في العشيرة موضع سؤال وشك. واكتشاف الجديد يعزل مكتشفه إن لم يعرضه أيضاً لعدائية الجماعة الجاهلة بجديده (كروية الأرض مثلاً)، والأنبياء كانوا عبر تاريخ البشرية ضحية الجديد فيما قالوه، لكنهم لو كرروا ببغائياً مسلَّمات قبيلتهم لما كانوا يستحقون لقب نبي.

نحن نخشى الوحدة والعزلة فنموهها بضجيج وثرثرة فارغة. وقد يدوم هذا الضجيج الفارغ عمراً. نلقي النكات المجترة للمرة الألف مستجدين ضحكة الآخرين كبرهان على الجماعية. نخضع للعشيرة نستجديها حمايتنا لنظهر بقوة ليست فينا. وهذا الولاء للقبيلة يعيق التقدم، ويقول الباحث مصطفى حجازي في ذلك: «ثقافة الولاء»، هي البنية الفوقية التي تسند بنية العصبية. وهي تذهب مباشرة إلى النقيض من «ثقافة الإنجاز». يقوم الولاء على معادلة «التبعية، المكانة، الحظوة والنصيب من الغنيمة». فالثواب والمنفعة لا تقومان على الإنجاز والأداء، بل على مقدار الولاء والحظوة. وهذا ما يجعل أعضاء العصبية يوظفون كل طاقتهم أو جلّها على الأقل، في إثبات تبعيتهم وولائهم الشخصي للعصبية وزعامتها. وهذا ما يجعل الجهد

---

(١) حجازي، مصطفى، التخلف الإجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠، ص١١٤.

Twitter: @ketab_n

الإنتاجي الإنجازي ثانوياً من حيث الأهمية والقيمة والأولوية، ما دامت المكاسب والترقيات تقوم على إثبات الولاء... في المقابل، ما نهضت أمة، قديماً أو حديثاً، إلا انطلاقاً من تبني «ثقافة الإنجاز» والعمل تبعاً لناموسها. ثقافة الإنجاز هي التي تحدد الهوية والمكانة. والشرف هو أساساً الشرف المهني في مقابل شرف المكانة والقرابة في العصبية. في ثقافة الإنجاز التي تشكل قاعدة كل نماء أو بناء لا يرى المرء من مفهوم لذاته أو تصور إلا باعتباره كائنا منجزاً يحسن تنمية طاقاته وتوظيفها. كما أن صناعة المستقبل قائمة على الجهد «الذاتي والجماعي بما فيه من تجديد وإبداع»[1].

العشيرة تعني أنها جسم واحد لا مجال لعضو فيه أن يبتعد عن الأعضاء الأخرى وتعني في الوقت نفسه ـ ولنظل بنفس الصورة ـ أن لهذا الجسد رأس واحد أحد هو زعيم القبيلة المطاع، حتى ولو كان هذا الزعيم أهبلاً أو قاتلاً محترفاً. ونرى عبر التاريخ وإلى يومنا هذا أن عهداً قطعه زعيم القبيلة كان يُلزم أفراد قبيلته أوعشيرته حتى لو كلفهم ذلك أملاكهم وصحتهم وحياتهم. سواء كانوا مقتنعين بالعهد أم لا.

طرفة تاريخية: يحكى أن المتوكل قرأ يوماً في حضرة وزيره الفتح بن خاقان قول القرآن:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ

---

(١) حجازي، مصطفى، الإنسان المهدور، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء ٢٠٠٥، ص٥٥ ـ ٥٦.

Twitter: @ketab_n

﴿عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

بفتح همزة (لأن)، فقال له الفتح: إنها يا سيدي بالكسر، وصمم كل منهما على أنه على صواب، فتبايعا على عشرة آلاف درهم يدفعها من لا يكون الحق في جانبه. فتحاكما إلى **يزيد بن محمد المهلبي**، ولكن هذا خاف أن يسخط أياً منهما، فأشار بتحكيم صديقه المبرد، فلما استدعاه الفتح وسأله عنها قال: «إنها بالكسر، وهو الجيد المختار»، وذكر تفسير ذلك والأدلة عليه.

فلما دخلوا على المتوكل سأله عنها، فقال: «يا أمير المؤمنين، أكثر الناس يقرأونها بالفتح»، فضحك المتوكل وضرب رجله اليسرى، وقال: «أحضر المال يا فتح».

فلما خرجوا من عنده عاتبه الفتح فقال المبرد: «إنما قلت: أكثر الناس يقرأونها بالفتح، وأكثرهم على الخطأ، وإنما تخلصت من اللائمة، وهو أمير المؤمنين».

هذا ما قاله أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرد وهو من أجرأ وأذكى علماء اللغة. فكيف يمكن لهذا الأمر أن يحدث؟ وكيف لطالب مسكين في المدرسة أن يعترض على خطأ اتفق الملايين على صحته؟ كيف له ذلك وهو الذي عاش بشكل يومي، كيف صمتت أمه رغم معرفتها للحقيقة عن خطأ وكذب أبيه لجبروته. «تقع المرأة في مأزق الإزدواجية التعبيرية،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

Twitter: @ketab_n

إزدواجية الصريح والضمني، القبول والرفض، الإعتراف والإنكار، القرب والبعد. وهنا يعاني الرجل من هذه الإزدواجية ويتهم المرأة بالإحتيال والمكر والتلاعب، أو يتهمها بأنها لا تعرف ما تريد. والحقيقة هي أنها أكثر من يعرف ما تريد، ولكنها تعرف اضافة إلى ذلك ما يتهددها من أخطار، إن هي تصرفت تبعاً لما تريد وتمردت على القمع المفروض عليها»[1].

هذه الحياة اليومية الإزدواجية هي جزء من ثقافتنا، فالثقافة ليست فقط ما نقرأه وما نكتبه أو نرسمه، هي التشذيب اليومي لأنفسنا. هذه الثقافة اليومية لا تقتصرعلى الخداع السطحي، بل تدخل إلى أعماقنا لتذلنا وتذكرنا يومياً أنه لا قيمة لنا.

كيف على هذا الطالب أن يتصرف وهو يرى والده الكبير (وأحيانا بمركز إجتماعي أو سياسي مرموق) يؤدي كل واجبات الذل أمام أبيه (جد الطفل) يتحول رغم بلوغه سن الأربعين أو الخمسين إلى طفل (حتى في لهجته الذليلة وصوته وتقلص قامته) في حضرة الجد. هذا لا يعني حباً ولا احتراماً بل إنه ذل. ولا زلت إلى اليوم أذكر قصة صديق لي من مسيحيي حلب: «زارنا بطريرك الكنيسة الأورثوذكسية وكان والدي من تجار حلب الأغنياء وصديق حميم للبطريرك منذ طفولته. وتقدم الجميع لمصافحته وتقبيل يده حتى والدي الذي لعب دور العبد، وهو الذي كان يجعجع ملءَ فيه قبل أيام بقصص عن مقالبه مع البطريرك أثناء الطفولة. وعندما وصل

---

(١) حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور، ص٢٢٦.

Twitter: @ketab_n

الدور إليّ همس جمهور البالغين من حولي: «بوس إيد سيدنا» أقول: «همس» وهذا ليس بصحيح فصوت المجموعة كان كجوقة استمتع بها البطريرك آنذاك. رفضت التقبيل وشددت على يده باحترام كبير، كنت أشعر به آنذاك. إبتسم البطريرك العجوز بوجهه الحكيم، لكن والدي حجب عني النقود لشهر عقاباً على «الفضيحة» التي سببتها له».

ما النتيجة؟ تحول المجتمع العربي إلى مجتمع متفرجين لا فاعلين. متفرجين كما في فيلم أو سيرك: نبكي، نضحك، نتأوه، نخاف، نحزن ونفرح ولا نعمل شيئاً. لكن المدنية لم تبن يوماً من متفرجين ولا تقوم إلا على أيدي فعلة.

تحولات وتطورات اللغة والخط

قبل أن نخوض غمار النقاش فيما تحتاج لغتنا إليه لا بأس أن نلقي نظرة متروية على خاصة من أهم خصائص اللغة ألا وهي ليس قابليتها للتطور فحسب، بل كونها نتيجة لتطور دائم. والتفتيش عن أصول وتطور اللغة، إنما هو البحث في أحد أهم دعائم ثقافة الإنسان، وبالتالي هي محاولة في فهم الإنسان.

للأسف لا نملك مركبة خيالية تسمح لنا بالعودة إلى ما قبل عشرات آلاف السنين لنسجل أول همسات إنسان، التي تجاوزت بتطورها مجرد صراخ. تعقدت لتصبح بأصوات تختلف باختلاف الشيء الموصوف، وهذا الوصف كان كافياً ليفهمه أترابه. لذلك فإننا مجبرون على وضع بعض الفرضيات التي تبدو منطقية وبأقصى

Twitter: @ketab_n

ما يمكننا من الاختصار لأن بحث منشأ اللغة يملأ بمفرده مكتبات بكاملها.

اللغة والخط اختراعان عبقريان وفريدان بنفس الوقت. فالإنسان لم يصل إلى إنسانيته لولا تحرير يديه ولسانه. وهو الذي اخترع هذه اللغة التي وفت في البداية بحاجاته اليومية البسيطة، التي لا تتعدى تبادل المعلومات عن وظائف حياتية من حفظ للبقاء وتنبيه لخطر وتعبيرعن ألم وجوع وحزن وفرح. بالتأكيد كانت تلك اللغة بدائية، وليس لدينا أي وثائق عنها، لكننا يمكننا أن نتصور أنها نشأت في أولى المجموعات البشرية كأداة للتواصل بين أفراد المجموعة، سواء كان دافع التواصل عاطفياً (فاللغة تمتن ترابط المجموعة عاطفياً وقدرةً) أو عقلانياً (لأن الكلمة تسهل تبادل المعرفة، وهذا بدوره يزيد من قوة المجموعة تنظيمياً وبراعة وصلابة تجاه الطبيعة والأعداء). كانت اللغة رغم بدائيتها الهوّة التي ازدادت اتساعاً يوماً بعد يوم بين الانسان وسائر الحيوانات، وكانت البذرة الهامة التي خصبت لتنمو معه إلى ما وراء الحاجات اليومية الضرورية، ولتتناول أمور نظرية بحتة تصيغها في قوالب كلمات تصبح بها وعبرها محسوسة ومفهومة، وهي التي جهزت للانسان تلك المركبة السحرية التي يمتطيها خياله ليسافر إلى فضاء لا حدود له.

الفرادة في هذا الإختراع هي كونه ليس اختراعاً بمعنى أن يقرر إنسان أو مجموعة من البشر أن يخترعوا الكلمات. وقد قال العلامة الكبير نعوم تشومسكي في محاضرة له في نيكاراغوا: «اللغة بصفتها

Twitter: @ketab_n

قدرةً طبيعية هي شيء يَحدُث لنا، مثْل تعلمِنا للمشي تماماً، وبكلمات أُخرى، لِيست اللغة شيئاً نتعلَّمه. فاكتساب اللغة شيء يحدث لنا، لا شيئاً نقوم بتنفيذه. وهو شبيه بوصولنا سنَّ البلوغ، فنحن لا نتعلَّم أنْ نصِل سنَّ البلوغ، ولا نقوم بذلك لأننا رأينا أناسًا آخرين يَعملونه، بل سبب ذلك أننا هُيئْنا لكي نقوم بذلك في وقت محدد»[1].

اللغة، كما يعرفها علماء اللغة اليوم وكما لمّح إلى ذلك المفكر عبد الله القصيمي (١٩٠٧ ـ ١٩٩٦) في مقالاته العديدة، لها علاقة بالجسد ولا يمكن تصورها من دونه. لا يدل على ذلك فقط التفاهم بإشارات جسدية حتى دون كلام، كهز الرأس وتقطيب الحاجبين واستعمال إشارات يدوية للتلميح إلى أمور عديدة، وهذه بالذات اللغة الأكثر بدائية والتي يستعملها الإنسان متى فقد الإمكانية في أي لغة أخرى للتفاهم مع الشخص الذي يقابله (ليس بالخرس والطرش وحده وإنما أيضاً في ألا يملك الشخصان أية لغة ثانية غير لغته الأم للتفاهم مع الآخر)، بل إن اللغة في ميلادها صوتياً جسدية بحتة تخرج من أعماقنا. يقول القصيمي: «اللغة لم توضع وإنما جاءت بلا منطق أو تخطيط كما جاءت وتجيء الطبيعة... وكما جاءت وتجيء ذات الإنسان وأحزانه ومسراته وأحقاده وأهوائه وشهواته وأساليب تلاقحه وتناسله وكما جاءت وتجيء أصوات وتغريدات

---

(١) تشومسكي، نعوم، اللغة ومشكلات المعرفة، محاضرات مانجوا، ترجمة حمزة المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٠.

Twitter: @ketab_n

وأغاني ونقيق الحيوانات والطيور والحشرات»[١]. بالطبع، الصورة هنا شاعرية وجدانية، لكنها قريبة من نتيجة آخر الأبحاث العلمية. ورغم أن الأبحاث لم تستطع إعطاء جوابٍ شافٍ وأخيرٍ عن لحظة البدء للّغة، إلا أنها قدمت الكثير من المعرفة حول اللغة. ولقد ظهرت أثناء سنوات البحث والتنقيب الطويلة أسئلة وأجوبة جديدة لم تخطر على بال في البدء. وبذلك تقدمت أبحاث اللغات في أوروبا في المئة عام الماضية بشكل هائل يعادل في حصيلته عشرات القرون. بينما لا زلنا في بلادنا نضع قدسية وهمية للحروف كقناع لعجزنا. ونحن بمثل هذه الادعاءات الكاذبة إنما نحنط اللغة باسم احترامها وتبجيلها. ويذكرني هذا بطرفة تحكى عن القسطنطينية. كان الفلاسفة واللاهوتيون يتشاجرون لأسابيع، كم ملاك يستطيع الوقوف على رأس إبرة، بينما عساكر محمد الفاتح السلطان العثماني تدك قلاع القسطنطينية لتحولها لإسطنبول.

وبالطبع مرت آلاف السنين على اللغة في طور الشفاهية وحدها دون أي كتابة. ولم يتم الإنتقال من الشفاهية للكتابية هكذا بقفزة واحدة بل سلك ـ كما تبين الأبحاث ـ درباً شائكاً ومعقداً. بدأ بتسجيل الفكرة كاملة بصورة واحدة (ما يسمى بالأيديوغرافيا)، كالرسوم التي نراها عند الهنود الحمر وشعوب أخرى والتي تعبر الصورة الواحدة عن قصة كاملة، وهي في بعض نواحيها مقدمة

---

(١) القصيمي، عبد الله، العرب ظاهرة صوتية، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا ٢٠٠٢، ص٥٩٣.

Twitter: @ketab_n

للهيروغليفية القديمة. كما أنها ولسهولة فهمها لا تزال منتشرة إلى يومنا هذا على شكل شارات المرور وصور توجيه نصائح للمسافرين في المطارات. بعد هذه المرحلة تطورت الكتابة شيئاً فشيئاً إلى كتابة تصويرية، أي أن كل صورة ترمز لكلمة، كما هي الحال في بدايات الهيروغليفية والصينية والكورية. ولهذه الطريقة استمرار وتقاطع مع كتابتنا الألفبائية حتى في أيامنا. فمثلاً إشارات ورموز الرياضيات (+ − = ٪) ما هي إلا صورة ورمز لكلمة بكاملها (جمع، طرح، يساوي، نسبة مئوية إلخ) وبعدها وكتطور منطقي لأن الرسوم لا تفي بكل ما يرد من الكلمات، بدأ الناس بالإشتقاق، وصار الرمز يعطي تعبيراً عن صوت معين. وتتركب أي كلمة من عدة مقاطع تضاف فيها الرموز إلى جانب بعضها، وكلما توسعت دائرة المعرفة كلما احتاج الإنسان إلى مقاطع أكثر ليعبر الأشياء المعقدة. وهكذا دخلت كتابة الكلمات على شكل مقاطع كرموز للأصوات في الحضارة المصرية والسومرية (بالكتابة المسمارية) وكذلك حضارات الصين واليابان وشعوب الاسكيمو. وأخيراً الكتابة الألفبائية كما اخترعها الفينيقيون والتي كانت بمثابة قفزة ثورية لا مثيل لها في التاريخ البشري والتي اختزلت آلاف الرموز لعدد ضئيل من الأحرف يمكن التعبير به عن كل شيء. وهذه الأبجدية هي أم كل الأبجديات من إغريقية، لاتينية، فارسية وسلافية، وآرامية، عبرية وعربية.

جمع الحروف لكلمات

اللغة كائن حي فريد واختراع أبجديته من قبل الفينيقيين لا يضاهيه

Twitter: @ketab_n

اختراع. فبعدد محدود من الأحرف يمكن صياغة عدد هائل من الكلمات، لكن الحروف لا تعطي في لغة ما دوماً معنى لكل احتمالات ربطها، والذي يزداد طرداً مع عدد أحرف الكلمة. فكلمة من حرفين: الألف والميم يمكن أن يرتبا بطريقتين (م + ا = ما وا + م = ام) وكلاهما له معنى في العربية. بثلاثة أحرف يمكن صياغة ست كلمات ليس من الضروري أن يكون لها معنى في هذه اللغة، وبأربعة أحرف محددة يمكن صياغة ٢٤ كلمة وبخمسة أحرف ١٢٠ كلمة وهكذا. وكما يلاحظ القارئ يزداد عدد الكلمات بزيادة عدد الأحرف المشتركة عدد الترابطات بشكل هائل، وكذلك عدد الكلمات التي لا معنى لها في لغة ما كالعربية مما لا ينفي تملكها لمعنى بلغة أخرى من لغات الأرض. لغتنا العربية لا تنزع مثلاً لإطالة مفرداتها، لأكثر من عشرة أحرف وهي حالات نادرة مثل (فأسقيناكموه=١١حرف)، انسانية (٧)، كيميائية (٨)، صيدلية (٦) وأغلب الكلمات الطويلة ذات أصل أجنبي مثل تشيكوسلوفاكيا (١٣)، تكنولوجيا (٩) ولا تصهر العربية الكلمات مما يزيد من رونق الجملة. فبعض الكلمات الألمانية تحتوي على أكثر من عشرين حرفاً وذلك لإمكانية ربط الكلمات ببعضها. فرئيس (١) نادٍ (٢) لكرة (٣) القدم (٤) (أو لمجموعة أو جمعية أو اتحاد) يمكن صهر كلماته في كلمة واحدة:

Fuss (4)ball (3)verein (2) s (حرف وصل) vorsitzender (1)

Twitter: @ketab_n

وأنا أعتقد أن لكل صوت معنى ما في لغة من لغات ولهجات الأرض. فبالإضافة إلى ستة آلاف لغة هناك عدد هائل من اللغات العامية واللهجات. لكن في لغة ما لا يبقى من ملايين الإحتمالات الرياضية لرصف الحروف، سوى كلمات بحدود المليون مفردة تزيد في هذه اللغة لتبلغ عدة ملايين (لتوفرعدداً هائلاً من المرادفات) عن تلك (الفقيرة في مفرداتها لبدائيتها أو لاصلاحها وتشذيبها وتخليصها من كل المفردات والمرادفات غير الضرورية لها، كما حصل للفرنسية والانكليزية والألمانية) حيث لا تتجاوز مفردات اللغة الألمانية المستعملة ٥٠٠,٠٠٠ كلمة والانكليزية لا تمتلك حسب التقديرات الحديثة أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ مفردة لكنها مفردات تدخل في صلب الحياة والعلم والأدب وليست مجرد مفردات قاموسية لا يستعملها أحد.

لكن اللغة تتمتع بميزة ثانية أيضاً أكثر وأعمق وأوضح من مجرد مجموع كلماتها.ولأبين للقارئ ما أقصده أورد المثال البسيط:

إذا قرأنا السطر التالي: الموت وقبل نحن والحياة ويفرقنا وعرب موسى نحن إبراهيم محمد تجمعنا عرب عيسى.

سنفهم كل كلمة لكن السطر يظل بلا معنى. لكنه يتحول إلى جملة ذكية إذا صففنا كلماته بشكل آخر مثلا: «نحن عرب قبل موسى ومحمد وعيسى وإبراهيم. نحن عرب تجمعنا الحياة ويفرقنا الموت».

فهي جملة في خطاب الملك فيصل (الأول) أمام النادي العربي في حلب عام ١٩١٩.

Twitter: @ketab_n

ويورد الكاتب الراحل بوعلي ياسين في كتابه «أهل القلم وما يسطرون» مثالا جميلاً على تغير معنى الجملة ليس فقط بتبديل كلماتها بل حتى باختلاف موضع فواصلها ونقاطها. ويشدد الكاتب على ضرورة الإهتمام بوضع الفواصل والنقاط والمزدوجات وغيرها في الجملة، وهذا ما يهمله أغلب كتابنا ودور نشرنا العربية المعاصرة. يأخذ الكاتب قصة معبرة أوردها عبد الناصر حسو في مقالة له نشرت في «ملحق الثورة الأدبي» عن أهمية علامات الترقيم في النص الأدبي:

«أرسل أحد الملوك لسجّانه هذه العبارة بحق أحد السجناء (العفو ممنوع الحكم بالإعدام) لو وضعنا بعد كلمة عفو فاصلة تصبح الجملة: (العفو، ممنوع الحكم بالإعدام) ينجو السجين من حكم الإعدام لكن إذا وضعنا بعد كلمة (ممنوع) فاصلة تصبح الجملة (العفو ممنوع، الحكم بالإعدام) ينفذ الحكم بالإعدام»[1].

كذلك الخط فهو لا يعزف نفس النغمة الموسيقية للعين بغض النظرعن نوع الخط المستعمل، فالخط أكثر من مجرد إعطاء شكل للأحرف فكتابة هذا النص ذاته بخط كوفي يؤثر في شكله، بغض النظرعن محتواه، بطريقة أخرى على العين وبالتالي على نفس القارئ عند كتابته بالخط الكوفي أو الرقعي أو خربشة يدوية بالكاد تقرأ وكأن دجاجة كتبتها.

---

(١) ياسين، بو علي، أهل القلم وما يسطرون، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ٢٠٠١، ص٤٨.

Twitter: @ketab_n

كما ذكرنا أعلاه، اللغة والخط في تحول مستمر، وتطور قد يصيبها الركود، فيؤدي إلى شلل كليهما، لكن الحياة لا تقف ولا تنتظر السماح لها من الجهات الرسمية بتطوير اللغة. فهي تجددها كل يوم بمهارة ألسنة الملايين من البشر.

تطور التعابير مع الزمن واحتواء اللغة للجديد

يمكننا فهم تغير المعنى وتطور الكلمات إذا ألقينا نظرة سريعة على القفزة النوعية للغتنا بظهور الإسلام. لنأخذ كلمات مثل: إيمان، شريعة، كافر، النفقة، الفرائض، أو الوظيفة والضريبة والخراج والجزية... إلخ. كل هذه التعابير كانت تستعمل في الجاهلية لكنها أخذت معنى آخر بعد ظهور الإسلام، لا يزال سارياً حتى اليوم.

ولا نستغرب هذا التغيير، فهو من سنّة الحياة. وقد أورد الشاعر والإعلامي المصري المعروف فاروق شوشة عدة أمثلة على تبدل وتطور اللغة عبر الزمن في برنامجه الإذاعي الشهير «لغتنا الجميلة» والذي أصدر خلاصته ككتاب شيق سهل الفهم، قوي الدلالة والبرهان بنفس العنوان. «حتى أن بعض الجمل المترجمة حرفياً عن لغة ثانية صارت تستعمل وكأنها معروفة منذ أمد بعيد، كقولنا «ذر الرماد في العيون»، و«كسب الخبز بعرق الجبين»، و«جو السياسة المكهرب»، و«سيولة نقدية»، و«لا جديد تحت الشمس»، و«أعطاه صوته في الإنتخابات»، و«إصلاح جذري»، و«فلان يلعب دوراً مهماً»...إلخ» من التعابير التي أصبح استعمالها بديهياً، حتى في

Twitter: @ketab_n

اللغة الفصحى، وهو ليس بالبديهي ولا حتى أحياناً بالصحيح، لكن الناس وحتى الأدباء منهم اعتادوا استعمال هذه التعابير. ويلخص التغيير الذي حصل على بنية الجملة قائلاً: «في ذلك مثلاً أن الجملة الحديثة أطول نسبياً من القديمة، وأنها حافلة بالجمل الإعتراضية، كما أنها تستعمل حروف الجر - والأدوات عامة - استعمالاً يخالف الإستعمال القديم على درجة ملحوظة، بل وتمتلئ أساليبنا الآن بعبارات ليست إلا ترجمة لأساليب أجنبية خالصة، لا تعرف العربية في القديم مثيلاً لها أو شبيهاً.

من ذلك ما نردده من العبارات المألوفة الشائعة اليوم مثل: أنا كعربي... وهذه النظرية كنظرية... مع أن قواعد اللغة العربية تقتضينا أن نقول في هاتين العبارتين: أنا بوصفي عربياً، وهذه النظرية باعتبارها نظرية»[1]. وأكثر هذه التجديدات لا تقرر في مجمع أو مؤتمر إنما لا زالت تحدث بالسليقة منذ العصور الغابرة، فكلمات مثل جريدة، قلم التحرير، طابع بريد، الجامعة أو الكلية قد يخترعها أستاذ أو صحفي أو غيرهم، لكن ذوق الناس هو من يبث فيها الحياة أو يرفضها فتسقط في سلة مهملات النسيان كملايين المصطلحات.

لا يقتصر الأمر على كلمات من صلب العربية، يتغير معناها فتصبح ذات دلالة ومعنى آخر. بل أخذ العرب مئات الكلمات من

---

(١) شوشة، فاروق، لغتنا الجميلة، سلسلة الأعمال الفكرية، دار الكتاب المصري، ١٩٩٩، ص٩٠ - ٩٧.

Twitter: @ketab_n

الآرامية مثل إسكاف، أسبوع، أتون، أنبوب، برذعة، بلوط، بيت، تنين، جليد، حريف، جيش، حصن.. إلخ. ومن الفارسية كلمات كثيرة كالببغاء، برطيل، بستان، برنامج، بند، بهلوان، بندر.. إلخ. بعضها حافظ على معناه وبعضها الآخر تحول وتبدل. كلمة ديوان تبين كيف تبدل معنى كلمة عبر التاريخ فالديوان كلمة فارسية تعني حسب «لسان العرب»: مُجْتَمع الصحف ويقال إن الخليفة عمر بن الخطاب هو أول من أخذ به (ديوان الجند) وبعد ذلك توسع مفهوم الديوان إلى سائر الدواوين (ديوان الإنشاء، ديوان الضياع، ديوان الخراج) واشتق من الديوان فعل دوَّن بمعنى سجّل ومنها توسع استعمال الكلمة إلى مجلس رسمي في وزارة أو دائرة حكومية وبعدها لكل مكان يجتمع فيه الناس وفي سوريا ولبنان تحولت الكلمة في العصر الحديث للمقعد ويورد الثعالبي في كتابه «فقه اللغة وأسرار العربية» عدد كبير من المفردات العربية ذات الأصل الفارسي التي تطورت تطور كلمة ديوان[1].

وبالمناسبة كان غرض المعاجم في البدء أن تكون أداة لمساعدة

---

(١) أنظر كتاب «المعرب من الكلام الأعجمي» للجواليقي (١٠٧٣ ـ ١١٤٤) حققه أحمد شاكر، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٩، وكتاب «غرائب اللغة العربية» للأب رفائيل نخلة اليسوعي المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٠، وفصل المعربات في موسوعة جواد علي «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، (بيروت، بغداد، ١٩٧٨، ج٨، ص٦٩٤ ـ ٧٣٢).

Twitter: @ketab_n

الدارسين في فهم مفردات القرآن والحديث النبوي. فلقد تداخلت أواشج الصلة بين النصوص الدينية واللغوية حتى كان غالبية المعجميين علماء فقه إسلامي. وليس من العجيب أن يسمي علماء اللغة دراساتهم «فقه اللغة»[١].

وفي العصر العباسي إزداد اغتناء اللغة العربية بآلاف المصطلحات العلمية التي اخترعت، ترجمت، سكبت ومزجت حتى عبرت عن المراد والتي لم تكن برمتها معروفة في الجاهلية أو كانت ترمز لشيء آخر كالصيدلة، التشريح، البلغم، النبض، التخمة، المخدرات، المراهم، الصداع، ذات الرئة، الذبحة، وأغلب المصطلحات الفلكية، الكيميائية، ألفاظ الجبر والهندسة وعلم الضوء وألفاظ الفلسفة (خاصة الصوفية منها ككلمة هاجس) وقد اجتهد وأثمر المبدعون حتى صار هناك مجلدات قاموسية للبحث عن معاني الكلمات الجديدة نذكر منها: «كشاف إصطلاحات الفنون» لمحمد ابن علي الفاروقي الملقب بالتهانوي (ويمكن تحميل هذا الكتاب الرائع في الإنترنت) وكتاب «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (أيضاً يمكن تحميله عن طريق الإنترنت) ولم يتوان العرب أثناء نهضتهم بأخذ كثير من التعابير العلمية من أية لغة كانت وما الضير في ذلك ما داموا هم أسياد ما يصنعون، فأتت كلمات كالفلسفة والمغناطيس لتصبح بعد حين وكأنها عربية المنشأ.

---

(١) حسب القاسمي أولاً من إبن فارس ثم الثعالبي أنظر علي القاسمي، مجلة اللسان العربي، العدد٤٦، ص٥٩.

Twitter: @ketab_n

ويصيب نقولا زيادة في كشف سر توسع العربية في العصر العباسي: «أدت هذه العلوم الجديدة إلى قيام تحديات في المجتمع الجديد، وكان لا بد لهذه التحديات أن يستجاب لها، إما قبولاً أو رفضاً؛ وهذا ما كان يقتضي نمواً جديداً للغة العربية.... وقد استجابت اللغة العربية لهذه التحديات جميعها. فالوعاء اللغوي الذي كان من قبل لا يعرف شيئاً من هذا، إتسع بحيث أصبح بإمكانه ان يحتوي كل أصناف المعرفة والعلوم... واللغة التي شرحت العقيدة والإيمان والواجبات لما أصبحت لغة القرآن والحديث، أخذت نفسها الآن بالمحاجّة والمقارعة دفاعاً عن العقيدة وتوضيحاً لها للآخرين. وفرق كبير بين شرح العقيدة لمن قبِلها، وتوضيحها لمن يرغب في الجدل فيها.

وقد تم هذا للعربية لأن أهلها لم يكونوا يخشون هذا الجديد الذي جاءهم. فكانت العربية إذا لم تجد في مفرداتها ما يؤدي المعنى الجديد المنقول إليها أخذته من اللغة الجديدة وعربته، أي جعلت له صورة عربية....إن اللغة العربية في أي من عصورها ـ إنما هي نتاج قرائح أبنائها، عندما تُقدحُ هذه لتلبية حاجتهم. فإذا كان القوم أصحاب فكر وعلم وحركة صلُحت لغتهم للفكر والعلم والحركة. فإما انطووا على انفسهم إنطوت لغتهم على نفسها معهم»(١).

واللغة لا تأخذ فقط من لغة ثانية بل ترمي ما أخذته في بعض

---

(١) زيادة، نقولا، عربيات، نجيب الريس، لندن، ١٩٩٤، ص٢٢٠.

Twitter: @ketab_n

الأحيان لأنه لم يعد مناسباً، خاصة إذا كان هذا الجديد دخل إليها بالإجبار، حينها تنبذه الحياة متى انتهت السلطة التي تفرضه، ويأتي هكذا نبذ من قلوب الناس وعقولهم وبدون أوامر من الحكام، فجيل جدي الذي عاصر السلطان عبد الحميد الثاني كان يستعمل بدون شك كلمات تركية أو فارسية تركية دخيلة في أيامه وكأنها عربية كالباشكاتب، السلاملك وكل ألفاظ تنتهي بخانة، مثل خاستخانة أو المخففة في دمشق إلى أستخانة (للمستشفى من كلمة خاستا التركية بمعنى ضعيف وخانة بمعنى منزل، بيت، مكان) وكلمة دار التي استعملت بالتركية للدلالة على الوظيفة: الدفتردار والخزندار. ولم يستعمل جيل أبي إلا القليل منها وأما جيلنا فلقد نبذها. اليوم تفهم قلة قليلة من شبابنا معنى هذه الكلمات. وليس هذا الذي حدث بفترة قصيرة نسبية مقارنة بعمر الشعوب إلا مثالاً على قانون أبدي لتداخل اللغات مع بعضها وأخذها من بعضها. فمن المصطلحات ما تنبذه الحياة بعد فترة قصيرة وبعضها ما يبقى رغم تداوله بين العامة والمثقفين دون أي تبديل: مثال على ذلك الديمقراطية، كلاسيكية، رومانتيكية، التلفون، التلفزيون،... إلخ، ومنها ما تحتضنه اللغة وتخفي آثار جذوره بحيث لا يستطيع سوى المتخصصين كشف ذلك فنحن نستعمل الكلمات: بئر، حج، سياسة، قانون، ناموس، قائد، ديوان، قربان وآلاف الكلمات الأخرى دون أن نعرف أنها آتية من لغات أجنبية.

ونحن نعلم أنه حتى كثير من الكلمات العربية الأصيلة قد تبدل

Twitter: @ketab_n

معناها تماماً عبر التاريخ ولا يتوقف ذلك على بعض الأمثلة التي ترد غالباً في الأدبيات مثل الفنان (وهو في الأصل حمار الوحش) والأدب (وهو بمعنى الدعوة إلى مائدة الطعام ومنها أيضاً المأدبة)، فكلمة قنبلة كانت لا تعبر عن سلاح متفجر ففي لسان العرب تعني قنبلة: طائفة من الناس ومن الخيل. وكانت كلمة ماهر تعني السباح، وكلمة المثقف والمهذب (في تسوية الرمح وسنه)، أو كلمة كافر (التي أتت من كلمة الفلاح). «التوقيع» ومعناها الأصلي في اللغة «التأثير» وصارت تعني وضع إسم في نهاية مقال أو عقد.. إلخ، وكلمة «دولة» تحولت بشكل طريف، فمعناها الأصلي كان تقلب الزمن وتغيّر الحال وتحول لنستعمل المصطلح للدلالة على السلطة القائمة[1].

التغيير ذهب إلى أبعد من ذلك فالكلمات المذكورة أعلاه يمكن على الأقل فهم دلالة واحدة من دلالاتها وهي لا تزال ـ على هذا الشكل أو ذاك ـ حاضرة في لغتنا. هناك كلمات اختفت نهائياً وأخرى ظهرت في القرنين الأخيرين ولم تعرفها الثقافة ولا اللغة العربية قبلاً. فما دامت اللغة حية فهي في تغير وتطور يومي. وحده الموت يسبب ركود اللغة إلى الأبد.

---

(١) أنظر التفصيل في هادي العلوي، قاموس الدولة والاقتصاد، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧، ص١١. وأيضا فاروق شوشة، لغتنا الجميلة، ص١٠٥.

Twitter: @ketab_n

إذاً اللغة ليست بنية حجرية وضعت لمرة وستظل هكذا إلى الأبد (فحتى الحجارة تتغير مع الزمن) فهي ابنة زمنها. لنأخذ للدلالة على ذلك بيت امرئ القيس الرابع من معلقته كما نسبه إليه شعراء ما بعد الإسلام:

كأني غداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحي ناقف حنظل

غداة = ضحوة، البين = الفرقة، تحملوا = إرتحلوا، سُمرات = جمع سُمرة = نوع من الشجر، الحي = القبيلة، ناقف حنظل = هو من يشق ثمرة الحنظل ليصل إلى لبها. وأراد منه كما فسره الزوزني في شرحه: وصف حيرته لمغادرة أحبائه العشيرة. وهذا البيت لم أختره لتعجيز القارئ فكتاب الزوزني[1] يستهلك صفحة كاملة أحياناً من الملاحظات لتفسير بيت شعر واحد من المعلقات.

وبيت لبيد ليس أسهل قراءة:

لمعفر فهد تنازع شلوه
غبس كواسب لا يمن طعامها

المعفر=الممرّغ بالتراب، الفهد = هنا بمعنى مبرقع الوجه

---

(١) الزوزني، شرح المعلقات السبع، مكتبة دار لبنان، بيروت، بغداد ١٩٩٠، ص٩ ـ ١٠ وهناك شرح آخر أكثر تفصيلاً (للإعراب أيضاً) للحصرمي حققه أنور أبو سويلم وعلي الهروط وعلي الشوملي في شرح ديوان امرئ القيس صدر عن دار عمار، عمان، الأردن ١٩٩١.

Twitter: @ketab_n

والأكارع، تنازع = تجاذب، الشلو = العفو وأيضاً بقايا الجسد جمعه أشلاء، غبس= لون كلون الرماد، كواسب = الطرائد، المن = القطع، ومنه المنية لقطعها أعمار الناس[1].

هذه اللغة لا يستعملها اليوم أحد ولا يفهمها إلا قلة قليلة من علماء اللغة والأدباء المتمرسين.

هل كان أحد شعراء العصر الأموي أو العباسي سيعترف بروعة بيت شعر واحد من شعر العبقري محمد الماغوط؟

القمح الأزرق، ذو الأهداب الطويلة
يبكي فوق حقولنا
أيها الرجل المجهول
إقذف قبعتني في الوحل
أضرب جبهتي بالسياط
ولكن دعني آكل
دعني أغرق أسناني في الأمكنة النائية
في الأمكنة التي أحبها

أو هل كان أحد خبراء الشعر في القرن الثامن سيتوقع أن تصبح قصيدة محمود درويش «بطاقة هوية» على كل لسان؟

سجل!

---

(١) الزوزني، المصدر السابق، ص١٤٤.

Twitter: @ketab_n

أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية

وتاسعهم.. سيأتي بعد صيف!

فهل تغضب؟

هذه القصيدة لم تحظ على شهرتها لسمو قيمتها الأدبية، فمحمود درويش كتب أفضل منها بكثير. لكنها أصبحت على كل لسان، لأن فلسطينياً من الأرض المحتلة قالها (رمزياً) في مواجهة محقق أو رجل شرطة إسرائيلي. ولو قالها أي عربي آخر في أي بلد عربي لما كان جواب القراء سوى: «طز، أيش يعني؟» ولو قالها فلسطيني لاجئ في إحدى البلاد العربية لما كان جزاؤه منابر ودواوين مجلدة بأناقة بل السجن.

فالكلمة كائن شديد الحساسية يتأثر بزمان ومكان لحظة ولادته.

أنا لم أسأل بعد ما إذا كان أحد سكان البلاد العربية في القرن السابع أو العاشر يفهم ويتذوق شعراً حديثاً تطرب له النفس كقصيدة الشاعر السوري فوزي غزلان مثلاً:

مساحة أخيرة

أجلسُ في المساحةِ بين الوقتِ وظلّي

حيث يقتربُ السكونُ من ولعِ الأصابع

وتبدأُ احتمالاتٌ وتتوارى بيادر

أتكئُ على عُتمةِ الفراغِ

Twitter: @ketab_n

أحاولُ تقشيرَ الليلِ
كي أرسمَ ظلاً للظّلّ/
يصلحُ مساحةً للراحة،
أو أرسمَ بعضَ تضاريسِ الروح
على ورقِ النهارِ الزّائف
أو أطمسَ فيضَ احتجاجي على بَرْدِ المحطّاتِ
وانزلاقِ الماءِ في صدوع جانبية...
أعرّي البحر
عريُ البحرِ فضيحةٌ لِما يرتكبُه الملحُ بحقّ الماء...

هكذا هو الزمن، هكذا هي الحياة في تبدل دائم.

الشيء الطريف والعجائبي حقاً أن اللغة والكلمات والخط تتبدل دون أن تحدث فوضى في المجتمع. كيف يتم ذلك؟

حقق علماء اللغة كثيراً في جذور هذه الظاهرة. أي كيف تم في فرنسا مثلاً الإنتقال من اللاتينية إلى الفرنسية أو في المانيا من لغات ولهجات جرمانية إلى اللغة الألمانية الحالية دون أن يسبب ذلك فوضى تهدم المجتمع. ولنأخذ مثالاً من بلادنا. لم يحدث بلبلة في العالم العربي والإسلامي مثلاً، لا عند تعميم لهجة قريش كلغة عربية رسمية ولا عند إدخال النقط على الحروف العربية ونسخ القرآن بالأحرف الجديدة في عهد عبدالملك بن مروان، خامس الخلفاء الأمويين. أو حين غيرت الدولة التركية الكتابة من اليمين لليسار بالأحرف العربية إلى كتابة من اليسار لليمين بأحرف لاتينية.

Twitter: @ketab_n

أو لنأخذ مثالاً أبسط لماذا لا يفهم أي منا اليوم عندما يسمع كلمة فنان أن المقصود بها حمار وحش؟

ومن يتوقع أن كلمة التاريخ تعود إلى كلمة قمر؟ يسمى القمر في اللغات السامية القديمة ورخ، يرخ، يرح وياريح. كلمة «القمر» العربية أتت من صفة تحولت إلى إسم والصفة هي الأبيض الزاهر[١].

السبب الأرجح هو أن مصطلحاً ما (واللغة هي مجموعة المصطلحات) يصبح شيئاً فشيئاً مصطلحاً مقبولاً من الأغلبية إذا كان في المصطلح استيفاء لما يصفه (وإلا سيحل محله مصطلح أفضل) وإذا كانت المجموعة التي تستعمله إجتماعياً وسياسياً وثقافياً بمركز قوة. ونحن نعرف كما قلنا أعلاه إن لهجة قريش أصبحت ركيزة لغتنا العربية لأن قريشاً سادت سياسياً ودينياً وثقافياً. ولذلك لا عجب أن تدخل مئات (لا بل آلاف) المصطلحات العربية اللغات اللاتينية عندما كان العرب يتربعون على قمة المدنية (ومنها كثير من المصطلحات الكيميائية كالكحول والقالي وعلم الفلك والرياضيات والطب والإقتصاد والسياسة والحرب... إلخ). ويصل عدد المفردات العربية التي دخلت لغة أوروبية نسبة قياسية في الإسبانية. قد تكون الكاتبة السورية سلمى الحفار الكزبري قد بالغت

---

(١) العلوي، هادي، محطات في التاريخ والتراث، دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٧، ص٣.

Twitter: @ketab_n

في مقال لها[١] بنسب ربع المفردات الإسبانية للعربية، لكن النسبة عالية على أي حال. وليس من الغريب أن تقتحم الإنكليزية منذ الحرب العالمية الثانية معاقل كل اللغات لأنها الأقوى في مرحلتنا الحالية...

هناك رحلات طريفة جداً لكلمات مثل كلمة «كافر» التي عنت أولاً الفلاح الزارع الذي يستر الحب بالتراب وكفر كفراً تعني ستر الشيء وخفاه فالليل يسمى كافر لأنه يخفي بظلمته الأشياء. تحولت كلمة كافر بعد انتشار الإسلام إلى معنى من أنكر الخالق وعادت لتتحول في زمننا التعيس من جديد على ألسنة الإسلامويين للدلالة فقط على المسيحيين واليهود.

نبتة الخرشوف (ما يسمى اليوم في لبنان وسوريا الأرضي شوكي) والتي تحولت إلى الإسبانية (Alcachof) والإيطالية (Carciofo) ومنها للفرنسية (Artichaut) والألمانية (Artischoke) والإنكليزية (Artichoke) لتعود إلى العربية بعد تجوالها في أوروبا على هذا الشكل[٢] وهو شكل خاطئ لغوياً وغير منطقي أن نكتب «أرضي شوكي» بدل أن تكون «شوك أرضي». وللشاعر فوزي غزلان تفسير جميل لهذا التركيب اللغوي. كتب لي في حواره معي عن محتوى هذا الكتاب: قد يكون الإسم «النبات الأرضي الشوكي» هو الأكثر

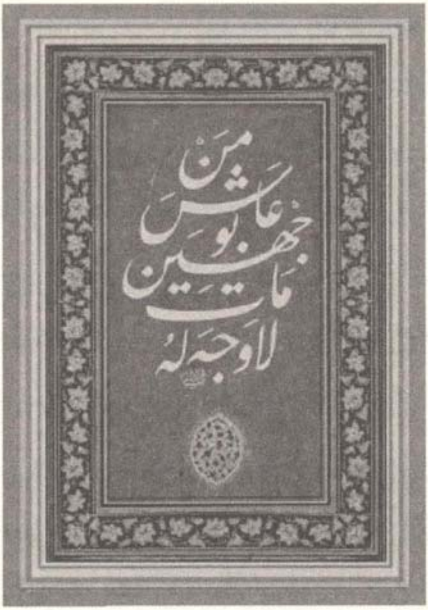
---

(١) مجلة العربي الكويتية العدد ٥٠٣، ١/ ١/ ٢٠٠٣.

(٢) أبو سعد، احمد، قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية، مكتبة لبنان، بيروت١٩٨٧، ص١١٦.

Twitter: @ketab_n

انتشاراً في الأوساط الشعبية من كلمة حرشوف أو خرشوف، فحذف الناس كلمة النبات لتكون: «الأرضي الشوكي»، ولتخفيف نطق المركّب قال الناس: الأرضي شوكي. لهذا: لا أراها خطأً، لكنها جاءت بعد دوران بحثاً من الناس عن اللفظ الأخف. لأنهم لو قالوا: «شوك أرضي»، لكان نباتاً مجهولاً لعمومية الكلمة واللفظ.



واجبات ملحة ونظرة مستقبلية

ما هي مشاكل اللغة العربية التي تعيقها عن اللحاق باللغات العالمية؟ هل هناك حل لهذه المشاكل؟

يواجه من يبدأ النقاش في أمور إصلاح اللغة بشكل يصل إلى حدود تهمة التكفير، بحجة أن في ذلك مسٌّ للقرآن، وهو الكتاب

Twitter: @ketab_n

المقدس لأكثر من مليار إنسان. لا داعيَ لنقاش ما إذا كان هذا الشك مبرراً أم لا، رغم أني لم أجد ولا كتاب واحد يدعو لإصلاح اللغة ويمس الدين، أي دين، بسوء.

لكن ما يهمني هو ما أكتبه أنا، فهناك حقيقة يجب منذ البدء التأكيد عليها، وهي أن ما سأقترحه في هذه المساهمة لا يمس القرآن من قريب أو بعيد، ولا كان هذا شاغلي ولا لثانية واحدة، بل إن همي وهدفي الوحيد من هذه المساهمة المتواضعة هو زيادة حيوية اللغة العربية في استعمالاتها اللامحدودة في يومنا هذا، سواء كانت لغة علم أو شعر أو فلسفة وتأهيلها لتصبح بجدارة لغة عالمية. إن ما سيلي لا ينبع سوى من حب كبير لهذه اللغة الجميلة وخطها الذي يعتبر ـ بحق ـ من أجمل خطوط العالم. هذا الحب نما عبر سنين وهو نوع من العشق والإعجاب بمقدرات هذا الكائن الجميل، لكنه لا يعمي النظر عن نواحي ضعف أَلَمّ بهذه اللغة ويهددها إن لم نسارع لإصلاحه كي لا تتراجع مكانته بين اللغات.

الأحرف العربية إخترعها الإنسان وطورها من الأصول الفينيقية مروراً بالآرامية. وهي ليست مقدسة ومن يدّعي أن لغة أو أبجدية ما مقدسة فهو أمي جاهل أو كاذب ومراءٍ محتال يعرف الحقيقة ويخفيها.

ويخلط بعض المتزمتين بين رغبته والواقع ويصر ليس فقط على إعجاز القرآن (ولكل مسلم الحق في أن يؤمن بذلك) بل وعلى إعجاز اللغة العربية، وليبرهنوا على ذلك يدّعون أن آدم تكلم

Twitter: @ketab_n

العربية. وهذا ما يكرره المتزمتون من أيام القلقشندي[1]، لا بل إن آدم نظم شعراً عربياً يتداولونه (تصوروا يا عقلاء العالم هذا الهراء!!!). ولقد سخر الفيلسوف الشاعر أبو العلاء المعري في رسالة الغفران من أولئك الذين يدّعون أن آدم تكلم العربية: يسأل أحدهم آدم عن بيتي شعر ينسبان إليه فيقول آدم: «أبيتم إلا عقوقاً وأذية! إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة، فلما هبطت إلى الأرض، نُقِلَ لساني إلى السريانية، فلم أنطِقْ بغيرها إلى أن هلكت. فلما ردني الله، سبحانه وتعالى، إلى الجنة، عادت عليّ العربية، فأيَّ حينٍ نظمت هذا الشعر: في العاجلة أم الآجلة؟ والذي قال ذلك، يجب أن يكون قالَهُ وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله:

«منها خلقنا وإليها نعود».

فكيف أقول هذا المقال ولساني سُرياني؟»[2].

وقد قال بذلك قبل المعري أتباع فكر المعتزلة وفلاسفتها. وسيقولها أغلب المفكرين حتى أشدهم تدينا أن اللغة العربية والإنسان العربي أبناء بيئتهم الحضارية التاريخية كباقي الشعوب واللغات. لكن قلة متزمتة تريد تسطيح الأرض والترفع عن البشر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩١٤، ج٣، ص١٠.

(٢) أنظر رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»، ط. ٩، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣، ص٣٦١ ـ ٣٦٢. أيضا في كتاب لويس عوض، مقدمة في فقه اللغة العربية، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٧٢.

Twitter: @ketab_n

براية الجهل بدل تحكيم العقل أن البشر إخوة وليس لعربي فضل على أعجمي إلاّ بالتقوى وليس بالعرق.

وأساس هذا التزمت وتأليه اللغة العربية سياسي بحت وليس ديني كما يشرح لويس عوض بالتفصيل:

«لهذا كان دعاة السيادة العربية حريصين أشد الحرص على إثبات نقاء لغة القرآن من كل كلمة أعجمية. أما الشعوبيون، فقد حرصوا على أن يثبتوا ان القرآن قد داخلته ألفاظ أعجمية عديدة. ثم امتد البحث من لغة القرآن إلى فقه اللغة بصفة عامة، فبدأ بعض علماء اللغة يهتمون برصد ما في اللغة العربية من ألفاظ أجنبية. وكانت أول ثمرة للبحث بدقة في هذا الموضوع كان كتاب «المعرب» للجواليقي ٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ / ١٠٧٢ ـ ١١٤٥م وهو قاموس للكلمات الدخيلة في اللغة العربية»[١] وتبع هذا القاموس قواميس عدة للبشبيشي، وللسيوطي والخفاجي.

إذاً، هذا الذي ينادي بقدسية اللغة حتى عام ٢٠١١ يساهم في قتل وتحنيط اللغة سواء أكان ذلك بمعرفة أو بغير معرفة. وأورد هنا دليلاً لكلامي من جهة لا يمكن الشك بتدينها: عقد في القاهرة مؤتمر عالمي عن «لغة الطفل العربي في عصر العولمة» في مقر جامعة الدول العربية في العام ٢٠٠٧. وقد شارك فيه أكثرُ من خمسمائة باحث ينتمون إلى تسع عشرة دولة عربية وإلى عدد من الدول الأخرى وقد قدم مفتي الديار المصرية الشيخ الدكتورعلي

(١) عوض، لويس، مقدمة في فقه اللغة، ص٨٥.

Twitter: @ketab_n

جمعة في الجلسة الأولى للمؤتمر بحثاً قيِّماً أوضح فيه أن القرآن لا يشتمل على جميع اللغة العربية من جذورٍ وتراكيبَ ومعانٍ، وإنما على نسبةٍ ضئيلةٍ منها: (أقل من ٣٠٪ من الجذور العربية، مثلاً)، وأن تلك النسبة الصغيرة في سياقاتها ودلالاتها المحددة هي التي تستمد قدسيتها من القرآن الكريم، وأمّا غالبيةُ اللغةِ العربيةِ فليستْ مقدّسةً، ولهذا فهيَ عُرْضَةٌ للتغييرِ، وطبعاً للانقراضِ كذلك. ونفيِ مسألةِ قداسةِ أية لغة هو أمر منطقي ويقارب البديهية، فاللغةُ تحتوي على الألفاظ الدينيةِ والأخرى الفاجرةِ والماجنةِ وغيرِها مما ليس له علاقةٌ بالقداسةِ؛ لذا فليس معقولاً أنْ تَعُمَّ القداسةُ كلَّ اللغةِ.

لكن كيف يرد المتعصبون لقداسة اللغة على محاولة جادة لشخص واحد يقوم وبكل ضمير بمحاولة فهم أصل اللغة وتطورها؟

إن ما لحق المفكر المصري لويس عوض من إجحاف وتهم يقدم لنا مثالاً واضحاً عن حكمة القول: «السمك ينتن أولاً في رأسه». فكل ما لحق لويس عوض من إهانة هو مسؤولية دولة لم تمتلك هيبة ولا عرفت معنى للحرية.

يعتبر كتاب لويس عوض، «مقدمة في فقه اللغة العربية»، الذي صدر عام ١٩٨٠ عن دار الهيئة المصرية العامة للكتاب (كان رئيسها آنذاك الشاعر والكاتب المسرحي المصري الكبير صلاح عبد الصبور) من أهم ما كتب من أبحاث عن فقه اللغة العربية وصلات

Twitter: @ketab_n

ووشائج هذه اللغة باللغات الأخرى. صُودر الكتاب فور صدوره (يا سلام لهذا السجع المخيف) من السلطات المصرية، وظل ممنوعاً لفترة ٢٥ سنة. فليتصور واحدنا بأي عقلية همجية يمنع كتاب يعالج أمور اللغة. شتم لويس عوض بالصليبي والكافر و.. و.. و. وصدرت طبعة جديدة بعد ربع قرن من المصادرة مع مقدمة مُنْصِفة لنسيم مجلي عن دار رؤية للنشر، القاهرة عام ٢٠٠٦. ويقال إن موجة الحقد التي أدت كالعادة في مصر إلى منع مطبوعة التنوير بدلاً من منع الحاقدين، سواء في حال قتل فرج فودة أو مُنع كتاب لويس عوض كانت قد انطلقت، لأن الكاتب يبرهن في بحثه أن اللغة العربية لغة حديثة نسبياً تنحدر من الآرامية وليست لغة آدم. لكن منع مصر للكتاب لم يمنع تداوله في البلاد العربية الأخرى. فتصوروا يا عربيات ويا عرب القرن الواحد والعشرين أن يقابل عمل موسوعي عظيم بأكثر من ٦٠٠ صفحة أفنى فيه رجل عالم وخبير في اللغات السنين وضوء عينيه، ليس بالتكريم والجوائز الأدبية، بل يُهاجم صاحب هذا الكتاب من «تنابلة السلطان» على مسمع ومرأى العالم. وهذه التسمية: «تنابلة السلطان» أطلقتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً على نوع خاص محدد من النقاد والكتاب لا يجوز إطلاق أسماء الحمير والبغال عليهم، لكي لا أتورط في محكمة مع جمعيات الرفق بالحيوان، لأنها ستبرهن بسهولة أن هؤلاء النقاد لا يملكون نصف ذكاء حمار ولا عُشر حساسيته. هؤلاء يصلح عليهم تسمية «التنابلة» لأنهم لا يقرأون ولا يجتهدون

Twitter: @ketab_n

بل يجترون ويكررون شتائم ضد كاتب معارض قالها غيرهم لغيره، أي حتى في هذا لا اجتهاد لهم وهم تنابلة يتعيشون دوماً من فضلات «سلطان» ببترول أو بدونه.

تصوروا ما يقوله أحد هؤلاء التنابلة: «لويس عوض من الكتاب الذين هاجوا وماجوا بأصوات عالية للمسّ باللغة العربية». وآخر يزعق بشتائمه: «دحض مفتريات ضد إعجاز القرآن وأباطيل أخرى اختلقها الصليبي المستغرب لويس عوض».

ومن يقرأ الكتاب سيجد أن لويس عوض، المسيحي القبطي والمصري الوطني لم يتفوه بكلمة واحدة يشكك بها بالقرآن أو بالرسول العربي. بينما الكتب الفخمة المظهر والخسيسة المحتوى التي تنعت المسيحيين بالكفر، وتحاول بسخف ما بعده سخف أن تبين ضلال دين المسيحيين وأن عليهم أن يقلعوا عن ذلك، تباع على المكشوف في كل البلاد العربية.

ولنقرأ معاً بصبر ما يصيح به تنبل آخر والزبد على شفتيه: «إن هذا الأعمى لويس عوض، قد قرأ القرآن كله ومع ذلك تعمى بصيرته، لينقل إلينا تلك الترهات من الاساطير المفتراة.... ويجرؤ على بث سمومه في العالم الإسلامي باسم «مقدمة لفقه اللغة العربية»، أكثرها صوتيات، لا علاقة لها بفقه اللغة، وباقيها طعن في رسل الله وتاريخ المسلمين وزعمائهم، كما صنع في كتابه هذا، حيث ساق إلينا أحاديث الزنادقة المبطلين وترهاتهم، لأنهم فرق ضالة مضلة... وكيف يُقبل من دارس، تخصص في اللغة

Twitter: @ketab_n

الإنجليزية، أن يقدم إلينا أحاديث عن جذور لغات أكثر أدلتها أوهام، ونحن معنيون فقط بعربيتنا؟ **إن ما نقله عن أعلام لغتنا، فنحن نعرفه وندركه، ولا حاجة لنا أن يدلنا عليه!** وكيف نقبل منه ما يقول، والتاريخ يؤكد لنا أن أبا العرب إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، قد تعلم العربية، منذ زمن عميق في التاريخ من قبيلة جرهم، التي جاورته في مكة؟... إن لويس عوض، ليظهر عواره وسوء نيته، حين يجنح إلى الاستشهادات التي لا يعول عليها، لأنها لم تكن في صميم العربية، مثل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، وخيالات ليس فيها مرجعية يعتد بها! إنها أوهام جانح وخيالات شاعر جامح، وإنه لباطل أريد به حق، وما هو من الحق في شيء!... وأي غفران يريد عوض وقبله صاحب الكتاب أبو العلاء المعري!؟ ...**لويس عوض كاليهود** الذين يقتلون الأنبياء بغير حق، وإن اختلف المسلك والتوجه، ونردد قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾! ذلك هو الكاتب الظالم لنفسه ولغيره لويس عوض!».

هل تعتقدون بعد أني بالغت بتسمية هؤلاء «تنابلة السلطان»؟

هل تصدقون أن أحد «تنابلة السلطان» إنتقد كتبي الصادرة بالألمانية، وهو في مصر العزيزة، دون أن يقرأ كلمة واحدة، فهو لا يتقن الألمانية، وهذا ما أقر به فيما بعد مجبراً، فليس هناك أسهل من فحص المقدرة اللغوية لإنسان. لكن ما اعتذر به كان شفهياً وأما شتائمه فكانت كتابية في مجلته المهترئة، وهذه صفة من صفات

Twitter: @ketab_n

تنابلة السلطان فهم قد تعلموا المجاملة والمراوغة حتى القرف، لأنهم ما تعلموا سوى ذلك في معاشرة السلاطين الصعبة. فهذا الذي شتمني جلس في حضن صدام حسين حتى هوى هذا المجرم، وكان قبلها قد تمرغ تحت مائدة القذافي، وسلاطين الخليج، لا فرق، المهم أن يُدفَع بالدولار لأن «تنابلة السلطان» لا يثقون بالعملة الوطنية.

لكنهم حتى في هذا المجال (الطعن بكتاب المعارضة) لم يأتوا بجديد، فمن التراث العربي تحريض شعراء القصر للخلفاء ضد معارضيهم وتشجيعهم على قتل أفرادها. فلقد دخل الشاعر سديف ابن ميمون على الخليفة العباسي ابي العباس السفاح وعنده سليمان ابن هشام بن عبدالملك بن مروان الأموي، وكان سليمان قد التجأ لبني عباس فأمنه أبو العباس السفاح وصار يجالسه وقد أكرمه. فدس أبو مسلم الخراساني (الذي كره الأمويين لأسباب عنصرية) إلى سديف وأعطاه مالاً ليحرض على آخر من نجا من الأمويين، فقال سديف في حضرة السفاح:

لا يغرنّك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داء دويًا
نضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويًا

فقال سليمان: «ما لي ولك أيها الشيخ، قتلتني، قتلك الله»، فأمر السفاح بقتله، فجر سليمان وقتل، وقتل ولديه معه وتبعهم بقية

Twitter: @ketab_n

الأمويين الذين كانوا في المجلس. وأجاز السفاح سديفاً بألف دينار[1]. وسديف وأبو مسلم الخراساني سيموتون فيما بعد موتة الكلاب بأيدٍ عباسية.

لنعود الآن لما يقوله الباحث لويس عوض، الذي يحاول بعمل دؤوب سبر تاريخ العرب. يكتب لويس عوض أن العرب أمة حديثة نسبياً لم يرد لها قبل القرن التاسع ق. م. أي ذكر، وأن أول ظهور للعرب على مسرح التاريخ في الشرق الاوسط ورد في نص شلمنصّر الثالث ملك آشور (٨٥٩ ـ ٨٢٤ قبل الميلاد) في نص من مكتبة آشور بانيبال ملك الآشوريين (٦٦٩ ـ ٦٣٠ قبل الميلاد)، والنص يشير إلى ملكات عربيات[2]!

يسجل لويس عوض أن حركة التدوين بالعربية بدأت «لأول مرة» في القرن الثاني قبل الميلاد ويعتبر تلك اللحظة نقطة انطلاق الحضارة العربية. وتتفق كثير من المراجع على أن التدوين أخذ بدايته الرسمية وعلى مستوى الدولة في عام ١٤٣ هـ. حيث أمر الخليفة العباسي المنصور عدة علماء بتجميع الحديث النبوي. وهذه المقولة ليست دقيقة إذا عنت أن أول تدوين بدأ زمن المنصور،

(١) ابن تغري بردي الأتابكي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٤١٧.

(٢) عوض، لويس، مقدمة في فقه اللغة العربية، دار رؤية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٣٠.

Twitter: @ketab_n

الخليفة العباسي الثاني، لكنها تحمل مؤشراً هاماً. فقد كُتب الكثير أيام النبي العربي إلى جانب بعض من سيرته وأحاديثه كعهود الصلح، والمراسلات وسجلات الزكاة.

وبعد وفاة النبي العربي بدأ اول كتاب في الظهور إلى حيز الوجود وهو القرآن الذي سجل فيه عدد من «كتاب الوحي» ما كان النبي العربي يمليه عليهم من وحي. وبعد أن ظل لفترة مكتوباً على جلود ورقاع وعظام وخشب. وتحول فيما بعد لأول كتاب عربي بين دفتين.

الأمر اختلف في تدوين حديث النبي وسيرته، فقد رفضها النبي وأتباعه والخلفاء الراشدون خوفاً من أن يخلط اتباع الديانة الجديدة بين أقوال النبي والقرآن وأن تحدث بسبب ذلك بلبلة. لكن عدة رجال من أتباعه كانوا يدوّنون هذا الحديث أو ذاك على صحف متفرقة. ولما توفي النبي استمر الصحابة في كتابة الحديث رغم ممانعة الخلفاء.

ظل تجميع أحاديث الرسول إذاً أمراً شخصياً بحتاً. لكن الكتابة بشكل عام ازداد وزنها خلال فترة حكم الخلفاء الراشدين ففي عهد عمر بن الخطاب ازدادت الرقعة الجغرافية للدولة العربية الإسلامية الفتية وكان على عمر أن يرفع التنظيم الإداري ليتماشى مع متطلبات عهده فأسس الدواوين كديوان الجند وديوان القضاء وديوان البريد إلخ وفي عهد عثمان توسعت رقعة الأرض لتشمل ليبيا وأفغانستان وبدأ عدد المسلمين الغير عرب يزداد بسرعة. وبنفس الوقت تناقص

Twitter: @ketab_n

عدد الصحابة وشاخ الكثيرون ممن رافق النبي العربي وهذا ما دفع عثمان بن عفان أن يكمل ما بدأه أبو بكر. وهكذا أنهت لجنة من كتاب الوحي برئاسة زيد بن ثابت كتابة القرآن ككتاب باسم المصحف(١). ويعتبر هذا الإنجاز بغض النظر عن قيمته الدينية الكبيرة أهم عمل ثقافي قامت به كل فترة الخلفاء الراشدين.

وازدادت في العصر الأموي كمية الكتابة بشكل هائل لأن الدولة الأموية أضحت امبراطورية كبيرة. في هذا العهد تمت كما سنرى أجرأ وأخطر الإصلاحات على اللغة العربية (الشكل والإعجام) وقد قفزت هذه الإصلاحات باللغة العربية قفزة هائلة نحو الأمام. فازداد بذلك تنسيق الحروف لتصبح لينة المظهر سهلة الكتابة ومفهومة دون جدل المفسرين.

ويقال إن عمر بن عبد العزيز كان أول خليفة أمر رسمياً بتدوين الحديث وتجميعه خوفاً من ضياعه. فكتب إلى أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم يأمره بذلك في عام ١٠٠ هـ. لكن عدة باحثين يشكون أن عمر بن عبد العزيز قد جمع الحديث. أحمد أمين يصيغ شكه بطريقة ذكية: «لكن لا داعي إلى هذا الشك، فالخبر يروي لنا

---

(١) قال الأَزهري وإنما سمي المصحف مصحفاً لأَنه أُصحِف أَي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين. قال الفراء: يقال مُصْحَفٌ ومِصْحَفٌ كما يقال مُطْرَفٌ ومِطْرَفٌ قال وقوله مُصْحف من أُصْحِفَ أَي جُمِعَتْ فيه الصحف وأُطْرِفَ جُعِلَ في طَرَفَيْه العَلَمان استثقلت العرب الضمة في حروف فكسرت الميم وأَصلها الضمّ فمن ضَمَّ جاء به على أَصله ومن كسره فلاستثقاله الضِمة (ابن منظور لسان العرب).

Twitter: @ketab_n

أن عمر أمر، ولم يرو لنا أن الجمع تم، فلعل موت عمر سريعاً عدل بأبي بكر عن أن ينفذ ما أمر به»[1].

تنامت في العصر العباسي كمية ونوعية الكتابة بشكل هائل خاصة لازدهار صناعة الورق ولتفوق الدولة العربية الإسلامية على كل منافسيها وجرأتها على الإنفتاح على كل الثقافات، وازدادت الترجمة، وازداد اهتمام الدولة بنشر أحاديث الرسول وسيرته. وكان أبرز كتب الحديث ستة والتي أنجزت كلها في هذا العصر وهي: «الجامع الصحيح» لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (توفي سنة ٢٥٦هـ)، و «الصحيح» لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (توفي سنة ٢٦١هـ)، وكتب «السنن» لأبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني، (توفي سنة ٢٧٥هـ)، ولأبي عيسى محمد ابن عيسى بن سورة الترمذي (توفي سنة ٢٧٩هـ)، ولأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (توفي سنة ٣٠٣هـ)، ولابن ماجه أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (توفي سنة ٢٧٥هـ).

ودفعت النهضة في النصف الأول من العصر العباسي كل طاقات البحث العلمي، الفلسفي، الديني والأدبي إلى الأمام، ومن يراقب العصر العباسي يكتشف أيضاً معنى آخر لتحديد بداية التدوين في مطلع هذا العصر بسنة ١٤٣ هـ. فهذا التاريخ يظل كرمز ومؤشر هام.

---

(١) أحمد أمين يشك في أن التجميع قد تم، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تدم سوى سنتين. أنظر: أمين، أحمد، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ج٢، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

Twitter: @ketab_n

فبداية العصر العباسي كانت أيضاً بداية لانتصار الكتابية على الشفاهية. كثرت الترجمات العلمية والفلسفية وكثرت النصوص الأدبية المكتوبة فتراجعت الشفاهية أمام الكتابية لأول مرة في تاريخ العرب. وفي هذا العصر إنتشرت المكتبات وازداد عدد الوراقين بشكل لم يعرفه التاريخ قبلاً. كل هذا دفع مفكرين وعلماء لغويين إلى توحيد كل قواعد اللغة ليدرسها القاصي والداني.

وهكذا يصيب لويس عوض عندما يؤكد أن العرب أمة حديثة نسبياً، وينوه إلى أن التأريخ للحضارات عادة يكون ببداية عصر التدوين واستعمال الابجدية. ويشير إلى أن أقدم نص عربي معروف يرجع إلى عام ٣٢٨ ميلادية وهو شاهد قبر امرئ القيس بن عمرو المتوفى في ذلك العام ويسمي صاحبه «ملك العرب كلهم» ويسجل أن امرأ القيس هذا كان نائب قيصر الروم أو بيزنطة في بلاد العرب.

ويعتبر المؤلف أن التفاعلات اللغوية في هذه المنطقة خاصة في لغة قريش كانت سبباً في انضاج اللغة العربية ومنحها مرونة وخصوبة أهّلتها أن «تكون وعاء لوحي عظيم في عصر الرسول وأداة صالحة للتعبير الفكري العميق حتى عصر ابن خلدون نحو ١٤٠٠ ميلادية مما أهّلها أن تقهر بعض ما جاورها من اللغات تماماً كما قهرت اللاتينية عديداً من لغات أوروبا التي فتحها الرومان حتى نهاية العصور الوسطى».

الكاتب يرى أن الصراع بين العرب والشعوب التي حكموها باسم الاسلام اتخذ أقنعة أيديولوجية متعددة، فأصحاب نظرية تقديس

Twitter: @ketab_n

اللغة العربية نقلوا فكرة اعجاز القرآن إلى فكرة اعجاز اللغة نفسها. ويسجل أن جلال الدين السيوطي الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي يرى أن القرآن احتوى على ألفاظ من لغات أخرى «وهو بذلك يرى أن وجود الالفاظ المعربة في لغة القرآن ليس غضاً من اعجازه وإنما مزية يمتاز بها على سائر الكتب المقدسة».

وبعد قراءتي لكتاب لويس عوض لا يسعني رغم اختلاف وجهة نظري في بعض المسائل عن وجهة نظر لويس عوض ـ رحمه الله ـ إلا أن أسجل عميق احترامي له كمبدع ومفكر شجاع.

اللغة العربية وأحرفها تطورت، والأحرف التي كتب بها القرآن في القرن السابع هي غير تلك التي نقرأها اليوم. كانت الأحرف مثلاً كلها بدون نقط وكانت تصعب ليس قراءة القرآن فحسب بل أي نص بشكل واضح (مما دعا الكثيرين للقول: للقرآن أكثر من قراءة). عندما أدخلت النقط على خمسة عشر حرفاً في العصر الأموي كما ذكرنا أعلاه ازداد وضوح اللغة وازدادت حدة ودقة الكلمة. وهذا أيضاً قام به بشر. ولقد نسخ القرآن بالأحرف الجديدة. واليوم يستطيع كل تلميذ في الصف الرابع قراءة أي كتاب دون أن يخطئ.

إذاً لا داعي لكل هذا الكذب المتعالي المبني على وهم قدسية لغة ما، بخاصة وأن هذا التعالي يهين شعوب الأرض كلها. الشعوب التي تتحدث بما يقارب ٦٠٠٠ لغة. ليس هذا فحسب، بل إن هكذا كذب يشبه ما يعتقد به بعض المتزمتين اليهود من أن الله

Twitter: @ketab_n

(يهوه) لا يفهم سوى العبرية وكلا الإدعائين يحولان الله، جلت قدرته، إلى كائن محدود المعرفة، لا يفهم سوى لغة واحدة، وهو الذات العظمى التي تفهم كل لغات الكون. أليس هكذا ادعاء هو إهانة واضحة لله وتجديف غبي على قدراته التي لا تحدها حدود ولا يحيط بها عقل؟

العقلانية تحتم علينا فتح أعيننا لنرى الوضع كما هو لا كما نشتهيه بغض النظر عن مدى إيماننا الديني أو القومي. يختتم الدكتور محمد جمال صقر مقاله الجميل «رعاية النحو العربي لعروبة أطوار اللغة والتفكير» بالقول: «لقد ركن العربي إلى حضارته القوية، وأخلد إلى غطّة لم ينتزعه منها غير صخب عدوان حضارة غيره، ففزع إلى ماديات حضارته فوجدها عليلة كليلة، وإلى معنوياتها فوجد عدوه قد بث ألسنته تنفره منها أو تصغرها عنده بعد أن كان يظنها لا يجترئ عليها أحد.... وأما لغته التي يراها فيرى عقيدته والعلوم والمعارف والخبرات والأقوال والأفعال والإقرارات التي تعلقت بها منذ اعتقدها وإلى وقته الذي هو فيه، فصارت شيخة فانية، مُتْحَفاً مُغْلقاً، وانبغى له أن يستبدل بها ما لدى غيره من لغات الفتوّة»[١].

لغتنا العربية تحتاج أول ما تحتاج إلى عملية ترجمة لكل منجزات الثقافة العالمية سواء كانت غربية، صينية، هندية، كورية أم يابانية

(١) أنظر موقع مجلة أفق الثقافية الإلكتروني http://www.ofouq.com

Twitter: @ketab_n

ليس في مجال العلوم فقط بل في سائر مناحي الفكر والفلسفة والآداب والإقتصاد والتربية والزراعة والصناعة والفن والموسيقى ووضعها كاملة في متناول أيدي الدارسين لنبدأ حينها بنهضة علمية ونساير ركب الحضارة.

لكن من أين نبدأ إذا أردنا أن ننقل إلى لغتنا كل ما نحتاجه لتقدمنا؟

سيفاجئ جوابي الكثيرين: علينا البدء أولاً بتأهيل لغتنا وزيادة ديناميكيتها وتوحيدها في كافة البلدان العربية لتستطيع بدورها القيام بترجمة أفضل وأكثر قرباً للقراء. علينا ضبط قواعدها ومفرداتها بكتب عصرية وقواميس موحدة تسهل استعمالاً موحداً في سائر الأقطار العربية وهي المقدمة الأولى لاحترام اللغة العربية وهو ما لم ينجز حتى اليوم بعد مرور أكثر من نصف قرن على استقلال البلاد العربية وأكثر من تسعين سنة على تأسيس أول مجمع عربي للغة في دمشق (عام ١٩١٩).

بما أن الأبجدية أساس كل لغة، فعلينا أن نفحص أبجديتنا إن كانت مؤهلة لتقوم بمثل هذا العبء أو أنها لا تصلح إطلاقاً أو ربما ينقصها بعض المقومات لتصبح مؤهلة.

هذا النقاش ليس بالجديد. فقد شعر المترجمون وعلماء اللغة ومحبوها بتعثر اللغة العربية أمام متطلبات العصر. فما هي الطرق التي اقترحت لحل هذه المشاكل؟

هناك اتجاهان قديمان في الفكر الذي حاول حل مشكلة اللغة

Twitter: @ketab_n

العربية تجاه التقدم وكلاهما خطأ. كلاهما قديم، لكنهما ما زالا حتى يومنا يعودان بين الفترة والأخرى لمد رأسيهما وكأنهما الفارسان المنقذان للغتنا ولذلك لا بأس من استعراض كلا المشروعين.

١ ـ استعمال العامية بدلاً عن اللغة الفصحى:

يدّعي مفكرو هذا الإتجاه أن العربية الفصحى ثقيلة الوقع على اللسان وأن الحل يكمن في أن يستعيض العرب عن لغتهم الفصحى باللهجات العامية المحلية التي يسهل على اللسان والقلب والعقل استعمالها. ويمكن تلخيص ما استعملوا من حجج في مختلف البلدان العربية بما يلي: علينا أن نكتب للناس باللغة التي يتداولونها في يومهم، فهي إذاً لغة الحياة، وأما الفصحى فهي لغة الكتب على الرفوف والحياة تفرض قانونها. العامية هي لغة الأم (أي التي تعلمناها ممن أنجبتنا) وأما الفصحى فهي لغة الورق، وهي غريبة، صعبة المنال ولا تُفهم إلا بعد دراسة ومران. ويقولون، إذا كتبنا باللغة العامية نشرنا الثقافة في ميدانٍ متّسع ولم نحرم غير المتعلمين. إنّ تلميذ المدرسة في البلاد العربية يلاقي في ازدواج العربية بين منزله ومدرسته ما لا يلاقيه زميله الأوروبي.

هذا التزلف والإغراء قدمه المستعمرون ليشتتوا اللغة العربية الواحدة إلى مئات إن لم يكن آلاف اللهجات العامية المحلية. كان المستشرق الألماني فيلهيلم سبيتا (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) أول من حرّض على إرجاع العربية الفصحى للجوامع لتصبح لغة طقوس، كاللاتينية

Twitter: @ketab_n

آنذاك، وذلك كي تحل العامية محلها في كل المجالات الأخرى. وغلّف هذا الباحث الخبيث مأربه بحب زائف للمصريين «واخيراً سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طوال مدة جمع هذا الكتاب وهو أمل يتعلق بمصر نفسها، ويمس أمراً هو بالنسبة إليها وإلى شعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت. فكل مَنْ عاش فترة طويلة في بلاد تتكلم بالعربية يعرف إلى حدٍّ كبير كيف تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف بين لغة الحديث ولغة الكتابة... وبالتزام الكتابة بالعربية الكلاسيكية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقي ويتطور، لان الطبقة المتعلمة القليلة العدد هي وحدها التي يمكن أن يكون الكتاب في متناول يدها».

هذا المستشرق الألماني كان كالكثيرين من المستشرقين يعالج المعرفة الخاصة بالشرق مقننة من جهة بحاجات المشاريع الإستعمارية، ومن جهة أخرى بالنزعة العنصرية عند الغربيين تجاه شعوب المستعمرات، و(سبيتا) عندما يتحدث عن الشرق تراه مزيف عنصري لصورة الشرق، لتخدم هذه الصورة هدف إبقاء الشرق تابعاً للغرب. لكن عندما يعالج نفسه قضايا المانية أو اوروبية بحتة، تراه يرتدي ثوب العالم العقلاني الجليل. أنظر في هذا الشأن دراسات المفكر إدوارد سعيد[١].

ولا يخجل بعض هؤلاء المستشرقين في توجيه التهمة للإسلام

---

(١) الإستشراق (١٩٧٨) و الثقافة والإمبريالية(١٩٩٣) وتعقيبات على الإستشراق (١٩٩٦).

Twitter: @ketab_n

على أنه هو سبب التأخر ويربطون اللغة الفصحى مباشرة به، وكأن المسيحيين الشرقيين لا يتقنون اللغة الفصحى. الهجوم على الإسلام كسبب للتراجع الحضاري العربي، مُجحِف ومُغرِض وشرير، لا يهدف البناء إنما الهدم. فالمجتمع الذي قدم إحدى أجمل وأغزر الحضارات كان مسلماً. كان العرب ولمدة تقارب القرنين أرقى حضارة زمنهم. وكانت هذه الحضارة الفتية تتمتع بحرية العقل وتقبَل الآخر، لم يكن الإسلام دين قيود صارمة ولم يكن ليشكل فلسفة شمولية تحاول أن تستوعب كل شيء وتكفّر الآخر، كما يحاول سلفيو عصر الإنحطاط الجديد تصويره. لذا شارك كثيرون من غير المسلمين وغير العرب في بناء صرح هذه الحضارة، وهو وضع يشابه الوضع في حضارة الغرب الحالية، إذ يساهم في بلد مثل أمريكا، فرنسا أو المانيا علماء وفلاسفة وأدباء وفنانون من مختلف بقاع الأرض ويسمح لهم القيام ببناء الثقافة الألمانية أو الأمريكية أو الفرنسية الوطنية، بغض النظر عن أصلهم ومعتقدهم الديني. وهذا المجتمع المتحضر الذي يأخذ كل ما يحتاجه ليستمر تقدمه، هو صورة طبق الأصل عن صورة المجتمع العربي أثناء فترة حضارته الذهبية، فلم يكن هناك حتى أي حاجة للدفاع عن أخذ ونقل علوم وفلسفة اليونان رغم الطابع الوثني لفكر اليونانيين أو الفرس أو الهنود. وهذا الإنفتاح وهذه الحرية الفكرية هما اللذان قادا المجتمع العربي آنذاك ويقودان المجتمع الغربي في أيامنا إلى النمو والازدهار العلمي والثقافي. وليس من محض الصدفة أن تشهد هذه الفترة

Twitter: @ketab_n

المضيئة تأسيس بيت الحكمة في بغداد سنة ٨٣٠ م. كما وتأسيس جامعة قرطبة سنة ٩٧٠ م وكذلك جامعة طليطلة في الأندلس وجامعة الزهراء في القاهرة.

من الطبيعي أن نستفيد من ذخيرة العامية، ونأخذ مصطلحات جميلة ودقيقة منها لنحولها بتأنٍ إلى فصحى، لكن الدعوة إلى التخلي عن الفصحى التي كررها (سبيتا) هي دعوة لانتحار الثقافة العربية ويرفضها المسيحيون قبل المسلمين.

تبع فيلهيلم سبيتا على نفس الطريق خلفه الألماني في إدارة دار الكتب المصرية كارل فولرس (١٨٥٧ ـ ١٩٠٩) بمؤلفه «اللهجة العربية الحديثة». تبعهما سلدن ولمر (عام ١٩٠١) في كتاب شبيه دعاه «العربية المحلية المصرية» كما ألقى وليم ولكوكس عام ١٨٩٣ خطاباً في نادي الأزبكية القاهري بعنوان «لمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن» حرّض فيه المصريين بصفاقة ضد اللغة الفصحى، متهماً إياها، بأنها هي سبب التأخر. وكان يوسف السباعي الذي تبوأ فيما بعد مناصب إعلامية وثقافية عالية إبان حكم عبد الناصر والسادات من أتباع الكتابة بالعامية وأصدر عدة أعمال له بها كرواية «إني راحلة».

لقد أضاف أغلب هؤلاء الكذبة لدعوته للعامية كدواء سحري رشة بهارات أخرى لكي تخفي رائحة الجيف وهي أن تكتب العامية بالأحرف اللاتينية.

والغريب أن يعود مفكر ألماني في برلين لطرح هذا الإقتراح

Twitter: @ketab_n

الرخيص في عام ٢٠٠٥ كحل سحري ضد جمود الثقافة العربية.

لا أريد إطالة الوقوف أمام وضوح الغرض من وراء اقتراح نبذ الفصحى كهجوم مباشر غبي على اللغة العربية والإسلام، بهدف بطحنا ثقافياً بعد أن تم طرحنا على الأرض سياسياً واقتصادياً. لكني أريد البرهان على أن هذا الإقتراح غير علمي ولا يصيب الثقافة العربية الا بكارثة.

أولاً: العامية لا يمكنها أن تحل مشكلة واحدة من مشاكل اللغة العربية فهي ضئيلة الإستيعاب، فقيرة في مفرداتها وقليلة التنويع في أطيافها وبدائية في بنية الجملة، تهدف دوماً وبكل اللغات تيسير سرعة التفاهم وليس عمقه. هذا ما سيجعل أي لهجة عامية غير قادرة على استيعاب متطلبات العصر العلمية أو الفلسفية المعقدة.

ثانيا: يتكلم هؤلاء المستشرقون وكأنهم لا يعلمون أن لكل منطقة عدة لهجات ولكل بلد كسوريا أو مصر مئات اللهجات. وقد أحصى أحد الزملاء أكثر من عشرين لهجة وعامية مختلفة في أقل من مئة كيلومتر من الساحل اللبناني. واختلاف اللهجات لا يتوقف على العربية وحدها، فالآرامية تختلف أيضاً حسب موضع سكانها ومحيطهم، وبالتالي فمن الصعب على آرامي من جبال القلمون (قرية معلولا مثلاً) أن يفهم بسهولة حديث آرامي من شمال الجزيرة السورية أو جنوب تركيا.

أي اللهجات إذاً يقصد هؤلاء؟ وكيف للتونسي والسوري أن يتفاهما؟ وأي سوري وأي تونسي نعني؟ لأن السوري في الجزيرة

Twitter: @ketab_n

له لهجته المختلفة جداً عن لهجة أهل حوران مثلاً، وكذلك صورة اللهجات العامية في كل البلاد العربية.

ثالثاً: يكذب هؤلاء أمام جمهور عربي يستغبونه، ويصمتون على حقيقة أن في بلدهم ألمانيا مثلاً (موطن الخبثاء سبيتا وفولرس) أكثر من عشرين لهجة عامية يستعملها الناس في يومهم ولا يفهمها سكان المقاطعات الأخرى، ولكن عندما يدخل الطلاب إلى المدرسة في أية قرية أو مدينة المانية، فعليهم أن يتكلموا ويكتبوا الألمانية الفصحى.

لم يحظ اقتراح استعمال العامية بالنجاح وكان مرافقه أسعد حظاً وأطول عمراً... وأكثر خطراً.

٢ - إستعمال الحرف اللاتيني بديلاً عن الحرف العربي

ارتبطت الدعوة إلى استعمال الحرف اللاتيني بديلاً عن العربي باسم الشاعر الكبير (وهو كبير حتى ولو لم يحبه كاتب هذه الأسطر) سعيد عقل. لكن وإنصافاً للرجل، علينا القول إنه مُقلِّد مُنتحِل، وليس هو مُخترع هذه الطريقة.

بدأت كتابة العربية بأحرف لاتينية في إسبانيا بعد هزيمة العرب الشنعاء وطردهم من الأندلس عقب سقوط غرناطة. وتنصّر من بقي منهم، لكن فيليب الثاني ومحاكم تفتيشه الدموية حظرت عليهم الكتابة بالعربية في سنة ١٥٥٦. وهكذا كان الكثيرون منهم يستعملون الحرف اللاتيني لكتاباتهم اليومية.

وأما في عصرنا الحديث فقد بدأت هذه الدعوات قبل مولد سعيد

Twitter: @ketab_n

عقل بكثير. كان محركها الأساس هو انبهار أنصاف المثقفين في المستعمرات بوجه عام تجاه جبروت المستعمر الذي لا يقهر. والمستعمر هذا كان أوروبياً ولغته المشتركة تكتب بحروف لاتينية سواء كان إنكليزياً، فرنسيا، إيطاليا أو ألمانيا. وأدخلت سلطة الإستعمار بسلطة البنادق وأحذية جنودها فكرة إلى عقول أشباه المثقفين مفادها أن لا خلاص من التأخر سوى بأخذ الحرف اللاتيني. وكان هؤلاء قد بدأوا يقنون أن السلطة العثمانية بحذائها العثماني الذي سكن أدمغتهم لقرون آيلة إلى الإنهيار.

كان أول من اقترح رسمياً وكتابياً تغيير الحروف العربية هو الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي عام ١٨٩٦، ففي تلك السنة نشرت مجلة المقتطف هذا الإقتراح الغريب. ورافق الإقتراح صور مضحكة لحروف في غاية البشاعة، صعبة التمييز، بما فيها اقتراح للأعداد يعود بها إلى صيغة بدائية لا تعرف الصفر الذي اخترعه علماء الهند، والذي عمم العرب استعماله حتى أصبحت المدنية اليوم تعتمد في جذورها على هذا الصفر (فالكومبيوتر لا تقوم له قائمة بدونه).

تبعه بعد ذلك الدكتور داود الجلبي الموصلي (١٨٧٩ ـ ١٩٦٠) بنشر رسالة بالتركية عام ١٩٠٥ يحث فيها الأتراك والعرب والإيرانيين على التخلي عن الحرف العربي والكتابة بالحرف اللاتيني. ويقال إن مصطفى كمال أتاتورك تأثر كثيراً بمقال الجلبي كما بدعوة سامي فراشري (١٨٥٠ ـ ١٩٠٤) والذي اقترح في عام

Twitter: @ketab_n

١٨٧٨ تغيير أحرف اللغة الألبانية والتركية من العربية إلى اللاتينية. أقدم أتاتورك بعد ثلاثة وعشرين سنة (في عام ١٩٢٨) على الخطوة التي غيرت أحرف اللغة التركية من العربية إلى اللاتينية والذي سنعود إليه. ومن المجهول لكثرة من العرب أن أغلب شعوب البلقان كانت تستعمل الأحرف العربية لتدوين تراثها.

هزت خطوة مصطفى كمال أتاتورك بالقضاء على الخلافة وإحلال الحرف اللاتيني بدلاً عن الحرف العربي، الأرض تحت أقدام اللغة العربية. وشجعت عن قصد أو غير قصد كل نقاد اللغة، على أن يسارعوا إلى الاعلان على أن الدواء السحري الوحيد هو الأحرف اللاتينية.

في عام ١٩٢٩ ألقى المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، الموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية، كأستاذ في «كوليج دو فرانس» بمحاضرة أمام أكاديميين عرب نادى فيها بالتخلي عن الأحرف العربية: «لا حياة للغة العربية إلا إن كُتبت بحروف لاتينية». لم تمر مثل هذه الإقتراحات الخبيثة بدون تعليق ممن يهمه أمر اللغة العربية. فترى بعض المستشرقين كالأمريكي ريتشارد لوتهيل قد انتقد (عام ١٩٠٢) الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية على صفحات مجلة الهلال المصرية. كذلك هاجم المستشرق الإيطالي كارلو نالينو (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨) كل دعاة هذه الفكرة وفضح مآربهم. وقد شهدت مجلة «لغة العرب» على صفحاتها نقاشا حاداً بين أتباع تبديل الحروف وأعدائه.

Twitter: @ketab_n

لكن من أغرب ما حدث أثناء هذا الصراع أن يتحمس عضو المجمع العربي البارز عبد العزيز فهمي لاستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني. ولم يكتف بطرح فكرته في جلسة المجمع العربي (في مطلع أيار ١٩٤٣) بل تابعها بإصرار غريب رغم رفضها من كثير من المفكرين والكتاب كما سنرى.

كان المجمع آنذاك يحاول تحسين اللغة العربية وقد أعلن عن حاجته لاقتراحات تيسر كتابة وتعلم اللغة ووعد بجوائز مالية لكنه رفض كل المقترحات المقدمة.

قدم عبدالعزيز فهمي اقتراحاته في شباط ١٩٤٤ هذه المرة على شكل أوراق بعنوان: «إقتراح اتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية». الأوراق لم يتجاوز حجمها أربعين صفحة، لكن دفاعه عنها في الجلسة تجاوز مئة صفحة. ولم يُتَهم عبدالعزيز فهمي آنذاك بالكفر أو بالميل للإستعمار.

وهنا لا بد من القول إن لكثير من المثقفين آنذاك مثل طه حسين صاحب أجرأ نقد للشعر الجاهلي وكذلك عباس محمود العقاد مواقف نقدية من جمود اللغة العربية لكن الأخير انبرى وهو عضو مجمع اللغة العربية لنقد اقتراح فهمي وشاركه بذلك محمد كرد علي، وإسعاف النشاشيبي، واسماعيل مظهر ومتى العقراوي والعديد من الكتاب. كما ظهر مؤيدون آخرون لاستعمال الحرف اللاتيني نذكر منهم (ومن كتبهم) إبراهيم حمودي الملا (طباعة اللغة العربية بالحروف اللاتينية) وعثمان صبري (نحو أبجدية جديدة)

Twitter: @ketab_n

والجنيدي خليفة (نحو عربية أفضل)، مارون غصن (حياة اللغة وموتها) وسعيد عقل (يارا) وأنيس فريحة (نحو عربية ميسرة، هذا الصرف وهذا النحو أما لهذا الليل آخر).

بعض هذه الإقتراحات يثير الضحك فعثمان صبري يقترح عام ١٩٦٤ وعلى صفحة الغلاف أن كتابه هذا دراسة عامة لتاريخ الكتابة وعيوبها، تنتهي باقتراح أبجديتين صوتيتين مثاليتين، مطلوب من القارئ أن يختار إحداهما لتستعمل بدلاً من الأبجدية الحالية التي ساعدت كما يدّعي على تفشي الأمية وكأن الأبجدية وجبة من وجبات مطعم يختار كلٌّ ممّا يروق له.

واقترح الجنيدي، خريج الزيتونة، التعبير عن الحركات برقم يوضع في عقب كل حرف للدلالة على الحركة:

للضمة رقم ١ ، أي نكتب كلمة قُل، على الشكل التالي: ق١ل٥

وللفتحه رقم ٢ ، أي نكتب كلمة كلب، هكذا: ك ٢ ل٥ب٥

وللكسرة رقم ٣، أي نكتب كلمة عِلم، هكذا: ع٣ل٥م٥

وللسكون رقم ٥ ، أي نكتب ٥ كما في السطور السابقة بدلاً عن السكون.

وكان أحمد لطفي السيد قد سبقه إلى نكتة أكثر سماجة لكن المصيبة أن لطفي السيد عناها بجدية حين كتب عام ١٨٩٩ : «إن سبب تراجع الأمة العربية تمسكها بالتشديد والتنوين»، ودعا إلى إصلاح قواعد الكتابة واقترح استعمال الحروف للدلالة على الحركات أي إظهارها حرفًا في آخر الكلمة بدل الحركة أي أن

Twitter: @ketab_n

نكتب بدلاً من أَكَلَ أكالا وبدل قَلَمٌ قلمون في الرفع وقلمان في النصب وقلمين في الجر وبلغ في اقتراحاته قمة من قمم البؤس عندما نادى بفك الإدغام أي بدلاً من كلمة محمّدٌ نكتب موحامدون في الرفع وموحامدان في النصب وموحامدين في الجر. ما شاء الله وعين الحاسد تبلى بالعمى لمثل هذا الذكاء.

لكن من المستغرب حقاً أن يعاد طبع كتاب عبد العزيز فهمي «الحروف اللاتينية لكتابة العربية» بعد نصف قرن عام ١٩٩٣ في القاهرة؟!

لماذا نرفض الحرف اللاتيني كحل لمشاكل الحرف العربي؟

تعمد أغلب الأدبيات المناهضة لاستعمال الحرف اللاتيني إلى التشكيك بالخلفية الذهنية لهكذا مشروع ثقافي يريد الإستعمار به تقويض دعائم الثقافة العربية والإسلام معاً. وهذا التشكيك محق إلا هناك عندما ينسج السلفيون بهلوسة شباك مؤامرة عالمية لتحطيم الثقافة العربية، لأننا وبنظرة هادئة متمعنة لا نستطيع تبرئة العرب القائمين على الثقافة العربية من جرم ما تعانيه اللغة، ودولهم أصبحت منذ أكثر من نصف قرن مستقلة. فإلى متى نسخر من أنفسنا بتحويلها إلى دمى عديمة الإرادة تلعبَ بمقدراتها قوى وهمية متآمرة؟ أليس هذا نوع من الضباب لتعمية بصيرتنا عمن بيديه الحل والربط؟ عن أنفسنا نحن!

تختلف النظريات في تحديد عوامل نشوء وبقاء أمة وإن كانت اللغة أول تلك الركائز أو كان الإقتصاد أو التاريخ أو الأرض والدين

Twitter: @ketab_n

هي العوامل الأكثر تأثيراً. لكن اللغة تظل فوق كل التكهنات العامل الأساسي في تكوين ثقافة شعب ما، وبالتالي شخصيته وانتسابه. وأما تأثير اللغة على الدين فهو أضعف مما يظنه الكثيرون. وأنا لا أشارك هذا التضخيم لدور اللغة في نشر وثبات الدين بخاصة في الدينين المسيحي والإسلامي، لأنهما على عكس اليهودية، توجها منذ البدء إلى كل الشعوب. وللمثال: فإن الشعب التركي أو البوسني أو الماليزي ليس أقل ولا أكثر إسلاماً من الشعب الأفغاني أو العربي.

وبنظرة سريعة إلى الإنترنت، يجد القارئ إذا بحث عن «الأبجدية العربية» قائمة طريفة وطويلة بلغات الشعوب الإسلامية التي تستعمل اللغة العربية وتدخل إليها حروف جديدة دون وجل.

- ڭ -- نغ، ويتم استخدام هذا الحرف في الترجمة الصوتية لصوت "ng" الموجود في اللغة التركية العثمانية واللغة الكازاخية واللغة القيرغيزية واللغة الأغورية.
- ٻ -- والذي يستخدم لتمثيل صوتِ انفجار ضمني شفهي من كلا الشفتين في لغة الهوسا واللغة السندية.
- ٺ -- والذي يمثل الصوت الانفجاري الرجعي المرتجع في اللغة السندية.
- ک -- كهي، والذي يمثل صوت الكاف في اللغة السندية.
- ٹ -- والذي يستخدم لتمثيل تي (الصوت الانفجاري الارتجاعي غير الشفهي) في الأوردو.
- ڳ -- يمثلُ هذا الحرفُ نوعا من حرف "G" في اللغة السندية.
- ڱ -- يمثل هذا الحرف الصوت "ng" في اللغة السندية.
- ڻ -- يمثلُ هذا الحرف الصوت الأنفي الانثنائي في السندية.
- ڀ -- يمثل هذا الحرفُ الباء المستنشقة في اللغة السندية.
- ژ -- زهي، يمثل postalveolar عن احتكاكي في الفارسية ، الأردية ، الكردية، والأغورية.
- ڑ -- ع، يمثل رفرف retroflex في لغة الأوردو

Twitter: @ketab_n

- ڕ -- تستخدم في الكردية لتمثيل ص ص
- گ -- يمثل مجموعة في الفارسية، الأوردو،
قيرغيزستان، كازاخستان، الكردية، الأغورية، والتركية العثمانية
- ے -- باري انتم، ويمثل "المؤقت" أو "ه" في لغة الأوردو والبنجابية
- ێ -- يمثل É Ê أو (ه) في الكردية
- ۆ -- يمثل سين (س) في كردستان، وفي الأغورية أنها تمثل الصوت مماثلة إلى
الفرنسية وœu (ط) الصوت
- ۋ -- يمثل الخامس في قيرغيزستان، الأغورية، قديم والتتار، وجورج في
كازاخستان، كما كان يستخدم سابقا في النوجاى
- ڽ -- نيا في النصي جاوي
- ڠ -- نغا في النصي جاوي
- ۏ -- فا في النصي جاوي
- ڈ -- د في لغة الأوردو

لوحة ببعض الأحرف التي أدخلها

المسلمون غير العرب على أبجديتهم لتفي بما تحتاجه لغتهم

إذاً هناك إمكانيات لا حصر لها لتوسيع جسد الحرف العربي كما فعلت ذلك شعوب مسلمة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن استعمال الحرف اللاتيني عوضاً عن الحرف العربي غير صالح إطلاقاً لأسباب كثيرة موضوعية ذاتية تتعلق بلغتنا وثقافتنا. وهذا ما علينا شرحه بصبر وبدون اللجوء إلى التخوين والتكفير في عصر الإنترنت حيث يكتب الكثيرون بالأحرف اللاتينية ما يريدون قوله بالعربية. لننظر أولاً إلى التجربة التاريخية التي يوردها أنصار اللاتينية كمبرر.

التجربة التركية وحدودها

يبرهن أتباع استعمال الحرف اللاتيني صواب رأيهم بالإستناد إلى نجاح الأتراك بتبديل حروف أبجديتهم بسرعة قياسية. لكن إذا نظرنا

Twitter: @ketab_n

بروية إلى التجربة التركية فسنرى إلى جانب الثمن الباهظ الذي دفعه الأتراك لهذا الإنتقال، وهو القطيعة المباشرة مع كل تراثهم المكتوب بأحرف عربية، أن التجربة التركية ومعها منفذها مصطفى كمال أتاتورك حالة تاريخية خاصة جداً، وأن هذه التجربة كانت في بعض توجهاتها مُصَمِّمة للخلاص من العلاقة بالتراث العربي.

ويسيء السلفيون الفهم كعادتهم عندما يحيطون خطوات مصطفى كمال أتاتورك بشبهات سخيفة، فيدّعون تارة أنه ينحدر من عائلة يهودية وطوراً أنه منذ شبابه كان عميلاً للمخابرات البريطانية التي وضعت نصب أعينها تحطيم الإسلام في تركيا. هذا هذيان لا أكثر.

تميز مصطفى كمال أتاتورك منذ طفولته التعيسة في بيت مسلم الدين، عثماني الإنتماء أباً عن جد بمميزات سلبية كثيرة في شخصيته، وميزات ميالة إلى العنف والفردية والتعنت وحب السيطرة (كما تبين دفاتر يومياته التي نشرت فيما بعد) كما والجرأة المتناهية، التي قادته مترنحاً على شفير هاوية من نصر إلى آخر في أجواء لم تكن إطلاقا ملائمة لنهوض حركة قومية تركية ضد أعداء لا يُحصون وأهمهم: الفرنسيون والإيطاليون واليونانيون والبلغار ثم البريطانيون (وكلهم مناهم مصطفى كمال بهزائم عديدة أكبرها هزيمة معارك الدردنيل عام ١٩١٥ وكان من قواد الجيش الإنكليزي آنذاك ونستون تشرشل). كان الإنكليز والفرنسيون قد سلخوا أجزاء من تركيا وأركعوا السلطان (الذي يتباكي عليه السلفيون) ليصبح أداتهم الذليلة الطيعة.

Twitter: @ketab_n

وكان مصطفى كمال شديد المرونة والقساوة حسبما أملت عليه مصلحة تركيا، التي حلم بها كجمهورية ذات سيادة وشأن. وكان يعتقد أن القومية وحدها (بما فيها العنصرية تجاه الثقافات والشعوب الأخرى) هي المنقذ الوحيد، لذلك لم يتباطأ بذبح الأكراد (خاصة بعد انتفاضة الشيخ سعيد في ربيع ١٩٢٥) ولا بقتل ونفي وإقالة أي خصم كان حتى الأمس حليفه. وما أن حل عام ١٩٢٦ حتى تحولت الجمهورية إلى ديكتاتورية بمحاكمها الصورية الرهيبة.

هدم مصطفى كمال الخلافة المهترئة حتى العظم وصمم بيد حديدية أن يحول تركيا إلى بلد متمدن، ومن هذا جاء إصراره مثلاً على فصل الدين عن الدولة كما في بلدان الغرب، ونزع الطربوش التقليدي وفرض القبعة بديلاً عنه (وقد قامت إنتفاضة ثائرة ضد القبعات وانتهت بهزيمة دموية وأكثر من ١٣٠ قتيلاً وآلاف المساجين)، ومنع الحجاب وأكد حق المرأة بالطلاق ومساواتها بالرجل وحقها بتحصيل العلم. وتزوج صديقته لطيفة أوشاكليغيل (وهي امراة متحررة قوية الشخصية) في عام ١٩٢٣ زواجاً مدنياً دون شيخ في دائرة المحافظ ليكون مثالاً للأتراك. ومنح المرأة حق الإنتخاب كاملاً في عام ١٩٣٤.

أخذ صائغو الدستور التركي بتوصية من مصطفى كمال أتاتورك الكثير من القانون المدني والدستور السويسري الذي اعتبره زعيمهم كمثل أعلى، حيث أعجب بسويسرا دون أن يفهم تراكم حصيلة طويلة من التاريخ التي وصلت بسويسرا إلى ما وصلت إليه من رقي

Twitter: @ketab_n

ومدنية (خاصة وأنها ضمنت ليس فقط لثلاث لغات الألمانية والفرنسية والإيطالية أن تبقى سائدة في مقاطعاتها السويسرية بدون أي تحفظ بل سمحت بتطوير لغات قديمة محلية لا يتكلمها إلا بضعة آلاف). بينما صمم كمال أتاتورك الديكتاتور الآسيوي الصغيرالنفس على سحق كل اللغات والثقافات الأخرى. كما نسخ صائغو الدستور التركي فقرات من القانون الألماني والإيطالي. وأجبر الشعب التركي بكامله على الإحتذاء بالغرب وعلى اتخاذ اسم عائلة يسجل به في دائرة النفوس. وكان هو أول من اتخذ اسم عائلة أهداه إياه البرلمان التركي «أتاتورك» أي «أبو الأتراك» واختار هو اسم عائلة بعض أصدقائه مثل عصمت إينونو رئيس وزرائه وثاني رئيس جمهورية بعد وفاة مؤسس تركيا الحديثة.

كان مصطفى كمال أتاتورك يقرر ما يريده ويستشير الكثيرين قبل أن يتخذ القرار، لكنه بعد ذلك لا يتراجع عن قراره ولا يتحمل أي نقد له. وفي هذه النقطة يشبه مصطفى كمال أتاتورك ستالين بتصرفاته في تحويل روسيا المتأخرة إلى اتحاد سوفياتي صناعي حتى ولو كلف ذلك حياة الملايين.

وكلاهما نجح في تدعيم دولته وصمودها أمام أعدائها فوق بحر من الدماء. كان مصطفى كمال أتاتورك والكثير من أتباعه القوميين يكرهون العرب لأن هؤلاء ساهموا بتحالفهم مع بريطانيا العظمى (تحت قيادة الجاسوس الإنكليزي لورنس) وفرنسا على إسقاط قلب الإمبراطورية العثمانية وأهم أجزائها ديناً ودنيا: البلاد العربية. وحتى

Twitter: @ketab_n

يومنا هذا لا يغفر القوميون الأتراك هذه «الخيانة»، ولذلك كان الإبتعاد عن اللغة العربية وأبجديتها، بنظر هؤلاء، قفزة عن الماضي الكئيب وانفصالاً جذرياً عن أحد أسباب هزيمة العثمانيين، وليس لا تقرباً ولا ابتعاداً عن الدين الإسلامي الذي لم يلعب أي دور كبير في عقلية القوميين الأتراك.

هذا الكره للماضي وللعرب هو ما يفسر أن لتركيا حتى اليوم علاقات وثيقة وتعاون غير محدود سياسي، إقتصادي، عسكري وحتى مخابراتي مع إسرائيل، على ما يقوله المثل عدو عدوي صديقي[(١)].

ولم يتم تنفيذ هذه الخطوة بسهولة، فعدد من أتباع وأصدقاء أتاتورك فارقوه (مثل قاسم كارا بكير وعلي فؤاد اللذين انسحبا من حزب الشعب التابع لمصطفى كمال وأسسا في خريف ١٩٢٤ بموافقة مصطفى كمال حزب التقدم والترقي المحافظ) وتنبأوا بفشل

---

(١) وبما أن الحياة تتبدل وتتطور فها نحن نشهد قفزة نوعية للموقف التركي تجاه القضية الفلسطينية وباتجاه مد اليد للعرب منذ موقف رئيس وزراء تركيا طيب رجب أردوغان الصلب ضد حرب الإبادة الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني في غزة، وقد غادر لهذا السبب مؤتمر دافوس الهام جداً لتركيا إثر مشادة بينه وبين رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك شيمون بيريز(٢٠٠٩)، ثم نقد بلهجة شديدة هجوم قوات إسرائيلية على السفن المدنية التي توجهت لكسر الحصار على غزة في(٢٠١٠). وقد بالغ العرب في مديح أردوغان حتى باتوا يعتبرونه بطلا وقدوة للعرب. لكن أردوغان ليس إلا سياسي كبير وأصولي محنك يريد أولاً وأخيراً مصلحة تركيا وقد استطاع بالفعل، مسنوداً بتأييد شعبي، رفع مكانة تركيا، وكسر شوكة العسكر الذين ما باتوا يهددون بقلب الحكم.

Twitter: @ketab_n

هذه الإصلاحات الراديكالية. وحاول البعض الآخر بعقلانية وحكمة التنبيه إلى مدى الخسارة الثقافية التي ستلحق بأجيال الأتراك القادمة، لأنهم لن يستطيعوا قراءة آلاف الكتب التي أنتجها ماضيهم الثقافي. كانت هذه الأصوات الجادة مصيبة لكنها ضاعت وسط الصراخ القومي الأهوج.

يقال الكثير عن سبب نجاح اللغة التركية في التحول. وتحكى أطرف الخرافات عن ذلك منها أن الخبراء قدروا أن تركيا تحتاج من ١٥ إلى ٢٥ سنة لتستطيع تملك ناصية الأحرف اللاتينية فأجابهم مصطفى كمال أتاتورك: «إما أن ننجز ذلك في غضون ثلاثة اشهر أو أننا سنفشل إلى الأبد».

ونجحت التجربة. إحتاجت إلى أكثر من ثلاثة اشهر لكنها نجحت بشكل فريد في العالم. نجحت لأن البورجوازية القومية التركية حرّضت أتباعها وأقلامها على الإبتعاد عن العرب وعن أبجديتهم السامية الأصل، والإلتحاق بأوروبا حيث ينتمي جزء صغير من مساحة تركيا للقارة الأوروبية. وقفت هذه الطبقة بكل قوتها وراء هذه التجربة في المدن، وجندت صحفها في خدمة هذا الهدف فبدأت هذه الصحف منذ اليوم الأول للإعلان بتحويل مقالاتها درجة فدرجة إلى الأحرف اللاتينية مع المحافظة لوقت طويل على الأحرف العربية. ولأن الجهل والأمية كانا سائدين في زمن السلاطين (نسبة الأميين بلغت أكثر من ٨٠ ٪) سهّلا البداية في آلاف المدارس التي افتتحها النظام الجديد وعلّم فيها الأطفال من البدء اللغة التركية بالأحرف اللاتينية. إلى جانب ذلك تصرفت

Twitter: @ketab_n

الدولة بجهازها البوليسي بقساوة بربرية ضد كل مخالفة سواء بالثياب أم باستعمال الحرف العربي.

يضاف إلى هذه العوامل كلها أن الحرف العربي ورد إلى تركيا (أو البلاد العثمانية) كلغة غريبة ليس لها جذور ولا كان شعبها يوماً يستعملها. لكن الشيء المحزن أن تذكر التجربة التركية وكأنها أول وآخر لغة تخلت عن الأحرف العربية. الحقيقة أن كثير من اللغات تخلت ببطء على امتداد فترة طويلة عن الكتابة بالعربية التي كانت لغة الكتابة في أغلب بلاد البلقان وأجزاء كبيرة من إفريقيا وجنوب شرق آسيا (إندونيسيا حتى عام ١٩٠١ وماليزيا حتى الحرب العالمية الثانية).

كل هذا نعالجه باختصار شديد لا يفي الحقيقة المعقدة حقها لكنه لا يزور التاريخ. أردنا فقط الإشارة إلى أن لاعلاقة لهذه التجربة التركية بما ينادي به أتباع الحرف اللاتيني من العرب، إذ إن اللغة العربية بأحرفها، مثالية كانت أم لا، هي حجر الأساس وعمود الإرتكاز في شخصيتنا الثقافية والذي لا يقوم لها قائمة بسحبه.

ونلخص نقدنا لأوهام التقدم الذي يعد البعض به نفسه إن استخدم الأحرف اللاتينية بدلاً من العربية بخمس نقاط:

١ ـ أنجز العرب نهضة لا مثيل لها وبسرعة مذهلة فريدة من نوعها بهذه الأحرف وقدموا للإنسانية روائع يشهد لها التاريخ في اللغة والشعر، الرياضيات، علم البصريات، الفيزياء، الطب، الفلسفة، التاريخ، الكيمياء، الهندسة، الزراعة.. الخ، في زمن كان الناطقون بكل اللغات المتفرعة عن اللاتينية يتمرغون

Twitter: @ketab_n

في وحل تأخرهم. ولأنه كما يقول المفكر الكبير برهان غليون: «ليس هناك أمة تستطيع أن تستوعب الحضارة وإبداعاتها الجديدة في إطار غير إطار ثقافتها. والإعتقاد أن من الممكن التخلي عن هذه الثقافة لغيرها والإستغناء عنها لا يعني في الواقع إلا التخلي عن النهضة ذاتها»[1].

٢ ـ لم يقدم الإنتقال إلى اللاتينية لتركيا أيّة فائدة فلا هو ساعدها على التقدم ولا هو مهّد لانتشار اللغة التركية كما تمنى الكثيرون. وهو في الوقت نفسه قطع تاريخ الشعوب التركية عن ماضيها.

رب أخ لك لم تلده أمــك

٣ ـ بعد بحث جدي حيادي وجدنا أن الحروف اللاتينية لا يمكنها التعبير عن الكثير من الأحرف دون تعقيد (الفارق بين د وض بين ت وط إلخ) حتى عبد العزيز فهمي يقر: «والذي عنّ لي، بعد طول التفكير، أن الهمزة والجيم والحاء والخاء والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين، هذه الأحرف العشرة يجب أن تؤدى برسمها العربي نفسه». يا سلام! وهل هناك أبشع من هكذا أبجدية ثلثي أحرفها باللاتيني وثلثه الأخير بالعربي؟ وما فائدة هذه الأبجدية التي أصبحت خليطاً لا طعم له؟ كما لا يمكن لهذه الأبجدية اللاتينية التفريق بين «عصى» و«عصا» بين «على»

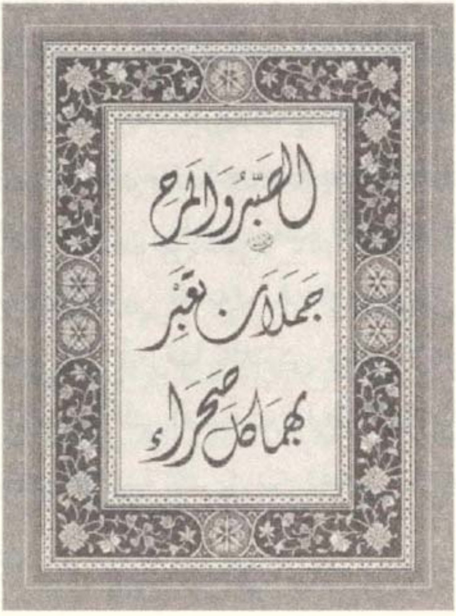
(١) غليون، برهان، إغتيال العقل، دار التنوير، بيروت ١٩٨٥، ص٣١٢.

Twitter: @ketab_n

و«علا» بين «إلى» و«إلا».. إلخ، إلا بتعقيد إضافي لحرف الألف او باستغناء عن الفرق يضعف رونق وجمال اللغة العربية.

٤ ـ يكفي بالتأكيد حقيقة واحدة لهدم كل هذا الخيال المتواضع لأتباع استعمال الحرف اللاتيني. نحن جميعنا نعلم علم اليقين أن الصين، اليابان، كوريا، فيتنام، إيران وإسرائيل يتقدمون وفي سائر مجالات العلم والأدب والفلسفة بسرعة هائلة دون استعمال الحرف اللاتيني لكتابة لغتهم.

٥ ـ هكذا استعمال للحرف اللاتيني يقتضي إعادة كتابة القرآن بالأحرف اللاتينية وهو الكتاب المقدس لأكثر من مليار إنسان، ولا يحق لأي عالم لغوي مهما بلغ حسن مأربه، أن يجرح شعور هؤلاء في أعز كتبهم وأقدسها.



Twitter: @ketab_n

ما هو الرد الصحيح إذاً على متطلبات العصر؟

لنأخذ الفرنسية كمثال وهي لغة عريقة. إبتداءً من عام ١٦٠٥ بدأت حركة الإصلاح اللغوي بتأثير الكاتب فرانسوا دو ماليرب (١٥٥٥ ـ ١٦٢٨) وهو كاتب ومثقف كبير لم يمنعه عمله ككاتب وشاعر بلاط (الملك هنري الرابع) من أن يجدد اللغة الفرنسية بتجريدها من زخارف وصيغ القرون. وقد تبعه الكثير من الكتاب الشباب آنذاك في مسعاه لإحياء لغة فرنسية حديثة. وبدأ الكتّاب وعلماء اللغة بتنظيف اللغة الفرنسية من كل ما علق بها من شوائب وكأنهم قرروا تنفيذ مقولة الفيلسوف ديكارت: «إن هدف اللغة الأعلى والاسمى هو الوضوح» وتطورت الفرنسية وقواميسها الحديثة لتصبح مثالاً لكل اللغات الأوروبية حتى حق للكاتب أنطوان دو ريفارول أن يطلق عام ١٧٨٤ صيحته العنهجية الشهيرة:

Ce qui n'est pas clair n'est pas français، «كل ما هو ليس واضح ليس فرنسياً».

لغتنا وأبجديتنا تحتاجان لإصلاح ولا يساعدنا دفن رأسنا في الرمال ـ فحتى النعام لا يقوم بذلك عند ساعة الخطر ـ متهمين العالم بالتآمر، عندما يبين لنا العالم أجمع يومياً وبالمحسوس أن أحرفنا لا تفي بكل أغراض التقدم. كما لا ينفع ذر الرماد على هامتنا والنحيب والبكاء، بل علينا البحث عن مخرج يضمن لنا الحفاظ على أبجديتنا ويؤهلها في الوقت نفسه لتقوم بإنجازات القرون المقبلة.

إن واقع أيامنا يجبرنا على البحث والنقاش وهو يفرض نفسه علينا

Twitter: @ketab_n

دون إذن. إنه واقع آلاف الكتب التي تترجم وتبدو سيئة لأنها خليط عجيب غريب من الأحرف العربية التي تكتب وتقرأ من اليمين إلى اليسار ثم يفتح القوس ونكتب ونقرأ كلمة لا يسعنا كتابتها بدقة بالعربية بأحرف لاتينية من اليسار لليمين ثم نغلق القوس ونعود للكتابة والقراءة من اليمين لليسار إلى أن نصل للقوس الثاني. السبب هو نقص في الأحرف العربية. إذ لايمكن بالأحرف الحالية كتابة أي كلمة بشكل صحيح إذا احتوت على عدد من الأصوات التي لا تمتلك لغتنا أحرفاً للتعبير عنها.

مشكلة الترجمة

كل حضارة تريد أن تنهض بذاتها عليها أخذ (سواء شرعاً أو سرقة كما فعلت كل الشعوب وليس فقط اليابانيون والصينيون في العصرالحديث كما يدّعي بعض الشوفينيين الأوروبيين، فالأوروبيون أول من سرق قارات بكاملها) كل ما وصل إليه المتقدمون من الحضارات الأخرى وترجمته ليصبح في متناول أيدي علمائهم الشبان، ذخيرة المستقبل القريب، وأن يقلدوا صناعات المتقدمين وعلومها ليطوروها فيما بعد إلى مستويات أعلى.

ولقد قام العرب إبتداءً من القرن الثاني للهجرة بترجمة ما وصل إليه آنذاك اليونانيون والرومان والفرس والهنود إلى معرفة. وكان المسيحيون واليهود من أوائل المترجمين بحكم صلاتهم الدينية مع شعوب البحر المتوسط ولغاتها (السريانية، الآرامية، اليونانية، اللاتينية والفارسية) ولم يتوان الخليفة المتنور المأمون عن الإعتراف

Twitter: @ketab_n

بعمل المترجمين لذكائه وتقديره لجهود المترجم في منح الجيد منه وزنه ذهباً (مع العلم أن صفحات وملفات الأبحاث كانت آنذاك ثقيلة). لأنه كان يعلم أن في نشر تلك الكتب ونقاشها الفائدة لمجتمعه وحضارته. وكان المجتمع العباسي قد تقدم كثيراً باتجاه ترسيخ أقدام حضارة رائدة مبتعدة شيئاً فشيئاً عن البداوة (حتى أن الخلفاء رفضوا إرسال أبنائهم إلى الصحراء لتهذيبهم وأتوا بمربين لهم إلى قصورهم. ليس هذا لخشونة الصحراء، بل لأن هؤلاء الخلفاء أيقنوا أن المدن هي معقل الفكر المنطقي العقلاني بينما البادية تنزع للسلفية: يقول هادي العلوي: «الحجاز أنتج فقهاً سلفياً «فقه النصوص» بحكم البيئة البدوية، وعلى ذكر ذلك أقول إن الجزيرة العربية بما فيها اليمن لم تساهم في الفكر العقلاني رغم أنها كانت مهد الإسلام»[1].

وتطورت اللغة العربية والفكر العربي في العصر الأموي الذي أخذ دمشق، المدينة العريقة بتاريخها المدني، عاصمة له وبوتيرة أسرع في العصر العباسي، فازدادا إحاطة بالعالم بجرأة ووضوح ودقة، وتطورا من الأسلوب القديم التركيبي، إلى الأسلوب المولد التحليلي الذي أنشأه طائفة من الكتاب رائدهم ابن المقفع. وصارت الترجمة من البديهيات اليومية وملأت المصنفات والكتب المترجمة عن اللاتينية واليونانية والفارسية والآرامية ليس رفوف القصور فحسب، بل أيضاً محلات الوراقين التي زاد عددها بشكل هائل في بغداد.

---

(١) حوار الحاضر والمستقبل، دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٩، ص٣١.

Twitter: @ketab_n

ولكن متى ولماذا تراجعت الترجمة؟

الجواب على هذا السؤال المهم أعطي في الأدبيات أكثر من مرة. وأسهل هذه الأجوبة هضماً وأكثرها إراحة لضميرنا التاريخي، هو أن الإنحطاط العربي بدأ منذ هجمة المغول البربرية في القرن الثالث عشر واستمر حتى عصر النهضة.

يقدم شيخ المترجمين الموسوعي جورج طرابيشي أفضل جواب على هذا السؤال: «فاعتزالية المأمون التي فتحت الباب على مصراعيه أمام حركة الترجمة هي عينها التي قدمت الذريعة للخصوم ـ خصوم الاعتزال والفلسفة معاً ـ ليعيدوا إغلاق ذلك الباب. فالسياق الاعتزالي الذي تطورت فيه حركة الترجمة ساعة المخاض سيظل يطاردها كاللعنة حتى ساعة الممات. ولن يشفع هنا لحركة الترجمة كونها تخطت البرنامج المأموني، وكونها امتدت في الزمان نحو قرنين بعد رحيل المأمون، وكونها امتدت في المكان إلى غير فلسفة اليونانيين وعلومهم لتشمل آداب الفرس وحكمة الهند وعلومها، فضلاً عن قليل أندر من كتب القبط والنبط والسريان... حركة الترجمة الواسعة النطاق هذه، التي نكاد نجزم بأنه لا نظير لها في تاريخ العصرين القديم والوسيط، هي التي قُمِعَت ابتداءً من القرن الخامس الهجري في سياق حركة الإبادة الشاملة التي تعرض لها الاعتزال، ومن ثم النزعة العقلية في الحضارة الإسلامية ابتداءً من الانقلاب القادري (٣٨٠ ـ ٤٢٢هـ) الذي كان وجد طبعته الأولى المبكرة في الانقلاب المتوكلي (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ).... في

Twitter: @ketab_n

سياق هذه التصفية الشرسة للتركة الاعتزالية وللنزعة العقلية النسبية التي لابستها، تمت عملية وأد الترجمة وتنظيم محرقة حقيقية، عملية ونظرية معاً، للعلوم والكتب المترجمة الموسومة ـ هي وتلك المؤلفة في ركابها ـ بأنها «دخيلة». ويبدو أن أول حارق كبير للكتب هو أيضاً السلطان محمود الغزنوي (٣٨٧ ـ ٤٢١هـ)... ولكن ظاهرة حرق الكتب لم تبقَ موقوفة على أهل السلطان، بل امتدت إلى العامة بتحريض من المتعصبين من الفقهاء. ففي الفتنة المزمنة التي دامت قرنين بتمامهما بين سُنّة بغداد وشيعتها أُحرقت مكتبات ودور كثيرة للكتب، فضلاً عن مساجد وبيوت وأحياء بكاملها.... وجلس القضاة والعلماء، ومن بينهم الفقيه ابن الجوزي... على سطح المسجد، وتجمع عدد كبير من الناس وقفوا أمام المسجد في صفوف، وألقيت الكتب من فوق سطح المسجد في النار. وقام من يقرأ مضمون هذه الكتب كتاباً كتاباً ويقول: العنوا مَنْ كتب هذه الكتب ومن اعتقد بما جاء فيها، فكان العامة يصيحون باللعن حتى تعدى هذا اللعن إلى الشيخ عبد القادر نفسه، بل وإلى الإمام أحمد (ابن حنبل). وكانت غضبة على الكفار والملحدين ولا غضبة يوم بدر... هذه المحارق الفعلية التي تكرر مشهدها في أزمات شتى وأماكن شتى من البقعة الفسيحة للحضارة العربية، قارنتها محرقة نظرية، أشد خطورة وفاعلية على المدى التاريخي الطويل.... (لأن) المحرقة النظرية من شأنها أن تلغي إمكان معاودة النبت، لأنها لا تستأصل من الجذور فحسب، بل تجفف أيضاً التربة وتوبئ الهواء

Twitter: @ketab_n

المحيط. وبكلمة واحدة، تبطل المشروعية النظرية للتعاطي مع «علوم الأوائل» ترجمة وتأليفاً على السواء... وحسبنا هنا أن نشير إلى أن ابن قتيبة، المتوفى سنة ٣٧٦هـ، كان من أوائل من وضعوا علوم الأوائل المترجمة في موضع التعارض البياني والأيديولوجي مع «كتاب اللّه». وتلاه عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ، فأدرج الفلاسفة والمشتغلين بعلوم الأوائل في عداد «أهل الأهواء» والفرق الخارجة على الإسلام، واعتدهم من «الكفرة الذي لا يؤخذ منهم الجزية ويقتلون» إن لم يرتدوا عن كفرهم. ثم كان تصعيد جديد عندما خص الغزالي الفلاسفة بكتاب كامل ـ تهافت الفلاسفة ـ كفرهم فيه في ثلاث مسائل وبدعهم في سبع عشرة مسألة، وأوجب في الحصيلة الختامية لكتابه «القتل لمن يعتقد اعتقادهم». ولئن حاول الغزالي استثناء المنطق من علوم الأوائل وعمل ـ جاهداً والحق يُقال ـ على إضفاء المشروعية الدينية عليه بوصفه محض آلة علمية محايدة، فإن ابن الصلاح الشهرزوري، المتوفى سنة ٦٤٣هـ، لم يتردد في أن يصدر فتواه الشهيرة التي حكم فيها بتكفير أهل المنطق، فضلاً عن أهل الفلسفة، وصاغ فتواه في بيان غدا برنامج عمل ووثيقة معتمدة لكل من سيتصدى في القرون التالية لأهل الفلسفة والمنطق وسائر علوم الأوائل إلى حد استباحة دمائهم. يقول نص هذه الفتوى الذي لا نتردد في أن نصفه بأنه مرعب: «الفلسفة أس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة. ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن

Twitter: @ketab_n

الشريعة المطهرة... واستحوذ عليه الشيطان... وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالح وسائر من يقتدى به من أعلام الأمة وساداتها».... فابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) الذي قاد أشرس حملة في عصره ضد الفلسفة والمنطق وسائر علوم الأوائل المعربة، بادر بتحميل المأمون مسؤولية البدع وضروب الكفر التي انتشرت بين المسلمين بسبب الكتب المترجمة... (ثم) السيوطي، المتوفى سنة ٩٠٦هـ، هو من يجري للمأمون ـ ولسائر بني العباس ـ أوسع محاكمة بعد الوفاة على «جريمة» استقدام الكتب وتعريب علوم الأمم الأخرى... (وفي هذه الفترة بدأت أوروبا بالصعود) والحال أننا نعلم جميعاً أن هذه النهضة، التي أخرجت الغرب من ظلام القرون الوسطى الأولى، تدين بقسط موفور منها إلى حركة ترجمة الكتب العربية والكتب اليونانية بوساطة عربية أو عبرية إلى اللاتينية. ولكن حركة الترجمة هذه، التي نشطت كل النشاط في الغرب، كانت ماتت كل الموت في الشرق. فعلى حد علمنا، لم يترجم كتاب جديد واحد إلى العربية، نقلاً عن أي لغة حضارية متداولة في ذلك العصر، على امتداد الحقبة الممتدة ما بين القرن الخامس والقرن الثاني عشر للهجرة..»[١].

---

(١) طرابيشي، جورج، هرطقات، دار الساقي، لندن، ٢٠٠٦، ص٣٩ ـ ٥٨.

Twitter: @ketab_n

والترجمة بحد ذاتها فن صعب ناكر لجميل المترجمين. وقد قلت مرة وبدون مبالغة: «المترجم جندي الثقافة المجهول وشاعر الجسور فوق أنهار الثقافات» ولم يكن ذلك مديحاً، بل وصفاً علمياً، فالمترجم يخترع النص من جديد. والترجمة بحد ذاتها صعبة المنال عصية الإنجاز. وهذا ما عرفه الأولون واللاحقون. هناك بالطبع عبقريات في الترجمة تصل بالنص المترجم إلى كمال الأصل، لكن هذا لا يقلل من وزن الصعوبات التي يواجهها المترجمون خاصة من وإلى لغات ذات أصول وجذور مختلفة (كالسامية والهندية ـ الجرمانية) كالترجمة من وإلى العربية من وإلى الألمانية. حتى ولو كانت كلا اللغتين في صورة من الكمال اللغوي والتقارب الثقافي، مما يسمح لها بتقديم مصطلحات (مفردة، إسم، فعل) قريباً جداً للمعنى في اللغة الثانية، فإن هذا القرب لا يصبح مساواة إلا في حالات نادرة، لأن هناك الكثير من الصعاب المخفية تحت سطح الكلمات وفي بناء الجملة، وجوّها الإجتماعي التاريخي والثقافي الواجب ترجمته أيضاً بالشكل المخفي، لكي يشعر به كل من يقرأ الكتاب دونما حاجة لصفحات أو شروح تساوي أو تزيد عن حجم الكتاب. فليس هناك أسوأ من رواية مليئة بالملاحظات المرقمة في أسفل الصفحة أو نهاية الكتاب ـ حتى المحقة منها ـ إذ يشوه هذا مسار القراءة وبالتالي لا تصيب الرواية كما يراد لها هدفها. بل تشرح لنا فقط عذاب المترجم (ة).

أقول هذا عن لغتين متشابهتين جداً، بحيث يسبح المترجم في

Twitter: @ketab_n

بحر الكلمات الممكنة محاولاً الوصول إلى بر الأمان، فما بالك من حالة الترجمة التي لا يجد فيها المترجم في لغته ولا حتى كلمة قريبة لمسافة خمسة كيلومترات من الكلمة المراد ترجمتها من لغة ثانية. وهذا ما أعيشه يومياً مع مترجمي أعمالي من الألمانية إلى لغات العالم. وقد كتب المفكر والباحث والروائي أمبيرتو إيكو كتاباً خاصاً عن مشاكل الترجمة بعنوان (Dire quasi la stessa Cosa)، وقد ترجم الكتاب للغات عديدة منها الألمانية وكم أتمنى لو تُتَرجم هذه الدرة إلى العربية.

اللغة العربية الحديثة ومشاكل الترجمة

لنقرأ أولاً ما يقوله محمد بنيس، أحد أكبر عشاق العربية وشعراء هذه اللغة المعاصرين، عن ترجمة عمل لأستاذه وصديقه عبد الكبير الخطيبي عن الفرنسية، والذي سمح له بكل ثقة التصرف الحر بالترجمة والذي كان دوماً على استعداد للنقاش مع مترجمه: «لا أخفي أنني عانيت من صعوبات قاهرة في ترجمة المصطلحات، وهي همّ يشترك فيه جميع المترجمين والباحثين العرب...خاصة ونحن على علم بما آل إليه نقل المصطلحات من فوضى وعدم ضبط، فإذا مصطلح واحد مثل Signe قد تم نقله بأكثر من ترجمة إلى اللغة العربية،... فما العمل مع مصطلحات لم تنقل إلى العربية بعد، أو لا وجود لها في الفرنسية مطلقاً، وإنما هي من ابتكار الخطيبي؟

لم أتردد في محاسبة نفسي مرة بعد أخرى، أراجع المصطلحات في

Twitter: @ketab_n

أصولها وفي المعاجم المتخصصة بالفرنسية، ثم أنتقل من ترجمة إلى أخرى، مقارناً ومتفحصاً،... ثم مستفسراً بعض الأصدقاء من أهل الإختصاص عن وجهة نظرهم، مستمعاً ومناقشاً، حتى إذا اقتنعت أو حصل لديّ شبه اقتناع أثبت الترجمة، وفي نفسي ريبة عريضة، ومن ثم وجدتني مضطراً في عدة حالات إلى اثبات المصطلح الأصل بصحبة المصطلح المقترح...»[1].

وللحق نقول مهنئين أنفسنا بترجمة محمد بنيس إن هذه الترجمة، هذه الكتابة الجديدة للنص، قد نجحت بالوصول لمبتغاها بعد هذا الجهد العظيم الذي بذله. لكن ما الذي سيقوله مترجم لكاتب لا اتصال وصداقة له معه؟ وهل نبالغ القول في أن المترجم إلى ومن العربية يقوم بعمل مرهق مليء بالعزلة وكأنه في صحراء؟

لماذا تعاني العربية إلى هذا الحد؟ وأين بدأت مشاكل الترجمة هذه؟

خمدت حركة الترجمة، كما ذكرنا أعلاه، لقرون طويلة انحطت فيها ثقافتنا، وتراجع عدد الكتب المترجمة من وإلى لغات ثانية، وبالتالي لم يناقش أحد ما ينقص اللغة العربية لتصبح قادرة على القيام بما تتطلبه الترجمة منها. لكن مشاكل اللغة العربية بدأت بالظهور مجدداً للعيان عندما شعر بعض المتنورين العرب، اعتباراً

---

(١) الخطيبي، عبد الكبير، الاسم العربي الجريح، ترجمة محمد بنيس، منشورات الجمل بغداد ـ بيروت، ٢٠٠٩، ص١٠ ـ ١١.

Twitter: @ketab_n

من مطلع القرن الثامن عشر، بحاجة لترجمة أعمال هامة تعتبر دعامة للثقافة الأوروبية.

اللغة العربية محظوظة ونحن نهمل هذه الفرصة النادرة في لغة بالغة المرونة، لطيفة المخارج تمتلك كمّاً كبيراً من المصطلحات لكل دقائق الأمور وتسمح بالإشتقاق بكل سهولة مما يسمح لها أن تتسع لكل مصطلحات العلم الحديثة. ويلمح جميل صليبا كغيره من المفكرين العاملين في حقل الترجمة (سواء طوعاً مثل منير بعلبكي وجورج طرابيشي أو إجباراً بحكم عملهم كجميل صليبا أو هادي العلوي أو عبد المعطي حجازي) في مقدمته الجميلة لمعجم الألفاظ الفلسفية إلى عدة نقاط يجب مراعاتها عند الترجمة فالمترجم عليه أولاً البحث في الكتب القديمه عن اصطلاح يطابق (ككلمة جوهرالشيء) أو يقارب إلى حد بعيد الكلمة الأجنبية (ككلمة حدس)، أو ابتداع لفظ جديد باشتقاق موفق وذكي من الكلمة الموجودة بالعربية (ككلمة الموضوعية) أو أن نعرِّب اللفظ الأجنبي بمقاربة جيدة لحروفه (ككلمة ديمقراطية)[١].

الترجمة الجيدة تحتاج لمعاجم أجود. هذا ما يعرفه كل من عمل ولو لمرة واحدة في حقل الترجمة. وإعداد المعاجم يَحتاج بحد ذاته جُملة من الخطوات، كجمع المادة وترتيبها وتنظيم مداخلها المعجمية نطقاً وكتابة وصرفاً وتركيباً، ثم تفسيراً وشرحاً للكلمة

---

(١) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢، ج١، ص١٢ ـ ١٦.

Twitter: @ketab_n

(تعريفها) ليسهل ذلك فهم القارئ والباحث. كل هذا يقتضي من العالم المعجمي الإحاطة بدقائق معاني الكلمات، والعلم بأسرار اللغة ومضامينها المُستحدثة، وبالعلائق المُمكنة بين المفاهيم المتقاربة. ويزداد هذا العمل صعوبة إذا كان المعجم يعالج مصطلحات علمية يتطور مضمونها كل يوم حتى أنها قد تصاب بالهرم والتلف بينما لم ينتهِ المعجمي من طباعة معجمه.

يعاني عمل الترجمة والعمل المعجمي من عدة مشاكل أصعبها التفرقة والإنفصال الواقع بين المفكرين العرب. ولنأخذ مثالاً واحداً يكفي كدليل على ذلك. فأنت تجد لكلمة علمية أو فلسفية واحدة عشرات الترجمات في العربية، مما يضعف كل منها بدل أن يتفق العرب على أن هذه الكلمة الإنكليزية أو الصينية أو الروسية يقابلها بالعربية كلمة واحدة هي كذا (Linguistic . بالإنكليزية كلمة واحدة لكل الناطقين بالإنكليزية، حتى أنها لا تتغير لفظاً في الفرنسية Linguistique أو الألمانية Linguistik) بينما في العربية لها أكثر من ثلاث وعشرين مصطلحاً كما أحصى عبد السلام المسدي[(١)] فكيف يمكن لهؤلاء الذين لم يتفقوا على كلمة واحدة أن يتفقوا على آلاف المصطلحات الأكثر غموضاً وتعقيداً؟

لكن ما سبب هذا البؤس؟

الإنفصال السياسي بين الدول العربية هو واقع أليم لكننا وكأننا

---

(١) المسدي، عبد السلام، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٤، ص٧٢.

Twitter: @ketab_n

مخدرون نعجز حتى أن نمد أيدينا لبعض في مسألة المشترك الوحيد الغالي بيننا وهي لغتنا. العلماء والمفكرون ينحدرون من ثقافات أو خلفيات تربوية وثقافية مختلفة، تتوزع بين إنكليزية وفرنسية وروسية وألمانية. وتفاوت بين مستويات هؤلاء المفكرين وتعمقهم في تراثهم العربي، الذي يهمل في أغلب الأحيان عند التفتيش عن مصطلح يقابل المصطلح الجديد القادم من اللغات الأوروبية على الأغلب. وعلينا أن نراعي أن الأبحاث المكثفة في سائر أوجه الفكر تزايدت وتيرتها وإنتاجها للجديد حتى صار من المتعارف عليه أن نتحدث عن «ثورة معلوماتية مستمرة» تنتج في سنة ما لم تنتجه البشرية سابقاً في قرن.

لكن المرض الألعن والأسوأ وقعاً على صحة العمل هو نزعة الباحث العربي عموماً للفردية والنرجسية والتي تأخذ أحياناً شكل مرض جماعي سنسميه مجازاً «نزعة تعصب قطرية»، فالمصري لا يأخذ السوري بعين الإعتبار وهذا بدوره لا يحترم اللبناني وذاك لا يأبه باليمني حتى ولو كان هذا على حق... إلخ.

وقد اصدر مجمع اللغة العربية في مصر أولى قراراته حول مشكلة الترجمة مع تعليمات بطرق كتابة الأعلام اليونانية واللاتينية بحروف عربية وكرر المجمع قراراته عبر السنين دون أي جدوى، وها هي ثلاثة وسبعون عاماً تمضي دون فائدة منذ أول قرار، ولا يزال كل يترجم على هواه. يضاف إلى ذلك أن بعض الأعمال لا تترجم مباشرة من اللغة الأصلية للعربية بل عبر لغة ثانية وسيطة. فإذا لم

Twitter: @ketab_n

يكن هناك بالأساس قاعدة موحدة، سارية المفعول موثقة في كل البلدان العربية، لتسهيل الرجوع إليها في ترجمة المصطلحات الدالة على أسماء الأعلام والأشياء بدقة، كما تلفظ في لغتها الأصلية، فإن الفوضى هي النتيجة الطبيعية. أليس هذا هزيمة كبرى لمجامع اللغة ولوزارات الثقافة العربية أينما كانت بلدانها؟

ساهم العديد من المفكرين في التنبيه للأخطاء المرتكبة ولعجز الحروف العربية على إعطاء الشكل الصحيح (أي اللفظ الأكيد والصحيح) للحروف اللاتينية (ومنهم محمد السلاموني وعلي بن سليمان الصويلح) وكمثال على ذلك صحح السلاموني ترجمة إسم المفكر اليوناني الشهير أرسطوطاليس (والذي لا يزال يكتب بهذا الشكل إلى يومنا أو أحيانا يكتب فقط أرسطو). واقترح السلاموني كتابة إسم المفكر اليوناني الكبير بهذا الشكل: أريستوتاليس. لكن وبما أن الترجمة الصحيحة هي تلك التي تعطي الإسم لإنسان كما يدعى في لغته الأصلية، لذلك أخطأ السلاموني أيضاً، مع تقديرنا الكبير لجهده الجبار، فالمفكر اليوناني يكتب باللاتينية هكذا Aristoteles وباليونانية هكذا Αριστοτελης وبعد التاء الثانية لا تأتي ي إنما (E = ε) وهذا الحرف لا تملكه العربية وهو ما سنأتي عليه. وأيضاً بعد اللام لا تأتي ي إنما (Eta = ε) وهو حرف يوناني كان يلفظ قديما مثل (E = η) وتحول في اليونانية الحديثة إلى ي مخففة.

وكان أعضاء المجمع اللغوي يناقشون ليس هذه المسألة فقط بل وبكل صدق وحماس أي تغيير طرأ على اللغة العربية، ويعالجون

Twitter: @ketab_n

مدى صلاحية هذا التغيير الذي طرأ أو عدم جواز استعماله، ويعجب من يقرأ تقارير ومحاضر الجلسات وقراراتها التي رافقتها بيانات صادرة عن المجمع اللغوي (ثبت بعضها في كتاب «الألفاظ والأساليب» الصادر عام ١٩٧٦ عن مجمع اللغة العربية في القاهرة). يعجب للجهل السائد بين المثقفين العرب عن جهود المجمع اللغوي وبقاء أبحاثه في ظلمة. ويصاب القارئ بدهشة للجدل البناء الذي حمي وطيسه بين علماء وأدباء اللغة في مسائل مثل دخول «قد» على المضارع المنفي بـ«لا» كقولهم: قد لا يكون الأمر عسيراً (ص ١٢)، واستعمال كلمة «مليء» بمعنى «مملوء» (ص١٧٢) وجواز استعمال «تربوي» و«تعبوي» (ص٢٢٦) كما والجدل البناء الذي قام وملأ الصفحات حول «الواو» في جملة «كل عام وأنتم بخير» (ص٢٢٣) وقد رأى بعض النحاة حذفها لأنها زائدة وقالوا إن التعبير الصحيح هو «كل عام أنتم بخير». وقد دافع المجمع عن ضرورة الواو وألحق قراره بمذكرة إلى الأستاذ علي النجدي ناصف دافع فيها عن الواو مستشهداً بسيبويه والقرآن (ص٢٢٩).

لكن لا مجامع اللغة العربية ولا وزارات الثقافة استطاعت أن تعمم بجدية الإصلاحات هذه، بل تركت المجال مهلهلاً لكثرة ما خشيته من الإصلاح الجذري وسمحت أن يكتب الإسم باللاتيني متى تعذر كتابته بشكل دقيق بالعربية. وهذا برأيي لا يحق تسميته حلاً بل هروباً. ويذكر علي بن سليمان الصويلح (الخبير في الترجمة والتوثيق ومدير مكتبة الملك فهد الوطنية) خمسة أشكال لإسم الكاتب الفرنسي

Twitter: @ketab_n

الشهير (Hugo) وهي (هيجو، هوقو، هوغو، هيغو وهوكو)[1].

كذلك برتولت برخت، برتولت بريخت، برتولد برخت، برتولد بريشت[2] كما أنني كنت أضحك على كذبة من يدّعي اتقان الألمانية والترجمة مباشرة منها، عندما يكتب حرف الهاء وراء الأحرف الصوتية الألمانية والذي لا يلفظ بالألمانية إطلاقاً، بل يستعمل لتمديد (إطالة) الحرف الصوتي. فليس هناك ألماني يسمى دوهرينغ بل الإسم الصحيح هو دورينغ ولو كتب (Dühring) والمجرم هتلر لا يطلق عليه كما في أغلب الترجمات العربية لقب فوهرر بل فورَرْ بمعنى قائد (Führer). هذه الفوضى تعيق ليس فقط الترجمة الصحيحة وإنما كل تصنيف وتوثيق مما يصعب عملية البحث عن إسم ما لجرثومة أو لعالم أو لقطعة من آلة في المراجع. وإيجاد المعلومة هو غرض الترجمة وإلا لم يبق لها سبب.

هدر الطاقات في الترجمة والعمل المعجمي

إن مطلع المحاضرة التي ألقاها الباحث اللغوي الفلسطيني الدكتور الياس عطا الله تلخص كل أزمة العمل اللغوي: «حقنًا للوقت، أبدأ من الخلاصة، مسمّياً مداخلتي هذه بـ: أعمال

---

(١) الصويلح، علي بن سليمان، توثيق الترجمة والتعريب، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٣، ص٤٢.

(٢) الصويلح، المرجع ذاته، ص٥٢.

Twitter: @ketab_n

المجامع بين الضائعَيْن؛ الجهد والوقت، أو: المجمع العربيّ بين الرغبة في التجديد والرهبة منه».

ويبيّن الدكتور عطا الله بمثال إضاعة وتشتيت الجهود. يقول: «لعلّ اللواصق التصديريّة والكسعيّة كانت من أصعب ما واجهه القيّمون على شأن ترجمة المصطلحات العلميّة إلى العربيّة، ولقد وضعت المجامع مقابلاً لكلّ سابقة/ بادئة (prefix) أو لاحقة/ كاسعة (suffix)، مؤثرة استعمالها، ومشيرة إلى استحالة تبنّيها في كل المفردات، ومن بين زحمة هذه اللواصق اخترت بادئتين فقط لأتبع رأي المجمع القاهريّ ومدى استجابة المعجمات إليه: البادئة hyper وترجمتها فَرْط، والبادئة hypo وترجمتها هَبْط.

- معجم المصطلحات اللغويّة، لرمزي منير بعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠): أورد ستّة عشر مصطلحاً تتصدرها: hyper

- استعمل السابقة فَرْط مرّة واحدة فقال: hyperlexia: فرط القراءة؛ وهي قدرة المرء/ الطفل على القراءة الناطقة على نحو يفوق قدرة أقرانه.

- استعمل «الزائد» وما يشتقّ من أثله في أربعة مصطلحات، منها: التصحيح الزائد (hypercorrection).

- استعمل السابقة فَوْ المختصرة من «فوق» في أربعة مصطلحات، منها الفوأنفيّة مقابلة لـ hypernasality، وهو من مصطلحات جرس الأصوات للنطق الذي تغلب عليه الصفة الأنفيّة.

Twitter: @ketab_n

ـ وفي سائر المصطلحات وجد لنفسه مقابلات خالية من البادئة، فقال في hyper-urbanism: التفاصح الحضريّ/ التقعّر اللغويّ/ الحذلقة. أورد زهاء عشرين مصطلحاً تبدأ بـ hypo ولم يستعمل هَبْط أبداً/ قطّ مؤثراً استعمال دُو المأخوذة من «دون» مرّتين، فقال دوفونيم مقابل hypophon، ودوأنفيّة مقابل hyponasality، فيما آثر والده (منير بعلبكي في المورد: إنكليزي ـ عربي) استعمال تَحْ المأخوذة من «تحت» فقال: تحأنفيّة.

ـ أمّا إميل يعقوب في قاموس المصطلحات اللغويّة والأدبيّة (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧)، فقد أورد ثمانية مصطلحات تبدأ بالسابقتين المذكورتين، ولم يستعمل الفرط أو الهبط.

ـ في معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب لمجدي وهبة وكامل المهندس (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤) وجدتُ ستّة مصطلحات تبدأ بـ hyper ولم أجد الفرط ولا ملحقاتها.

ـ أمّا منير بعلبكي في المورد ـ وهو معجم دلالي إنجليزي ـ عربي عام ـ فقد أورد عشرات المفردات البادئة بهاتين السابقتين، واستعمل جملة من المقابلات، فكتب مقابلاً لـ :hyper فوق، إفراط، فَرْط، مفرط، زائد، ناشط، فو (من فوق)، فر (من فرط)، وفي بعض المصطلحات وجد في المقابل العربيّ ما يدلّ على الإفراط أو الزيادة، فاستعمل كلمات نحو: غلو، إغراق، مغرق، متعنّت، خارق، تكاثر، عسر، تضخّم، وذلك وفق السياق أو المصطلح المترجم، وبعلبكي، وإن استعمل الفرط ومشتقّاتها، تصرّف بحريّة أكسبت مصطلحاته

Twitter: @ketab_n

غنى وصدقيّة. أمّا hypo، وإن أشار إلى أنّها تعني تحت أو أقلّ، فإنّه لم يأنف من نقلها بشكلها المترجم عنه؛ «هيبو»، إضافة إلى «تح» المأخوذة من تحت كما أشرنا سالفاً. لا تنحصر أزمة المصطلح في مسألة ترجمة السوابق واللواحق فحسب، فهي أكثر حدّة وإشكاليّة في كثرة المترادفات المقابلة للمصطلح الأجنبي الواحد، ولعلّ مردّ الأمر إلى أنّ قرارات المجمع ليست قولاً فصلاً، ولا نفوذ لها أو نافذيّة، إذا كنّا عاجزين عن التوحيد، وإن كان دأبنا الاجتهاد في التعريب... فلنترك الأمر لذوي الشأن من القراء والكتّاب، فالمستساغ هو الذي سيَشيع، وقد يستساغ أكثر من مصطلح... وتظلّ سائر المقترحات في الإضبارات أو ملفّات الحاسوب، أو في مجلات المجامع. أقول هذا رغم توصية المجمع القاهري «بترك أمر المصطلحات للمجامع العربيّة، على أن ينسّق هذا في إطار اتّحاد المجامع اللغويّة العلميّة العربيّة» (الدورة الخامسة والأربعون، ١٩٧٩، ينظر: عدنان الخطيب، العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية، ص. ١٨٦. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦). وهذه الدعوة الموجّهة أصلاً إلى واضعي المعاجم، لا تتكئ على شيء من المصداقيّة، فالقرارات المجمعيّة في مجال المصطلحيّة والتعريب تعاني من الإقليميّة ومن عدم التنسيق، ومن عدم تشييع ما أُقِرّ إلا بعد عقود... فالوقت مضيّع... وقرارات المجمع مضبّرة، وفي أحسن الحالات تتسكع في أروقة المجامع، أو تصدر في مجلاتها، ولا تصل

Twitter: @ketab_n

إليها إلا يد الصفوة من المختصّين. ومن أدلّة بعثرة الوقت أيضاً، أنّ مفردات حديثة ـ نسبيّاً ـ نحو: العصرنة بمعنى التحديث أو جعل الشيء عصريّاً، والدولنة بمعنى التدويل مع شحنات دلاليّة أوسع، وعلنَ الأمرَ بمعنى أعلنه، والرتوش بمعنى اللمسات الأخيرة، والأقصوصة أي القصّة القصيرة، كان المجمع قد أجازها جميعاً (كتاب الألفاظ والأساليب ٣: ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣١، ٣٣٧، والقرارات المجمعيّة في الألفاظ والأساليب، ١٩٨٩، ص ١٣٤)، والمشكلة أنّ معجم المجمع، المعجم الوسيط، لم يورد هذه الكلمات، وهو وسيلة المجمع الأكثر أهميّة لسيرورة المفردات/ المصطلحات مقارنة بمجلة المجمع وكتب قراراته، أمّا أقصوصة فقد أوردها هذا المعجم جاعلاً منها قصّة «صغيرة» بدلاً من قصيرة، وشتان بين الصغر والقصر! والسبب في عدم إيراده لهذه المفردات المجازة يعود إلى أنّها تصدر بعد طبعته المنتشرة في الأسواق، وحتّى يكون مواكباً للمستجدّات المجمعيّة، على المجمع ـ صاحب القاموس ـ أن يُعنى بزيادة الملحقات عليه في فترات متقاربة. تأسيساً على هذا الواقع، سنظلّ نعاني أو نسعد من عمليّة الخلق أو عبثيّته، وسيظلّ الكثيرون من الباحثين في شتّى أنواع العلوم يذيّلون مصنّفاتهم بمعيجمات يشرحون فيها مصطلحاتهم العربيّة واضعين مقابلها المصطلح الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني، تماماً كما فعل روّاد الترجمة في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر! فإن ظلّت

Twitter: @ketab_n

حالتنا هذه الحالة، فلنا أن نسأل: هل تعدد المصطلحات نعمة أم نقمة؟ وتظلّ استساغة المتلقين/ ات للبديل هي الفيصل»[(١)].

وفي نفس الإتجاه يصب نقد الباحث المعجمي عدنان الخطيب فقد خصص حوالى ٣٠ صفحة من كتابه القيم «المعجم العربي بين الماضي والحاضر» لنقد أخطاء المعاجم مثلاً: عدم التزام مؤلفه بما يعلنه في مقدمة المعجم من منهج سيسلكه في أبحاثه، ومن قواعد سيعتمدها كأسس لبناء معجمه، إلى عدم التزامه بالصورة الإملائية الواحدة للكلمة (ككتابة أكسجين، أوكسجين وأكسيجين) و (تلفون وتليفون) و (أمريكا وأمريكة)، و (سيبيريا وسيبيرية) و (إفريقيا وإفريقية) مرة بالألف في نهاية الكلمة ومرة بالتاء المربوطة وهذا يبلبل القراء. إلى جانب ذلك ينتقد الخطيب بحق الفوضى والأهوائية (كتلك في المعجم الوسيط) مثلاً تعريف وتثبيت للأشهر الشمسية المستعملة في مصر بتعريف كل من الأشهر مارس وسبتمبر وديسمبر وإهمال الأشهر التسعة الباقية كما وتعريف عشرة أشهر للسنة كما تستعمل في لبنان وسوريا والعراق وإهمال إثنين، وأخيراً وليس آخراً عدم اتفاق المعجميين على توحيد المصطلحات العلمية الحديثة خاصة منه المعربة أو المشتقة[(٢)].

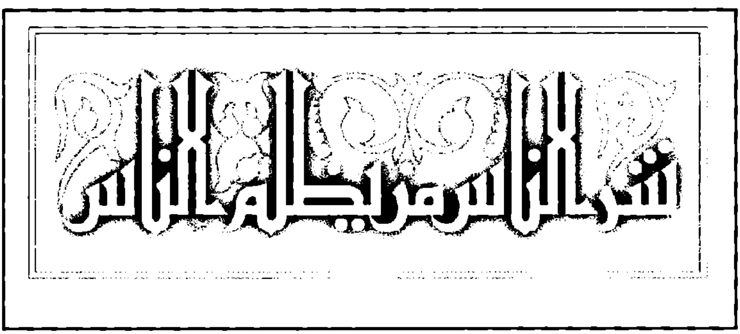
---

(١) ألقي جزء من هذه الدراسة (جزء من موضوعة الأسلوبيّة) في أكاديميّة القاسمي في باقة الغربيّة (فلسطين) يوم ١١/ ١١/ ٢٠٠٦. أنظر أيضاً موقع «ديوان العرب» في الإنترنت.

(٢) الخطيب، عدنان، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، ١٩٩٤، ص٦١ ـ ٩٠.

Twitter: @ketab_n

ورغم المحاولات الكثيرة فإن حركة الترجمة من وإلى العربية لا تزال متأخرة في بلادنا. كمثال على التأخر نأخذ عدد الكتب المترجمة عن علم وتقنية الترجمة (من عام ١٩٧٠ وحتى ٢٠٠٥) والتي بلغ عددها الإجمالي ٢٣ كتاباً كما أحصاها خبير الترجمة عبد الله العميد[(١)] هذا العدد ضئيل بحد ذاته لمدة تتجاوز الثلاثين سنة، نظراً لكثافة الأبحاث في حقل الترجمة عالمياً، واللازم دراستها بدون شك لكي يرقى مستوى مترجمينا وليتزودوا بأحدث الأبحاث. كما نلاحظ من هذه الدراسة تراجع دور الدول العربية التي قادت النهضة في القرن الماضي كمصر وسوريا. في البدء كانت مصر هي السباقة في مجال علم الترجمة الهام ثم نافسها العراق لتأخذ السعودية فيما بعد المركز الأول. والمثير هنا للإنتباه هو غياب نشاط أكثر من عشر دول عربية بالكامل خلال هذه الفترة.



١ ـ دليل المترجم، ترجمة: هيام أبو الحسن، مراجعة: عطية أبو

(١) أنظر عبد الله العميد، الترجمة ومجتمع المعارف الترجمية، على صفحة جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات في الإنترنت..

Twitter: @ketab_n

النجا، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، ١٩٧٠.
٢ـ نحو علم للترجمة، ماجد نجار، مطبوعات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢.
٣ـ فن الترجمة، حياة شرارة، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٩.
٤ـ دليل مترجم المؤتمرات، عبد الرحيم الجلبي، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨١.
٥ـ نظرية لغوية في الترجمة، عبد الباقي الصافي، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٣.
٦ـ فضل الإسلام على الحضارة الغربية، حسين أحمد أمين، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣.
٧ـ دليل المترجم، محمود إسماعيل صيني، دار العلوم للطباعة والنشر، [الجزء الثاني من الكتاب الأصلي]، الرياض، ١٩٨٥.
٨ـ اتجاهات في الترجمة، جوانب من نظرية الترجمة، محمود إسماعيل صيني، دار المريخ للنشر[الجزء الأول من الكتاب الأصلي]، الرياض، ١٩٨٦.
٩ـ أثر الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى. ترجمه الطاهر عبد السلام حافظ، مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ١٩٨٩.
١٠ـ تدريب المترجمين التحريريين ومترجمي المؤتمرات، عبد الصاحب مهدي علي، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠.
١١ـ نظرية لغوية في الترجمة، خليفة العزابي، محيى الدين حميدي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٩١.

Twitter: @ketab_n

١٢ـ الجامع في الترجمة، حسن غزالة، دار الحكمة، طرابلس الغرب، ١٩٩٢.
١٣. المسائل النظرية في الترجمة، لطيف زيتونة، دار الشؤون الثقافية والعلمية، بيروت، ١٩٩٤.
١٤ـ الترجمة في العصر العباسي، نجيب العزاوي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٨.
١٥ـ الخطاب والمترجم، عمر فايز عطاري، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٨.
١٦ـ الترجمة وعملياتها: النظرية والتطبيق، محيى الدين حميدي، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠١.
١٧ـ الترجمة وعلوم النص، محيى الدين حميدي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٢.
١٨ـ تعليم الترجمة، عبد الله محمد اجبيلو وعلي إبراهيم منوفي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٢.
١٩ـ علم اللغة والترجمة، أحمد زكريا إبراهيم، مراجعة أحمد فؤاد عفيفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢.
٢٠ـ دور الترجمة في تعليم اللغات الأجنبية، حميد مطيع العواضي، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ٢٠٠٣.
٢١ـ الفكر اليوناني والثقافة العربية: حركة الترجمة اليونانية ـ العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر، تأليف: ديمتري غوتاس؛ ترجمة: نقولا زيادة، المركز العربي لدراسات

Twitter: @ketab_n

الوحدة العربية والمنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣.
٢٢ـ الترجمة والإمبراطورية، نظريات الترجمة ما بعد الكولونيالية، ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.
٢٣ـ جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية، بيومي قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.

١	السعودية	٧
٢	مصر	٥
٣	العراق	٥
٤	لبنان	٣
٥	ليبيا	١
٦	سوريا	١
٧	اليمن	١
المجموع	------------	٢٣

جدول ترتيب الأقطار العربية بحسب كمية الكتب
المترجمة في مجال دراسات الترجمة. في الفترة ١٩٧٠-٢٠٠٥

غرائب وعجائب التأخر

عندما تعمقت في دراسة الكيمياء فهمت بالضبط لماذا يستعمل

Twitter: @ketab_n

أغلب الطلاب في كليات ومعاهد الكيمياء في البلاد الناطقة بالألمانية (المانيا بدولتيها آنذاك الغربية والشرقية، سويسرا والنمسا) نفس الكتاب (أورغانيكوم Organikum) وهو كتاب ضخم يرشد بدقة نظرياً وعملياً على تحضير المركبات الكيميائية في المخبر من أبسطها حتى أعقدها (أي من الفصل الأول وحتى آخر المركبات قبل الحصول على الماجستير) وقد رافقني هذا الكتاب (بطبعته التاسعة الصادرة عام ١٩٧١) عبر ثلاثة مخابر للكيمياء العضوية في المانيا الغربية، وكان الطلاب في سويسرا والنمسا والمانيا الشرقية، رغم اختلاف أنظمتها السياسية، يستعملون نفس الكتاب. لا يعود السبب فقط إلى رغبة هذه البلدان في توحيد نظم دراستها، بحيث تسمح لقدر عالٍ من التواصل والتفاهم بين علمائها، بل ويسمح بتنقل طلبتها دون أن يخسروا أي تجربة قاموا بها في جامعتهم القديمة، لأن كل ما عملوه هناك من تجارب هو جزء من التجارب حسب هذا الكتاب، مما يسمح للأستاذ في الجامعة الجديدة التي قصدها الطالب أن يعرف بالضبط إلى أين وصل هذا الطالب من درجات على طريق فحص الماجستير (دبلوم).

تمعنت بالكتاب فوجدته شديد الإحكام كتب على مدى عشرات السنين ونُقح وعُدل بعد كل طبعة حتى وصل إلى شكله المثالي.

قمت وعلى مدى ثلاث سنوات بترجمة هذا الكتاب الذي يعتبر أفضل كتاب للعمل المخبري في الكيمياء العضوية، ألفه أخصائيون من ألمانيا الشرقية. وحصلت من الدار الألمانية في برلين الشرقية، بعد حوار مكثف طويل ومرهق، على حق النشر مع تخلي الدار عن

Twitter: @ketab_n

الرسوم ونصيبها في الأرباح، لأملها في الحصول على تقدير علماء الكيمياء العرب، وبالتالي الصناعة الكيميائية العربية، مما يعود على اقتصادها بالخيرات. ترجمت الكتاب الضخم الذي بلغ عدد صفحاته ٧٩٠ صفحة كبيرة ودقيقة بنفس الوقت. كان العمل عسيراً، فلم يتوفر لي آنذاك (أواسط السبعينيات من القرن المنصرم) معاجم جيدة ولا كان الإنترنت متوفراً. بعد العمل الشاق عرضت الكتاب على حوالى عشرين دار نشر عربية، وطمأنتهم أنهم غير ملزمين بدفع أية رسوم أو تعويض، فصاحب حقوق النشر الألماني يهدي الكتاب للشعب العربي، وأنا لا أريد تعويضاً لتعبي. كتبت ذلك ليس لأني قديس، بل لأملي (الذي ظهر فيما بعد كسراب ووهم) أن يسهل لي انتشار هذا الكتاب الرائع إيجاد عمل كأستاذ للكيمياء. ولم أتلق خلال خمس سنوات بكاملها إلا الرفض. يصعب على الإنسان دفن أحلامه أكثر من دفن أبنائه. لم أَكلّ من المراسلة، لكن فشلي الذريع أجبرني على دفن حتى هذا الحلم البريء. وحتى هذه اللحظة، التي أسجل فيها هذه الذكريات الأليمة، لم أفهم كيف ترفض كل وزارات الثقافة والتربية والتعليم العالي ودور النشر العلمية كتاباً علمياً هاماً كهذا. لأول مرة يتفق العرب بهذا الشكل الكمالي ١٠٠٪ على رفض كتاب. وددت أن أكتب مقالاً أبارك فيه للعربان بهذه الظاهرة الوحدوية في معاداة العلم. لكنني قرفت بعد أسطر قليلة.

برر لي أحدهم (ونحن العرب خبراء تبرير من الدرجة الأولى) أن السبب يكمن في أنني مسيحي والدار الناشرة إشتراكية!! وكأن هناك كيمياء مسلمة وأخرى مسيحية، أو كأن الذرات والروابط الكيميائية

Twitter: @ketab_n

تتبع النظام السياسي، وكأن أنظمتنا السياسية التي كانت تتعامل مع المانيا الشرقية بما فيها عسكرهم ومخابراتهم وجلاديهم، أشد عداءً لها من المانيا الغربية. وحتى هذا اليوم لا أفتح العلبة التي تحتوي هذه الصفحات والتي لم يعد لها أية قيمة لأن الكتاب تبدل في طبعاته الحديثة.

ألفت بعد ذلك مع زميلي الدكتور الياس الكبة أول كتاب بالعربية عن الطاقة الشمسية وتطبيقاتها. ورُفِضَ الكتاب أيضاً بإجماع عربي فريد، ودون أي تبرير. هذه المرة كنا ندرك سلفاً سبب الرفض. فلقد كنا معاً ولا نزال أعداء الطاقة الذرية بكل أنواعها سواء ما يسمى سلمي أو ما يسمى حربي. فالعمل بالطاقة الذرية في منطقتنا كارثة ستجلب الويلات. ونحن نهمل أعظم طاقة في الوجود وهي الطاقة الشمسية المتوفرة في منطقتنا حتى أكثر من البترول. وأتت أجوبة الرفض هذه المرة مرائية كاذبة، تمدح عملنا وتعتذر عن عدم توفر إمكانيات طبعه. إلا أن صديقة لبنانية مدت يدها الخيِّرة للمساعدة وتوصلت إلى إقناع «دار الحداثة» في بيروت لطباعة هذا الكتاب[1]، فطبعه الناشر نسخاً عديمة الذوق وببخل منقطع النظير، وكنا قد طبعنا هذه الأوراق هنا في المهجر على آلة كاتبة بسيطة، ويشهد الله بإصبع واحد أو إصبعين. صدر الكتاب عام ١٩٨٠ تحت إسمي الحقيقي (د. سهيل فاضل) وإسم زميلي (د. الياس الكبة

(١) فاضل، سهيل، الكبة، الياس، الطاقة الشمسية وتطبيقاتها، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠.

Twitter: @ketab_n

ولم نر حتى اليوم قرشاً ولا كتاباً واحداً رغم رسائلنا العديدة. وصلنا فقط عشر نسخ انتزعتها الصديقة اللبنانية عند صدور الكتاب في طريقها إلى ألمانيا. واليوم، وأنا أكتب هذه الأسطر، تصفحت الإنترنت باحثاً عن الكتاب فوجدت إعلاناً عنه في فهرس مقتنيات مكتبة الإسكندرية وفهرس مكتبات الملك سعود وكلاهما يؤشر للطبعة الثالثة في عام ١٩٨٧.

في هذا الجو القرصني (نسبة إلى القراصنة) لا يمكن لعمل الترجمة المضني أن يستمر. وأنا لا أظن إطلاقاً أن الأمر أصابني شخصياً فقط، لا بل هو داء يصيب كل الكتّاب والمترجمين العرب.

الوجه الثاني للمصيبة أو لماذا لا يهتم العالم بما نسطره؟

نحن نناقش ونعرض الصورة الحزينة لواقع الترجمة من اللغات الأخرى للعربية. لكن كيف هي حال الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى؟ الجواب: أنكى وأفظع. وهكذا تكتمل الصورة البائسة التي تعيشها ثقافتنا الكتابية. لا يهمنا البشر ونحن أيضاً لا نهم أحداً.

قد يظن المرء أن المقصود بذلك وصول رواياتنا، مسرحياتنا وقصائدنا. لكن هذا الإنتاج الأدبي ليس إلا جزء صغير من الإنتاج الكلي.

ليس لنا في مجال الإختراع والإنتاج العلمي (كيمياء، فيزياء، طب، صيدلة، الكترونيات، كومبيوتر) أي نشاط يذكر، ولا يضاهي النشاط العلمي والتقني لـ ٣٠٠ مليون عربي نشاط بلدان

Twitter: @ketab_n

صغيرة مثل فنلندا، سويسرا أو الدانمرك والذي لا يتجاوز عدد سكانها السبعة ملايين نسمة. ونفس الصورة المزرية تسود في كل مجالات الفكر العلمي، الصناعي، التجاري، الفلسفي والإقتصادي. في هذه المجالات لا يقرأ عالمياً إلا كل إبداع وابتكار جديد. ولذلك لا يمكن للعالم، حتى ولو كان صديق لنا، أن يقرأ أبحاثاً لم نقم بها ويناقش أقسام آلات نحن لم نخترعها.

ما الذي يبقى: الأدب؟ الصورة بنفس المرارة. ولماذا؟ هل فرغت البلاد العربية حتى من شعرائها وكتابها؟

الجواب: لا! لدينا كاتبات وكتاب بمستوى عالمي، لكنهم لا يصلون للقارئ الأوروبي لأسباب عديدة.

١ـ هناك أسباب تعود إلى العداء القديم الحديث بين العالم العربي ـ الإسلامي وبين أوروبا. فالحضارة العربية (والإسلامية فيما بعد) قرعت بشدة على أبواب أوروبا (حتى جنوب فرنسا، ايطاليا من قبل العرب وفيينا عاصمة النمسا من قبل العثمانيين). وقد رد الأوروبيون بالغزو الصليبي والإستعمار الأوروبي. وهكذا فإن العلاقة بين الثقافتين لا تزال حتى يومنا هذا مصابة بالتشنج. وهذا لا يعفي بالطبع أي مسؤول ثقافي عربي ولا أي دار للنشر من مسؤوليتها للعمل بذكاء ضد هذا التشنج. إلا أن العقل ينص على العدل تجاه هكذا عوائق موضوعية. فلا أدب العرب ولا الأدب الباكستاني أو الإندونيسي أو الأفغاني أو الإيراني يحظى هنا باهتمام. الثقافة

Twitter: @ketab_n

الوحيدة التي حطمت بذكاء نادر جدار العزلة هي الثقافة التركية، ليس الآن فقط بأورهان باموك الحائز على عدة جوائز عالمية وآخرها نوبل، بل قبله بكثير من ناظم حكمت، يشار كمال وعزيز نسين وغيرهم.

٢ ـ لكن أحد أهم الأسباب التي تؤخر انتشار الأدب العربي في اللغات الأوروبية هو سوء الإهتمام الجدي بسوق الكتب الأوروبية. ولنأخذ مثالاً على ذلك السوق الألمانية للكتب وهي من أكثر الأسواق الأوروبية حيوية وديناميكية. والمعرض الدولي للكتاب في فرانكفورت يعتبر أكبر معرض في العالم وقدوة يحتذي بها الآخرون. الأدب العربي هنا لا يلعب إلا دوراً ثانوياً رغم تخصيص سنة من سنين المعرض الدولي للكتب في فرانكفورت (٢٠٠٤) للبلاد العربية. وهذا التخصيص كان جيداً لكنه بحد ذاته ليس كافياً. فالمعرض السنوي يختص ببلد واحد حتى ولو كان صغيراً مثل سويسرا أو الدانمارك، كوريا أو النمسا. لكن مسؤولي الثقافة في بلادنا لا يهتمون بكرامتهم، ويقبلون فجأة أن تمثلهم جميعاً «الجامعة العربية» وهي أقل المؤسسات دراية بالأدب، وهكذا أيضاً كانت النتيجة. فجأة صرنا كتلة واحدة إسمها «الأدب العربي» مع أننا، إذا اختلفنا بشيء إيجابي فإنما بالأدب الذي ننتجه، فالأدب السوري يختلف عن الأدب المصري أو العراقي أو السوداني أو الأدب العماني. وهذا من أجمل تنوعات قوس قزح ثقافاتنا.

Twitter: @ketab_n

لكن إهمال المسؤولين شيء والحالة المزرية لانتشار الأدب شيء آخر، فحتى الديكتاتوريات المعادية للكتاب في أمريكا اللاتينية لم تستطع إعاقة انتشار الأدب التشيلي (بابلو نيرودا، انطونيو سكارميتا) أو المكسيكي (كارلوس فوينتس، أوكتافيو باث) أو البيرواني (ماريو فارجاس يوسا، جارسيا كالديرون) أو الكولومبي (جارسيا ماركيز) أو الأرجنتيني (خورخي لويس بورخيس، خوليو كورتازار) وغيرهم. هذا الأدب حظي باهتمام القراء لأنه أولاً إمتداد للثقافة الأوروبية (وتحديداً الإسبانية). من جهة ثانية الترجمة من الإسبانية للألمانية أسهل نسبياً وذات تراث عريق في هذا البلد (منذ ترجمة دون كيشوت وأعمال كلاسيكية أخرى). بينما يحتاج أدبنا لجهود أكبر، منظمة بدراية ووعي وكريمة (نعم فتمويل ترجمة هو أول عوامل نجاحها أو سقوطها) ليأخذ المترجم (ة) الوقت الكافي لترجمة جيدة. كل هذا ضروري لإدخال الأدب في دائرة اهتمام الناس، لكن ولسوء حظنا لم يتوفر من ذلك أي شيء، لا بل تراكمت كل المقدمات لإعاقة هذا الأدب. أُعدِّدُ منها بعضها لأن بحث ترجمة وتسويق وانتشار الأدب ووسائله علم قائم بذاته لا يفهم مسؤولو الثقافة العرب منه إلا النذر القليل. لا بل يعتبر وزير الثقافة أضعف وزير أو مسؤول في الدولة فإذا أخذنا بعين الإعتبار أن الصراع بين إسرائيل والعرب في غالبيته صراع ثقافي لعرفنا مقدار انهيار وعي السلطات العربية.

٣ـ الترجمة التي أدخلت الأدب العربي إلى السوق الألمانية منذ ستينيات القرن الماضي وحتى اليوم كانت ولا تزال في غالبها

Twitter: @ketab_n

سيئة جداً. لماذا؟ هناك أسباب كثيرة تعيق وصول الكتب للقراء ويتحمل مسؤوليتها المترجم ودار نشره. أهم هذه الأسباب:

أولاً: يضرب الأدب العربي(بنثره وشعره) جذوره عميقاً في الثقافة والأدب الشفاهيين وكل ما يتطلب هذا الفن من عوامل ومؤهلات لإيصاله للجمهور. ويمكنك ملاحظة تأثير الشفاهية في كل ما يكتبه الكتاب والشعراء العرب. وبدل التعمق في فن الشفاهية وفهم تأثيره البنيوي والفني على الأدب يقصقص المترجمون الأوروبيون وخاصة الألمان منهم كل هذا الطيف الشفهي الغني بالألوان ليحولوا القصة العربية إلى قصة أوروبية قصيصة الجناح تعجز عن الطيران إلى قلوب وعقول قرائها.

ثانياً: لا يفهم المترجمون بغالبيتهم العظمى العربية بشكل كافٍ ولا يمتلك لغة المانية أدبية جميلة، لذلك تخرج الترجمات وكأنها بحث سوسيولوجي أو تعليمات موظف بيروقراطي مملة ولا روح فيها. وبأغلبها يسودها روح المبتدئ الهاوي وليس ترجمة محترف ضليع. فترى أحد المترجمين (هارتموت فيندريش) يطبع بلغته الألمانية السيئة كل الكتب التي يترجمها دون أن يكون هناك فرق بين روائي فلسطيني وآخر ليبي وثالث مصري. فالمترجم هذا لا يفهم حتى هذه الفوارق ناهيك أنه يستطيع التعبيرعنها بألمانية متميزة. وحتى ولو وقعت أجمل الروايات في يدهم فإني أؤكد بعد تجربة تزيد عن ٣٥ سنة، إنها لن تخرج سالمة من أيديهم. خذ كمثال رائعة إميل حبيبي «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل». جلس

Twitter: @ketab_n

خمسة مترجمين ومترجمتان (وبينهم فيندريش المذكور أعلاه) بمؤخرتهم العريضة على صدر الرواية حتى قطعوا أنفاسها، وإميل حبيبي كان وبشكل فريد من أكثر الكتاب العرب تقديراً وإغناءً للأدب الشفاهي فكل ما كتبه هو ملحمة تمجيد لكل هذا التراث...قص المترجمون والمترجمات كل ما له صلة بالأدب الشفاهي، لأنهم على أفضل الأحوال ـ وحتى لو افترضنا حسن نيتهم ـ جهلاء لا يعرفون شيئاً عن تراث الشفاهية في الحضارة العربية. لا بل تراهم يسخرون من فن الحديث والرواية الشفاهية بشكل يثير الشفقة على مدى جهلهم. لم يقتصروا في ترجمة رائعة إميل حبيبي على ذلك، بل أزالوا بدقة ألمانية كريهة كل سخريتها فأخرجوها بلا طعم للجمهور، وبكوا بعدها سنيناً على قلة ذوق القراء. ونفس الأمر جرى لروايات صنع الله إبراهيم، وإدوارد الخراط وإبراهيم الكوني وغيرهم.

٤ـ ولأن أغلب المترجمين بدل أن يتقنوا ترجمتهم ويمارسوا دراسات لغوية تُحسِن مستواهم، تحولوا مع الزمن لتجار وسماسرة، لأن الدول العربية لا تهتم بنشر آدابها، فكان من الطبيعي أن يأخذ المترجمون على عاتقهم كل الخطوات اللازمة لبيع وشراء الروايات، وهذا لا يجري إلا في البلاد العربية. فهو ليس من واجبات ولا من حق المترجم أصلاً. ومن هنا نتج تخبط وخلط سيء لمصالح المترجمين الشخصية ولنزواتهم مع الآداب العربية. ولأن «البيت داشر» كما نقول بالدمشقية تكاثر اللصوص. فلا من يحاسبهم ولا من يراقبهم،

Twitter: @ketab_n

وصاروا يصولون ويجولون وكأن لهم سلطة.

٥ـ ولأن دعم البلاد العربية بما فيها الإمارات (التي تتحلى بشيء من الليبرالية) لا يذهب لنشر المهم من الأدب العربي، بل لنشر ما يرضيهم ويرضي ذوقهم، وهو على الأغلب غث. فما الذي يتوقعه هؤلاء من نشر روايات لصدام حسين، أو للقذافي أو قصائد للشيخ مكتوم؟ هل يظن ذو عقل أن قارئاً ألمانياً واحداً سيقرأ هذه المنجزات البترولية؟ أنا لا تهمني الثرثرة أن فلان كتب رواية لصدام وعلتان كتب للقذافي. ولا يهمني خداع المرتزقة لهؤلاء الحكام بسخف ما بعده سخف، إذ يبتاع العاملون معهم والمرتزقة الذين يعيشون من موائدهم آلاف الكتب من طبعة هؤلاء الحكام وكتاب قصورهم ويلقوها في المزابل (وهو الأمر الألطف)، أو يوزعونها بلا ثمن (وهذه كارثة) مما يقتل آخر إمكانية لبيع الكتاب المترجم لروائي أو شاعر عربي. فمن هو الأهبل الذي يدفع يورو واحد لكتاب وهو يعلم أنه يحصل عليه بدون مقابل أو بثمن زهيد؟ ولأن الدار الناشرة قبضت كل التكاليف سلفاً، تلقي بأغلب الكتب بسعر الفجل كما نقول في دمشق، مخربة بذلك صيت الكتب العربية. لم أر ثقافة يقوم ممثلوها بمثل هذا التخريب الغالي الثمن والكلفة لأدبهم، ولم أر غير المافياويين العرب ومرتزقة الكلمة العربية يدمرون وبشكل علني إمكانيات نشر الكتب. إنهم يقومون بذلك بنفسية

Twitter: @ketab_n

الفهلوي[1] لكي يظهروا لمموليهم أن طبعة كتابه الأولى نفدت بسرعة. وعلى العموم لا دراية لمن يمول بكرم هذه البهلوانيات بوضع الأسواق هنا. تراهم يظنون أنهم في بلدهم ولا يحتاجون إلا لتوزيع النقود ليرفعوا فلاناً ويسقطوا علتاناً. وقد حاولوا دون أن يتعلموا شيئاً منذ أربعين سنة تسويق كُتّاب دولتهم ففشلوا. وكان فشلهم هو جواب التاريخ على غبائهم. وهو جواب مرير.

الجواب الصحيح على أسئلة ملحة

لنفترض أن جيلاً جديداً من الناشرين ووزراء الثقافة أتى هكذا وبرحمة إلَهية أو بضغط شعبي من النوع الممتاز. فكيف يمكننا التقدم؟

للرد على متطلبات العصر علينا البدء وبشجاعة بالحديث عن إصلاح ضروري للغتنا، لأن كل هذا الجيش السلفي الذي ينادي بقدسية أحرفنا لأنها نزلت من عند الله، يكذب، إما عن معرفة أو جهل لكنه في الحالتين يسبب في تحنيط اللغة كما كانت قبل أكثر من ألف سنة ويحمل مع زعماء العرب مسؤولية تشويه الكتب العربية والتي ستزداد ما دمنا متجمدين. فلا الطب والكيمياء

---

(١) هي صفة للشخص الذي يخدع الآخرين بالتظاهر بحنكة لا يملكها وخبرة لم يقم بها. أنظر إلى النتائج الكارثية للفهلوية في كتاب صادق جلال العظم «النقد الذاتي بعد الهزيمة»، بيروت ١٩٦٩ والذي صدر من جديد في دار ممدوح عدوان، دمشق، ٢٠٠٧.

Twitter: @ketab_n

والفيزياء ولا الفلسفة وعلم الفضاء ولا الرياضيات والصيدلة ولا حتى ترجمة آداب الشعوب يمكن لها أن تكون دقيقة دون أن تكون أحرفنا قادرة على صياغة الكلمات بدقة.

كما أن عصر الإنترنت والجوال يسهلان استعمال الأحرف اللاتينية لكتابة عربية سخيفة المظهر فقيرة البعد والعمق. فيكتبون (Kif halak, assalamo alaikom) ويستعملون رقم ٥ بدل الخاء ورقم ٣ بدل العين ورقم ٧ للحاء ورقم ٦ للطاء. والعذر الأسخف أن لوحة المفاتيح هي السبب وكأن أرخص أجزاء الكومبيوتر مبرر كافٍ لتشويه اللغة.

في سبعينيات القرن الماضي ظهر اقتراح شجاع لتخطي الأزمة التي تعاني منها اللغة العربية. ولكي نفهم هذا الإقتراح ونقدره حق قدره، علينا أن نعرف بأن اللغة العربية تعاني منذ ابتكرها الإنسان من مشاكل ككل أبجديات العالم وقد تطورت بإصلاحات هامة منذ اشتقاقها من الآرامية مروراً بالنبطية. فمن أحرف منفصلة مرتعشة لا جمال فيها إلى أحرف متصلة، جميلة الشكل. وقد أشرنا أعلاه إلى إحدى المشاكل الكبرى والتي حُلَّت بذكاء وذلك بإضافة نقط لخمسة عشر حرفاً. ومنذ ذلك الحين بدأت الحروف ومعها اللغة العربية بالتجمد وبقيت حتى يومنا هذا دون إصلاح يجعلها تتقدم حيوياً مع الحياة كما فعل الأقدمون. وكمثال بسيط : قدم الفراهيدي بمفرده للغتنا ما لم يقدمه جيش من اللغويين الكسالى على مدى عشرة قرون.

Twitter: @ketab_n

إلى جانب مشكلة النقط هناك مشكلة أخرى تسبب عراقيل للطلبة عند تعلم اللغة وإتقانها وأيضاً للطباعة، فالحروف العربية تُكتب بأربع طرق مختلفة كما ذكرنا أعلاه وذلك بحسب موقع الحرف في أول الكلمة أم بوسطها أم بآخرها أو منفرداً.

ولذلك يمكن فهم زفرة عميد الأدب العربي والمفكر الشجاع طه حسين (١٨٨٢ ـ ١٩٧٣) حين قال: «يقرأ الآخرون ليتعلموا ونحن علينا أن نتعلم لنستطيع القراءة». ويقال إنه أخذ هذه الجملة عن قاسم أمين والله أعلم.

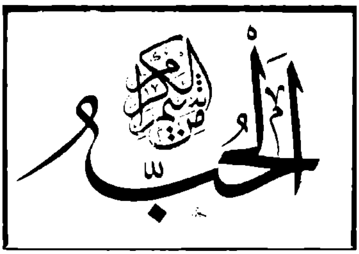
المبادرة الشجاعة أتت من محمد سعيد الصكار الشاعر والخطاط العراقي المعروف بعد جهد كبير دام سنوات بتطوير ما سماه «الأبجدية العربية المركزة». ولا نستطيع مدح الصكار بكفاية، وهو الذي تجرأ قبل دخول الكومبيوترعلى أن ينهض بالأحرف العربية لتصبح على مستوى متطلبات الزمن.

تنطلق فكرة الصكار كما وصفها هو بكسر قيود الحرف أي بتسهيل كتابته أينما حل في الكلمة ويسمي الصكار أحرفه الجديدة «وحدة بصرية» وهي ٢٢ وحدة تتألف من ١٤ حرفاً و٨ إضافات يمكن بها وبكل دقة التعبير عن الحروف الثمانية والعشرين للأبجدية العربية ويخفف بذلك من صعوبة الطباعة والكتابة بالكومبيوتر. مشروع الصكار الجريء في تطوير الأبجدية هو إذاً مشروع طباعي يختصر عدد الحروف العربية الطباعية لكي تتناسب مع أجهزة صف الحروف اليدوية والآلية والألكترونية في أسلوبها القياسي العالمي.

Twitter: @ketab_n

وقد توصل إلى اختصار وتكثيف الحروف الطباعية معتمداً على جذورها المشتركة.

وقد نشرت دار المدى عام ١٩٩٨ كتاباً له بعنوان أبجدية الصكار يشرح فيه الصكار ما عناه باقتراحه وما عاناه إثر هذا الإختراع الذي سجل براءة اختراعه في العراق وبيروت وفرنسا وبريطانيا.



لم تكن هذه المحاولة الأولى من نوعها فلقد قدم الكاتب والعلامة المصري محمود تيمور (١٨٩٤ ـ ١٩٧٣) في كتابه القيم «مشكلات اللغة العربية» أولى محاولات تسهيل طباعة الحرف العربي[١] بكتابة كل حرف على شكل واحد أينما تواجد هذا الحرف في الكلمة. كمثال حرف العين الذي يرد في الكلمة على أربعة أشكال كما في (عمل ـ سعد ـ رجع ـ طماع). فتأسيسًا على اقتراح محمود تيمور تكتب الكلمات الأربع كما يأتي:

عمل، سـ عد، رجـ ع، ط مـ اع

لكن هذا المسعى باء بالفشل رغم نيته الصادقة وجرأته وكان فكر

(١) تيمور، محمود، مشكلات اللغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٥٦، ص٧٣ ـ ٧٤.

Twitter: @ketab_n

محمود تيمور واقتراحاته الجريئة لتحسين اللغة العربية وتيسير استعمالها قد أصبح بلا شك منارة لكل من تبعه من الإصلاحيين.

أتت محاولة الصكار بجرأة وبتقنية متقدمة على محاولات تيمور ونادرة بجذريتها. وقد تبعه بعد ذلك عدة كتاب مثل الصادق الصائغ (في مجلة الف باء) وناظم رمزي (في مجلة آفاق عربية) وسامي العتابي (في جريدة طريق الشعب).

استقبل ابتكاره هذا ببغداد أيام حكم البكر وصدام حسين بحماس، فقد أراد رجال البعث الدكتاتوري آنذاك تقديم هذا الإبتكار على أنه من انتاج حزب البعث الحاكم، ثم ما لبثوا أن أدركوا كم لهذا الإصلاح الثوري من مفعول انفجاري وبمدى الخطر الذي سيحيق بسلطتهم إن تبنوه، فقاموا كما يفعل الأقزام باتهام الصكار ـ الذي تزلف للنظام بما فيه الكفاية ـ بأبشع الإتهامات وكان آنذاك يعمل في جريدة الثورة تحت الإشراف المباشر لطارق عزيز الذي شجعه أولاً، ليخذله كجبان متمرس بعدها.

وصدر قانون من وزارة الإعلام العراقية يحرم استخدام الأشكال الجديدة للحروف لأنها «تسيء للغة العربية والعروبة» وتقارب الحرف العربي للحرف العبري.

لم يخجل مجرمو البعث الذين باعوا الوطن بالجملة والمفرق، كما نقول في الشام، من توجيه تهمة قاتلة لهذا الشاعر المرهف الحس في أنه «ينتمي إلى الماسونية ويهدف لتشويه الحرف العربي».

والغريب أن جمعية الخطاطين قد قدمت مذكرة موتورة، مرفقة

Twitter: @ketab_n

بالوثائق والخطوط المزورة المنسوبة إليه، وعلى أساس هذه المذكرة أمر رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر أن تُشكل لجنة لمحاكمته بحجة تشويه الحرف العربي. ولنقرأ ما رواه الصكار بنفسه في ندوة أعدت لاستقباله بعد سقوط الطاغية صدام حسين:

«في ذلك الوقت كنت رئيس القسم الفني في جريدة الثورة العراقية التي كان يرأس تحريرها طارق عزيز، ولما سمع بنظريتي طلب مني الاستمرار بالعمل وقال إنهم سيصنعونها، خاصة وأن صحف العالم تحدثت عن هذا الابتكار الجديد وجاءتني عروض وطلبات كثيرة من دول مختلفة؛ غير أن الاتفاق الأخير كان مع طارق عزيز، وكان وقتذاك وزيراً للإعلام، لاستثمار هذا الابتكار لمدة ثلاث سنوات ونصف وبعدها يتم تصنيعه إذا لم تكن هناك احتجاجات ومواقف مضادة، ووقتها كتبت إحدى أكبر الصحف الفرنسية (أبجدية الصكار خطر سياسي واقتصادي وعسكري ينبغي أن يستثمره العرب لأن مفاتيح الأمور كلها ليست بأيديهم وهذه الحروف ستجعل المفاتيح بأيديهم..) وقتها طلب مني طارق عزيز أن أكون رئيساً للقسم الفني في الجريدة، حتى ينحصر الموضوع باعتباره منجزاً بعثياً! ولما انتهت فترة العقد اخذوا يغازلونني بلطف ثم بعناد ثم ابتدأت حملة صحفية مغرضة واسعة وكبيرة ضدي تطالب بمنع استخدام الحروف التي ابتكرتها، وثمّ مَن يتهمني بالماسونية حتى أن كاتباً كموفق عمر قال بما معناه إن الماسونية ربتني لأكثر من عشرين عاماً حتى أهين التراث العربي! وكتب

Twitter: @ketab_n

ضدي موفق عسكر ومحمد جميل شلش وغيرهما وكان يدير الحملة آنذاك خيرالله طلفاح (خال صدام حسين) حتى بدأ الأصدقاء يخافون عليّ من تلك الهجمة المسعورة، وأغرب ما فعلته المخابرات العراقية هي أنها وضعت في بيتي أحد عملائها لمدة شهرين كاملين وظل يحتسي معي القهوة من الصباح إلى المساء! ولا أعرف لماذا فعل طارق عزيز ذلك وهو الذي تبنى المشروع فترة طويلة، ومن حسن الحظ كان شفيق الكمالي وهو عضو قيادي بارز في حزب البعث يتفهم الهجمة إلى حد كبير، وفي احتفال لمجلته آفاق عربية دعا مجموعة من المثقفين العراقيين والعرب بينهم عبدالرحمن منيف وتوفيق صالح وعبدالوهاب الكيالي، فانبرى منيف طالباً من الضيوف أن يتكلموا أمام طارق عزيز الذي حضر الاحتفال لحمايتي وهكذا تكلم منيف أمام عزيز الذي أجابني بلباقة: «المسائل العظيمة طبعاً تصادف هذا النوع من الهجوم.. أنت في نظر القيادة أرقى من أن تنال منك هذه المسائل ولا يجب أن تسبب لك إحباطاً...»، غير أن الأمور تفاقمت وكان من المفروض أن أقدم إلى المحاكمة، ولم يسمحوا لي بالتفرغ فاضطررت إلى تقديم استقالتي في نهاية الأمر، وظلت الهجمة الشرسة تتصاعد وقُدمت وثائق مزورة عن الأبجدية إلى الرئيس أحمد حسن البكر مع مذكرات تحريضية يذكرون له فيها أنه استطاع (أي البكر) أن يصفّي الجواسيس من العراق فكيف لا يستطيع تصفيتي كوني أريد هدم الثقافة العربية وتراثها العتيد! لكن الرجل يبدو أنه كان حصيفاً

Twitter: @ketab_n

ولم يتخذ أي إجراء، لكنه أمر بتشكيل لجنة برئاسة نوري حمودي القيسي وآخرين من التلفزيون والأوقاف وممن لا علاقة لهم بالموضوع، واجتمعت اللجنة أربع مرات وكان عليها أن تحسم الأمر في الجلسة الرابعة وتصدر حكمها، غير أن دخول شفيق الكمالي على اجتماع اللجنة حال دون أن يُتخذ أي إجراء ونبههم إلى أن ينشغلوا بأمور أهم، وذكّرهم بوطنيتي وشعري وفي الحقيقة لقد أنقذني الرجل من مخالب هؤلاء لكنه أخبرني عندما خرجنا من الجلسة الأخيرة بأن عليّ الكثير من «التقارير» والمذكرات ولو أخرجها إلى المسؤولين لما نبت ريشٌ على جلدي بحسب المثل».

كانت تهمة الماسونية، التي ليس للصكار علاقة بها لا من قريب أو بعيد، خطيرة غرضها تمهيد الطريق للحكم عليه بالإعدام من قبل زبانية صدام حسين وحسين الطلفاح الذين كانوا آنذاك قد همشوا البكر، رئيس الجمهورية، كدمية أزاحوها فيما بعد. ولم يشفع للصكار لا أشعاره ولا تزيينه لقصور البرابرة والطغاة بخطوطه الرائعة كما يورد في قائمة منجزاته.

البربرية العربية وحدها تستطيع تحويل اختراع جريء إلى تهمة قاتلة. أما قصة الصكار فهي مثال مخجل لما وصل إليه التأخر.

أنقذت الوساطات عنق الصكار من حبل المشنقة فهرب عام ١٩٧٨ إلى باريس وخسرت العراق أحد أكبر مبدعيها. والجدير بالذكر هنا أن الصكار كان ولخوفه الشديد المحق قد أتلف كل الأفلام التي تتعلق بوثائق الأبجدية، كما وزع مكتبته التي كانت

Twitter: @ketab_n

تضم خمسة آلاف كتاب أغلبها من المصادر العلمية والثقافية والفنية على أناس لا علاقة له بهم وضاعت المكتبة في خضم الأحداث.

لكنه من أغرب الغرائب أن يعود الصكار إلى العراق بعد سقوط صدام حسين ليقول في ندوة أعدتها له المؤسسة العربية للصحافة والإعلام في حواره مع وارد بدر سالم: «عندنا ٢٩ حرفاً و٢٨ صوتاً لغوياً يقابلها ٢٩ شكلاً لهذه الأصوات وهذه الـ ٢٩ متأتية من حرف «لا» (ألف لام) وهو حرف حقيقي بلا شك..». ويستشهد للتأكيد على ذلك بالحديث المخترع بين أبي ذر الغفاري والنبي العربي... أليس الأمر مذهلاً أن يعتقد هذا الإنسان المثقف والفنان الرائع بأن حرفي اللام والألف مجتمعين يعطيان حرفاً واحداً؟ (وللأسف يورد محمود تيمور في كتابه المذكور أعلاه أبجدية حديثة مع حرف لا أيضاً[1]. ألا يعني ذلك معادلة تشبه معادلة رواية ١٩٨٤ للكاتب الفذ جورج أورفل. أي أن حساب الرياضيات في بلاد الخنوع يعطي:

حرف + حرف = حرف

أي ١ +١ = ١.

لكن بغض النظر عن هذه الهفوة، فحتى أجود حصان له كبوة، ومع احترامي وتقديري لجهود الصكار الكبيرة، والتي ستبقى تثير النقاش، فإن مشروعه للحروف المركزة لا يصيب في توجهاته الهدف في إصلاح الأبجدية. فالطباعة في عصر الكومبيوتر لا تحتاج

---

(١) تيمور، مشكلات اللغة... ص٧٤.

Twitter: @ketab_n

إلى تسهيل، فهي سهلة مهما كانت الأحرف وشكلها.

لكن استعمال هذه الحروف يعني إعادة كتابة كل الكتب، وأولها القرآن، بهذه الأبجدية، وفرضها لا يتم إلا بذلك، وإلا ظلت مجرد ملهاة. أخذ هذا الإقتراح بالجدية التي يستحقها تبين عجزه عن الإيفاء بمتطلبات الإصلاح، ويصبح الأمر في عداد المستحيل، لأن علينا أن نقنع ملياراً من البشر بتغير خطوط العربية، وإلا فإن أبجدية الصكار ستكون أبجدية ثانية، لمن يرغب بها إلى جانب الأبجدية القديمة. وهكذا يصبح لدينا أبجديتان وفوضى لا مثيل لها. كما أن الإختزال فيه شيء من الحداثة المبسطة، والمدمرة في الوقت نفسه لجمال التنوع، والذي لايشكل أية عقبة في أيامنا هذه بعد إدخال الكومبيوتر والذي يسمح لي بالكتابة بسرعة تضاهي سرعتي بكتابة الألمانية. فَلِمَ الإختزال إذاً؟

ما الحل إذاً؟ الجواب: توسيع الأبجدية بزيادة أحرف مساعدة

الأبجدية العربية جميلة كما هي بأحرفها ولا حاجة لمس القرآن أو إقناع مليار إنسان بأبجدية جديدة. الضروري والممكن ببساطة هو إضافة أربعة إلى خمسة أحرف لتصبح لغتنا قادرة على لفظ أغلب أصوات الأرض. وبالتالي يمكننا كتابة كل الكتب من اليمين إلى اليسار ودون أي حاجة لأحرف لاتينية غريبة البنية. وبالتالي يمكننا نقل أي أدب، علم أو فلسفة إلى لغتنا دون تشويش. ليس من الضروري تقليد حروف الإيرانيين. بل إنه من المهم أن يقوم خطاطون عرب بابتكار صورة واضحة لهذه الأحرف الجديدة.

Twitter: @ketab_n

وليس على من يحرص على الدين أن يخشى الضرر. هذه الإضافة قامت بها شعوب مسلمة غير عربية ولم تصبح أقل أو أكثر تديناً من المسلمين العرب.

نحن لا نستطيع بأبجديتنا الحالية أن نكتب أو نلفظ بدقة إلا مقاربة، والتقريب في عصرنا لا يصيب الهدف. والدقة في العلوم بكل نواحيها والفلسفة والسياسة إلخ تتطلب دقة متناهية بالوصف والتعبير واسم جرثومة أو قطعة من آلة أو حالة نفسية عليه أن يعبر عما يفهمه كل خبراء العالم وليس تقريباً لأن لغتنا لا تسمح لنا بذلك.

أبجديتنا ينقصها كما ذكرنا أعلاه بسيط من الحروف التي نستعملها ونلفظها في يومياتنا وأبحاثنا وترجماتنا. لا يمكننا مثلاً التواصل بدقة وسهولة مع اللغات الأخرى دون W وO وE وP.

هذه الأحرف تستعمل بكثرة في اللاتينية والفارسية والتركية والصينية واليابانية إلخ. ويمكن للغتنا العربية أن تضم أربعة أو خمسة أحرف إليها بإضافات مميزة لأحرف موجودة في الأبجدية. ولنطلق عليها إسم «الحروف المساعدة» يتعلمها كل التلاميذ العرب إعتبارا من المرحلة الإعدادية (المتوسطة).

اللغة الفارسية على سبيل المثال تستوعب بأحرفها مجمل الاصطلاحات العربية وكل اللغات التي اشتقت من اللاتينية والصينية والعبرية والتركية دون الحاجة لوضع الكلمة بحروف لاتينية بين قوسين.

Twitter: @ketab_n

أما الكتب العربية فتزداد تشوهاً من يوم إلى يوم. لو تصفح المرء أي كتاب عربي يعالج مواضيع علم النفس والسياسة والإقتصاد والجغرافيا والطب والصيدلة والكيمياء والفيزياء وعلم الفضاء والرياضيات وعلم الكومبيوتر (الحاسوب) فسيرى أسطر وصفحات مشوهة بدخول اللاتينية إليها، فهي تغير مساري الكتابة والقراءة وتقلبهما كما ذكرنا.

بينما لو أدخلنا أحرفاً جديدة تفتح مصراعي الأبجدية لكل أصوات العالم، لتناسقت السطور والصفحات والكتب بخط جميل مريح للعين، وتمّت قراءتها بسهولة من اليمين إلى اليسار في اتجاه واحد.

لا وجود لمثل هذه المشكلة في اللغات الأوروبية المشتقة من اللاتينية، فأي حرف من أي لغة منها يمكن إيجاده عن طريق التوفيق بينه وبين أحرف من لغة أوروبية أخرى (مثلاً كلمة إنكليزية في نص فرنسي، ايطالي أو الماني) والتي تستطيع إعطاء أصوات هذا الحرف وتكتب بطريقته من اليسار لليمين.

هناك أحرف عربية عديدة تتيح التوسع لاحتواء الأحرف العالمية بمجملها. واللوحة تبين مثالاً بسيطاً لذلك بأحرف، لكتابة (P) كما في كلمة باريس أو باول بشكل صحيح و(W) كما في فيلهلم وفيينا و(G) كما في جاجارين أو الجيم المصرية و(O) كما في كلمة موزامبيق وأوكسجين و(E) كما في إميل وهيلينة.

كما تسمح الأحرف (ز، و، ذ) بإضافة أحرف وأصوات جديدة

Twitter: @ketab_n

P =	پـ، ـپـ، ـپ، پ
W =	ڤـ، ـڤـ، ـڤ، ڤ
O =	وہ، ـوہ، ـوہ ، وہ
O =	وْ، ـوْ، ـوْ ، وْ
E =	بٜ، ـبٜـ، ـيٜ، يٜ
E =	بٍـ، ـبٍـ، ـيٍ، يٍ

لوحة بأهم الأحرف التي تحتاجها أبجديتنا والتي تسهل إضافتها.
وقد وضعنا عند حرفي (E) و (O) إمكانيتين ويمكن بإجراء
التجارب إختيار الشكل الأسهل والأفضل وتثبيته رسميا

إذا لزم وذلك باستبدال النقطة بنقطتين أو بثلاث نقاط فوق الأحرف.

بمثل هذه «**الحروف المساعدة**» يمكننا دون المساس بالقرآن أو بأي من الكتب الدينية منح أبجديتنا ديناميكية قوية لتكون أداة طيعة في أيدي مترجمينا الذين يصطدمون في كل جملة بكلمات لا يمكن ترجمتها بالشكل الصحيح، دون أن نشوه المظهر العام الجميل لخطنا العربي، وإدخال النقط أو الهمزة لا يشوه الخط. فقد قام بذلك العرب والشعوب المسلمة قبل قرون عند حاجتهم إليها.

العلم نور والجهل ظلام

العلم نور والجهل ظلام

Twitter: @ketab_n

بين تخم المرادفات وجوع للجديد

إن حركة تعريب المصطلحات العلمية والفلسفية والتقنية والإجتماعية التي أنتجها وينتجها العصر الحاضر لا تسير بل تزحف في البلاد العربية ببطء شديد، تتخبط عشوائياً وبدون حد أدنى من التخطيط والتنسيق بين البلدان العربية. إلاّ أن قطار الحضارة يعبر بسرعة جنونية ولا يلتفت إلى أحد ولا يعرف الرحمة، وأرصفته هي المصطلحات الجديدة التي يبتدعها العقل الخلاّق. والتأخر في أحد أوجهه هو الفرق في سرعة السير بين موكب المجتمعات المتحضرة وتلك المتخلفة والتي تُدعى شفقة البلدان النامية. فقد تظن نفسك سائراً قُدماً، لكنك بالمقارنة مع الآخرين تتراجع إلى الخلف.

بعد هذا كله، يأتيك شاب عربي ليقول لي عقب محاضرة عام ٢٠٠٩ وبكل اعتزاز بأنه يعرف ثلاثين اسماً للجمل، ويصاب بإحباط عندما أقول له بكل أدب إن هذه مصيبة مُقنَّعة بقناع الفخر. ويذهب الشاب وهو غير راض عن شرحي. لكي أوضح ما أقصد. لا بد لي من وقفة قصيرة عند المرادفات في لغتنا.

في لسان العرب: ردف: الرِّدْفُ: ما تَبِعَ الشيءَ. وكل شيء تَبع شيئاً، فهو رِدْفُه، وإذا تَتابع شيء خلف شيء فهو التَّرادُفُ. والجمع الرُدافى (لا يستعمل هذا الجمع في أيامنا إنما مرادفات ومترادفات). وكتاب العين للفراهيدي يستعمل نفس التفسير. وجاء في تاج العروس: المترادف أن تكون أسماء لشيء واحد. وهناك معان أخرى للترادف لا تهمنا في هذه الفقرة.

Twitter: @ketab_n

الترادف يعني اختلاف لفظين أو أكثر لمعنى واحد كما في: ليث، هزبر، أسد وضرغام. أو الجود، السخاء، الكرم... إلخ.

من اين ينبع الترادف؟

يمكن إعادة ذلك إلى تأثير الصحراء على قاطنيها العرب فهي تنشط خيالهم لابتداع الكلمات والتلذذ بوقع صوتها. ومن أولاد هذا الخيال: المجاز وهو أخ حميم للحقيقة، فالحقيقة تقتضي أن نسمي الأمور والأشياء حرفياً وبدقة باسمها بينما المجاز لفظ يستعمل في غير موضوعه، لكن عليه أن يكون على وجه يصح (وبالتالي فهو ليس كذباً أو تمويهاً كما يدّعي البعض). أي أن هناك علاقة حميمة بين الحقيقة وما يعبر عنها مجازاً. هذا شرط أساسي. كقول العرب عن فلان: رحل إلى الرفيق الأعلى ويقصدون أن فلاناً مات أو أن يقولون بث الخليفة العيون ويقصدون الجواسيس. أو تسمية اللغة «لسان» لأنه من المعروف أن اللسان ينطق اللغة ويصيغ صوتها.

والجَمَل يصبح في أحد أسمائه «سفينة صحراء» وهذه التسمية ليس فيها جديد لكنها ظريفة، وأما تسمية الجمل «أبو أيوب» لصبره فهذه ضعيفة مستندة كلياً على شخص النبي أيوب الذي صبر على المصائب. وأما أن يضاف للجمل عشرات المترادفات كصفات لكيفية شربه للماء مثل: الغب، الغب الطلق، الغب القرب، الربع، الظاهرة، الرفة، القصريد، العرجاء، التندية، سلوف، دفون، ملواح، الهافَّة، عيوف، مُقامح، رقوب، ملحاح، ميراد... إلخ. فهذا لا داعي له وهو لا يغني اللغة بل يثقل وقعها. أنظر إلى

Twitter: @ketab_n

التشويش الذي يحصل عند المرادفات: الربع، الظاهرة وعرجاء، ويقال إن مرادفات الجمل تتجاوز الألف مفردة، فهل من الضروري ملء الصفحات بها؟

وتنبع بعض مرادفات إسم ما من نسبها إلى صفات هذا الإسم والتي قد تكون اختفت، وقد تنتج مرادفات نتيجة لاختلاط اللهجات واللغات العامية العربية في مناطق تماس قبيلة بأخرى (أو اختلاط الشعب العربي عبر القرون بالشعوب الأخرى) وقد ينتصر إسم لشيء ما على تعبير آخر عنه فيبعده عن ألسنة الناس وذاكرتها، وقد يبقى اللفظان إلى جانب بعضهما البعض.

وكان الأقدمون يتبارون في حفظهم عدد هائل للمرادفات (يسمونها إسم) فقد تفاخر الأصمعي أمام هارون الرشيد بحفظه سبعين إسماً للحجر. وألّف إبن خالويه كتاباً بكامله عن أسماء الأسد لأكثر من ٥٠٠ مصطلح وكتاباً آخر بمائتين عن الحية. وألف العلامة مجد الدين الفيروزأبادي قاموساً سماه «الروض المسلوف فيما له إسمان إلى ألوف». وكذلك كتب أبوسهل الهروي (٣٧٢ ـ ٤٣٣ هـ) كتاباً عن أسماء السيف، وحسين النحوي كتاباً في أسماء الذهب والفضة.

وقد دافع قطرب (أحد تلاميذ سيبويه) عن كثرة المرادفات بالعربية بقوله: «إنما أوْقَعت العربُ اللَّفظتين على المعنى الواحد ليدلُّوا على اتِّساعهم في كلامهم كما زَاحفوا في أجزاء الشعرليدلّوا على أنِ الكلامَ واسعٌ عندهم وأن مذاهبَه لا تضيقُ عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب».

Twitter: @ketab_n

هذا صحيح لكنه اتساع أفقي ليس له عمق. إتساع صوتي للزركشة لا يضيف للمعلومة المتضمنة في الكلمة شيئاً يذكر.

يجد الباحث الكثيرعن المرادفات لو شاء دراستها في كتب متوفرة مثل: «ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه»، و«كتاب الألفاظ» للأصمعي، «الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة» لمحمد بن عبد الله الجياني، «تذكرة الحفاظ في بعض المترادف من الألفاظ» لسعيد الحضرمي، «نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد» لإبراهيم اليازجي، «معجم المعاني للمترادف والمتوارد والنقيض من أسماء وأفعال وأدوات وتعابير» لنجيب اسكندر، «قاموس المترادفات والمتجانسات» للأب رفائيل نخلة، وهناك عشرات المصادر الأخرى.

ورأيي أن الترادف يسبب ضبابية. ومثال بسيط يبين لنا أن المترادفات تزيد من فضفضة لمعنى الكلمة وتراخيه. فالسيف سيف سواء صنع في الهند (ومن هنا أيضاً تسميته بالمهند) او في اليمن (اليماني). وفي عصرنا قد لا تُصنَع السيوف لا في اليمن ولا في الهند بل في الصين أو المانيا مثلاً فما معنى تسمية هكذا سيف باليماني؟

طرفة: عن أبي علي الفارسي قال: كنتُ بمجلس سيف الدولة بحلَب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة وفيهم ابن خالويه فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً فتبسّم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المُهنَّد والصَّارم وكذا وكذا فقال أبو علي: هذه صفاتٌ.

Twitter: @ketab_n

وأبو علي الفارسي (٩٠٠ ـ ٩٨٧ م) كان من علماء النحو في عصره أقام بحلب عند سيف الدولة الحمداني لفترة ثم انتقل إلى بلاد فارس ورافق عضد الدولة بن بويه وعلت مكانته عنده حتى قال عضد الدولة: «أنا غلام أبي علي».

وأغلب المرادفات التي جُمِعَت عبر مئات السنين لها معنى مخالف ولو جزئياً للإسم الذي تُعَد من مرادفاته. فالخجل غير الحياء لأن الخجل يكون مما كان أو حصل، والحياء مما سيكون أو سيحصل. والخشوع غير التواضع، والقسم غير الحلف والغضب غير السخط (فالغضب يذهب في اتجاهين أما السخط فهو دوماً من الكبير على الصغير) وكما أكد العلامة أبو هلال العسكري فلا يمكن أن يكون مترادفان متطابقين في المعنى بشكل تام بل متشابهين شبهاً نسبياً لأنهما لو كانا متطابقين لما لزم التعبيرين عن حاجة واحدة، وأما إذا كانا متشابهين فقط، فمن الضعف اللغوي أن نستعمل كليهما للدلالة على نفس الشيء، بل الواجب أخذ الأدق واستعمال الكلمة الأخرى لما تدل عليه بكل دقة أو إهمالها.

مهزلة:

كتب الشاعر والمعلم بطرس كرامة[1] قصيدة كبيرة عن الخال.

---

(١) ولد الشاعر بطرس كرامة في مدينة حمص السورية (١٧٧٤ ـ ١٨٥١) وانتقل إلى لبنان وعمل في بلاط الأمير بشير الشهابي فترقى لديه حتى صار مربي ولديه وكاتم أسراره. بعد عزل الأمير بشير إنتقل بطرس كرامة إلى الأستانة وتوفي فيها. كان من أشهر شعراء عصره. ديوانه «سجع الحمامة»=

Twitter: @ketab_n

القصيدة كان بإمكانها أن ترتقي إلى مصاف قصائد الحب الجميلة لولا انشغال صاحبنا بالخال الذي يهبط بمستوى القصيدة إلى الحضيض. ويكفي القراء والقارئات أربعة أبيات لتعطيهم فكرة عما وفروه عن أنفسهم في أكثر من ٢٥ بيت شعري لا غرض منهم سوى إرضاء نفس شاعرنا ليظهر للملأ مقدار قدرته اللغوية:

أمِنْ خدِّها الوردي أفتَنكَ الخالُ
فسحَّ من الأجفان مدمعُكَ الخالُ

وأومضَ برقٌ من محيّا جمالها
لعينيك أم من ثغرها أومضَ الخال

رعى اللَّهُ ذيّاك القوامَ وإن يكن
تلاعبَ في أعطافه التِّيهُ والخال

ولِلَّه هاتيك الجفونُ فإنها
على الفتْكِ يهواها أخو العشقِ والخال

نعم، حفظ وتنمية المرادفات كان صالحاً في وقت من الأوقات لشعراء القرن الثامن، وللتباهي في حضرة الخلفاء، ولكن أين هي المصطلحات العربية لآلاف وملايين المصطلحات العلمية، الفلسفية، الأدبية والإقتصادية؟... لا جواب!!!

هناك تقديرات تقول بأن الفيزياء الحديثة أوجدت ما يُقارب

= نال آنذاك شهرة واسعة كما ألف موشحات أندلسية. كثير من شعره بدده في مدح الأمراء، وظل رغم قدرته اللغوية ومعرفته مقلداً.

Twitter: @ketab_n

٦٠٠٠٠ اصطلاح جديد، والكيمياء ١٠٠٠٠٠، وفي الطب هناك ٢٠٠٠٠٠ مصطلح جديد، وفي الزراعة هناك أكثر من ٣٥٠٠٠٠ اسم لنباتات مختلفة وفي علم الحيوان والأحياء أيضاً هناك أكثر من مليون إسم علمي للحيوانات. كل هذه المصطلحات على اللغة العربية أن تستوعبها اليوم قبل الغد، إن أرادت أن تبقى لغة عالمية، وإلاّ سيصيبها الجمود وتقف مكتوفة الأيدي تنظر بحسرة إلى الحداثة التي تمر أمامها مسرعة كالبرق، بينما هي لا تزال تتأرجح بين إنكليزية وفرنسية.

إن معجماً عربياً عصرياً عليه اختزال عدد المرادفات إلى أقصى حد ليتسنى له إيجاد مكانٍ لتعابير ومفردات ضرورية دون أن يصبح غليظ الحجم صعب التناول. حتى ولو ألف قاموس للمرادفات، فعليه الإكتفاء بحد أقصى لا يتجاوز خمسة مرادفات للكلمة.

لا يصح الخلط بين ثقل المرادفات على كاهل اللغة وبين براعة اللغة العربية الفائقة بتثبيت تفاصيل كل الأمور بدقة. فذاك ثقل وهذا خفة ورشاقة ودقة تحتاجها كل لغة لتكون قادرة على وصف أدق التفاصيل والأجزاء وهذا ما علينا الحفاظ عليه، لا بل تطويره في الأجزاء والمواضيع التي لا تزال تفتقر العربية إليها. الأمثلة التالية التي يعددها الثعالبي في كتابه «فقه اللغة وأسرار العربية» تبين مدى جمال ودقة العربية:

(في تَعْدِيدِ سَاعَاتِ النَّهارِ واللَّيل عَلَى أربَع وعِشْرِينَ لَفْظَةً)

سَاعَاتُ النَّهارِ: الشُرُوقُ، ثُمَّ البكورُ، ثُمَّ الغُدْوَةُ، ثُمَّ الضُّحَى،

Twitter: @ketab_n

ثُمَّ الهاجِرَةُ، ثُمَّ الظَهِيرَةُ، ثُمَّ الرَّوَاحُ، ثُمَّ العَصْرُ، ثُمَّ القَصْرُ، ثُمَّ الأصِيلُ، ثُمَّ العَشِيُّ، ثُمَّ الغُروبُ.

سَاعَاتُ اللَّيل: الشَّفَقُ، ثُمَّ الغَسَقُ، ثُمَّ العَتَمَةُ، ثُمَّ السُّدْفَة، ثُمَّ الفَحْمَةُ، ثُمَّ الزُّلَّةُ، ثُمَّ الزُّلْفةُ، ثُمَّ البُهْرَةُ، ثُمَّ السَّحَرُ، ثُمَّ الفَجْرُ، ثُمَّ الصُّبْحُ، ثُمَّ الصَّباحُ.

عن أوائل الأمور:

الصُّبْحُ أَوَّلُ النَّهارِ، الغَسَقُ أَوَّلُ اللَّيْلِ، الْوَسْمِيُّ أَوَّلُ المَطرِ، البَارِضُ أَوَّلُ النَّبْتِ، اللُّعَاعُ أَوَّلُ الزَرْعِ، اللِّبَأُ أَوَّلُ اللَّبنِ، السُّلافُ أَوَّلُ العَصِيرِ، البَاكُورَةُ أَوَّلُ الفَاكِهَة، البِكْرُ أَوَّلُ الْوَلَدِ، الطَّلِيعَةُ أَوَّلُ الجَيْشِ، النَّهَلُ أَوَّلُ الشُرْب، النَّشْوَةُ أَوَّلُ السُّكْرِ، الوَخْطُ أَوَّلُ الشَّيْبِ، النُّعَاسُ أَوَّلُ النَّوْم ... إلخ.

أولاد الحيوانات

وَلَدُ الفِيلِ دَغْفَل، وَلَدُ النَّاقَةِ حوَارٌ، وَلَدُ الفَرَسِ مُهْر، وَلَد الحِمَارِ جَحْشٌ، وَلَدُ البَقَرَةِ عِجْل، وَلَدُ البَقَرَةِ الوَحْشِيَّةِ بَحْزَجٌ وَبرْغز، وَلَدُ الشَّاةِ حَمَل، وَلَدُ العَنْزِ جَدْي، وَلَدُ الأسَدِ شِبْل، وَلَد الظَبيِ خَشْفٌ، وَلَدُ الأرْويَّةِ وَعْل وَغفْر، وَلَدُ الضَّبُع فُرْعُلٌ، وَلَدُ الدُّبِّ دَيْسَمٌ، وَلَدُ الخِنْزِيرِ خِنَّوْص، وَلَدُ الثَّعْلَب هِجرِسٌ، وَلَدُ الكَلْبِ جَرْو... إلخ.

أو ترتيب درجات الجوع

أوَّلُ مَرَاتِبِ الحَاجَةِ إلى الطَّعَام الجُوعُ، ثُمَّ السَّغَبُ، ثُمَّ الغرَثُ،

Twitter: @ketab_n

ثمَّ الطَوَى، ثُمَّ المَخْمَصَةُ، ثُمَّ الضَّرَمُ، ثُمَّ السُّعَار.

في الحُبّ ودرجاته

أوّل مَرَاتِبِ الحُبِّ الهَوَى، ثُمَّ العَلاَقَةُ وهي الحُبُّ اللاَّزِمُ للقَلْبِ، ثُمَّ الكلَفُ وهو شِدَّة الحُبِّ، ثُمَّ العشْقُ وهو اسْم لِمَا فَضَلَ عَنِ المِقْدَارِ الذي اسْمُهُ الحُبُّ، ثُمَّ الشَعَفُ وهو إحْرَاقُ الحُبِّ القلْبَ مَعَ لَذَةٍ يَجِدُها، وَكَذَلِكَ اللَّوْعَة واللاَّعِجُ، فإنّ تِلْكَ حُرْقَةُ الهَوَى، وهذا هوَ الهَوَى المُحْرِقُ، ثمَّ الشَّغَفُ وهُوَ أنْ يَبْلُغَ الحُبُّ شَغافَ القَلْبِ، وهي جِلْدَة دُوْنَهُ وقد قُرِئَتَا جَمِيعاً «شَغَفَهَا حُبّاً» وَشَعَفَهَا، ثُمَّ الجَوَى وَهو الهَوَى البَاطِنَ، ثُمَّ التَّيْمُ، وهُوَ أنْ يَسْتَعْبِدَهُ الحُبُّ، ومِنْهُ سُمِّي تَيْمُ اللَّه أي عَبْدُ اللَّهِ، ومِنْهُ رَجُلٌ مُتَيم، ثُمَّ التَّبْلُ وهُوَ أنْ يُسْقِمَهُ الهَوَى، وَمِنْهُ رَجُل مَتْبُول، ثُمَ التّدْلِيهُ وهُوَ ذَهَابُ العَقْلِ مِنَ الهَوَى، ومِنْهُ رَجُلٌ مُدَلَّهٌ، ثُمَّ الهُيُومُ، وهُوَ أنْ يَذْهَبَ عَلَى وَجْهِهِ لِغَلَبَةِ الهَوَى عَلَيهِ، ومِنْهُ رَجُل هَائِم[١].

هذه التعابير تزيد في دقة اللغة وكل ما يزيد من الدقة يؤهل اللغة لاحتواء أوسع للحياة بكل شرائحها.

وهذا يذكرني بحقيقة أدهشت القراء الأوروبيين أن السكان الأصليين للقطب الشمالي (الذين نسميهم اسكيمو وهي تسمية

(١) أنظر أيضا ملحق أسماء الحب ودلالاته (ص٥٦٣ ـ ٥٧٨) في كتاب «العشق والكتابة» للباحثة والمفكرة التونسية رجاء بن سلامة، منشورات الجمل ٢٠٠٣.

Twitter: @ketab_n

خاطئة وهم يدعون أنفسهم «إنويت») يعرفون تعابير عديدة عن الثلج والجليد حسب اختلاف صلابته ومظهره بينما يختصرون في كلامهم اليومي جملة بكاملها لكلمة (لشدة البرد) الذي يجبرهم على الإقتصاد في فتح فمهم.

ولا بد لنا، إن كنا نحب لغتنا، أن نؤهلها لتحمل كل معنى وكل مفردة. أي علينا أن نقوم بجهد جماعي مُركّز لإنتاج قاموس موحّد لكل فرع من فروع العلوم والفلسفة والأدب والسياسة... إلخ.

يتبنى المثقفون والأكاديميون بدل ذلك حتى اليوم في كل بلد عربي مصطلحات من لغة مستعمرهم (الفرنسي أو الإنكليزي). أليس هذا مثيراً للسؤال والخجل: كيف أننا لا نزال بعد أكثر من نصف قرن لا نتفق على مصطلحات موحدة لغرض أو كائن ما ونقبل سراً الخنوع أمام دول الغرب؟

إلى جانب مشكلة المرادفات هناك مشكلة تعدد المعاني لكلمة واحدة (ما يسمى بالإشتراك) كلمة عين مثلاً تدل على ٢٥ معنى وللعجوز ٦٠ معنى كما يورد جرجي زيدان (١٨٦١ ـ ١٩١٤) في كتيبه الجميل «اللغة العربية كائن حي». وعندما حاولت تحري الأمر وجدت في المكتبات الإلكترونية شواهد على ذلك، شعراء لم يهم قلبهم ولا عقلهم سوى حذلقات لا طعم لها، فتراهم ينظمون قصائد بالية تحتوي على أكثر من ستين معنى للعجوز. من هؤلاء الشعراء كتّاب من زمننا ومنهم من الآفلين مثل جمال الدِّين مُحَمَّد ابن عيسى بن أَصبَغَ الأَزدِيّ والشاعر يوسف بن عمران الحلبي

Twitter: @ketab_n

(توفي ١٠٢٤هـ) وكلاهما كتب قصيدة طويلة وسخيفة عن كل ما نسخاه من ألفاظ مشتركة لكلمة عجوز إحتوتها معاجم العربية.

وهذه بعض معاني كلمة عجوز: المرأة المسنة، المنية، الخصلة الذميمة، الإبرة، الأسد، حمار الوحش، الذئب، الخمر، الضبع، الكلب، المسك، الخمر، الملك، التاجر، المسافر، الرعشة، النخلة، الغراب، الراية، الشمس، جهنم، العقرب، السيف، الحرب، النَّبات، الثَّوب، القوس، التُّرْس، البحر، الثعلب، الدُّنيا، الذهب، الناقة، الجوع، الشمس ... إلى نهاية قائمة طويلة، والسؤال الساخر هنا ليس عما تعنيه كلمة عجوز فهي لم تترك شيئاً بل عما لا تعنيه لأن هذا يسهل حفظه.

لكن مسألة إشتراك الألفاظ شغلت أذهان العلماء منذ زمن بعيد فمدحوها كتعبير عن قوة اللغة العربية، وذموها كدلالة أكيدة للضعف. وهناك أبحاث عديدة وجيدة عن الإشتراك وأنواعه وأسبابه منها بحث د. أحمد محمد المعتوق «الألفاظ المشتركة المعاني في اللغة العربية» (جامعة الملك فهد للبترول ـ المكتبة الإلكترونية ـ الإنترنت).

وبرأيي الإشتراك بين الألفاظ في شكلها واختلافها في معانيها وإن كان محموداً في النصوص الأدبية فهو ضار وغير دقيق ولا محبب في العلوم حيث يتوخى أي باحث الدقة. فكثرة المرادفات للمعنى الواحد، وكثرة المعاني للكلمة الواحدة، ومنها ما هو متناقض ومعاكس في معناه، يعتبر من عوامل ضعف العربية، كما

Twitter: @ketab_n

أن تعدد الجموع للأسم المفرد لا بل هناك جمع للجموع أيضاً يضعف ضبط اللغة وإتقانها، وإمكان تغير مكان حرف دون تغيير معنى الكلمة (طمس وطسم) وإمكانية الحشو دون تغيير معنى الجملة (ما منعك أن لا تقوم تعني ما منعك أن تقوم) ليس دليل قوة أية لغة. العربية تعاني أيضاً من ضعف إمكانية التعبيرعن العمق الزمني والخلط الممكن بين الحاضر (يسمى بالعربية مضارع) والماضي، عدم وضوح ترتيب الجملة بفعلها وفاعلها ومفعولها ومضافها والمضاف إليه فالتركيب فوضوي وهو جميل في الأدب ومربك في العلوم والفلسفة.

لا ينقص الدول العربية للقيام بعملية الإصلاح الجذري هذه المال، فعوائد البترول ليوم واحد فقط كفيلة بالقيام بكل تكاليف إصلاح اللغة وبناء مكتبة معاجم وترجمة أهم كتب ومراجع الأرض كلها، وذلك كمقدمة لنهضة عربية حقيقية. لكن ما تراه أعيننا أن مليارات من الدولارات النفطية تلقى من النافذة بكرم يثير الشفقة منتجة بدائل وهمية للنهضة والثقافة، فارغة المحتوى لماعة السطح والمظهر. مهرجانات للتهريج بدل التفكير وجوائز أدبية تعنى كل العناية بتحويل الكُتَّاب إلى نجوم سينمائية وصارت كلمة «نجومية كاتب» من المصطلحات اليومية. بينما تبخل أيدي مالكي الثروات عن مبالغ طفيفة لحماية لغتهم الأم وتمويل دراسات وزمن تفكير وبحث في معضلات الزمن واللغة.

حركة الإصلاح هذه تتطلب لتنفيذها ضغطاً شعبياً يقوده مفكرون

Twitter: @ketab_n

يدركون واجبهم تجاه لغتهم ولا يأبهون بالكد ولا يحبطهم يأس فمثل هذا الإصلاح يحتاج إلى عشرات السنين وجهود عشرات إن لم نقل مئات المفكرين ودولة واعية متحررة تريد أن يرفع شعبها رأسه بين شعوب الأرض وتحب لغتها الأم. هكذا فقط يمكن إصلاح اللغة، وهو إصلاح لأنفسنا وشخصيتنا العربية أنى كان تحزبنا وموقفنا السياسي.

Twitter: @ketab_n

إضاءات شجاعة في ليل طويل

بدلا من أن تلعنوا الظلام اضيئوا شمعة.

كونفوشيوس

يلاحظ كل متصفح لتاريخ البشرية توازياً واضحاً بين نهوض وازدهار الدولة والمجتمع والحضارة من جهة، وكثرة إصلاحات اللغة وحيوتها ونهضة حركة الترجمة وضعف سلطة رجال الدين (لكل الأديان) من جهة ثانية، فلا ترى لرجال الدين المسلمين أي أثر أو تأثير في عصر الخلفاء الراشدين، الأمويين والعباسيين الأوائل ولا للكنيسة المسيحية منذ بداية عصر النهضة وحتى اليوم في أوروبا، وتزداد سلطة رجال الدين عندما تبدأ الحضارة بالتفتت والتراجع، وما أن تتراجع الحضارة وتنهار حتى تتراجع الترجمة إلى العدم وتقف اللغة عن التطور، تتجمد بتأويل وبدون تأويل.

يتفق المؤرخون على أن الحضارة العربية بدأت بالإنهيار قبل اقتحام المغول لبغداد بمدة طويلة. فالحضارة العربية تصاعدت بصورة واضحة من عام ٧٠٠ م وحتى سنة ١٠٠٠م تقريباً. ولم يتوان العرب عن أخذ كل ما رأوه مناسبا من الحضارات الأخرى

Twitter: @ketab_n

حتى ولو كانت وثنية، ولا هم أبعدوا غير المسلمين وغير العرب عن المشاركة في حضارتهم. الإنهيار بدأ وبشكل بطيء في عهد المتوكل بالله (حكم من ٨٤٧ إلى ٨٦٢ م) وذلك بمذهبة السلطة (وهذا لا علاقة له بشدة أو ضعف إيمان الخليفة، بل بأيدولوجية يبثها القصر عبر أبواقه وعسكره، أن كل معتقد أو رأي آخر خاطئ أو كافر) وهذا أدى إلى كبح الحضارة بالقيود الفكرية. والتراجع تم ليس بشكل بسيط، لأن أصقاعاً كثيرة كانت تحاول بمنافستها لبغداد الصعود (القاهرة، دمشق، الأندلس) وبالتالي كانت تقوم بطفرات تقدمية لكنها كانت محصورة بمركزها. والحضارة بوجه عام ليست سلم درج بسيط يذهب إلى الأعلى أو الأسفل، بل هي تتحرك على لوالب متداخلة وتتنقل صعوداً أوهبوطاً حاملة بعض بقايا الحقبات الماضية، دون ان تؤثر هذه البقايا على الإتجاه العام.

فإذا فتشنا عن نقطة بدء التراجع في الحضارة العربية، فإننا سنجد أنه ابتداءً من عهد المتوكل تصاعدت سلطة رجال الدين، فصاروا يفتون ويحرضون الخليفة على قتل فلان أو اعتقال علتان (كما رأينا في محنة إبن مقلة والخليفة الضعيف الراضي بالله) وتجاسروا على عقد المحاكم وإعدام الناس أو إصدار فتاوى تبيح دماءهم لمجرد كونهم منورين أو معارضين (كذلك الكنيسة في القرون الوسطى الأوروبية) والملك، الخليفة، رئيس الجمهورية يتحول لمتفرج أبله، بينما يسرح رجال الدين ويمرحون وكأنهم مافيا تفكر بالخناجر وتكتب بالرصاص. ومن الطبيعي ألا يتجرأ أحد. هؤلاء

Twitter: @ketab_n

أدعياء الإيمان بإصدار أصغر فتوى ضد الحاكم، حتى ولو كان هذا مجرم، يزني علناً، لأنهم متمرسين تاريخياً ويعرفون أن أضعف حاكم يمكنه سوقهم بين ليلة وضحاها، في مجتمع اللاقانون، إلى المشنقة، فالتهم جاهزة باستمرار وما ينقص الحاكم هو المتّهَمين.

لم يأت القرن الحادي عشر، حتى بدأ الإنهيار يتسارع إلى كل جسد الحضارة العربية سواء في الفلسفة، العلوم، البلاغة، النحو أو حتى الشعر. وبالطبع تغري هكذا حضارة آخذة بالتهاوي كل أعدائها المحيطين بها بالهجوم عليها سواء كانوا صليبيين، مغول أو عثمانيين. وهكذا لم تسقط غرناطة (١٤٩٢) صدفة بل كجزء أخير من هزائم توالت في الأندلس. وسقوط بغداد كان برأيي نتيجة وليس سبب انهيار الحضارة ومسح آخر آمالها في النهوض. وأتى العثمانيون ليمددوا هذا الخراب لأربعمائة سنة، وليسود الظلام فوق الحضارة العربية.

ضرورة الإصلاح

هناك بالطبع ضرورة لإصلاحات جذرية للغة، وهي إصلاحات تحتاجها كل لغة، لتقوم بواجبات عصرها. وقد كان العرب من أشجع الشعوب في تحضير وشحذ لغتهم عندما كانوا يتقدمون حضارياً، ونقرأ اليوم وبدهشة ملؤها الإعجاب حوارهم، نظرياتهم وشطحاتهم حول أدق الجوانب والأسئلة اللغوية التي ملأت المجلدات. وهذا ما عدنا وسنعود إليه مراراً في هذه الأوراق.

Twitter: @ketab_n

قد يقول قائل: «لغتنا بألف خير وما يلزمها من إصلاح قد تم وليس هناك أي دليل على الحاجة الملحة لإصلاح جديد» والجواب على مثل هكذا اعتراض ممكن، ويمكن وبكل احترام القول: إن لغة ما تبدي قوتها ومواطن ضعفها ليس في قضاء الحاجات اليومية ولا حتى في الشعر والأدب عموماً، فحتى بعامية بدائية يمكننا رواية أجمل قصة وصياغة أجمل الأغاني والأشعار. وفي هذا الشأن كتب المفكر الراحل هادي العلوي: «حقيقة هامة تسبق خوضنا في المشكلات اللغوية الا وهي أن اللغة ـ أية لغة ـ ليست مشكلة أدبية. إن هذا الفهم الخاطئ قد تفشى فينا اليوم وساعد في ابعاد اللغة عندنا عن مضمارها الأصلي وهي كونها أداة استذهان، بعد أن تسلمها الأدباء وصارت من ممتلكاتهم الخاصة. إن الأدب هو أحد مضامير اللغة، ولعله المضمار الأقل أهمية بالقياس إلى مناحي الحياة الشديدة التنوع والتعقيد»[١].

قدرة لغة ما تظهر عند امتحانها في مسألتين: الأولى قدرتها على صياغة نصوص حول مسائل فكرية ونفسية وعلمية معقدة بشكل دقيق وواضح، وثانيها بقدرتها على ترجمة نصوص من لغة أخرى بشكل دقيق وواضح.

وقد شعر مفكرون عرب مخلصون لثقافتهم من عدة أقطار خلال

---

(١) العلوي، هادي، المعجم العربي الجديد، المقدمة، دار الحوار، اللاذقية ١٩٨٣، ص١٦.

Twitter: @ketab_n

القرن التاسع عشر، أن عليهم إن ارادوا لحضارتهم العربية أن تنهض، أن يقوموا بنقل ما توصل إليه الآخرون. ولا يزال هذا الشعور محقاً ومن واجبات الساعة، ولم يعد ما علينا نقله يقتصر على أوروبا وأمريكا، بل لكل ما وصل إليه اليابانيون والهنود والصينيون. هذا النقل المعرفي مقدمة لا غنى عنها، إن كنا نقصد القيام بنهضة بدل هدر أموال البترول على مشاريع لا طائلة منها تنهار من جراء أية أزمة لأن قاعدتها بنيت على رمال. والترجمة والتعريب من أهم الخطوات التي تسمح لنا بالالتحاق بالأمم المتحضرة وتسمح لنا بنفس الوقت أن نُدَرِّس ونَدْرُس كل العلوم والفلسفة والأدب والسياسة بلغتنا ولغة شعبنا وبذلك ندفع لغته للتقدم والتوسع ونزيل الفارق بين لغته ولغة الحضارة المتجددة دوماً. لكي لا يتحول مثقفينا إلى سواح غرب في مجتمعاتنا يتكلمون لغة غير لغة شعبهم ولايفهموه ولا يفهمهم.

ما هي نتائج تجربة الترجمة إلى العربية؟

عندما يقرأ أي منا بحثاً أو فكراً مهماً، بلغة اجنبية ويشعر بفائدة نقل هذا الكتاب أو المقال للعربية، فإنه يعمد وبشكل آلي أولاً إلى سؤال لغته عن ذخائرها اللغوية لتكون أسس ترجمة النص. وحين لا يجد بعد بحث وتمحيص يلجأ للإشتقاق من الموجود أو وأخيراً للتعريب. هكذا بدأ رواد النهضة وهكذا علينا أن نستمر. علينا كالأولين، الإجتهاد لاختراع الجديد من جذور ومفردات لغتنا بدل تعريب الكلمة الأجنبية ببلادة وكسل بحروف عربية. وقد قدم خيرة

Twitter: @ketab_n

علمائنا ومفكرينا ويقدمون يومياً حلولاً ذكية علينا تعميمها وإدخالها في الكتب المدرسية. فهذه قائمة اقترحها المفكر والأديب الكبير محمود تيمور:

الجاذبية الشخصية	بدلاً من	السكس ابيل
الاستطلاع	بدلاً من	الريبورتاج
الموسوعة	بدلاً من	الأنسكلوبيديا
الحوامة أو العمودية	بدلاً من	الهليوكوبتر
السترة	بدلاً من	الجاكيته
عارضة أزياء	بدلاً من	المانيكان
الشرفة	بدلاً من	البلكون
قائمة (كتب مثلاً)	بدلاً من	الكتالوج
البطاقة	بدلاً من	الكارت
المعطف	بدلاً من	البالطو (او المانطو)

...إلخ

وقد اجتهد الرواد الأولون في بداية عصر النهضة أيما اجتهاد ليحيوا العربية ويعيدوا الرشاقة إلى أوصالها بعد أن اصابها وهن ٤٠٠ سنة عثمانية جثمت على صدرها. وكان أحد أوائل هؤلاء الرواد المعلم اللبناني الكبير والعالم الموسوعي بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) الذي أسس أول جريدة وطنية «نفير سورية» كما وساهم مع إبنه سليم فيما بعد بإصدار عدة صحف أخرى، وأسس

Twitter: @ketab_n

عام ١٨٦٣ أول مدرسة وطنية عربية (أي لأبناء كافة الطوائف والبلدان العربية)، وهو الذي ألف أول معجم عصري للعربية (معجم محيط المحيط، ١٨٧٠) وأول موسوعة عربية في العصر الحديث (دائرة المعارف، ١٨٧٦) وقد كان المعلم البستاني عميق المعرفة باللغة العربية والفرنسية وتعلم أصول السريانية والإيطالية واللاتينية والإنكليزية. وقد جاء معجمه بترتيب غير معهود آنذاك ومفيد في التفتيش عن الكلمات. (يأخذ أول حرف من جذر الكلمة بدل المعهود آنذاك في المعاجم العربية بأخذ آخر حرف) والغريب ألا يحظى مثل هذا العبقري الذي أفنى عمره من أجل الثقافة العربية الوطنية بأي اهتمام في أيامنا. ما هذه الذاكرة المهترئة؟! إذا تصفح المرء صفحات الإنترنت لا يجد سوى ما يقارب الصفحة عن هذا الرجل العظيم في «ويكيبيديا» وعدة مواقع تنقلها بحرفيتها. بينما نجد عشرات الصفحات والمطولات عن مطربين ومطربات من الدرجة العاشرة (هذا إذا رحمناهم). يا إلّهي، إلى أي مستوى انحطت حضارتنا؟

لم يقتصر النشاط على مفكري لبنان وسوريا، بل ساهم عدد كبير من المفكرين المصريين ومنذ عهد محمد علي باشا بنفض الغبار المتراكم فوق تراثنا ولغتنا. وهؤلاء سلكوا الطريق الصحيح، لأن التطور الحضاري لا يتم ولا يتحقق كما يتوهم البعض برفض التراث والهروب منه إلى تقليد تراث غريب على أمل أن يلحقنا شيء من تفوق هذا التراث. علينا تغليب العقل على النقل، علينا أن

Twitter: @ketab_n

نستلهم تراثنا وأخذ كل صفحاته المنيرة وتجديدها لتصبح مناسبة لعصرنا، يقول المفكر المصري الكبير محمود أمين العالم في هذا الشأن: «فما من حركة تجديدية في التاريخ الفكري أو الثقافي عامة إلا واستلهمت التراث القديم واستفادت به بمستوى أو بآخر. هكذا تفاعل الفكر الإسلامي إيجاباً أو سلباً مع الفكر اليوناني، وهكذا كانت دعوة لوثر والحركة البروتستانتية للعودة إلى الأصول تجديداً وتطويراً للمسيحية، وهكذا كانت محاولة ماوتسي تونغ في توظيفه للتراث الكونفوشيوسي في تجربته الثورية، وما أكثر الأمثلة في مجال الفكر والأدب والفن عامة. إن العودة إلى التراث في هذه الأمثلة وغيرها لم تكن عودة لتكريس التراث واجتراره وتكراره، بل كانت محاولات لتجاوزه بشكل إبداعي، وذلك على خلاف العودة الأصولية الإستنساخية التي تفتقد الرؤية التاريخية ولا تراعي تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال»[1].

ولقد أدهشني مقدار الجهود الجبارة التي بذلها الكثيرون من العلماء من المغرب إلى الخليج العربي في تعريب كل ما يمكن للقيام بهذه النهضة. ويرى من يتابع التاريخ قلق المثقفين حول مصير لغتهم الحبيبة والذي شغل عقولهم وملأ قلوبهم هماً عند التحرر السياسي من الإستعمار العثماني. فلقد جثم هذا الإستعمار بمؤخرته

---

(١) العالم، محمود أمين، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، دار المستقبل العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص٢١٢.

Twitter: @ketab_n

على صدر اللغة العربية وأنزل بها خسارات لا تحصى، أذكر منها لغة الدولة والمدارس التي حُوِلَت ولأربعمائة سنة إلى التركية. ولولا القرآن لمحا العثمانيون العربية عن بكرة أبيها، ولأسقطوها لمستوى العامية واللهجة المحلية. كردة فعل شريفة حساسة ومسؤولة. أسس أول مجمع للغة العربية في دمشق وكان أول مجمع في البلاد العربية (عام ١٩١٩) تبعه مجمع اللغة العربية في القاهرة (أسس عام ١٩٣٢ وبدأ أعماله ١٩٣٤) ثم المجمع العلمي العراقي (عام ١٩٤٧) ثم المجمع الأردني (عام ١٩٧٦).

وقد كان لمجمع اللغة العربية في دمشق دور بارز في تعريب لغة الدوائرالعربية بعد تأسيس الحكومة الفيصلية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠). فقد كانت اللغة التركية اللغة الرسمية (وظلت اللغة العربية لغة الشعب والدين وهذا ما أفشل حركة التتريك الشاملة رغم كل محاولات السلاطنة العثمانيين في أربعة قرون) في البلاد. لذلك سارعت الحكومة وبنشاط محمود إلى تأليف لجان للتأليف والترجمة خاصة في مصطلحات الجيش والإدارة وفيما بعد الطب والتعليم والعلوم وكان من أعضاء تلك اللجان عدة مثقفين وعلماء صاروا فيما بعد من مؤسسي المجمع العلمي (فيما بعد مجمع اللغة) ونذكر منهم محمد كرد علي، عيسى اسكندر المعلوف، متري قندلفت، أمين سويد، سعيد الكرمي، الشيخ طاهر الجزائري. وكان من أول أهداف المجمع «النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية، ونشر آدابها، وإحياء مخطوطاتها، وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات

Twitter: @ketab_n

والفنون»[1] وقد قام هذا المجمع وبكل شجاعة بحملة تنويرية تضمنت إصدار مجلة رغم ضيق ذات اليد وعقد لقاءات ثقافية نسائية.

وقد أدرك المثقفون السوريون أن هناك سيلاً جارفاً من الكلمات العلمية التي تزداد تدفقاً من أوروبا وقرروا بشجاعة تعليم كل المواد في المدارس والجامعات السورية باللغة العربية. وقد يبدو هذا للقراء اليوم بديهياً لكنه أبداً لم يكن كذلك لولا جهود كبيرة بذلت وشجاعة لا مثيل لها وإصرار واجتهاد يحتذى بهما. بينما استمر تدريس العلوم في أغلب الجامعات العربية بلغة المستعمر الفرنسية أو الإنكليزية.

وقد عشت ذلك بنفسي كطالب في مدرسة دمشقية وطالب في كلية العلوم (كيمياء، فيزياء ورياضيات) حيث درسنا كل المواد بلغة عربية سليمة ويعود الفضل الكبير في الكيمياء للعلماء عبد الوهاب القنواتي وصلاح يحياوي، الفيزياء للباحث عبد الله واثق شهيد. وكان زملاؤنا في كليات الطب (خاصة بعد جهد العالم مرشد خاطر للطب والجراحة وأحمد حمدي الخياط الذي قام بجهد كبير لتعريب أسماء الجراثيم وأيضاً للجهود الكبيرة للدكتور حسني سبح) والعلوم الطبيعية (محمد جميل الخاني) والهندسة والرياضيات (وجيه القدسي، عادل سودان) والصيدلة (صلاح الدين الكواكبي) يدرسون أيضاً بكتب غالب مصطلحاتها عربي أو معرب.

---

(١) العطري، عبد الغني، مجمع اللغة العربية بعد ستين عاماً من تأسيسه، في عبقريات شامية، دمشق ١٩٨٦، ص١٧٩.

Twitter: @ketab_n

نشطت حركة التعريب وتأليف المعاجم العلمية فيما بعد، لكن ذلك ظل جهداً فردياً وفوضوياً إذ لم تنجح مجامع اللغة العربية في توحيد الجهود والإتفاق على المصطلحات، فصار للكلمة الواحدة مصطلح في كل بلد، لا بل أحيانا عند كل أستاذ يختلف به عما يستعمله بلد أو أستاذ آخر في نفس البلد والجامعة. وأخذ كثير من الكتّاب لعدم ثقته بالمعاجم الرسمية يضيف في نهاية كتابه معجم صغير للمصطلحات المعربة وما يقابلها باللغات الفرنسية والإنكليزية على الغالب. وهكذا ازدادت الفوضى بدلاً من أن تنحسر. وهذا محزن لأنه يهدر طاقات خلّاقة ويزيد في البلبلة وينقص الإنتاجية الموحدة الرصينة والبعيدة عن أهوائية الفرد.

وهناك رواد عظام لا بد من مدحهم لما قدموه بتفان للغتهم الأم. نذكر منهم أحمد فارس الشدياق، الشيخ محمد بن عمر التونسي، رفاعة الطهطاوي، مصطفى الشهابي، أمين المعلوف، أحمد عيسى، الأب أنستاس ماري الكرملي، محمد شرف، هادي العلوي، مرشد خاطر، يوسف حتي، إدوارد غالب، الشيخ كاظم المالكي، صادق الهلالي، جورج طرابيشي، جميل صليبا، منير بعلبكي، أحمد شفيق الخطيب، محمد علي زركان، وجيه السمان وآخرون.

وقد شرح الباحث محمد علي زركان في كتابه القيم «الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث» كل ما دار بين العلماء من حوار ونقاش عن الطريق الأفضل في تسمية مصطلح معين في العلوم كجهاز لقياس التيار الكهربائي أو مركب كيميائي، كما وبيّن بكل دقة

Twitter: @ketab_n

مدى الخسارة الواقعة لأنه لم يحصل حتى اليوم اتفاق على منهجية اختيار مصطلح ما ولا على أسلوب وشكل موحد للترجمة. ويقدم مثالاً أخاذاً في جماله عن كيفية وإمكانية توحيد المنهج عملياً.

«وقد تنبه إلى ذلك الدكتور عبدالرزاق قدورة، يوم كان رئيساً لجامعة دمشق في بداية السبعينيات، فعمل على تنسيق مصطلحات تلك العلوم وتوحيدها، وكان عمله في ذلك منهجياً منظماً، فقد عمل على تأليف لجان للتوحيد على مستوى القسم، ثم على مستوى الكلية في الجامعة الواحدة، ولجان أخرى على مستوى الأقسام المتماثلة، ثم الكليات المتماثلة في الجامعات المختلفة، وقد اجتمعت تلك اللجان ولا سيما تلك التي على مستوى القسم، وأعدت قوائم بأكثر المصطلحات وروداً في مواد التدريس، ثم طلبت إلى مجمع اللغة العربية بدمشق أن يكون حكماً في توحيد المصطلح العلمي كله، واجتمع أعضاؤه بهذه اللجان، وكان لهذه الاجتماعات فائدة كبيرة إذ ذللت كثيراً من الصعاب في التوحيد ولا سيما في مصطلحات الكيمياء وعلم الحيوان والنبات، ولكن هذا المسعى لم يبلغ مداه، والمأمول أن يتاح للمجمع وللجامعات متابعة هذا الأمر تمهيداً لمحاولة توحيد المصطلح على صعيد الوطن العربي كله على غرار المعجم الطبي الموحد، والمعجم العسكري الموحد»[1].

---

(١) زركان، محمد علي، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٨، ص٢٣٣.

Twitter: @ketab_n

وقد دهشت أيما دهشة لكثرة المعاجم العربية والنشاط الهائل الذي يبذله المفكرون لبناء معاجم جديرة بالعصر الحديث. ومما يلفت النظر هنا أن أغلب المعاجم والموسوعات طبعت في لبنان أو مصر وبالتحديد في بيروت أو القاهرة بينما تساهم الدول العربية الأخرى بمقدار ضئيل من الجهد كما تبين القائمة التالية، التي اخترتها لقابلية كل مرجع فيها للتنزيل من موقع في الإنترنت. وهذه القائمة ليست إلا عينة صغيرة للمتوفر من المعاجم.

- قاموس الدولة والإقتصاد، هادي العلوي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧.
- قاموس البحث العلمي، مصطفى زايد، دار النسر الذهبي للطباعة، القاهرة، ١٩٩٩.
- قاموس المصطلحات الصوفية، أيمن حمدي، دار أنباء للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٠.
- المعجم العربي بين الحاضر والماضي، عدنان الخطيب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٤.
- المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٢.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.
- المعجم العربي الجديد، المقدمة، هادي العلوي، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣.
- معجم الذين نسبوا لأمهاتهم، فؤاد صالح السيد، الشركة

Twitter: @ketab_n

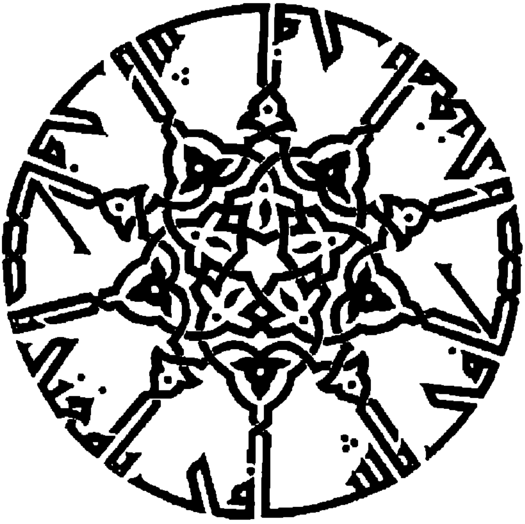
العالمية للكتاب، بيروت ١٩٩٦.
- معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، قتيبة الشهابي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥.
- معجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهابي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩.
- معجم الأخطاء الشائعة، محمد العدناني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥.
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، زامباور، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٠.
- معجم البيولوجيا في علوم الأحياء والزراعة، مجمع اللغة، القاهرة، ج١، ١٩٨٤، ج ٢، ١٩٨٨.
- معجم علم النفس والتربية، مجمع اللغة، القاهرة، ج ١، ١٩٨٤.
- معجم الحاسبات، مجمع اللغة، القاهرة، ١٩٩٥.
- معجم الحضارات السامية، هنري عبودي، جروس برس، طرابلس، ١٩٩١.
- معجم الرياضيات ج١ ـ ٣، مجمع اللغة، القاهرة ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١.
- معجم العلماء العرب، أمين باقر الورد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦.
- معجم المعاجم العربية، يسري عبد الغني عبد الله، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

Twitter: @ketab_n

ـ معجم الموسيقا، مجمع اللغة، القاهرة، ٢٠٠٠.
ـ معجم مصطلحات الهندسة الميكانيكية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٨.
ـ معجم الهيدرولوجيا، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٤.
ـ معجم بلدان العالم، محمد عتريس، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ٢٠٠٢.
ـ معجم أعلام الموارد، منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢.
ـ موسوعة المشاهير، مجدي سيد عبد العزيز، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٦.
ـ موسوعة المدن العربية والإسلامية، يحي شامي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣.
ـ موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣.
ـ موسوعة شهيرات النساء، خليل البدوي، دار أسامة للنشر، الأردن، ١٩٩٨.
ـ موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، سميح دغيم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٨.
ـ موسوعة أعلام الموسيقى العرب والأجانب، ليلى مليحة فياض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.
ـ المنجد في المترادفات والمتجانسات، رفائيل نخلة اليسوعي،

Twitter: @ketab_n

دار المشرق، بيروت، ١٩٨٩.
- دراسات في المعجم العربي، إبراهيم بن مراد، ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧.
- الضائع من معجم الأدباء، مصطفى جواد، دار المدى، دمشق، ٢٠٠١.
- فرائد الخرائد، معجم في الأمثال والحكم، يعقوب الخويي، دار النفائس، الأردن، ٢٠٠٠.
- المستدرك على كتاب الإصطلاحات الموسيقية، إبراهيم الداقوقي، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٦٥.



«يا كافي يا شافي يا مغني» أسلوب الكوفي للورق الدائري المتكرر المضفور،
كتبها الخطاط حسن حبش عام ١٣٩٥هـ

Twitter: @ketab_n

هزيمة اللغة العربية
لم تصنعها السماء بل أيدينا وفكرنا؟

تبدو هزيمة اللغة العربية بوضوح بين الإعلاميين وأصحاب العلوم فكلاهما يستخدم لغة عربية يشوهها خلط عجيب بين الفصحى والعامية وإقحام بمنطق وبدونه للإنكليزية ليستر بها عورته في لغته الأم. والمخيف ليس الإعلاميون وإن كان خطرهم الآني كبير لأنهم يلاحقون المواطن بوسائلهم الإعلامية (خاصة التلفزيون والراديو) حتى غرفة نومه، صباحاً ومساءً دون رحمة، وبلغة تثير الشفقة. لكن هؤلاء الإعلاميين يمكن تبديلهم بآخرين يمتلكون الوعي الكافي بحضارتهم، يمكن جعل الحجة الأولى في قبول مذيع(ة) أو مدير(ة) برنامج مقدرته(ا) اللغوية بدل شكله(ا) الذي لا حسنة له أو لها فيه.

وليس هناك محطة واحدة ألمانية مثلاً تسمح للمذيع أو مدير برنامج بالكلام بالعامية مع العلم أن عاميات ولهجات ألمانيا أقرب بكثير لبعضها من اللهجات العربية.

هناك عدة مشاكل تزداد بدل أن تنقص (بمقارنتها الآن في عام ٢٠١٠ بما كانت عليه في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي) ومنها تراجع اهتمام الباحثين العلميين العرب بلغتهم العربية. ونصادف مثل هذا التراجع، حتى في حالات مقدرة وكفاءة هذه اللغة على التعبير عما يريدون قوله أو كتابته. لأننا في حالات عجز اللغة كنا قد بيّنا الطريق. أما في هذه الحالة الأخيرة فنحن لم نعالجها بعد. مشكلة انحسار اللغة حتى في تلك الحقول القادرة

Twitter: @ketab_n

على تغطيتها. هذه مصيبة تكمن في أن بعض الباحثين والكتاب والأساتذة قد يكونون من أبرع العلماء في علومهم الطبية، الكيميائية، الإلكترونية... إلخ. لكن لغتهم العربية ركيكة واجتهاداتهم في التفتيش، ما إذا كانت هذه اللغة قادرة على التعبيرعما يريدون أم لا، قليلة. ويبدو للمرء أنهم في غربة نفسية تحولهم إلى لا مبالين. وهذه الظاهرة المرضية تنتشر ليس فقط في مجال العلم والأدب والسياسة، إنما تنمو كالسرطان في كل أطراف جسم اللغة. فأنت ترى كتّاباً وكاتبات، ممثلين وممثلات، مهندسين ومهندسات مذيعين ومذيعات... إلخ. يفتخرون سراً، وبحمق واضح على وجههم، باستعمالهم كلمات إنكليزية أو فرنسية في مسار جملتهم، يحشونها بتصنع حتى ولو كانت الكلمة من أكثر الكلمات العربية توفراً ودقة وحضوراً في حياتنا. ما هذه الثقافة المهزومة التي لم تعد الكتابة والكلام بلغتها العربية مدعاة للفخر بل العكس. وصار كل مدعٍ البحث العلمي يفتح قوسين بعد أي كلمة تعن على باله ليكتب لنا مقابلها في الإنكليزية، الفرنسية وأحياناً الألمانية. يدخل الكاتب ذلك ليزيد مظهر العلمية لمقاله الضعيف وليبرهن لقرائه مدى خوضه في غياهب العلم الأوروبي وتمرسه فيه، وهو في أوروبا نكرة بطربوش أحمر مضحك. لأن مثل هذا العويلم يهرج بمحاولة إيهامه القارئ أو القارئة أنهم، دون معرفة اللغة التي يضعها بين قوسين، لا يمكن لهم أن يفهموه، وما يدل عليه هذا إنما هو جهله.

Twitter: @ketab_n

وهنا لا بد من طرح السؤال التالي: هل يعلم هذا الكاتب أو الباحث أنه يُعقِّد ما يقوله على القارئ أم أنه لا يعلم؟ إذا كان يعلم فالتفسير الأقرب للمنطق أن هذا العويلم مصاب بعقدة أو عدة عقد نفسية تجبره على الإعتقاد أنه بهذا يستطيع إخفاء قزمية حجمه خلف أوداجه المنتفخة. هذه الحالة رغم أهميتها تظل فردية وقد تصلح كموضوع لمسرحية فكاهية، لكن الأهم هي الحالة الثانية: أن هذا الكاتب، الممثل، المهندس، المذيعة، السياسي، أستاذ المدرسة، الشاب المراهق، الصحفية، الطبيب و... كثيرين آخرين يفعلون ذلك دون قصد أو وعي، وفي هذه الحالة فالأمر ظاهرة إجتماعية مرضية ناتجة عن تبعية المهزوم للمنتصر. وهذا ما عرّفه شيخ المؤرخين إبن خلدون حيث كان عنوان الفصل الثالث والعشرين من مقدمته الشهيرة: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»، ويشرح في هذا الفصل باختصار مصدر التبعية ويلحقه بفصل، يصلح عنوانه لأن يكون صرخة تحذير: «في أن الأمة إذا غُلِبَت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء»، رحمك الله يا ابن خلدون.

فعلى عكس الإستعمار العسكري لا يهدف الإستعمار الحضاري الثقافي إلى إفناء الشعب جسدياً وحتى «ليس من الضروري أن تؤدي الهيمنة الثقافية إلى إزالة الثقافات المحلية كلية من الوجود، بل يمكن أن يعني ذلك احتواءها واستتباعها»[1] وأول ما تحتوي

---

(١) غليون، برهان، إغتيال العقل، دار التنوير، بيروت ١٩٨٥، ص١٢٩.

Twitter: @ketab_n

الثقافة المنتصرة وتسيطر عليه هو عقل «النخبة» أو تلك الفئة التي تهيمن بقوة السلاح على السلطة وأدواتها الإعلامية والثقافية وإن كانت ليست بالضروري نخبته بل من أكثر أفراده أمية. فتوهمها مثلاً أن التسلح هو الطريق الوحيد للعزة وأن إعلان الحروب وخوضها هكذا حتى دون مبرر هو المجد الذي حلم به هذا القزم (مما يفترس ميزانية البلد). وتتغلغل الثقافة المهيمنة للحضارة المنتصرة عبر هؤلاء وأجهزة إعلامهم في كل مرافق حياة المجتمع المهزوم وتطارد الشعب بإيدولوجيتها حتى غرفة نومه وبوسائل لا تحميه منها حتى أميته (عبر أجهزة التلفزيون والمذياع التي تصل أقصى قرية منعزلة وتربطها بحبل التبعية الفكرية والثقافية) وعبر هذه الأجهزة تغسل الحضارة المسيطرة أدمغة النخبة والعامة لتملأها بجديد من إنتاجها هي. وما هو هذا الجديد الذي تبذره الحضارة المسيطرة في أرض الحضارة المهزومة؟ بالتأكيد ليس ما نطق به فلاسفتهم وعلماؤهم بل مشتقات بسيطة البنية غبية المحتوى سهلة الهضم حتى للأميين، تظهر وكأنها ثقافة (كما يظهر ماكدونالد وكأنه وجبة شهية) وهي تمويه لا أكثر لانحطاط.

وقد عالج المفكر والباحث مصطفى حجازي هذه الظاهرة من الناحية النفسية والثقافية في كتابه الهام «التخلف الإجتماعي»، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور قبل أكثر من ثلاثين سنة، كما ذكرنا أعلاه، وتابع هذا التحليل الدقيق في كتابه اللاحق «الإنسان المهدور»، ليبين مدى فداحة الخسارة الناتجة عن هدر

Twitter: @ketab_n

الفكر. لا يسعنا هنا في هذا الإطار المحدود، الذي نذكر فيه التخلف كأحد أسباب تقليدنا الأعمى للثقافات التي هزمتنا، إلا أن نوصي كل من لم يقرأ مصطفى حجازي أن يقرأه حتى ولو تطلب ذلك شجاعة. وبرأيي يتابع مصطفى حجازي وبطرق حديثة جداً التراث التنويري في المجتمع العربي مستنداً إلى أبحاث ميدانية ورصانة في أسلوبه العلمي.

حجر الأساس لكل ما هو قادم يوضع في المدرسة

الكل متفق على أن الأكاديميين الشبان هم عماد المستقبل. فلاسفته، أطباؤه، سياسيوه ومعلموه. وبالتالي فإن تربيتهم العلمية الخاطئة الآن سيكون لها تأثير سلبي يمتد إلى المستقبل ويصعب مكافحته. ولذلك لا بد من حل آني لهذه المشكلة في جامعاتنا.

لكن الحل الأكثر جذرية هو بالتوجه لتلميذات وتلاميذ مدارسنا، فهناك يكمن الحل، علينا أن نبدأ من هناك بتقديم برنامج شيِّق ليجدوا فيه وعبره لذة كبيرة في القراءة. وهذا بدوره يتطلب شجاعة كبيرة من المسؤولين في وزارات التربية والثقافة لإعادة النظر ببرامج التعليم عامة وبمواد وبناء برنامج اللغة العربية خاصة، وصرف أكبر ما يمكن من الإهتمام في تأهيل المعلمين لهكذا مهمة ثقافية صعبة. لأنه لو افترضنا أن مقدرة المعلم اللغوية عالية (وهذا ما أشكك به في أغلب مستويات التعليم الإبتدائية والإعدادية المتوسطة) فإن غالبية المعلمين لا تعرف وسيلة لنقل ما تعلمه إلى غير العالمين به. فأنا أعتقد أن أغلب معلمي العربية للمرحلة الأخيرة في المدرسة (تسمى

Twitter: @ketab_n

في بعض الأقطار المرحلة الثانوية) يمتلك التأهيل الجامعي وموهبة وحتى مراس كتابة الشعر والنثر الجميل لكنه لا يملك مؤهلات تربوية متقدمة تناسب تطلعات الشبيبة التي يعلمها والمضطربة في تلك المرحلة نتيجة فوضى الهرمونات. وفي هذا الوضع يكون من المميت لكل لذة أدبية أن يأتيك أحدهم ويعامل هؤلاء التلاميذ والتلميذات وكأنهم أطفال عند شيخ في القرن الماضي يصر على حفظ الأشعار بصماً ويهين من لا يستطيع ذلك بعنهجية إلقاء لأشعار وقصائد من القرن الأول أو العاشر للهجرة. وفي هذا الصدد ينتقد المفكر المصري زكي نجيب محمود بشدة ما نكتبه ونقرأه لأنه يعنى بالصوت بدل المحتوى ويتابع: «إن شئت فاستمع إلى التلاميذ في مدارسهم وهو «يطالعون»، المطالعة شيء من الخطابة، وبذلك يتعاون المكتوب والمقروء على الإيحاء بأننا ـ إذ ندخل في اللغة ـ فإنما ندخل عالماً مسحوراً لا عالماً مألوفاً.... الفجوة فسيحة فسيحة فسيحة (هكذا ثلاث مرات بالأصل!!!) بين دنيانا الفكرية كما يصورها لنا الكاتبون، وبين خبراتنا الشعورية كما يكابدها المكابدون، ليست تلك من هذه، ولذلك لا يقرأ منا أحد مقالاً أو كتاباً، إلا ويحس كأنما خرج من نفسه ليتقمص أنفساً أخرى ليست هي أنفسنا، إنما هي أنفس الذين ننقل عنهم إذا نقلنا، أو يحس كأنما خرج من نفسه ليدخل في مجموعة نغمية تقصد أجراسها إلى الآذان ولا تقصد إلى العقول أو القلوب، وليس ببعيد عن ذاكرتنا ما كان يحدث بصغار الأطفال في الكتاتيب، حين

Twitter: @ketab_n

يطالبون بحفظ أجزاء من القرآن الكريم، فلا يحفظون إلا نغماً صوتياً، لا يدركون من معناه ذرة، وإني لأخجل أن أقول عن نفسي كم عاماً مضى من عمري قبل أن أتبين تفصيل المفردات التي ركبت منها آيات حفظتها صغيراً»[1]؟

الطريق الصحيح هو تقريب الطلاب من لغتنا الجميلة وليس إخافتهم بها وكأنها فزاعة. الأستاذ الذي يصر على التلقين وحفظ البصم يبني للغة صرحاً عالياً يصعب اقتحامه ويهزم به هؤلاء الأحداث، بينما يمكن بنصوص مثيرة لدهشتهم، محركة لفضولهم تأخذهم بيدهم إلى باب ليدخلوا عبره إلى بيت جميل مليء بالألوان هو بيت اللغة. هذا هو الفرق، وهنا يقع واجب كبير على كاهل الوزارات أن تتجرأ على ما أدعوه «التجديد الدائم» لتواكب عصراً يتجدد بسرعة مذهلة.

من أهم الفوارق بين منهج مدارسنا ومنهج مدرسة أوروبية متقدمه هو ما عشته عن قرب لمرافقتي لإبني في حياته الدراسية. فالمعلم هنا لا ينزع للإلقاء والشرح المستفيض من جانب واحد بل يدفع تلاميذه وتلميذاته للمشاركة الفعالة حتى في إلقاء درس كامل عن موضوع أدبي وعلمي. وهذا لا يعني كما سيظن بعض قرائي أن الأستاذ ينام قرير العين، كبير الكرش، ويترك الأطفال يعملون بدلاً عنه، بل على العكس عليه التحضير المضاعف للحصة لأن الطلبة

(١) محمود، زكي نجيب، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ١٩٧١، ص٢١٩.

Twitter: @ketab_n

الصغار قد يأتوا بفرضيات مثيرة وجميلة لكنها خاطئة (خاصة وأن أكثر التلاميذ يستنجدون بالإنترنت والويكيبيديا وهي ليست موثوقة تماماً) وعليه بصبر ودراية وعمق في المادة المطروحة أن يشرح أين الخطأ وقد أخبرني أحد أفضل المعلمين أن مثل تلك الحصص تتطلب منه أضعاف العمل الذي يتطلبه الإلقاء. مثل هذه الطرق تزيل شيئاً من الرهبة التي يشعر بها تلاميذنا أمام المعلم دون أن تنقص احترامهم له. وعندما يكون على كل مجموعة من التلاميذ (٢ ـ ٣) أن تلقي محاضرة مشتركة عن موضوع يبتعد الأستاذ عن المنصة ليجلس بين التلاميذ، يتعلم هؤلاء المحاضرون الصغار شيئاً فشيئاً أهمية الكلمة وحساسيتها، ويتمرسون باستعمالها ويراقبون ناقدين كيف يقوم الآخرون بذلك، مما يقوي قدرتهم اللغوية وحسهم النقدي، بينما لا يتجرأ إلا قلة شجاعة من التلاميذ العرب على انتقاد أستاذ لهم كما شرحنا أعلاه، بل يغتابونه ويضحكون عليه وراء ظهره.

هذا عن الطريقة ولدينا نفس الشعور بما يتعلق بالنص. فهنا يتماهى نص التلميذ الألماني بحيوية مع ما يشاهده ويعيشه هذا التلميذ الصغير. فهو يتحدث عن محيطه بلغة حديثة سهلة التركيب والفهم قليلة التحريض والتعقيد بوشائج تفترض الحفظ الببغائي أو معرفة عالم في التاريخ. فما معنى «أمير المؤمنين» لطفل يعيش في دمشق او القاهرة في وقتنا الحاضر؟ بالطبع لا معنى لها، مما يجبر التلميذ على الحفظ ليلقي ذلك كالببغاء حين يطلب منه الأستاذ

Twitter: @ketab_n

ذلك، وهذا بدوره يكافىء انصياع التلميذ لأوامره بحفظ كل ما لا يفهمه. والحفظ ممل، وبالتالي الخاسر هو الأستاذ، لأنه فشل في تربية الطفل، والخاسر هو الطفل وعائلته والوطن برمته. مَنِ الرابح إذاً في هكذا نظام تعليمي؟ التأخر؟ الخمول؟

كنت طالباً في جامعة دمشق في مطلع الستينيات، ودرست الكيمياء والفيزياء والرياضيات، وجامعة دمشق متقدمة، لكنها لم تعن إطلاقاً بقدرة الطلبة اللغوية (خاصة العربية) في الفروع العلمية. لنأخذ كمثال المعاجم العلمية التي أضنى المترجمون والمفكرون واللغويون في المجامع العلمية أذهانهم لتأليفها. ما فائدتها إن بقيت في خزانات الكتب كأنها تحف أثرية؟ ما مدى استعمال الطلبة لها؟ ٠ ٪ أو أكثر بقليل؟ ولماذا؟ كيف لهؤلاء أن يعلموا ما معنى هذه الكلمات الإنكليزية بالعربية؟ كيف لهم أن يعلموا أن الكثير منها معروف منذ القدم أو معرّب بفضل جهود المعجميين منذ القرن التاسع عشر؟ ما العائق الذي يقف في وجه تخصيص ساعة معجمية لكل فروع الدراسة الجامعية في الأسبوع، يتعلم فيها الطالب التعامل مع المعجمات والعمل بها؟ وهل يعلم القائمون على أمور التربية الكم الهائل للفوائد التي يجنيها الطالب من العمل بالمعاجم بسن مبكرة في جامعته؟

هل يعلم ٩٠٪ من الطلبة الجامعيين مقدار اللذة في التفتيش عن كلمة في موسوعة؟ كم من مرة شردت وغصت في عالم الكلمات وتنقلت من كلمة لكلمة ومن مصدر وجذر إلى آخر ولم أعد للذي

Twitter: @ketab_n

بحثت عنه إلا بعد ساعات وقد ملأت حقيبتي الذهنية بتعابير ومعلومات جديدة.

بدل ازدياد استعمال العربية عند الطلبة وأساتذتهم الجامعيين يزداد استعمال اللغة الإنكليزية خاصة في الفروع العلمية مما يزيد من تبعيتنا ويعيق حركة الترجمة والتأليف ويخفض وزن العربية بين لغات العالم. تعلم وإتقان لغة أجنبية نعمة لكنه يصبح نقمة إن كان على حساب لغتنا الأم. ويجيب من تسأله عن ذلك متذرعاً بما يعتقده حبل الخلاص (اللغة الإنكليزية) وعندما تقنعه أنه لا مانع من إتقان الإنكليزية وبشكل رائع لكن علينا استعمال العربية في كل مرافق العلم والفلسفة والإقتصاد إلخ لأن هذا الإستعمال اليومي هو وحده وليس قرارات مؤتمرات الجامعة العربية الذي يهيء هذه اللغة لتحتوي كل كلمات العصر، يعود ليقول لك إنه لا حول له ولا قوة بدون خبراء يتكلمون الإنكليزية. حسناً، يمكن تعزية النفس بالقول إن هذا الأكاديمي أو ذاك الدبلوماسي ضعيفي النفس. لكن المسألة أعمق من ذلك. في إمارات الخليج مثلاً لا حصراً، وهي في هذا الوقت أكثر المناطق العربية تطوراً وديناميكية، تسيطر لغة العمال الأجانب على الشارع والسوق والبنك في بلد عربي، بدل أن يتعلم هؤلاء اللغة العربية في بلد مصدر رزقهم. هذه كارثة وسببها بسيط جداً: كيف للغريب أن يحترم لغتنا ونحن لا نحترمها؟»[1].

---

(١) أنظر للمزيد نقد فادي عزام: «الانكليزية (بلكنة هندية) للتعاملات، والاوردية للشارع»، القدس العربي ١٨ ـ ٣ ـ ٢٠١٠.

Twitter: @ketab_n

ماهي الخطوات التي قامت على مدى الأربعين سنة الماضية وما الذي أثمرته في العمل المعجمي؟

بدأ العرب بالترجمة منذ عهود غابرة وتقدمت الترجمة في العهد الأموي وبلغت قمتها في القسم الأول من الخلافة العباسية لتتراجع في القسم الثاني ولتخبو شيئاً فشيئاً إلى أن تقارب الصفر في عصر الإنحطاط ولتزدهر مجدداً في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ولتصل إلى قمتها في القرن العشرين.

هناك محاولات قديمة وأعمال معجمية جديدة كثيرة جادة وخيرة في تأليف المعاجم العلمية المتخصصة التي تضمن ترجمة سلسة قابلة للقراءة. ويزداد عدد الترجمات والمترجمين بازدياد حاجة مجتمعنا لهذه النصوص للتقدم. لكن الوضع الثقافي العربي لا يزال منقسماً على نفسه، فردياً، أهوائياً ولا زالت كل كلمة من أصل لاتيني تحصل على عدة مرادفات تزيد في التشويش بدل الإيضاح. والوضع الثقافي في ربوعنا التي تتكلم لغة واحدة أسوأ بكثير من تواصل وتنظيم الثقافة بين دول غربية كدول السوق الأوروبية. هناك ترى التنسيق ولدينا كل يترجم على هواه ولا يأبه أن هناك معجم موحد وأنه من الأفضل تقديم كل اقتراح نقدي، تكميلي، تجديدي لهذا المعجم ليصبح استعماله شيئاً فشيئاً شامل ومحتواه دقيق ومرجعيته عالية. بدل ذلك يصنع كل قاموسه بنفسه ويلصقه في نهاية كتابه وكأنه يريد اكتشاف أمريكا للمرة العاشرة.

Twitter: @ketab_n

الترجمة كما قلت أعلاه عملية صعبة بحد ذاتها، ونحن نطيل الطريق بدل تقصيره نحو هدفها إن ظللنا نصارع كل لوحده على جبهة وهمية نبنيها لأنفسنا لكي نصبح أبطالاً على الأقل في أعيننا.

وما ينطبق على العلوم ينطبق على الفلسفة والأدب والإقتصاد... إلخ. فبدل عشرة معاجم تعالج بشكل تقريب فرع من فروع الفكر، يا ليتنا ننجز معجم واحد لكل مسألة تصب فيه كل جهود اختصاصيي هذا المجال... وكم من مؤلّف يدّعي معرفة عدة علوم وفنون ويؤلف ويقترح مصطلحات متعامياً عمن سبقه ولا يدري أنه بذلك لا يحتقر الآخرين بل يُقزِم نفسه وهذا الفن الذي أراد خوض غماره.

مسألة المعاجم حساسة، حساسة وخطيرة للغاية، وصار تنظيمها من أكثر المسائل إلحاحاً، لأن تدفق المصطلحات الجديدة لا يأخذ خطواتنا السلحفاتية بعين الإعتبار، ولذلك يتعين على وزارات الثقافة والتربية والتعليم أن تتفق ولو لمرة واحدة في تاريخها الحديث أن تعتبر هذه المعاجم من أولى واجباتها الرسمية، لا أن تتركها للأفراد مع احترامي لكل هؤلاء المجتهدين الذين أمضوا ويمضون الأيام مفتشين ومنقبين عن أجمل تعبير وكلمة ليزيدوا بها معجمهم. العمل المكثف الجماعي المنضبط بقواعد منهجية ثابتة والديناميكي الذي يجدد نفسه بين الفينة والأخرى، ليظل كتفاً إلى كتف مع التقدم، هو الحل الوحيد. هكذا صنعت الشعوب التي نهضت، وهكذا علينا أن نفعل إذا أردنا النهوض.

Twitter: @ketab_n

هناك محاولات جدية أثمرت في التقارب بين الدول العربية لإزالة التناقض في المعاجم المستعملة كما جرى في المعجم العسكري الموحد، والمعجم الطبي الموحد والمعجم الموحد للمصطلحات الفنية للهندسة والتكنولوجيا والعلوم. وتبعه معجم صغير موحد لاقتصاديات الطاقة، ومن سوريا معجم المصطلحات العلمية والتقنية في الطاقة الذرية كما أصدر معهد الإنماء العربي عام ١٩٨٥ معجم ضخم لمصطلحات العلم والتكنولوجيا وهو ترجمة للمعجم العالمي (ماكروهيل) بأربعة أجزاء (٤٨٤٩ صفحة) إستفاد الخبراء في ترجمة هذا المعجم من الخبرة المتراكمة.

ومن المفيد أن نلقي نظرة على منهج هذا المعجم وهو بشكل أو بآخر تلخيص جديد لكل ما أسلفناه من ضرورات توحيد المناهج. فقد أصدرت ندوة خاصة للترجمة العلمية العربية عقدت في نهاية حزيران ١٩٧٩ التوصيات التالية الجديرة بالذكر لكي لا تذهب الجهود كما ذهبت غيرها قبلاً بدون ثمار، وترتبط هذه الإقتراحات بمنطق سليم لتوحيد الإستعمال، يعطي للقارئ تصوراً واضحاً عن الطريق الواجب اتباعه:

أولاً: توصيات عامة:

أل (التعريف):

الأصل هو تنكير المدخل، ولا تستعمل (أل) التعريف إلا في حالات محددة مثل أسماء العلوم، الفيزياء والكيمياء... وما شابه ذلك من الأمور المحددة بذاتها.

Twitter: @ketab_n

المصطلحات متعددة الهجاء:

في حالة المصطلحات متعددة الهجاء، مثل مغنطيسية ومغناطيسية أو أكسجين وأكسيجين، يختار المصطلح ذو الأحرف الأقل والأقرب إلى الذوق وسهولة النطق، فيقال: مغنطيسية، أكسجين، ويراعي شكل المداخل عند وجود لُبس أو شك في نطقها.

المداخل أو المصطلحات الأجنبية غير الدقيقة:

المداخل أو المصطلحات التي لها معنى أو مدلول علمي، إلا أنها هي ذاتها ليست مصطلحاً علمياً، بل قد تكون مأخوذة عن اللغة العامية أو الدارجة الخ مثل هذه المصطلحات تترجم لاعطاء معناها أو مدلولها العلمي، بصرف النظر عن ترجمتها الحرفية، مثال ذلك (go devil) في الهندسة لها معان مختلفة منها (زحافة) و(عربة شغل حديدية).

أسماء الأجهزة العلمية وما أشبه:

الأصل هو ترجمة أسماء هذه الأجهزة، وليس تعريبها، ولا بأس من إيراد اسمها المعرب إذا كان شائعاً أو يتردد بتراكيب فيها استعمال الاسم العربي المترجم. وتراعى في ترجمة هذه الأسماء البادئات واللاحقات الموحدة بقدر الامكان.

وهناك أسماء انكليزية ضخمة ومركبة لبعض الأجهزة العلمية نظراً لتأليفها من مقاطع متعددة قد يكون بعضها من أصل لاتيني وأصبح مع الوقت جزءاً لا يتجزأ من المصطلح ذاته، بحيث صار من العسير فصلها عنه لذلك ونظراً لوثوق الصلة بين هذه المقاطع

Twitter: @ketab_n

بعضها من بعض، عمدنا إلى تقسيم المصطلح إلى مقاطع ووضع المقابل العربي لكل مقطع على حدة مع الاستعانة بالشرطات للحفاظ على وحدة الاسم والمعنى، ويوضح المثال التالي بالتفصيل هذه المنهجية، لو أخذنا المصطلح bathycanductograph نجد أنه مؤلف من ثلاثة مقاطع وهي Bathy-canducto-graph والمقابل العربي لكل منها هو عميق أو عمق لـ (bathy)، وناقلية لـ (canducto) وراسم لـ (graph) فتصبح ترجمة المصطلح هي: (راسم ناقلية العمق)، وهو الذي أخذنا به من المعجم.

الأساليب المنسوبة إلى أصحابها أو مخترعها:

مصطلحات الأساليب العلمية سواء كانت (طريقة أم اختياراً أم عملية...الخ) تترجم كما هي، أي اسم الأسلوب منسوباً إلى مخترعه، دون أي فواصل أو أقواس بينهما، مثال ذلك: دورة أوتو، محرك ديزل، نافخة، روتس... الخ.

وإذا كان الأسلوب مكوناً من كلمتين، منسوباً إلى صاحبه أو مخترعه، فيفضل ورود اسم الأسلوب أولاً ثم ينسب إلى صاحبه.

ويعرّب اسم المخترع كما ينطق في الأصل، مع مراعاة سهولة النطق، وفي حالة عدم ورود اسم المخترع في المدخل، أي وروده في التعريف فنفضل كتابة اسمه الأجنبي.

ومن أمثلة ذلك: (Aero Code) و(Api Scale) تركت هذه الرموز دون ترجمة فهذان المصطلحان يترجمان هكذا: سلّم (Api) وكود (Aero).

Twitter: @ketab_n

المداخل ثلاثية أو رباعية الكلمات:

يراعى بقدر الامكان في ترجمة مثل هذه المداخل أن تلحق الصفة بالموصوف مباشرة، وبخلاف ذلك تترك الترجمة لتقدير المترجم واختيار المصطلح الأدق والأصلح.

مثال ذلك: يقال: مقياس التيار ـ المتكامل، إذا كان المتكامل صفة للتيار، أما إذا كان صفة للمقياس فيقال: المقياس المتكامل للتيار، فإذا تعذر يلجأ للشكل.

الهجاء الأمريكي والهجاء الانكليزي:

لما كان معجم (ماكروهيل) مكتوباً باللغة الأمريكية، التي قد يختلف هجاء بعض كلماتها عن هجائه في اللغة الانكليزية مثلاً color الأمريكية و colour (الانكليزية) يراعى إبقاء الكلمة على هجائها الأمريكي، حفاظاً على نص المعجم، ومراعاةً للترتيب الأبجدي للمدخل.

الوحدات المترية والوحدات البريطانية:

القاعدة الأصلية هي إيراد الأبعاد والمقاسات وغيرها بالوحدات المترية في الترجمة العربية للمعجم. وإذا كانت هذه الأبعاد معطلة بالوحدات البريطانية في المعجم (الميل، الياردة، القدم، الإنش.. الخ). فتترك كما هي، مع استهداف ترجمتها إلى قيمها المترية المناظرة، وإذا كان المدخل قد أرفق به رسم بياني أوتخطيطي بالوحدات البريطانية، فيترك الرسم على أصله، تحاشياً للأخطاء أو التعقيدات.

Twitter: @ketab_n

ثانياً: البادئات واللاحقات:

- اعتماد ما وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة في اتباع مبدأ عام مفاده أنه:

بقدر ما يجب ترجمة البادئات واللاحقات اليونانية واللاتينية إلى العربية في معظم العلوم، يجب أن تعرّب بحذافيرها في بعض فروع العلوم، لا سيما الكيمياء.

- يرجح الأسهل نطقاً وكتابة في البادئات واللاحقات المعرّبة عند اختلاف نطقها في الانكليزية والفرنسية مثل (Hydro) يفضل تعريبها هيدرو (وليس هايدرو).

وكذلك يقال (كلوريدات) وليس (كلورايدات).

- اعتماد ترجمة واحدة أو تعريب واحد لنفس اللاحقة أو البادئة في التخصص الواحدة كلما أمكن ذلك.

- اعتماد ترجمة واحدة أو تعريب واحد لنفس اللاحقة أو البادئة في جميع العلوم كلما أمكن ذلك، على أن يوافق الذوق ولا ينفر منه السمع.

ثالثاً: الرموز وملاحق المعجم:

- كتابة الرموز بالأحرف اللاتينية في متن المعجم وادراج مقابلاتها العربية في ملاحق المعجم.

- كتابة المعادلات من اليسار إلى اليمين وبالأحرف اللاتينية.

- اعتماد الأرقام العربية واستبعاد الأرقام الهندية.

Twitter: @ketab_n

رابعاً: المصطلحات الأساسية:

نظراً لما تشتمل عليه التعريفات العربية من مصطلحات أساسية يكثر ورودها في مختلف التخصصات وقد تكون مدخلاً أصيلاً في تخصص معين يصعب على القارئ الوصول إليه أو يصعب عليه فهمها، لذلك ستلحق بالمعجم قائمة (عربي ـ انكليزي) بهذه المصطلحات الأساسية حتى يمكن أن يرجع إليها القارئ لمعرفة المقابل الانكليزي للمصطلح العربي، وبالتالي يمكنه الرجوع إليه كمدخل معرف يستوعب معناه ويتفهم مدلوله[١].

وهناك أمثلة عديدة جيدة وجادة للتقارب في المعاجم. فمثلاً الأسس التي جرى عليها العمل في اختيار المصطلحات في المعجم الطبي العربي الموحد وهو ما سيتكرر في كثير من المعاجم الموحدة اللاحقة:

١. استعملت كلمة عربية واحدة مقابل التعبير الأجنبي، ولم تستعمل المترادفات إلا فيما ندر، وبذلك يتحقق توحيد المصطلحات.

٢. استعملت الكلمات العربية المتداولة أو التي سبق أن استعملها الأطباء العرب الأقدمون، إذا كانت تفي بالغرض العلمي، ولكن تركت الكلمات الدخيلة التي وجد ما يقابلها في العربية، وأخذت اللجنة بنظر الاعتبار المصطلحات التي وضعتها المجامع أو اللجان أو العلماء.

---

(١) زركان، محمد علي، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٨، ص٢٧٩ ـ ٢٨٤.

Twitter: @ketab_n

٣. وإذا كان كثير من المصطلحات العلمية متعددة الأصول فقد كان لزاماً أن تلجأ اللجنة إلى اختيار معنى واحد من المعاني العديدة التي وضعتها معاجم اللغة للفظ العربي الواحد، وأن تلجأ إلى المجاز في استعمال الألفاظ بتخصيص معناها العام، أو تعميم معنى مجاوز لمعناها اللغوي أو نقلها إلى مدلول آخر أدق، فصار لما يظنه البعض ألفاظاً مترادفة مدلولات معينة مختلفة.

٤. استبعدت الكلمات الدخيلة الأجنبية المعربة إلا إذا كانت اسم شخص أو مشتقة من اسمه، أو كانت مستعملة في لغات متعددة، ولم يمكن الوصول إلى مقابل لها، فبقيت لتبدل فيما بعد.

٥. تثبيت سوابق ولواحق تم الالتزام بها وذكرت في أول المعجم مع تفضيل الصيغ الثلاث المختصرة، واستعملت صيغ عربية سبق استعمالها في الطب، والقياس على ذلك مثل صيغ فُعال وفَعَل وفَعُول.

٦. فضل الاطراد والانسجام في استعمال الكلمات والصيغ على استعمال ألفاظ معجمية خارجة عن الانسجام لا يسهل حفظها وتداولها، وابتعدت اللجنة عن الألفاظ الوعرة ما أمكن.

٧. جرى التصرف في صيغ النسبة للتمييز أو منع اللبس فقيل بيضي وبيضوي وبيضاوي أو بيضاني كما نسب للمفرد وللجمع فقيل جرثومي وجراثيمي.

Twitter: @ketab_n

٨. لم تلجأ اللجنة إلى النحت أو التركيب إلا فيما ندر، كأن تكون الكلمة قد شاع استعمالها أو تكون اللفظة مقبولة مفهومة، أو في النسبة مع اتباع القواعد والضوابط المقررة.

٩. كثيراً ما يعبر عن المفهوم الواحد في اللغات الأجنبية بمصطلحات متعددة مترادفة، ومرد ذلك في الغالب إلى أسباب تاريخية، ولما كان وضع المصطلحات العربية الآن قد تجاوز هذه المراحل التاريخية، فقد اقتصرت اللجنة على ترجمة واحد من هذه المترادفات لا غير هو أصلحها لتأدية المعنى بمصطلح عربي واحد يوضع في مقابلها جميعاً، مع الإشارة بجانب المترادفات الأخرى إلى التعبير الذي اتفق على ترجمته بوضعه بعد علامة المساواة (=) بين قوسين.

١٠. ضبطت الكلمات العربية بالشكل ضبطاً كاملاً، ووضع جمع الكلمة بين زافرتين () مسبوقاً بحرف (ج:) كما وضع المفرد أو المثنى أو المؤنث أحياناً بين الزافرتين مسبوقاً بحرف (ف:) أو (ث:) أو (م:) على التوالي.

١١. أضيف إلى المعجم العديد من الصور التوضيحية، زيادة في الايضاح، وتثبيتاً للمصطلحات وتعميماً للفائدة من المعجم[١].

وحدث في مجال التنسيق أهم تطور منذ قرون وذلك بتأسيس

---

(١) زركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث...، ص٢٦٨ ـ ٢٧٠.

Twitter: @ketab_n

«مكتب لتنسيق التعريب». لكن أرجو من قرائي ألا يتنفسوا الصعداء ارتياحاً لهذا الإنجاز العظيم بل ليصبروا وليعلموا مقدار تأخرنا وما مصير كل خطوة رائعة كهذه.

جاءت فكرة إنشاء مكتب تنسيق التعريب، بهدف خلق جهاز عربي متخصص، يُعنى بتنسيق جهود الدول العربية في مجال تعريب المصطلحات الحديثة، والمساهمة الفعالة في استعمال اللغة العربية في الحياة العامة وفي جميع مراحل التعليم وفي كل الأنشطة الثقافية والعلمية والإعلامية، ومتابعة حركة التعريب في جميع التخصصات العلمية والتقنية. وقد اقتنعت الدول العربية (أخيراً) بدور هذا الجهاز وبأهمية أحداثه، فانعقدت ـ تنفيذاً لتوصيات مؤتمر التعريب الأول الذي التأم بالرباط سنة ١٩٦١ ـ الدورة الأولى لمجلسه التنفيذي بالرباط في ١٩ فبراير ١٩٦٢، ثم ألحق بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية في مارس ١٩٦٩. وعند قيام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كوكالة متخصصة في نطاق جامعة الدول العربية في يوليو ١٩٧٠، أُلحق بها هذا الجهاز في أيار (مايو) ١٩٧٢، وكان يسمى آنذاك (المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي)، وتم إقرار نظامه الداخلي من قبل المجلس التنفيذي للمنظمة في دورته الثامنة المنعقدة بالقاهرة من ٢٧/ ١ إلى ٣/ ٢/ ١٩٧٣. ينفرد مكتب تنسيق التعريب باختصاصات هامة أنشئ من أجلها وفق أنظمة ولوائح متعاقبة، كان آخرها نظامه الأساسي الذي

Twitter: @ketab_n

صدر سنة ١٩٧٣، والذي حدد أهداف المكتب في ما يلي:

أ ـ تنسيق الجهود التي تبذل للتوسع في استعمال اللغة العربية في التدريس بجميع مراحل التعليم وأنواعه ومواده، وفي الأجهزة الثقافية ووسائل الإعلام المختلفة.

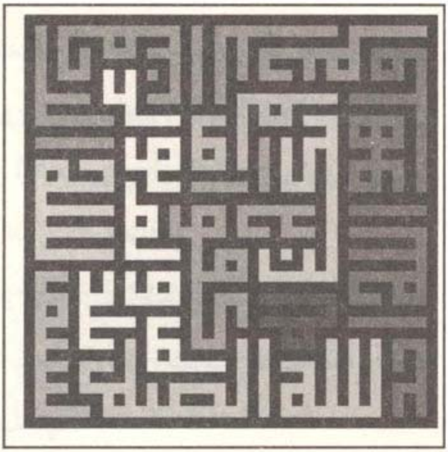
ب ـ تتبع حركة التعريب وتطور اللغة العربية العلمية والحضارية في الوطن العربي وخارجه بجمع الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع ونشرها أو التعريف بها.

ج ـ تنسيق الجهود التي تبذل، لإغناء اللغة العربية بالمصطلحات الحديثة ولتوحيد المصطلح العلمي والحضاري في الوطن العربي بكل الوسائل الممكنة.



صورة لصفحة مكتب تنسيق التعريب التابع للجامعة العربية ومقره في الرباط (المغرب) في الإنترنت

Twitter: @ketab_n



د ـ الإعداد للمؤتمرات الدورية للتعريب. يقوم مكتب تنسيق التعريب بجهود كبيرة، لكنها تبقى غير كافية، وعلى سبيل المثال واعتماداً على نشرية صادرة عن مكتب تنسيق التعريب، عربت ووحدت مصطلحات علمية من علوم مختلفة:

- فمن سنة ١٩٧٣ إلى سنة ١٩٨١: عرب ووحد ٩٩٤.٥٩ مصطلحاً صدرت في معاجم متخصصة عن مكتب تنسيق التعريب، وهي في الحقيقة قوائم مصطلحات غير معروفة علمياً ونصها المعجمي العلمي يكاد يكون معدوماً.
- وفي سنة ٢٠٠٢ أصدر مكتب تنسيق التعريب ٢٩ معجماً معرباً موحداً، بل قوائم مصطلحات في ٢٩ علماً، تحتوي على ٩١٠.٨٢ مصطلحاً في ٢٩ علماً.

فلقد عرب مكتب تنسيق التعريب ووحد من ١٩٧٣ إلى ٢٠٠٢ ما قدره ٩٠٤.١٣٢ مصطلحاً، وضعها تحت تصرّف العلماء والأساتذة والطلاب والتلاميذ لتمكين العربية من مواجهة هجمة التحديات المحيطة بنا.

ويلاحظ من يتصفح موقع هذه المنظمة، فقر المنظمة، وفقر

Twitter: @ketab_n

صفحتها والتي لا تبلغ في مستواها مستوى شركة صغيرة تجارية، بدلاً من أن تكون على أعلى مستويات التقنية ومجهزة بكل الوسائل لتجذب أكبر عدد من المهتمين. ومن يقرأ قائمة إنتاجها يعجب لتوقف هذه المنظمة الهامة جداً عن العمل. فخلال سنوات قليلة أصدرت دار هذه المنظمة أكثر من ٢٥ معجماً موحداً كان من واجب الدول العربية تعميمها وفرضها رسمياً كمرجع أساسي. لكن الذي حدث هو عرقلة عمل هذه المنظمة وتوقفها شبه الكامل عن العمل والإنتاج.

من هذه المعاجم الموحدة نذكر لتبيان الخسارة التي لحقت الثقافة واللغة العربية نتيجة عرقلة عمل هذا المكتب.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

من إصدارات مكتب تنسيق التعريب الرباط المعاجم الموحدة

اسم المعجم	رقم المعجم	سنة الطبع	عدد المصطلحات
المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات	1	1989	3059
المعجم الموحد لمصطلحات الفيزياء العامة والنووية	2	1989	6318
المعجم الموحد لمصطلحات الرياضيات والفلك	3	1990	4074
المعجم الموحد لمصطلحات الموسيقى	4	1992	846
المعجم الموحد لمصطلحات الكيمياء	5	1992	4535
المعجم الموحد لمصطلحات الصحة وجسم الإنسان	6	1992	2146
المعجم الموحد لمصطلحات الآثار والتاريخ	7	1993	3018
المعجم الموحد لمصطلحات علم الأحياء	8	1994	6596
المعجم الموحد لمصطلحات الجغرافيا	9	1994	2701
المعجم الموحد لمصطلحات التجارة والمحاسبة	10	1995	8846

Twitter: @ketab_n

المعجم الموحد لمصطلحات الطاقات المتجددة	11	1996	1180
المعجم الموحد لمصطلحات التعليم التقني (كهرباء-طباعة)	12	1996	1383
المعجم الموحد لمصطلحات العلوم الإنسانية	13	1997	1740
المعجم الموحد لمصطلحات النفط (البترول)	19	1999	6089
المعجم الموحد لمصطلحات البيئة	20	1999	1747
المعجم الموحد لمصطلحات الهندسة الميكانيكية	21	1999	2828
المعجم الموحد لمصطلحات الفنون التشكيلية	22	1999	1524
المعجم الموحد لمصطلحات الإعلام	23	1999	3428
المعجم الموحد لمصطلحات التقنيات التربوية	24	1999	1314
المعجم الموحد لمصطلحات الأرصاد الجوية	25	1999	2031

كما أصدر المكتب مجلة اللسان العربي الدورية (نصف سنوية) التي تعنى بنشر الأبحاث اللغوية والدراسات المتعلقة بقضايا المصطلح والترجمة والتعريب، ومشروعات معاجم المصطلحات.

توقف المكتب عن العمل!!!

قائمة منشوراته تنتهي عند عام ٢٠٠١/ ٢٠٠٢ وصفحة موقعه توقفت منذ ذلك الحين دون تغيير وبثغرات لا تناسب منظمة تقوم بأهم عمل في تاريخ اللغة العربية الحديث. وما وصلت إليه من المعلومات مثير للقلق. الجامعة العربية وضعت يدها على المكتب وخربت أعماله، حولته لدائرة من دوائرها الكثيرة البيروقراطية. هادي العلوي يكتب في مقدمة عمله المعجمي: «وفي وقت متأخر ظهر مكتب تنسيق التعريب في الرباط وأصدر مجلة «اللسان العربي»... وقد تعرقلت أعمال المكتب فيما بعد بتأثير تدخلات

Twitter: @ketab_n

خارجية في بعض المجامع والمؤسسات الثقافية التي لم يرق لها ظهور مثل هذه المؤسسة. ويدل مصير هذا المكتب على صعوبة العمل العلمي النزيه في الأوضاع العربية الراهنة»[1]. في الإنترنت تعود كل المعلومات عن هذا المركز لعام ٢٠٠٢. آخر نبأ في موقع هذا المجلس يأتي هكذا منفرداً بعد انقطاع ويعود إلى خريف ٢٠٠٨ ليعلن عن صدور آخر عدد لمجلته «اللسان العربي» هو العدد ٦١ الذي صدر في ذلك العام. معلومات الموقع قديمة لا خبر فيها عن السنوات الخمس الأخيرة. كل الأسئلة الموجهة للمركز تظل دون جواب... بذلك يكون هذا الأمل الكبير قد تحول مثل آلاف المبادرات إلى قسم محنط من مومياء الجامعة العربية[2].

وقد قدم المفكر الكبير هادي العلوي في كتاب المقدمة لمعجمه الجديد اقتراحات ذكية، بناءة وجديرة بالتعميم لإصلاح العربية وتقويتها لتصبح لغة قادرة على استيعاب الجديد الآتي (سواء شئنا أم لم نشأ) من الحضارات الأوروبية الأصل. فكلمة «جوال» للهاتف المحمول جميلة ودقيقة، وهي ترجمة حرفية موفقة لكلمة «موبايل Mobile». وهي بنفس الوقت أجمل من كلمة خلوي وخليوي أو

---

(١) أنظر المعجم العربي الجديد، المقدمة، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٣، ص١٢.

(٢) أثناء مراجعة النص الأخير في خريف ٢٠١٠ حاولت استقصاء آخر أخبار هذا الموقع. ووجدت الإعلان التالي: قريبا: موقع المكتب في حُلة جديدة ومضمون مُحَيَن..

Twitter: @ketab_n

هاتف خلوي. فبرأيي لا يصلح هذا التعبير، لأن أصحابنا المتلفنين بالجوال لا يخلون ولا يتركون بصياحهم خلوة لأحد. بل جل الأمر أنهم يتوهمون أنهم في خلاء مطلق.

شجع هادي العلوي المرة تلو الأخرى على فتح باب اللغة اليومية الفصحى لاستيعاب كلمات عامية دقيقة أغلبها كما يوضح في كتابه فصيح، نسيه الناس والعلماء أو حورته وموهت أصله ألسنة الناس ككلمة «باسل» في العامية المغربية والتي تقال بمعنى الكراهية وهي أحد معاني كلمة باسل (إلى جانب معنى الشجاعة) القاموسية[1] كذلك «ولدنة» في العامية السورية بمعنى الخفة والطيش. الكلمة مشتقة من ولد[2].

يوضح هادي العلوي بإسهاب أهمية الإشتقاق في ابتكار كلمات علمية أو فلسفية جديدة منها الإشتقاق على وزن تفعيل (مثل التصنيع والتعريب) وفعلنة (مثل عقلنة) ومنها يمكن اشتقاق الأفعال يُصنّع، يُعرّب. وتقابل هذه الإشتقاقات وأوزانها ما يعبر عنه في الإنكليزية بنهاية (IZE) أو (IFY).

كذلك اقترح استعمال المطاوعة (وأهم صيغه منفعل على كل فعل ثلاثي ككلمة منقسم، منأكل، منسلك... إلخ. يشتق منها فعل ينشرب، ينسلك، ينحرق بمعنى قابلية الشيء لهذا الفعل، ومتفعل لكل مصطلح رباعي مثل متنوع أو متعلم) لتقابل لما ينتهي في

(١) العلوي، المعجم العربي الجديد، المقدمة، ص٧٧.

(٢) العلوي، المرجع ذاته، ص٧٩.

Twitter: @ketab_n

الإنكليزية بـ (ABLE) كما على وزن فِعالة للدلالة على الحِرف (مثل حراجة للعمل بالغابات أو سياقة وسواقة لقيادة السيارات) ووزن فعّال للمختص المحترف (مثل بحار، حداد، خباز.. إلخ). كذلك إسم آلات العمل على وزن مِفعل، مِفعلة ومِفعال (كلها بكسر الميم مثل مِبرد، مِلعقة ومِنشار).

كما يمكن للعربية توليد مصطلحات جديدة بالتعبير مجازاً عن شيء جديد بمصطلح قديم مثل هاتف (كان يستعمل لمن يتكلم ولا يرى)، برقية (من البرق أي السريع الوصول، إذاعة (من أذاع أي بث الكلام وأعلنه) وقطار (ومعناها القاموسي رتل الإبل وهو قديم لا يخطر على بال عند سماع هذه الكلمة في أيامنا) كما ويؤكد العلوي ككل المفكرين الجادين في عشق اللغة أن التعريب لا مناط منه عند خلو العربية من كلمة تقابل الكلمة الأجنبية فتنقل هذه كما هي بحروف عربية (وإن كان سيصيبها تحوير لعدم إمكانية لفظ العديد من الأحرف والأصوات الواردة في العديد من اللغات بأحرف عربية كما نوهنا أعلاه تفصيلاً). التعريب ليس إبن اليوم في لغتنا أو اية لغة أخرى، فليس هناك لغة واحدة في العالم «نقية» من الألفاظ ذات الأصل الأجنبي.

كما يساعد نحت المصطلحات (بحدود مقبولة ومستساغة للعين واللسان والأذن) من اختراع كلمات تعبر عن جملة مثل البسملة اللطيفة الوقع على اللسان والأذن (من بسم الله الرحمن الرحيم) والحولقة (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهي ثقيلة شيئاً ما. وأما الطلبقة

Twitter: @ketab_n

والدمعزة (أطال الله بقاءك، أدام الله عزك) فرغم استعمالها في العديد من الأدبيات ثقيلة لا يستسيغها لسان. وأحب إليّ مئة مرة أن أردد السلام عليكم من أن أختصرها للكلمة البشعة «السمعلة».

والتركيب شبيه بالنحت وله أنواع عديدة يفصلها هادي العلوي في كتابه القيم وقد عرفت اللغات السامية الأخرى أيضاً النحت والتركيب. وهناك العديد من الألفاظ المركبة التي اعتدنا استعمالها دونما عناء ماورد (من ماء الورد) تمر هندي (من تمر الهند) وصار من المعتاد أن نقول برمائي، رأسمالي. وقد تم نحت وتركيب بعض الكلمات من مترجمين وكتاب بجرأة تعتبر حذوة كنحت مثل لفظة مجوقلة (وتعني القوات المنقولة جوا)[1].

وهناك كما نعلم اختصارات بتركيب أحرف إسم منظمة مثل يونيسكو (الناتجة عن رصف الأحرف المقابلة للأحرف اللاتينية للمنظمة الدولية U.N.E.S.C.O)، فتح (هنا بقلب أحرف حركة التحرير الفلسطيني).

وهناك مئات البوادئ (ما يأتي أول الكلمة فيؤثر على معناها) والكواسع (ما يأتي في نهاية الكلمة) مثل الكترو (نسبة لكل ما هو الكتروني) أورو (مثل الأورومركزية) بيو (بيوكيمياء...) كذلك فيزيو، بعد، تحت، ضد، جيو، سوء، شبه، غير، فوق، رد... والبوادئ كثيرة ومهمتها تركيز اللغة خاصة العلمية وإبعادها عن الإنشائية.

(١) العلوي، المرجع ذاته، ص١١٠.

Twitter: @ketab_n

... والكواسع أقل عدداً وهناك مثلاً الألف والنون كما في روحاني، جسماني وهي تعني المبالغة بالتعبير. كما يزداد استعمال الواو ككاسعة للدلالة على ظاهرة غير كاملة كأن نقول رأسمالوي بدل رأسمالي عندما لا يمتلك مجتمعاً ما صفات رأسمالية دون أن يتحول لمجتمع رأسمالي[١]. أو نريد القول إن ذاك التعبير يدل على خطأ أو زيف في الإدعاء (أنسانوي لمدعي الإنسانية، الديمقراطوي لمُدعي الديمقراطية).

وقد توصل المفكر والباحث اللغوي المصري فاروق شوشة إلى نتائج مشابهة: «وتدخل المصطلحات الجديدة إما كلياً من الخارج «ما يسمى الكسب الخارجي» أو تنشأ من داخل اللغة باشتقاق من مصطلح معروف أو تبديل معنى قديم له بمعنى جديد. وكلا الطريقين يرافقان اللغة العربية وكل لغة منذ نشوئها. وهي اليوم عملية مستمرة يومية كما كانت عليه قبل ألف عام. «حكم على مجرم بالإعدام: أي بالموت، والإعدام أصلاً فَقْدُ المال فحولوه إلى فقد الحياة»»[٢].

نستعمل اليوم كلمة اكتشف بكل بديهية كقولنا: «اكتشف نيوتن قانون الجاذبية» أو «اكتشف كولومبوس أمريكا» ولا ندري سبب ومدى مقاومة النحاة لهذا المصطلح وإصرارهم على «كشف» أو

---

(١) العلوي، المرجع السابق، ص١١٦.

(٢) شوشة، فاروق، لغتنا الجميلة، سلسلة الأعمال الفكرية، دار الكتاب المصري، ١٩٩٩، ص٩٦.

Twitter: @ketab_n

«استكشف» لكن أحداً لم يسمع نصيحتهم أو يعمل بها فسكتوا عن نقدهم[1].

وهناك تجربة فريدة ومفيدة قرأتها أثناء البحث عن كل ما يتعلق بالعمل المعجمي في الإنترنت ويجدر بنا تأملها والإحتذاء بها لأنها خطوة على الطريق الصحيح. إنها طريقة حديثة جداً لبناء معجم دقيق وبشكل جماعي: معجم المصطلحات النفسية من مركز الدراسات النفسية، طرابلس، لبنان. وهذه رابطته في الإنترنت:

http://www.hayatnafs.com/alkamos_alnafsi/alkamos_alnafs.htm

ويجد من يطالع القاموس المرتب أبجدياً بشكل يسهل استعماله أيضاً مساهمات القراء والأخصائيين في تصحيح وتدقيق هكذا عمل جبار لا يمكن لفرد أن يقوم به بمفرده.

عربي	فرنسي	انكليزي
احتكام	Quérulence	Uerulousness
أحداث جانحون	Mineurs délinquants	Minor Delinquents
أحداث حياتية	Evénements biographiques	Biographic events
احساس	Sensation	Sensation
احساس زائف	Paraesthésie	Paraesthésia
احساس متأخر	Métesthésie	Metesthesia
احساس مغاير	Allochirie	Allochiria

(١) شوشة، المرجع السابق، ص٨٩.

Twitter: @ketab_n

Alloesthesia	Alloesthésie	احساس مغاير
Sensitive	Sensitif	احساسي
Sensibility	Sensibilité	احساسية
Kinesthesia	Kinesthésie	احساسية حركية
Onirism	Onirisme	احلامية ـ نوامية
Test	Test	اختبار
Thematic Apreception Test	T.A.T.	اختبار تفهم الموضوع
Rorschach's Test	Rorschach (test de)	اختبار روشاخ
Szondi Test	Szondi (test de)	اختبار سوندي
D.T.S.	Dexamethasone (Test à la)	اختبار قمع الديكساميتازون
M.M.P.I	M.M.P.I.	اختبار مينيسوتا
Intelligence Tests	Tests d' intelligence	اختبارات الذكاء
Personality Tests	Tests de la personnalité	اختبارات الشخصية
Convulsion	Convulsion	اختلاج
Heteromorphism	Hétéromorphisme	اختلاف الاشكال
Asphyxia	Asphyxie	اختناق
Plantar	Plantaire	أخمصي
Token Economie	Economie de jetons	ادخار الثواب (علاج سلوكي)
Penetration	Pénétration	ادخال

Twitter: @ketab_n

مقطع صغير من القاموس النفسي حرف الألف

وهذا نموذج لمشاركة خيّرة بنّاءة:

ملاحظات واقتراحات حول بعض المصطلحات الواردة في معجم المصطلحات النفسية لمركز الدراسات النفسية / طرابلس ـ لبنان

١ ـ تصحيح عدد من الأخطاء الإملائية بالفرنسية والعربية.. واقتراح مصطلحات أخرى: التصحيح أو الإقتراح الجديد هو الكلمة بين هلالين باللون الأخضر. والكلمات التي تليها إشارة + هامة للمزيد من المناقشة والاستعمال..

Dura Mater	Dura Mater (dure mere)	الأم الجافية
Pia Mater	Pia Mater (pie-mère)	الأم الحنون
Self	Self (soi-même)	الأنا (الذات) +
Ideal Super Ego	Surmoi Idéal	أنا مثالي (أنا أعلى مثالي) +
Illusion	Illusion	انخداع
Open-door	Open-door (porte-ouverte)	الباب المفتوح
Gradual stage	Stage (Stage graduel)	تدرج
Syndrome (Hyperkinetic)	Syndrome Hyperkinétique	تناذر افراط حركي
Family planning	Planny familial (planning)..	تنظيم الأسرة

Twitter: @ketab_n

Mixed states	Etats mixtes	حالات خليطة (خليطة)
Toxoplasmosis	Toscoplasmose (toxoplasmose)	داء المقوسات
Significant	Significant (signifiant)	دال
Vesania-Insanity	Vésanie	ذهان عقلي (ذهان)
Ftiziophobia	Ftiziophobie (phtisiophobie)	رهاب السل
Ombrophobia	Ombrophobie	رهاب المطر (رهاب الظل)؟
Rheumatism Acute Articular (R.A.A.)	Rheumatisme Articulaire Aigu (R.A.A.) (Rhumatisme)...	روماتيزم مفاصل حاد
Withdrawal symptoms	Symptômesde sevraje (...sevrage)	عوارض الامتناع
Hypophysis	Hypophyse	غدة تخامية (... نخامية)

٢ ـ المصطلحات المقترح إضافتها: كونها كثيرة الإستعمال لكن لم ترد في معجم المصطلحات النفسية لمركز الدراسات النفسية، طرابلس ـ لبنان

Inhibition	Inhibition	تثبيط
Modélisation	Modélisation	نمذجة
envy	Envie	حسد
Therapy familial	Thérapie familial	علاج أسري

Twitter: @ketab_n

NLP	Programmation neuro-languistique (PNL)	برمجة لغوية عصبية
Formalisation	Formalisation	صياغة

مع أطيب التمنيات للجميع

د. **سليمان جار الله** طبيب عام، باحث في العلوم النفسية ومكلف بإدارة مركز إرشاد المرضى النفسيين في باتنة / الجزائر.



Twitter: @ketab_n

كيف تحول حلم إلى مشروع

مضت الأيام ونجحت عمليات القلب بشكل أذهل الأطباء، ونُقِلَ الأمير ـ كما ذكرت سابقاً ـ إلى قسم الجراحة العظمية وهناك أجريت له عملية معقدة للساق لكنها نجحت أيضاً.

عند عودتي من النمسا، كان الأمير يتجول في الحديقة وهو مستند على عكازتين.

سررت أيما سرور لرؤيته وقد احمرت وجنتاه وأشرقت عيناه صحةً وأملاً. جلسنا في ركن هادئ من حديقة المستشفى حيث كان مقهى صغير يسعفنا بالقهوة والمرطبات.

«أمرك غريب يا صديقي»، قال لي بصوت منخفض ناغى الهدوء الذي لف الحديقة في ذلك الصباح بوشاح ذهبي تزينه زقزقة العصافير، «تعيش دهراً في المهجر ولا يزال هاجسك اللغة العربية؟»

«قد يكون المهجر أحد تلك الأسباب، فالوطن كالصحة لا يعرف المرء قيمته إلا عند غيابه».

ضحك، «معك كل الحق فأنا الآن أعرف ما هي الصحة. لكن ألا

Twitter: @ketab_n

ترى معي أن الوطن لا يغادرك عندما تغادره، يتسرب كاللص الماهر دونما أي ضجيج وأنت لا تزال تحزم حقائبك ويتربع في زاوية من زوايا قلبك؟»

«الصورة صحيحة، لكن الوطن لا يقنع بهذا الكرسي الوثير في قلبك، فيعود ليقرع باب ذاكرتك ملوناً إياها بأجمل الألوان الشاعرية، متوسلاً العودة. وكم من مهاجر بكى ذكرى ربوع طفولته، التي كان يلعنها حينما عاشها كجهنم».

«لكن هذا لا يكفي للعودة إلى ما عدت إليه»، قالها وشكر نادل المقهى الذي أحضر لنا القهوة.

«قد يكون السبب أيضاً عشقي لهذا الكائن العجيب، اللغة بغض النظر عن جنسيتها. فأنا أحب الآرامية كلغة أم والعربية كلغة طفولتي وشبابي وثقافتي والفرنسية لغتي كطالب لثلاث سنوات في دير المخلص اللبناني، والإنكليزية التي لا تزال ترافقني منذ الصف السابع في مدرستي والألمانية وطني الثاني بعد دمشق، كما والإيطالية والإسبانية لوقعهما الموسيقي المحبب على أذني».

«هذا أيضاً لا يكفي فأنا لم يخطر لي ذلك رغم أني أجيد العربية والإنكليزية والفرنسية والفارسية والتركية. لا بد وأن هناك سبب آخر»، قالها بلهجة سؤال:

«قد يكون السبب أيضاً خوف انتابني وأنا أراقب كيف تحصن اللغات العالمية أنفسها تجاه التقدم ومعه، بينما تنام اللغة العربية وليس فقط تنام لمدة أطول من مدة نوم أهل الكهف، بل لأن

Twitter: @ketab_n

السلفيين يحاولون دون كلل تحنيطها بادعاء قدسيتها»، هز الأمير رأسه موافقاً، أضفت: «لكنني أعتقد اليوم وأنا أسمع سؤالك أن الدافع ليس أحادي السبب. إنه فسيفساء لأسباب عديدة».

صمت لفترة غير وجيزة وراقب السماء التي اكفهرت وطائر السنونو الذي بدأ بالطيران على ارتفاع منخفض، منذراً بمطر قادم.

في طريق العودة إلى غرفته سألني عن عنوان المانشيت في جريدة من الصحافة الصفراء كانت على طاولة قرب باب المقهى. تصدّرت الصفحة الأولى صورة كبيرة لشيخ بترولي (بنظارته الشمسية السوداء وثيابه العربية البيضاء) قلت له ما سمعته من الأخبار صباح ذلك اليوم وترجمت له المقال الصغير تحت الصورة. كان الكاتب يسخر من العرب ومن أحد شيوخ البترول الذي خسر في ليلة واحدة كذا وكذا مليون على مائدة القمار في لندن، وإلى جانب الخبر الكبير، خبر صغير باكتشاف إسرائيلي لدواء جديد للسرطان. تلذذ الصحفي بتذكير قرائه بالفضيحة المالية التي سببها قبل أسبوع أخ لأحد رؤساء الجمهوريات العربية «المنادية بالإشتراكية» والذي ضبط في جنوب المانيا قبل ذلك وهو يحاول تهريب أموال «وسخة» من سويسرا لتنظيفها بتوظيفها في مشاريع صناعية المانية. ضبطه شرطي صغير شريف ورفض المبلغ الضخم الذي قدمه هذا الغبي لرشوته. وهكذا كملت الصورة العنصرية في هذه الجريدة اللعينة: هنا الشرطي الشريف الألماني وقبالته المجرم العربي، وهنا الشيخ البترولي الذي يبذر الملايين وقبالته العلماء الإسرائيليون.

Twitter: @ketab_n

إكفهر وجهه

سرنا صامتين إلى غرفته. لكنه لم يشأ الإستلقاء بل جلس إلى طاولة قريبة من النافذة ورجاني أن أجلس قبالته على الكرسي الثاني.

«ما يؤلمني»، قال لي وقد كسا الحزن وجهه، «ليست عنصرية هذا الكاتب الرخيص، لكن أن نلعب نحن هذا الدور الغبي. أحياناً أقول لأصدقائي في الخليج، العرب يوفرون على إسرائيل ملايينا كانت تنفقها في الخمسينيات لتخريب صيت العرب في العالم. الآن نحن نقوم بذلك بشكل محترف ونخرب صيتنا أكثر مما يستطيعه أعتى عتاة الصهيونية».

كان على حق.

ساد الصمت بيننا.

«أخي عيسى واحد من هؤلاء»، همس بألم وكأنه يتحدث إلى نفسه، «لم تنفع كل أساليبنا أن نرده إلى الطريق المستقيم، يعبث بأمواله وأموال غيره ويبدل نساءه وأصدقاءه بسرعة أكبر من سرعة تبديل ثيابه الداخلية. فارغ، طنان كالطبل بعقل لا يتجاوز حجم الجوزة. تصور بربك، هناك مكتب للمحاماة في لندن يعيش مترفاً منه ومن أشكاله، لما يقعون فيه من مشاكل. قبل فترة دفع غرامة قدرها مليوني دولار لأنه هبط بطيارته فوق حقل لتنمية نباتات خاصة بصناعة الأدوية. جددوا المزرعة على حسابه».

أطرق صامتاً وشعرت بحزنه يغمرني.

«يا سيدي العزيز، لا تحمل سُلّمَكَ بالعرض، كما يقول مثلنا

Twitter: @ketab_n

الشامي. أخوك عيسى ليس بالطفل الرضيع لكي تحمل همه إضافة لهمومك الصحية والسياسية، أقول لك هذا لأن ضميري يعذبني فقد أدخلت إلى قلبك هماً جديداً وهو هم اللغة».

إبتسم بمرارة، «الهموم لا عدد لها، لكني أخشى أن يصبح عيسى بضعف أخلاقه عرضة للإبتزاز ويأتي علينا بما لا تحمد عقباه» قالها متنبئاً، هدأته دون أن أفهم. واليوم بعد هذا الزمن أخجل من نفسي لأني ظننت أنه يبالغ وهو الذي تنبأ بالمصيبة وقتها بعينه التي خرقت حجاب الزمن المستقبلي.

أطرق مجدداً للصمت.

«كم تكلف كل هذه العملية الإصلاحية للغتنا الأم؟» سألني فجأة.

«لقد حسب لي أحد الاختصاصيين أن كلفة إصلاح اللغة العربية وطبع قواميس موحدة وترجمة أهم الأعمال العالمية في كل مجالات العلم، الإقتصاد، الأدب، الفلسفة والسياسة بصورة ممتازة لا تصل تكاليفه سنوياً لمقدار ما يدخل العرب في يوم واحد من البترول. وبعد عشر سنوات نكون قد وصلنا من جهة المعلومات والمقدمات إلى مستوى يسمح بالمشاركة الفعلية بكل نواحي التقدم في العالم. والشيء الأهم أن هكذا مشروع يؤهل آلاف العاملين على مختلف المستويات أن يقوموا بعمل ممتاز يؤمن لهم حياة شريفة في وطنهم وينعشوا بدورهم الإقتصاد المحلي، بدل أن يهربوا إلى كافة أصقاع العالم».

أخذ الأمير ورقة وبدأ يحسب، يجمع ويطرح ويقسم وأنا أراقبه

Twitter: @ketab_n

عن كثب. رفع بعد حين رأسه وقال: «لقد ملكتني فكرة منذ انتهيت من قراءة أوراقك. سألت نفسي بغضب وحزن لماذا لم يصح العرب بعد لإنقاذ لغتهم التي تعيش فيهم، فأنا لا أعاتبهم إن لم يلحقوا المدنية بإنتاج بضائع غريبة عنهم، أما اللغة فشيء آخر. كيف يصرف أحدهم بكرم حاتمي الملايين لتشييد فيللا، لشراء يخت أو لتشييد قبرٍ فانٍ ويبخل في العطاء لما هو بداخله.

بعد غضبي وحزني، قررت أن ابدأ وألا أفتش عن حائط مبكى بل عن فجر صباح قادم بلا شك، لعلّي أستطيع دفع حلمك إلى السكن في إمارتنا الصغيرة. ولأن الأمر على عجل ومن المستحيل أن نقنع كافة العرب أن يقفوا معاً ليبدأ هكذا مشروع باحتفالية تآلف القلوب والعقول. لذلك من الأفضل ان نبدأ فوراً ونفتح صدرنا لكل من يريد المساهمة بذلك. إمارتي تحتاج لدخل ستين يوماً من النفط لتتحمل كافة النفقات لوحدها. ولنبدأ بكل تصميم، ومتى أراد أي عربي أن يساهم معنا فالباب مفتوح دون قيد أو شرط. فلو وافق العراق والكويت والسعودية لما تحمل كل منا سوى تكاليف خمسة أيام بترول في العام وبدخول الجزائر وليبيا واليمن وعُمان وجيراني في إمارات الخليج يتراجع ما يتحمله كل بلد إلى يَوْمَيْ بترول ومتى انضمت مصر وسوريا والمغرب وتونس والسودان والأردن وفلسطين وموريتانيا نصل إلى تلك الكلفة التي تحدثت أنت عنها: يتبرع كل بلد بدخل يوم من البترول».

توقف قليلاً عن الكلام، نظر عبر النافذة، وأحسست أن وجهه

Twitter: @ketab_n

عاد لانشراحه، «قاطعني متى شئت. إن ما يلزم لهذا الإصلاح هو المركز الذي يؤهل الراغبين فيه أينما كانوا إلى التواصل الحر المفتوح لكي تصب كل جهودهم الآتية كالجداول من عقولهم وقلوبهم في نهر واحد يذهب من المركز ليروي الأرض العطشى للماء أينما كانت».

«صحيح، لأن البيت هذا يزيل وإلى الأبد عزلة مفكرينا التي يشبه عملهم الرائع قطرة ماء سقطت في ساحة غبار، يحيط بها ويكسو سطحها مانعاً إياها من التواصل مع القطرات الأخرى ليمتصها بعد ذلك بصمت ولتندثر أخبارها»، أجبته والدهشة تكاد تخنق كلماتي، لأن كل ما قاله عن الجداول والنهر كنت قد سجلته قبل سنين كخاطرة وردت لي عندما اكتشفت كتب قيمة جداً لبعض الكتاب العرب لا يدري بها سوى قلة من العلماء واسعي الإطلاع.

«لنسمِ هذا البيت «بيت الكلمة». ولنحدد أسماء أقسامه وواجباتها» قال ذلك وكأنه أفلت بذلك عقال كل ما حلمت به تفصيلاً فسردت له تصوري وأكمله مضيفاً أقساماً وكليات لكل ما يتعلق باللغة وفلسفتها وعلومها ومعاجمها وكنا نملأ الأوراق ببعض تفاصيل الأقسام وما ينتج عن ذلك، فذكر قسم الخط مثلاً يخلف فروعاً لهذا القسم من دراسة الحروف وتطويرها إلى تطوير خطوط عربية حديثة إلى حقل التجارب وأسلوب ربط أهم الخطاطين في العالم العربي والإسلامي بهذه التجربة الفريدة. أو لنأخذ مثلاً آخر وهو المعاجم. هذا العمل لا يمكن القيام به بشكل فردي. جماعة من

Twitter: @ketab_n

الباحثين تساهم مشتركة في تصميم وتأليف أفضل المعاجم وتطويرها لتبقى حديثة عبر استمرار العمل وفتح الباب أمام كل اقتراح بنّاء من جمهور القراء ومحبي اللغة. وتساهم دار النشر التابعة لبيت الكلمة في طباعة المعاجم طباعة أنيقة وبسعر زهيد يسمح لها بالإنتشار. ويعود قسم من مردود الكتاب (بعد حساب تكاليف طباعته، تجليده، توزيعه وبيعه في المكتبات) إلى الكتاب ويوزع عليهم سنوياً بكل أمانة ليس فقط لمراعاة أتعابهم بل أيضاً احتراماً لما أنتجوه. هذا الإحترام سيربط المؤلفين والمترجمين والكتّاب برابطة حميمة مع بيت الكلمة.

عندما وصلنا إلى فكرة انتشار الكتب وتملينا الوضع المزري لتوزيع الكتب العربية (وهو لا يزال في عام ٢٠١٠ على حالته المريضة. فحتى اليوم يمكن لقارئ سوري أو سعودي أن يشتري كتاباً عربياً صدر في مصر من موزع في لندن بأسرع وأسهل مما يمكنه ذلك من مصر مباشرة) وجدنا أنه من الضروري أن يكون لدار النشر التابعة لبيت الكلمة موزعين موثوقين في كل مدينة عربية يتجاوز عدد سكانها عشرة آلاف وبالتالي تسمح هذه الشبكة من إيصال أي كتاب من كتب بيت الكلمة إلى أصغر قرية خلال أيام. حدثته عن موزعي الكتب في أوروبا، فهؤلاء يشكلون الجهاز العصبي لجسد الكتب. يوزعونه يومياً (في المانيا يصل الكتاب بعد أقل من ٢٤ ساعة للمستهلك أينما كان مكان إقامته) ويزودون المكتبات ومراكز التوزيع بالإنتاج الجديد وبكل ما استهلك في هذه

Twitter: @ketab_n

المراكز من الإنتاج القديم حتى لا يحدث أي انقطاع (أي بقال يعرف هذه الميكانيكية ويقوم بها يومياً... إلا بائعي الكتب فهم لا يقومون بذلك).

في عصر أحد الأيام تحدثنا عن الصعوبات الموضوعية التي تقف حائلاً في وجه التعامل الثقافي العربي ووجدنا أن الخوف من الآخر والشك به هو أكثر الأسباب ضرراً في الحياة الثقافية العربية.

«يهتم بيت الكلمة بإنشاء علاقات أخوية مع كل المنظمات الثقافية العربية ووزارات الثقافة والتربية والتعليم»، قال الأمير وكتبت بسرعة ما قاله في دفتري الذي رافقني طوال الوقت: «لأن بيت الكلمة لا يعنى بالسياسة إنما بلغتنا الأم وهي أم الجميع ومحررة لسانهم سواء كانوا محافظين، ليبراليين أو تقدميين. هذا أساس لا حياد عنه وليس في كل الكتب التي تغادر دار الكلمة أية صفحة تهتم بالسياسة أو تتدخل في شؤون الآخرين، وبذلك ستفتح البلدان أبوابها شيئاً فشيئاً لتدخل إلى قرائها وقارئاتها بعد أن تعرف معدننا. وصغر إمارتنا حسنة لنا ولبيت الكلمة فلن يخشى أي أحد نفوذها السياسي الذي لا وجود له، كما يخشى البعض سوريا ومصر والعراق، سواء كان ذلك مبرراً أم لا. إن القضاء على الشك عملية معقدة جداً وأوروبا كما خبرناها معاً تسمح لسيل المعلومات أن يتدفق ليستفيد الجميع منه. صدقني، كل عملنا لا يحرك بعوضة إذا قاطعه الآخرون».

جلسنا أياما بلياليها وازداد عدد الأوراق المليئة بتفاصيل هذا

Twitter: @ketab_n

المشروع التي لا ضرورة الآن لتعدادها، واكتشفنا أثناء الجدال الصريح أن وسائل الإتصال (وهي اليوم في عام ٢٠١٠ أفضل بكثير) تسمح لكل باحث أن يشارك من مكان تواجده سواء كان ذلك القاهرة، بغداد، دمشق، باريس أو مدريد ويرسل مساهمته (اقتراحات، أبحاث، ترجمات، نقد...إلخ) لبيت الكلمة، التي تحول تلك المساهمة للجنة تفحصها بشكل نقدي بنّاء، يسمح لها الفرز بين غث وسمين. ويسمح لها أيضاً أن توصي باحثاً باستمرار العمل في موضوع ما، منسقة ما يعمله هذا الباحث مع الباحثين والباحثات في بلدان أخرى وهكذا نصل إلى تكثيف الجهود وتحايد الإعادة والتكرار.

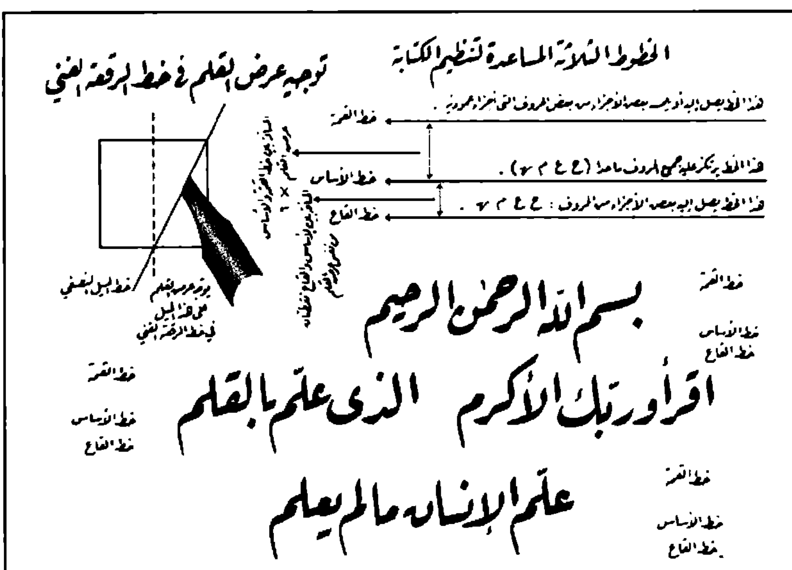
هذا التواصل، الحديث يسمح لكل من يرغب أن يساهم دون أن يتحمل أعباء السفر إلى الإمارة أو حتى الإقامة هناك، مما يوفر بدوره النفقات وما يوفر بحرص يدفع بكرم للمساهمين ليشجعهم على التفنن في نوعية وكيفية ما يكتبوه.

هذه المهمة ترفض من البدء الفردية والعشوائية والأهوائية وتركز على جماعية البحث وتنظيم سيرورته الهادئة الثابتة والمربوطة بهدف تصب كل الأعمال في اتجاهه.

بعد هذه المرحلة الأولى والتفاف عدد ممتاز من الخبراء القادرين، يمكن لبيت الكلمة ان يؤسس أول جامعة من نوعها في العالم للعناية باللغة بأحدث الأساليب ولا يقبل فيها سوى أفضل الطلاب وأكثرهم حماساً للغتهم العربية وهؤلاء يمكن أن يدرسوا دون أي كلفة أو مصروف أو رسوم ليقدموا بأعمالهم لغتهم خطوة نحو الأمام.

Twitter: @ketab_n

والآن بعد مراجعة الأوراق كلها اكتشفت نقطة لم ننتبه لها آنذاك، وعلى كل محبي اللغة تشجيعها أينما كانوا. على الدولة تشجيع الخطاطين بِمِنَحٍ ومسابقات ومعونات مادية لتأسيس مراكز ومحلات للتخطيط ولإنشاء مدارس لتعليم الخط العربي في كل مدينة، وعلى كل وزارة تربية وتعليم تخصيص ساعة اسبوعية في برنامج كل سنة دراسية للتدريب على هذا الخط الرائع، كما وشرح تفاصيل العمل الفني في الإنترنت لتنزيلها بدون مقابل لكل من يحب. وقد وجدت عشرات الكتب الرائعة والتي تبسط إتقان الخط العربي. كما وجدت في الإنترنت عشرات الصفحات التي تعني بجدية بالخط وتاريخه وتقنيته. وهذا مثال من أمثلة كثيرة يمكن لكل أستاذ مدرسة تعلمه وتعليمه.



Twitter: @ketab_n

بعد يومين سمح مدير المستشفى للأمير بمغادرة المستشفى لزيارتي ورجاني أن أكون حذراً لأن ساق الأمير لا زالت بخطر. رافقته إلى الساحة خلف المستشفى حيث تصف كل سيارات الزائرين وضحك الأمير عندما فتحت له باب سيارتي العتيقة، «ظننت أنك تملك مرسيدس»، قالها وضحك، «وهذا ما ظنته عشيرتي، لكني لم أملك قط سيارة مرسيدس ولا حتى في أحلامي، فالسيارة جهاز وآلة للتنقل وليست مدعاة لسد عقدة نقص في أنفسنا»، أجبته بشيء من العنهجية تعلمتها للرد على زواري من العربان الذين لا يسألون عن سعادتي بل عن سيارتي المرسيدس التي فتشوا عنها ولم يجدوها. ضحك، «لكن يا أخي على الأقل سيارة من القرن العشرين وليس هذه التي قادها سيدنا نوح!».

«كفى سيدنا نوح شرَّك» قلت له: «لو أنه قادها لما عاش حتى بنى سفينته».

كنا نضحك كالمجانين وعندما وصلنا إلى غرفتي المتواضعة حضرت له قهوة بكثير من الهيل فسر أيما سرور: «سلمت يداك، هذه أول مرة أشم فيها رائحة البلد. تباً لكل قهوة بدون هيل».

طبخت له وجبة لم يعرفها قبلاً، «مجدرة»، كما يطبخها أبناء قريتي معلولا وأيضا سكان حي «العبارة» الشعبي الذي ربيت فيه في دمشق مع البرغل والعدس وزيت الزيتون والبصل المقلي وقدمتها له مع سلطة بسيطة ولبن. أعجبته فأكل بنهم وشهية.

«ما هي صفات الباحث الذي يناسب بيت الكلمة؟» سألني ونحن

Twitter: @ketab_n

نحتسي الشاي بعد الطعام. كان لديّ دراسة خاصة أنجزها صديق عن البحث العلمي وأخلاق الباحث، وعدته أن ألخص الدراسة وأرسلها له في أقرب فرصة. إبتسم، «لم يبق لي سوى يومين وسأرحل عائداً».

عندما أعدته للمستشفى، شد على يدي، «أبكرغداً فالوقت الباقي صار يُعَد بالساعات».

لم أر النوم تلك الليلة. شهران ونيف مضيا بسرعة البرق. وها هو سيغادر. من أين قدم هذا الرجل؟ من إمارة خليجية أم من قارة أحلامي؟».

أخبرته بالهاتف في الصباح الباكر، أني قادم وكان ينتظرني على باب المستشفى لنذهب سوية للمقهى. «يقومون الآن بالتنظيف والترتيب كما في كل صباح، دعنا نجلس بهدوء في المقهى».

«خطرت لي فكرة لم أر لها أثراً فيما سجلته عن محادثاتنا. قد تكون سقطت سهواً. على بيت الكلمة أن يجمع عبر الباحثين كل القصص الشعبية من المحيط إلى الخليج التي تحكي عن ثقافتنا الكثير. وهذا بدوره يوصلنا إلى احتضان العامية التي تزخر بالكلمات الجميلة لندخل أجملها في لغتنا. فالعامية بحد ذاتها ليست سلبية ولا ينقص إدخال بعض مصطلحاتها أو جملها المجازية الحكيمة إلى الفصحى من قيمة اللغة وفصاحتها، فالعامية تنبض بالحياة ومن لا يصدق ذلك فليقرأ أحمد فؤاد نجم وبيرم التونسي وليسمع أو يرى مسرحيات محمد الماغوط أو زياد الرحباني. كل هذا يغني

Twitter: @ketab_n

الفصحى لكن ليس بشرط الإستغناء عنها لصالح العامية فهذا هو الفقر بعينه».

«ولكن هناك تعابير عامية كثيرة تنحدر من اللغات الأوروبية وتزداد يوماً بعد يوم» لاحظ الأمير بحق، وعدّد لي عشرات التعابير المستعملة في إمارته والقادمة من الإنكليزية... وتذكّرت الكثير منها في يوميات دمشق وهناك، في سوريا ولبنان، تنحدر التعابير من أصل فرنسي أو تركي.

«لا، لا نأخذ تلك التعابير القادمة كتحريف تعريب لكلمة فرنسية أو إنكليزية، بل تلك التي ابتكرتها شعوبنا في تفتيشها اليومي عما يقال في شأن أو غرض ما. وليس من النادر تلطيف كلمة فصحى ليستسيغها اللسان ككلمة (ايش) المستعملة بكثرة في لبنان، سوريا، العراق وفلسطين والتي تعني أي شيء إلى جانب كلمات عامية نسي الناس أصلها الفصيح مثل: أبّهة (العظمة والكبرياء)، أزمة (شدة)، خاس الشيء (كسد أو نقص وزنه)، جلف (قاس)»[1].

ولقد كان الشاعر والأديب المصري حفني ناصف (١٨٥٥ ـ ١٩١٩) والد الأديبة والمناضلة النسائية ملك ناصف (باحثة البادية) (١٨٨٦ ـ ١٩١٨) أول من بيّن علاقة اللهجات العامية المعاصرة

---

(١) وقد ألف المفكر أحمد أبو سعد «معجم فصيح العامية»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠ و«قاموس المصطلحات الشعبية» في مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ كما وألف الشيخ أحمد رضا قاموس «رد العامي للفصيح» دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ١٩٨١.

Twitter: @ketab_n

بلهجات القبائل العربية القديمة، تبعه في ذلك المفكر والكاتب المصري إبراهيم أنيس ثم تبعهما الكاتب الكبير أحمد تيمور[١] في شرح العلاقات بين العامية والفصحى. وقد أفرد المفكر العراقي الكبير هادي العلوي فصلاً كبيراً في كتابه لشرح التغيرات التي طرأت على التعابير الفصحى عند تحولها للعامية[٢].

بعد حديثنا عن العامية تطرق حديثنا إلى أوجه إصلاح اللغة لتيسير قواعدها. وقد ذكر لي أنه كره كطالب مدرسة إن وكان وأخواتهما لأنه كان يخلط بينهما. وقلت له إني لا زلت إلى اليوم لا أطيق مسألة الأعداد وتصريفها.

«وهل للمثنى ضرورة؟» سألني وكأنه يرفضها. قلت له: «إن المثنى صفة مميزة للعربية كلغة قديمة وهي ظاهرة موجودة في اللغات السامية، ووضع في الأصل للدلالة على التقابلات الثنائية في الكون فاليمين يقابله اليسار، والأعلى يقابله الأسفل، والأمام يقابله الوراء، والذكر تقابله الأنثى، والسماء تقابلها الأرض، والجنة (البرد) تقابلها النار (الحر)، والماضي يقابله المستقبل، والبحر يقابله البر، كذلك ثنائية أعضاء الجسم المكوّنة من زوجين

---

(١) وهو والد محمد ومحمود تيمور، وقد قدم أحمد وكل من اخته عائشة وإبنيه محمود ومحمد تيمور للأدب المصري والعربي جواهر خالدة وقد طوّروا رغم أصلهم الكردي ـ التركي اللغة العربية بحيوية لم يستطعها جيش من معلمي الصرف والنحو ورهبان الإعراب.

(٢) العلوي، المعجم العربي الجديد، المقدمة، ص١٧ ـ ٥٥.

Twitter: @ketab_n

كالعينين والأذنين والرجلين واليدين... إلخ».

ولكن المثنى ليس مهماً بهذا الشكل الذي يعلنه ويضخمه النحاة، فحتى القرآن أجاز لغرض جمال البلاغة مخالفة القواعد في قوله في سورة الحج: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، وقوله في سورة الحجرات ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ والصحيح قواعدياً طائفتان اقتتلتا. وفي ذلك يكتب هادي العلوي: «يحمل اللغويون هذه المخالفة على مراد الجمع في خصمان وطائفتان لأنهما مما ثني لفظاً ومراده الجمع. واللغويون يفرضون أحكامهم على القرآن الذي هو من مصادر اللغة، أي أنه حكم لا محكوم عليه، وقد فاتتهم الضرورة النطقية في هذه المخالفة لأن اقتتلتا مستثقل ومتعارض مع الذوق العربي، الذي لا يستسيغ تتابع أربع حركات دون سكون يعترضها. ثم إن تأويلهم هذا لا يستقيم مع نصوص أخرى وقعت فيها نفس المخالفة مثل آية ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ من سورة التحريم. صغا تعني مال (أنظر لسان العرب) وهنا بمعنى إنحرف عن الخط الصحيح»(١).

«حسناً»، أجاب الأمير، «لكني لا أرى أي مبرر للصيغة الانثوية في لغتنا والتي لا تهتم به لغات العالم، فأنتَ وأنتِ هي في اللغة الفرنسية (tu) والإنكليزية (you) والألمانية (du) ولكل من أنتن وهن صيغة واحدة، بينما تثقل لغتنا صيغة مؤنث لا ضرورة لها سواء في تأنيث ضمير المخاطبة والفعل أو في الجمع المميز بنون النسوة».

---

(١) العلوي، المعجم... ص١٦٠.

Twitter: @ketab_n

«على العكس، هنا أختلف معك» قلت له: «التأنيث في اللغة يحترم المرأة، إنه وسام تحمله العربية على صدرها». لم يصدق ذلك وقال إن نون النسوة مربكة وثقيلة الوقع على اللسان والأذن كما في أنتن وهن والنون التي تتكرر في جملة مثل: «تحمل الصحفيات أقلامهن بأيديهن للدفاع ضد مغتصبي حقوقهن وكل من يظلمهن». قالها بنزق وضحك.

«صحيح، صحيح، هذا من الثقيل، لكنك تطلب ليس تحرير المرأة، نصف المجتمع، إنما مسح آخر قلعة لها وإلحاقها بالمذكر. الصاق عشرات النهايات بنون التأنيث (وهذا ما يفعله أشباه اللغويين أعداء المرأة للبرهان على صحة مزاعمهم) يصبح ثقيلاً لكن هذه النون ليست أثقل وزناً من أي نهاية عادية للجمع الذكوري كالواو والنون في (مجتمعون يضربون ويكذبون ... إلخ). وأنا أسمع نون النسوة بكل طرب».

ضحك.

كان للحوار مع هذا الأمير صفة فريدة، غريبة، تذكرتها الآن وأنا أكتب هذه السطور. كنا نتشاجر لكن دون تحقير رأي الآخر. وبعد سنين من مراجعتي لكتب اللغة واطلاعي الكافي على الحوار الذي جرى أرى أنه لا مبرر لكثير من العدائية التي تسود ما يكتبه علماؤنا. فمهما اختلف الباحثون ـ والهوة قد تكون واسعة كالتي بين محمد عابد الجابري من جهة وجورج طرابيشي وبرهان غليون من جهة أخرى وبين منذر عياشي وبرهان غليون من جهة وحسين مروة

Twitter: @ketab_n

وطيب تيزيني وهادي العلوي من جهة أخرى. فإنهم يمتلكون تصوراً مشتركاً (قد يكون بين بعضهم وجه الشبه الوحيد في فكرهم) وهو أهمية تطوير اللغة لتتمكن بحيوية الإيفاء بما يتطلبه منها التقدم الحضاري. ولم يقم أي من هؤلاء الذين أوردت أسماءهم ببحث أو تصريح فيه شطط ينفي جديته كمثل أولئك الذين يملأون الصفحات بهوسهم عن اللغة، وممن أسميهم عمداً «عويلم» دون أن أذكر أسماءهم، لأنها أصلاً لا تهم أحداً، إنما أذكر أفعالهم المسيئة للذوق، وهذا ما لا يمكن قوله مهما اشتد الخلاف حول أي من أعمال هؤلاء العلماء الحقيقيين. فهم يجتهدون بصورة تثير الإعجاب في محاولة تحديد أسباب تأخر الثقافة والحضارة العربية، وحتى ولو اختلفوا، فإن قاسمهم المشترك الأعظم هو تأكيدهم على أهمية تطوير اللغة لتستوعب مفردات العصر.

أعود لحديثي مع الأمير... ناقشنا تعقيدات لا لزوم لها وأخرى لها لزوم لتستقيم اللغة وتثبت أمام الزمن. وقد أكد الأمير أن مسألة الجمع في العربية وإن كانت في بعض الأحيان رائعة الجمال وفائقة الدقة إلا أنها مربكة بين جمع سالم وجمع مكسر لمذكر ولمؤنث. ومدح الإنكليزية لتسهيلها جمعها بحرف واحد (S) وقال إن اللغات الأخرى كالفرنسية والإيطالية سهلة الجمع أيضاً ثم أضاف وكأنه يريد تأكيد وجهة نظره: «والألمان يضيفون كما فهمت حرفي (en) في آخر كل كلمة فتصبح جمعاً».

Twitter: @ketab_n

«أرجو عفوك في هذه النقطة فالألمان نقلوا على ما يبدو هواية تعقيد الجمع من العرب فلديهم أكثر من عشرة طرق للجمع»، لم يصدق. أحضرت له كتاب قواعد اللغة الألمانية وعددنا معاً خمس عشرة طريقة وحالة للجمع في الألمانية. وكان يهز رأسه عجباً.

عندما قرأت هذا المقطع قبل فترة وبعد عشرات السنين من هذا الحديث تذكرت كمية كبيرة من المراجع والكتب والحوارات التي صدرت في الربع الأخير من القرن، ولم نكن نمتلك معلوماتها ولا أفكارها النيّرة آنذاك. لم نملك سوى ذلك الشعور أن لغتنا العربية عليها الهبوط من علياء النحاة إلى الشارع والمعهد والبيت. ولذلك لا بأس من إلقاء نظرة سريعة على ما حصل قبل العودة للأمير...

لمحات عن إصلاحات ضرورية لتسهيل اللغة دون تشويهها

في هذا الصدد يكتب المفكر الكبير الراحل بوعلي ياسين: «يمكن جعل الفصحى لغة الحياة بتبسيط قواعدها، بحذف القيود القواعدية اللامنطقية واللاضرورية فما الحكمة أن يكون العدد من الثلاثة إلى التسعة بعكس المعدود، مذكراً أو مؤنثاً؟ وما ضرورة أن يُرفع اسم الشخص أو ينصب أو يجر؟ ليكن ممنوعاً من الصرف باعتباره اسمْ علم لا تتغير حركة آخره بتغير محله من الإعراب

Twitter: @ketab_n

ولماذا يجب أن تبدأ الجملة بالفعل لا بالفاعل؟»[1].

وقد شغلت مشكلة الأعداد بالعربية منذ زمن بعيد كل من يحب هذه اللغة وتجاوزها الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ/ ٧٦٦م ـ ٨٢٠م) في كتاباته وهو أحد أكبر أئمة الإسلام في القرن الهجري الثاني فكيف نخشى ذلك في زمننا؟ وفي هذا الشأن يكتب المفكر العراقي الراحل هادي العلوي بمرح: «وليس في الحقيقة أي خوف من الالتباس في قولك: خمس كتب او خمسة كتب وخمسة عشر كتاب أو خمس عشرة كتاب... فقلها كما يقتضيها سياق الكلام وما يقتضيها ذوقك وإثمها على الشافعي»[2].

وبوعلي ياسين لا يبالغ في طلبه، فالإعراب لا يزال حتى يومنا هذا، المشكلة الأساسية في لغتنا الحديثة وكثرة القواعد تضع حواجز في وجه تمكن العرب من لغتهم، فييأس أغلب الطلاب من هذه الصعوبات ويرمون باللغة جانباً وبذلك تنتج هذه القواعد عكس ما تدّعيه ألا وهو صيانة اللغة. وكأن أحد أعداء اللغة العربية قد أمر النحاة بتعسير دخول الشعب العربي وحتى مثقفيه إلى بستان اللغة الجميل، فوقفوا حراساً بسياط قواعدية تلهب ظهر كل عاشق لأزهار وثمار هذا البستان.

طرائف وأقوال حكيمة عن البلاغة كاستراحة صغيرة:

سئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يفهم، وكثير لا يسأم.

---

(١) ياسين، بو علي، أهل القلم وما يسطرون، بيروت ٢٠٠١، ص٢٨.

(٢) العلوي، معجم العربية الجديد، ص١٥٨.

Twitter: @ketab_n

وسئل آخر فقال: معان كثيرة، في ألفاظ قليلة.

وسئل بعض الأعراب: مَنْ أبلغ الناس؟ فقال: أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهيةً.

وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل.

وسئل ابن المقفع: ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجري في وجوه عدة كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع. البلاغة قِلة الْحَصَر، والْجُرأة على البَشر؛ قيل له: فما العِي؟ قال: الإطْراق من غير فِكْرة، والتَّنحنح من غير غلة. البلاغة هي الايجاز من غير عجز، والاطناب في غير خطل. ويقال إنه سئل مرة أخرى عن البلاغة فأجاب: هي التي إذا سمعها الجاهل ظنَّ أنه يُحسِن مثلها.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة.

وسئل الخليل بن أحمد الفراهيدي: ما البلاغة؟ فقال: ما قَرُب طَرَفاه، وبعُدَ مُنتهاه.

ليست الدعوة لتبسيط قواعد الفصحى تساوي دعوة استعمال العامية بدلاً عن الفصحى بل على العكس من ذلك. وقد أجاب الباحث الجريء علي الوردي في كتابه المفيد «أسطورة الأدب الرفيع» على كل الأميين المتسترين بلقب كاتب أو دكتور والذين لا يقرأون ما يكتب عن الضرورة الملحة لتجديد «حيوية اللغة العربية

Twitter: @ketab_n

الفصحى» فيتهموه باطلاً أنه يدعو لاستعمال العامية ـ وقد قرأت كل ما كتبه هذا المفكر الجريء عن اللغة ولم أجد سطراً واحداً يدعو فيه لما اتهم به، بل على العكس فهو فارس شجاع يدافع عن عشيقته اللغة. يجيب علي الوردي: «ويجب أن لا ننسى أن هناك فارقاً كبيراً بين اللغة المبسطة واللغة العامية من الناحية الإجتماعية. فاللغة العامية لا يفهمها جميع الناطقين بها. أما اللغة العربية الفصيحة المبسطة فهي التي يفهمها جميع العرب في كل أقطارهم»[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت كتب النحو والصرف والبلاغة في البدء، عندما أُلِفَت تتوجه للعلماء والشعراء والمفكرين فقطُ ولذلك حرصت على مستوى عال جداً. ولم يفكر أي من هؤلاء الكتاب بالأطفال ولا بعلم التربية وهذا ما ليس ولم يكن واجبهم، بل هو واجبنا في تيسير دخول الأطفال إلى جنة اللغة بدل حرق موهبتهم وفضولهم للجديد في جهنم مستعصيات اللغة، وحذلقات نحاتها، وفي إجبارهم على حفظ قواعد ظهراً عن قلب لا يبررها العقل السليم. «وحقيقة التعليم هي أنَّ نسبة ٩٩٪ منها أنْ تجعل الطلابَ يَشعرون أن المادة مشوِّقة، أما النسبة الباقية فتتعلق بالطريقة التي تقدَّم بها هذه المادة. وصحة هذه النتيجة ليست مقصورة على اللغة، بل هي صحيحة في كل موضوع»[2].

---

(١) الوردي، علي، أسطورة الأدب الرفيع، دار كوفان، لندن ١٩٩٤، ص٦٠.

(٢) تشومسكي، نعوم، اللغة ومشكلات المعرفة، محاضرات مانجوا، ترجمة=

Twitter: @ketab_n

فمثلاً يحتاج العالم اللغوي فاضل صالح السامرائي لكتاب من ٣٠٠ صفحة مركّزة البناء، بالغة الجدية، دقيقة البحث في مراجع النحو، خالية من كل زخرفات وحذلقات ليوضح بناء الجملة العربية وكل احتمالات سوء فهمها أو صياغتها بشكل خاطئ ليصل في النهاية إلى شرح إضافي بملحق لحالات نحوية لم تتم معالجتها بعد: «هذا ملحق في شرح قسم من الجمل غير المشهورة أو التي أرى أنها تحتاج إلى شرح ولا أدّعي أنها جميع ما يحتاج إلى شرح ولا شطره ولكنها اختيارات لا تخلو من فائدة، ويمكن جمع أضعاف أضعافها من كتب اللغة والمعجمات» ثم يعدد ١٥ حالة غريبة للجملة العربية. ألا يدل هذا على ضعف سببه النحاة بتعقيد كل شيء؟ أو سأصيغ السؤال بطريقة أخرى: هل من العجيب أن يكره التلاميذ دروس اللغة والنحو العربية؟ أليس هذا التعقيد يشجع الحفظ عن ظهر قلب لتعقد فهم هذه القاعدة؟[١].

قد يعتقد البعض أني أبالغ في نقدي للتعقيد، لكن العكس هو الصحيح، فلقد أدرك فاضل السامرائي بنفسه أن كتابه لا يزال يحتوي على ثغرات، فقام بتأليف كتاب ثانٍ بحجم يتجاوز ٢٢٠ صفحة بعنوان: «الجملة العربية، تأليفها وأقسامها» صدر عام ٢٠٠١ عن دار الفكر الأردنية. كيف إذن لطالب جامعي أو كاتب

= حمزة المزيني، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص٢٤٩.

(١) السامرائي، فاضل صالح، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم، بيروت ٢٠٠٠، ص٢٩٦ ـ ٣٠٠.

Twitter: @ketab_n

ناهيك عن تلميذ ناشئ أن يلم باللغة دون قراءة وفهم هذين الكتابين بحجم خمسمائة صفحة؟ وهل يكفيان؟ لا ، أبداً، يحتاج الطالب لأضعاف عدد هذه الصفحات ولذاكرة جمل لكي يكتب صفحة عربية واحدة جميلة خالية من الأخطاء.

هناك تعقيدات لا مبرر لها في قواعد اللغة، وقد صعق الكاتب المصري الشجاع شريف الشوباشي أكليروس المعبد اللغوي بوضع يده على جرح إن لم نقل جراح اللغة العربية. وشريف الشوباشي له مواقف أخرى شجاعة في الدفاع عن الأقليات مما لا مجال هنا لتفصيله (أنظر مواقفه المشرفة في الدفاع عن الأقباط المصريين في الصحف المصرية). ومتى وجدت تلك المقالات وقرأتها، قارنها بما يتقيأ به بعضهم ممن يسمي نفسه بالعالم ويحمل لقب دكتور ويؤلف كتاباً يسميه «موسوعة فلاسفة اليهود ومتصوفة اليهودية»[١] ثم وكأن هذا لا يكفيه فيضيف تحت العنوان الرئيسي جملة حقيرة: ونقد هذه المذاهب والرد عليهم. لم اجد كتاباً يعج بالأخطاء التاريخية والفلسفية في حياتي مثل هذه الموسوعة... والمضحك أن المؤلف عبد المنعم الحنفي يمتلك ككل المرائين لسانين أحدهما يوجهه للعرب (حسب نظرته المحدودة) والآخر للغرب (لأنه يعتقد أو يحلم أن يهتم به مخلوق خارج عشيرته) وهنا يكتفي صاحبنا هذا

---

(١) الحنفي، عبد المنعم، موسوعة فلاسفة اليهود ومتصوفة اليهودية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤.

Twitter: @ketab_n

بالعنوان الحيادي:

Encyclopedia of Jewish

Philosophers & Mystics

إستغنى أبو لسانين بالإنكليزية عن نقد مذاهب اليهود والرد عليها. لكي لا يضحك الإنكليز، أسياده النفسيون عليه. أما ما يسميه رد على اليهود بين دفتي الكتاب فحدِّث ولا حرج، فهو يشتم كلا الديانتين المسيحية واليهودية بأقذع المفردات وكل ذلك تحت سقف دار مدبولي المؤدبة والمتدينة للكتب(1). من هنا تقديري الكبير كإبن الأقلية المسيحية لكل شجاع ومنهم الشوباشي، أن ينفض خمول الأغلبية ـ داء كل أغلبيات العالم ـ ليقف علنا إلى جانبنا.

قدم الشوباشي في كتابه: «لتحيا العربية: يسقط سيبويه»(2) عدة أمثلة مفيدة على نواحي ضعف اللغة العربية نتيجة غياب إصلاح لغوي منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة حسب قوله. (وهي مبالغة لأن كتاب

---

(1) لو اقتصر الأمر على هذا المؤلف ودار نشره لقلنا هؤلاء مرحاض البيت العربي وليس علينا أن نتوقع رائحة العطر هناك، لكن العدد الهائل للكتب والمقالات التي تهاجم المسيحيين والمسيح، وعلى العلن، تجاوز الملايين. وما على الذي يشك في ذلك إلا أن ينظر في المكتبات والإنترنت تحت عنوان الرد على النصارى أو على المسيحيين. ونفس القذارة تنشر ضد إخوتنا الدروز والعلويين واليزيديين. من هنا يأتي خوفنا أن تفوح رائحة البيت العربي بازدياد مراحيضه.

(2) الشوباشي، شريف، لتحيا العربية: يسقط سيبويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤.

Twitter: @ketab_n

سيبويه أصلاً صدر في القرن الثامن وقد دام اجتهاد علماء اللغة في إصلاح وتمتين العربية بعد ذلك لعدة قرون). وقد أثار كتاب الشوباشي زوبعة في فنجان الصحافة العربية مضت دون أن تترك أثراً، وبالطبع أتى النقد من الإسلامويين وكان مختلف الحدة فمن نائب للإخوان المسلمين الذي طالب فاروق حسني، وزير الثقافة آنذاك، بمصادرة الكتاب وخلع شريف الشوباشي من منصبه العالي في وزارة الثقافة... إلى ناقد إسلاموي عشائري مثل إبراهيم عوض ينتقد الكاتب ويبرر عدم نقده بشدة لأنه يحترم أباه المفكر: «إن انتسابه لمحمد مفيد الشوباشي يَغُلّ يدي عن أن أتناول ما كتبه فى موضوعنا بنفس الشدة التى أرد بها على من يهاجمون العربية أو الإسلام»، وهذه تهمة مغلّفة وغير محققة للشوباشي أن ما يكتبه يعادي الإسلام.... وهذا بعينه الغباء الذي يواجه به أعداء الإصلاح كل عاشق للغة العربية... حكم إعدام ثقافي أمام الملأ دون أن يخشوا مقاضاتهم للتحريض على القتل، لأنهم يعرفون دولتهم المتماهين معها. جبانة باختصاص وتفوق. مثل هذا التحريض يعاقب عليه أمثال إبراهيم عوض في بلد ديمقراطي يحترم حرية وكرامة الإنسان مثل المانيا بالسجن لمدة قد تصل إلى ثلاث سنوات.

وهذه الشاعرة نازك الملائكة تدافع بذكاء عن اللغة العربية وضرورة إصلاحها: «ويقولون: ما اللغة؟ وأية ضرورة إلى منحها آفاقاً جديدة؟ فينسون أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت.

Twitter: @ketab_n

والواقع أن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء، التي تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التي تملأ أنفسنا اليوم. إنها قد كانت يوماً لغة موحية، تتحرك وتضحك وتبكي وتعصف، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل، فصنعوا من ألفاظها «نسخاً» جاهزة، ووزعوها على كتّابهم وشعرائهم، دون أن يدركوا أن شاعراً واحداً قد يصنع للغة ما لا يصنعه ألف نحوي ولغوي مجتمعين»[1].

لا يحمل مجتمعنا المتأخر هؤلاء المفكرين ـ دعاة الإصلاح ـ على الأكتاف تكريماً، بل يتركوهم مع خصومهم البرابرة في عزلة يتعرضون فيها للشتيمة والتهديد. وبنظري تصيب هؤلاء المفكرين الشجعان من أمثال الشوباشي أو العلوي أو غليون أو طرابيشي أو عياشي ضربة أكبر وأعمق من أي تهديد أو شتيمة وهي أن غالبية المثقفين العرب لا تأخذ لا هذا الكتاب ولا غيره بعين الإعتبار، متى مست الكتب محرمات فرضها تخلفنا وليس العقل أو الدين. ترى المثقفين يتحاشون التدخل في هكذا حوار قد يقطع عنها مورد عيشها.

لكن من يقرأ كتاب الشوباشي بتمعن، يعجب للشتائم التي انهالت على مؤلفه، فالكاتب يبيّن بموضوعية نواحي عديدة لضعف اللغة من وجهة نظره كالمثنى (يطالب بالإستغناء عنه) ونون النسوة (يعتقد خاطئاً أن حذفها يدعم مساواة المرأة بالرجل)[2]، ويطالب

---

(١) الملائكة، نازك، شظايا ورماد، بيروت ١٩٧٣ الديوان، ج٢، ص٧.

(٢) الشوباشي، لتحيا العربية...ص١٧٤ ـ ١٧٥.

Twitter: @ketab_n

بتوحيد الأرقام (وهو محق بذلك وقد شاركه كما ذكرنا المرحوم بوعلي ياسين وآخرون فما معنى الحذلقة في قلب جنس الأعداد من ٣ ـ ٩ لتخالف ما تعده بقوله سبعة رجال وسبع نساء).

وبتلخيص شديد عالج الشوباشي في كتابه ميل العرب إلى المبالغة وللكلام بدل الفعل، وخوف العربي من مواجهة الواقع وجنوحه للوهم عوضاً عن ذلك، كذلك نقد الشوباشي ميل العربي إلى المراوغة في الخطاب عوضاً عن المباشرة واهتمامه بالشكلي على حساب الجوهري. ويؤكد الشوباشي أن اللغة العربية هي الرباط الوحيد الآن بين شعوب الأمة العربية بعد تفرقهم سياسياً وتمزقهم اقتصادياً. كما يؤكد أيضاً أنه لا يحب أن ينقطع ما بين حاضرنا وبين تراثنا المكتوب بالفصحى، ومن ثم فهو يرفض استبدال هذه الفصحى بالعامية[١]. وينتقد بحق كثرة المرادفات[٢]... إلخ.

كل هذه النقاط مهمة وجديرة بأن تؤخذ بعين الإعتبار عند مناقشة أسباب تخلفنا. وهي تدين كل من يشتم الشوباشي ويتهمه بأنه يبغي تهديم اللغة العربية وأنه يعادي الإسلام.

من نواحي ضعف الكتاب: عنوانه الذي يذكرني بهتافات تطالب بـ «تعييش» فلان وإسقاط علتان وكأن اللغة لا تحيا إلا بإسقاط سيبويه. وهذا ما لم يقصده الكاتب بالتأكيد. فقد أكد احترامه

---

(١) الشوباشي، لتحيا...، ص١٦ـ ١٧، ١٣٨، ١٦٥ـ ١٦٦.

(٢) الشوباشي، المرجع نفسه، ص١٧٧ ـ ١٨٠.

Twitter: @ketab_n

لسيبويه في كتابه اللاحق: «تحطيم الأصنام» الذي صدر عن دار الشروق عام ٢٠٠٦، «وقد قلت مراراً إنني أحترم سيبويه كثيراً، وإنني مؤمن بأنه لعب دورًا جوهريًا في وضع أسس النحو العربي. لكن هذا الإحترام لا يرقي عندي إلى مستوى التقديس. فنحو سيبويه كان عظيمًا في عصره وملائمًا لأسلوب التفكير وإيقاع الحياة وتركيبة العقل العربي، لكن منه ما لا يصلح لزمننا بعد مرور أكثر من ١٢٠٠ عام على وفاة سيبويه. وأنا مقتنع أنه لو بعث سيبويه اليوم لقام بثورة على قواعد النحو التي وضعها»[١].

ومن نواحي ضعفه أيضاً أنه يكثر التأكيد أن أزمة العرب هي أزمة لسان ولغة وأنا أعتقد أن المسألة هي أزمة عقل وفكر.

وقد ألف المفكر زكريا أوزون كتاباً بعنوان «جناية سيبويه» حول نفس الموضوع أكثر دقة مما يوحي به عنوانه فهو يلاحظ بحق: «أن كثيراً منا يقرأ النص العربي مراعياً قواعد النحو أولاً ثم المعنى فهو مهتم بأن يرفع وينصب ويجزم قبل أن يفهم».[٢] وعلى ما يبدو يروق لزكريا أوزون ـ رغم جديته ـ البحث عن جنايات وكأني به مفتشاً بوليسياً أعيق عن القيام بالبحث عن المجرمين، لذلك تراه مغرماً بإعطاء كلمة «جناية» مكانة الصدارة في كتابه، فمن «جناية سيبويه» إلى «جناية البخاري» إلى «جناية الشافعي».

---

(١) الشوباشي، شريف، تحطيم الأصنام، دار الشروق، بيروت ٢٠٠٦، ص٢٢٠.

(٢) أوزون، زكريا، «جناية سيبويه»، رياض الريس، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٣.

Twitter: @ketab_n

بغض النظر عن هذه الهفوة التي تهدف التشويق للكتاب فإن زكريا أوزون يطرح في كتابه الذي يعنينا «جناية سيبويه» أسئلة في غاية الأهمية، ويفتش عن أجوبة بروح علمية. ولا ينتقد بشكل عشوائي بل يعالج بموضوعية أكثر وبحنق أقل من شوباشي مسائل اللغة الدقيقة كالمثنى مثلاً الذي يعتبره ناتج عن دقة اللغة العربية[1]، وكل انتقاده يمكن تلخيصه بجملة: سيبويه إهتم كأجنبي (فهو من أصل فارسي) أن يكون مخرج الكلمات وحركاتها صحيحاً، وليس أن تكون منطقية البنية، وتساعد على وضوح ما تقوله (وهنا يقترب أوزون من موقف بوعلي ياسين وهادي العلوي). وهذا التحليل العلمي الهادئ مصيب جداً، فالعربية شددت على الوقع الموسيقي أكثر من متانة الجملة أو منطقية بنائها، وهذا يأتي حسب رأيي، وكما ذكرت في هذا الكتاب سابقاً، من طغيان الشعر والأدب الشفاهي على العربية، وكلاهما يعيش من وقع الكلمات على الأذن ويصفح عبر نسيان التركيب الأخطاء المنطقية في البنية. وكلما ابتعدنا عن **الشفاهية**، وبكلمة أخرى كلما ازداد وزن **الكتابة**، كلما تراجعت براعة الموسيقى في ستر الأخطاء وبقيت هذه كشواهد واضحة للعين عن مطبات المكتوب. ويمكن لمن لا يصدق هذا أن يسجل محاضرة أو أمسية رائعة، ثم ينقل كلماتها من المسجلة إلى الورق، فسيكتشف مساحات واسعة في الأمسية على كل نبيه أن يحذفها لتبقى زبدة صافية في النهاية يمكن قراءتها بعد سنين. وقد

(١) أوزون، جناية...، ص٦٦.

Twitter: @ketab_n

قرأت خطابات نقلت حرفياً لجمال عبد الناصر وياسر عرفات ونايف حواتمة، ويا ليتني لم أقرأها أو عليّ أن أشكر الله لأنني قرأتها، واكتشفت مدى فراغ هذه الخطابات التي كانت تستغرق الساعات دون ان تملأ بمحتواها دقائق. الشفاهية تعيش من اللحظة والكتابية تحفظ ما يُكتب ليختبره الزمن، ويصدق هنا قول الشاعر:

الخط يبقى زماناً بعد كاتبه

وكاتب الخط تحت الأرض مدفون

ويصيب زكريا أوزون عندما ينتقد مشكلة الفعل المبني للمجهول ويأتي بمثال جميل نورده هنا كاملاً:

«عندما نحول الجملة السابقة (يعني جملة كسر أحمد الزجاج) إلى صيغة المبني للمجهول فإنها تصبح (يضم أول الفعل ويكسر ما قبل آخره) كُسِرَ الزجاجُ.

عندئذ تعرب مفرداتها:

كُسِرَ: فعل ماض للمجهول مبني على الفتح.

الزجاجُ: نائب فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

تأمل ذلك الإعراب العتيد والذي يفيد بأنه عندما لم نجد الفاعل (أحمد) جعلنا الزجاج ينوب عنه (عن أحمد) فيكسر نفسه فهو نائب فاعل... كيف يمكن أن نقبل ذلك؟ وكيف لنا ان نتقبل على مرور أكثر من ألف عام هذا الهراء؟»[1].

---

(١) أوزون، جناية...، ص٤٣.

Twitter: @ketab_n

لكنه يخطئ أيضاً بذم الشعرالقديم ومقارنته بالشعر الحديث معلناً تفوق نزار قباني على امرئ القيس وهذه مقارنة لا تجوز علمياً إنما شخصياً. فأنا إذا قلت إن أغنية «تلفن عياش» أو «بما إنو» لزياد الرحباني أتذوقها في مهجري ألف مرة أكثر من كل الشعر الجاهلي بكامله، أو أن أغنية فيروز «كيفك إنت» أفضل من كل أغنيات الكرة الأرضية، فهذا جائز والدنيا أذواق، لكنه لا يحق لي مقارنة شعر زياد بالشعر الجاهلي ولا أغنية فيروز بأغنيات العالم. فالمقارنة علم بأصول وشروط معقدة لا مجال هنا لشرحها، ولكننا نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول إن مقارنة نزار قباني حتى مع محمود درويش تصعب للغاية وهما شاعران كبيران في زمن واحد، فكيف الحال مقارنة شعراء تفصلهم على الأقل ١٤٠٠ سنة؟

وبحق يؤكد زكريا أوزون أن من فذلكة النحاة اختراع ما يسموه المفعول معه واعتبار الحال تارةً خطأً وطوراً صحيحاً. وكتابه جميل الوقع أثناء القراءة، لأنه لا يخلو من مداعبة ومرح رغم جدية الموضوع. ينتقد بسخرية تسميات «شبه جملة» و«المضاف إليه» ويصل نقده إلى ذروة عندما يفند ما قرره النحاة عن أداة مثل إن وأن، التي تأتي أحياناً في جملة كـ «زائدة لا محل لها من الإعراب» وأداة «لا» التي تستعمل في أوجه عديدة منها النفي (عكس الإثبات)، وعرب النحاة هذه الأداة النافية على عكس أختها الناهية (التي تجزم الفعل المضارع) بكل برود: «أداة نافية لا عمل لها» ومنعوها من التأثير على ما يتبعها من الأفعال إعراباً وكأن عمل

Twitter: @ketab_n

ومعنى أداة مرتبط بنصبها وجزمها وجرها لما يأتي بعدها وإلا فلا عمل لها... هكذا يظن النحاة ويصف زكريا أوزون هذا التناقض في «لا» العاطلة نحوياً عن العمل: «أصبحت عاجزة علماً بأنها تهز كيان الدول فإذا قلت: لا أحب الوطن فإن لا التي لا عمل لها ـ نحوياً ـ خربت الديار والوطن»[1].

ثم ينتقل وبشجاعة لامثيل لها لإثارة أسئلة لم يطرحها أحد قبله. يقول: «لماذا لا تعترفون بأن اللغة العربية تخضع للفهم والعقل والمنطق لا لقواعد النحاة؟ فإذا قال أحدنا: أكل أحمدَ التفاحةُ (بنصب الفاعل ورفع المفعول به) فلا أحد منا يقول إن الفاعل هو التفاحة وإن المفعول به هو أحمد بالرغم من مخالفة حركات أواخر الكلمات لاشتراطات النحاة».

وهنا نأمل أن لا يجيب أحدهم قائلاً: ولكن كيف نعرف الفاعل في قولنا: «قتل أحمدَ زيدُ» أو العكس «قتل أحمدُ زيداً».

وهنا أجيب وبأعلى صوت: «الفاعل هو الذي يأتي أولاً وأوقفوا هذه التخريجات التي لا تسمن ولا تغني من جوع وما غايتها إلا إضاعة الجهد والوقت والمغالطة. وهل يستخدم القضاة في بلادنا العربية قواعد سيبويه النحوية ليعرفوا القاتل من المقتول عند استجواب الشهود الذين لا يحركون حركة في أواخر الكلمات في اللهجة العربية الدارجة»[2].

---

(١) أوزون، جناية...، ص٩٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٠.

Twitter: @ketab_n

ويؤكد زكريا أوزون في نهاية بحثه هدفه بتخليص اللغة العربية مما لحق بها من تجميد عبر قواعد النحاة التي لا تعتبر العقل والمنطق بل تهتم بالشكل والتشكيل وعبر بشكل مؤثر عن هدفه تطوير اللغة وتحديثها لتصبح عصرية قادرة على أن تصبح لغة في كل الميادين وللجميع كتابةً وقولاً، في خطاب أو حديث شخصي لعام أو لرجل بسيط، كما هو الحال في اللغات العالمية[١].

ويشارك المفكر زكريا أوزون شريف الشوباشي بمهاجمة سيبويه ويكيل ما شاء له قلمه الشتائم لسيبويه.

وهذه هفوة الكاتبين الأولى. وكأن سيبويه في قبره مسؤول عن تأخرنا وأتذكر ملاحظة لبرهان غليون ذكية جداً: «حان الوقت للإنتقال من تهديم التراث إلى محاسبة العقل. والعقل ليس التراث وليس الثقافة. إن نظام تفكيرنا الراهن، ونظرياتنا واستراتيجياتنا التي تحدد غايات أهداف اجتماعية في الثقافة والإجتماع معاً. ومحاسبة العقل تعني محاسبة أنفسنا، جيل المتعلمين الذي أخذ على عاتقه مهمة النهضة والتحرر العقلي. أما محاسبة التراث، فهي محاسبة لأسلاف لم يدركوا عصرنا، ولا كان بمقدورهم أن يفهموه ويتركوا لنا في تراثهم الحلول التي نحتاجها لمواجهة مشاكلنا الراهنة، وما كان عليهم أن يفعلوا ذلك»[٢].

---

(١) أوزون، جناية...، الخاتمة ص١٦٩ ـ ١٧٣.

(٢) غليون، إغتيال العقل...، ص٣١٥.

Twitter: @ketab_n

تكمن الهفوة الثانية في أن كلا الكاتبين يعيد مسألة التأخر إلى أنها مسألة لغة. ويبالغ أوزون عندما يعيد سبب عدم انتشار العربية عالميا إلى سببين لغويين أحدهما النحو وثانيهما الإشتقاق اللغوي[1]، فهذا لا يصيب الحقيقة المعقدة التي تسمح للغة ما أن تنتشر عالمياً أو تتوسع على امتداد منطقة بكاملها أو أن تنحسر. فالعربية توسعت لتصبح لغة شعوب كثيرة وبدأت بالإنحسار لهزيمة العرب السياسية التاريخية وقبلها انحسرت اليونانية وبعدها انحسرت التركية والفرنسية والروسية على اختلاف قواعد هذه اللغات. والفرنسية بالذات لغة عصرية ديناميكية جميلة للغاية لكنها في تراجع مستمر لتقلص النفوذ الفرنسي.

ما أريد قوله هو رجاء ألا نحمل اللغة أكثر مما يمكنها حمله.

وأضيف إلى هاتين الهفوتين ثالثة، أن كلاهما، الشوباشي وأوزون، لا يذكران من سبقهما في محاولات عديدة لتيسير اللغة ونقد سيبويه، وأشهرهم إبن مضاء القرطبي (٥١٢هـ ـ ٥٩٢هـ) في كتابه «الرد على النحاة» الذي ألفه قبل ألف عام. وهو كتيب صغير أعتبر كثورة ضد سيبويه، وقد أثار وقتها ضجة كبيرة. وقد حققه عام ١٩٤٧ بصورة بديعة العالم اللغوي شوقي ضيف. وقد كان إبن مضاء القرطبي عالم واسع المعرفة بالطب والهندسة واللغة والفقه كما كان شاعراً وكاتباً بارزاً، شغل منصب قاضي القضاة (ما يشابه وزير العدل) في بلاط الموحدين وعاصر ابن طفيل وابن زهر وابن

---

(١) جناية سيبويه...، ص١١.

Twitter: @ketab_n

رشد لكنه اختلف مع الأخير فكراً وموقفاً، ولم يتعرض للمحن التي تعرض لها إبن رشد. وقد ألف إبن رشد أيضاً كتاباً لتيسير العربية وخطط لبناء جديد للغة يختلف عن قواعد سيبويه دعاه «الضروري في النحو». والغريب أن لا يشير أي أحد منهما (إبن رشد وابن مضاء) لكتاب الآخر أو عمله اللغوي بحرف واحد وكأن هذا تقليداً عربياً أصيلاً.

وقد أخذ إبن مضاء على النحو مأخذ عرقلته لحركة اللغة وفي ذلك يقول: «وأني رأيت النحويين ـ رحمة الله عليهم ـ قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن، وصيانته عن التغيير فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي أموا وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا إلا أنهم التزموا ما لا يلزم وتجاوزوا فيه القدر الكافي فيما أرادوه منها فتوعرت مسالكها ووهنت مبانيها وانحطت عن رتبة الاقناع حججها»[١].

وقد ساهم كثيرون في محاولات قيمة جريئة ونقدية لتيسير العربية منهم مثالاً لا حصراً: شوقي ضيف، ابراهيم مصطفى، عبد الستار الجواري، أمين الخولي، علي الوردي، محمود تيمور، طه حسين، لويس عوض، زكي نجيب محمود وهادي العلوي، بوعلي ياسين... كل هؤلاء وعشرات من المفكرين الذين انتقدوا صعوبة النحو والإعراب لم يذكرهم الكاتبان بكلمة... على ما يبدو

---

(١) القرطبي، ابن مضاء، الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار الفكر العربي. القاهرة، ١٩٤٧، ص٧٢.

Twitter: @ketab_n

هذا تراث عربي أصيل، وأنا من أقلية منقرضة لا تفهم سببه.

قد يكون السبب هو تلك النزعة البدوية عند بعض العرب التي تسبب وهماً وكأنهم، حين ينكرون الآخر، يبدون وكأنهم عباقرة زمانهم لا سابق لهم في ميدانهم. لذلك كنت أسمي هؤلاء في شبابي: «كولومبوس العاشر» وكنت آنذاك أحتقر حتى كولومبوس الأول وكل من يدّعي أن البيض اكتشفوا أمريكا، وكأن سكانها الأصليين لم يكتشفوها بعد.

غيّرني الزمن وصرت الآن، وعيناي ترمقان جبل أخطائي، وأنا أقترب من الشيخوخة، أكثر رأفة تجاه أخطاء الآخرين. لم ولن أشتم بعد هؤلاء الكتّاب، الذي تضخم أنفهم، إلى درجة سد معها الأفق فلم يروا سواه. ولم ولن أسميهم بعد «كولومبوس» فهم أرفع من ذلك وأنا أحترم إنجازهم الجريء رغم هفواته. أنا سأناشدهم بكل لطف قائلاً: أيتها الزميلات وأيها الزملاء، لقد اجتهد الكثيرون قبلكم فاذكروهم تكريماً ونقداً، ولا تصمتوا عنهم لكي لا يُصمَت عنكم. كلهم ساهموا قبلكم وتاريخ صدور مؤلفاتهم شاهدي المتين أمام محكمة «أخلاق الكُتاب».

تحليل غريب عجيب عديم الذوق

من أغرب ما قرأت في كتاب يبغي تدقيق العربية هو إصرار مترفع على كون الخاصة (أي الأمراء ومثقفيهم) أفضل من العامة. وهذا أمين نصر آل الدين يوضح لنا، وكأنه لم يسمع بتساوي البشر ناهيك عن الديمقرطية، صفات الكلمة التي تجعلها فصيحة أم

Twitter: @ketab_n

مبتذلة ليس استناداً إلى بناء الكلمة أو وقعها على العين والأذن بل أن تقييم الكلمة يأتي عبر مركز من يستعملها: «...والخامس ما كان كذلك ولكنه كثر في كلام العامة، ولمعناه إسم استغنت به الخاصة عن العامة، فهذا يقبح استعماله لابتذاله.

والسادس أن يكون ذلك الاسم كثيراً عند الخاصة والعامة وليس له مرادف وليست العامة أحوج إلى استعماله من الخاصة ولا هو أكثر مناسبة لأهل المهن منه لغيرهم فهذا لا يعد مبتذلاً.

والسابع أن يكون كما ذكرنا إلا أن حاجة العامة إليه أكثر فهو كثير الدوران بينهم فهذا مبتذل»(١) هذا ليس تدقيق للغة إنما احتقار للإنسان.

خاتمة فكاهية للبلاغة بطرائف عن مبالغة النحويين:

حكى ابن قتيبة في عيون الأخبار أن أبا علقمة النحوي، المشهور بالتشادق والتقعر في الكلام، كان يسير في الطريق فهاجت به المرة (أخلاط في الجسم حسب الإعتقاد آنذاك) فسقط على الأرض مصروعاً. فاجتمع الناس واقبلوه يعصرون ابهامه ويؤذنون في أذنه ليفيق، فلما أفاق ورأى اجتماع الناس قال لهم عبارته المشهورة

---

(١) آل نصر الدين، أمين ص٢٥ ورغم هذه الهفوات فإن الكتاب يعطي بعض النصائح المهمة لإتقان اللغة لكنه يحتوي على نصائح لا فائدة منها لأن تطور اللغة تجاوزها وكان الحري بدار النشر وهي تعيد طباعة الكتاب عام ١٩٨٦ للمرة الثالثة أن تنوه عن ذلك لفائدة القراء الأحياء بدل أن تستهلك الصفحات في تمجيد ميت لن يستفيد من ذلك بقدر قشرة بصل.

Twitter: @ketab_n

(ما لكم تكأكأتم عليّ كما تكأكأتم على ذي جنة؟ افرنقعوا عني)، ثم أفلت منهم وهرب. فقال رجل منهم: «إنه شيطان يتكلم بالهندية».

(تتكأكأون: أي تجتمعون وتنحنون، وذو الجنة: المجنون، وافرنقع عن الشيء: زال).

ومنها ما روي أن رجلاً سأل خادمه: «أصقعت العتاريس؟» فقال له الخادم: «ذق ليطم»، فقال له السيد: «وما ذق ليطم؟» فقال الخادم: «وأنت، ما أصقعت العتاريس؟» قال: «أعني أصاحت الديكة؟» قال: «وأنا أعني لم تصح!!».

ومنها ما روي عن أبي علقمة أنه مر يوماً على عبد حبشي وصقلبي، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الأرض، فأدخل ركبتيه في بطنه وأصابه في عينه، وعض أذنيه وضربه بعصا، فشجه وأسال دمه، فقال الصقلبي لأبي علقمة: «اشهد لي»، فمضوا إلى الأمير، فقال الأمير: «بِمَ تشهد؟» فقال: «أصلح الله الأمير، بينما أنا أسير بكودني، إذ مررت بهذين العبدين، فرأيت الأسحم قد مال على الأبقع، فحطأه على فدفد، ثم ضغطه برخفتيه في أحشائه، حتى ظننت أنه تدعج جوفه، وجعل يلج بشناتره في جحمتيه يكاد يفقؤهما، وقبض على صنارتيه بميرمه، وكاد يحذهما، ثم علاه بمنسأة كانت معه ففجعه بها وهذا أثر الجريان عليه بيناً».

فقال الأمير: «والله ما فهمت مما قلت شيئاً».

Twitter: @ketab_n

فقال أبو علقمة: «قد فهمناك إن فهمت، وأعلمناك إن علمت، وأديتُ إليك ما علمت، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية»، فجهد الأمير في كشف الكلام حتى ضاق صدره، ثم كشف الأمير رأسه، وقال للصقلبي: «شجني خمساً وأعفني من شهادة هذا».

وشيء من أيامنا لا يقل عن هذا التقعير، كتب أحدهم في منتدى الكتروني في الإنترنت يسأل: بين تنقلي هنا وهناك في فضاء النت الزاخر بكل عجيب وغريب والفسيح جداً.. وقعت على هذه القصيدة التي تأملت فيها كثيراً وتعجبت لها أكثر، وقد نقلتها لكم.. فهل منكم من يستطيع فك طلاسمها لي؟

ومدركل بالشنصلين تجوقلت
عفص له بالفيلطوز العقصل
ومدحشر بالحشرمين تحشرجت
شرا فتاه فخر كالخزعبل
والكيكذوب الهيكذوب تهيعهت
من روكة للقعلبوط القعطل
تدفق في البطحاء بعد تبهطل
وقعقع في البيداء غير مزركلِ
وسار بأركان العقيش مقرنصاً
وهام بكل القارطات بشنكلِ
يقول وما بال البحاط مقرطماً
ويسعى دواماً بين هك وهنكلِ

Twitter: @ketab_n

إذا أقـبـل الـبـعـراط طـاح بـهـمـةٍ
وإن أقـرط الـمـحـطـوش نـاء بـكـلـكـلِ
يـكـاد عـلـى فـرط الـحـطـيـف يـبـقـبـق
ويـضـرب مـا بـيـن الـهـمـاط وكـنـدلِ
فـيـا أيـهـا الـبـغـقـوش لـسـت بـقـاعـدِ
ولا أنـت في كـل الـبـحـيـص بـطـنـبـل

فأجابه أحدهم ساخراً: «هذه القصيدة لها وزنها بين الشعراء لصعوبة ألفاظها وقوة معانيها. وإليكم بعض معاني الكلمات:

تبهطل: أي تكرنف في المشاحط.

المزركل: هو كل بعبيط أصابته فطاطة.

العقيش: هو البقس المزركب.

مقرنطاً: أي كثير التمقمق ليلاً.

البحطاط: أي الفكاش المكتئب.

مقرطماً: أي مزنفلاً.

هك: الهك هو البقيص الصغير.

البعراط: هو واحد البعاريط وهو العكوش المضيئة.

أقرط: أي قرطف يده من شدة البرد.

المحطوش: هو المتقارش بغير مهباج.

يبقبق: أي يهرتج بشدة.

الهماط: هي عكوط تظهر ليلاً وتختفي نهاراً.

الكندل: هو العنجف المتمارط.

Twitter: @ketab_n

البغقوش: هو المعطاط المكتنف.

البحيص: هو وادٍ بشمال المريخ.

الطنبل: هو البعاق المتفرطش ساعة الغروب.

وبعد هذا الشرح المفصل للألفاظ والكلمات، نود أن نذكر أن قائل هذه الأبيات هو الليث بن فار الغضنفري، وكان شاعراً فطحلاً، روى الشعر وهو صغير».

وأعود بذاكرتي للقاء الأمير. بعد فترة صمت وجيزة تحدث الأمير عن شخصية الباحث الجديد وأكد بحكمة، أن الباحث ليكون جديراً بشرف البحث في اللغة، عليه أولاً أن يلقي برداء الأيدولوجية مهما كان هدفها بعيداً عنه، فاللغة بوجه ما لوحة فسيفساء تحتاج لكل الألوان لتزهو حية بمنظرها لا أن يسودها لون واحد فتتحول إلى علم أحمر، أسود، أبيض، أصفر أو أخضر.

وتذكرت حكمة رواها لي أبي عن رجل سعيد كان يتمهل قرب باب منزله قبل دخوله البيت ويهمس قائلاً: «إنزل يا هم عن كتفي وانتظرني هنا»، ثم يدخل بشوشاً ليتمتع مع زوجته وأطفاله بما بقي لهم من النهار. وعند الصباح كان بعد أن يغادر بيته يتمهل قليلاً ويهمس: «إركب يا هم فلقد انتظرتني بصبر أشكرك عليه».

قلت للأمير مازحاً: «أقترح غرفة عند مدخل بيت الكلمة ويافطة واضحة الخط: إترك معطفك وأيدولوجيتك هنا وسيحفظان لك حتى مغادرتك البيت. فأغلب المفكرين لا يزالون يخلطون بين

Twitter: @ketab_n

الصراع السياسي الأيدولوجي والحوار الفكري».

«هذه فكرة جيدة، سنعمل بها»، قال بجد أدهشني.

إلتفت إليّ سائلاً: «هل لديك بعد هذا أي تحديد لما ترفضه الدار سواء كبحث أو باحث؟».

«بكل تأكيد فهناك مطبات على بيت الكلمة أن يتحاشاها وإلا ظللنا ندور في دائرة مغلقة وهذا مضيعة للوقت وهدر للأموال. علينا أولاً رفض كل اقتراح يحاول من قريب أو بعيد رفض اللغة الفصحى أو يقترح تبديل الحرف العربي بحرف لاتيني. مثل هذا الإقتراح لا يستحق النقاش. ترسل الدار لصاحبه مقالتي عن أسباب رفض الحروف اللاتينية والعامية كبديل للفصحى بحروف عربية وليترِ من ماء البحر ليشربه، فهذا ما يعرضه هو علينا لنطفئ ظمأنا للتقدم.

ثانياً، نرفض كل اقتراح يرى أن اللغة إلّهية لا جدل فيها. فبيت الكلمة يقف على أسس أولها وأهمها أن اللغة اختراع إنساني قابل للنقد والتطوير. في هذه الحالة ترسل الدار حفنة بخور لصاحب اقتراح التأليه طالبة منه، أن يصلي ويحرق البخور لآلهته الجديدة اللغة في الوقت الذي نتقدم فيها ومعها إلى صفوف اللغات الحية العالمية».

وأتى يوم الفراق ككل ما يأتي ولا تريده أن يأتي. رافقت الأمير حكيم إلى مطار فرانكفورت وكان لدينا متسع من الوقت سمح لنا بشرب فنجان قهوة في مقهى صغير. شد على يدي: «سنعقد كل

Twitter: @ketab_n

عام مؤتمراً في الإمارة همه الأول إثارة الكثير من الأسئلة حتى حول ما أنجزناه ولكي نشارك الرأي العام بما نعمله وليكون حساباً علنياً لنا عما أنجزناه وعما قصرنا في إنجازه. وستكون أنت أول المحاضرين في المؤتمر الأول وأعتقد أنه سيكون بعد ثلاث سنوات».

ضحكت: «هذا لا أستطيع تلبيته يا صديقي، فأنا لا أطير لأني حيوان أرضي يتقن السير والسباحة وليس الطيران».

ظن أن الأمر مزاح لكنه عندما تأكد من إصراري قال: «حسناً سأرسل لك إلى أي ميناء تصله براً في إيطاليا أو اليونان سفينة لتحضرك لميناء الإمارة. على الأقل في المؤتمر الإفتتاحي، عليك أن تحضر».

هززت رأسي موافقاً وشاكراً لطفه.

عند الباب الأخير تمهل في سيره. إلتفت إليّ وضمني «أشكر الله عز وجل أن مرض قلبي قادني إلى المانيا». قال ذلك ولم أجد سوى دموعي. ذهب ولوّح بيده عالياً بعد خطوات دون أن يلتفت، وبكيت بكاءً مريراً، لأني فقدت أخاً لم تلده أمي وما الغربة سوى سلسلة من الفراق.

عدت إلى البيت ونمت نهاراً كاملاً. كنت أستيقظ لأشرب شيئاً من الماء وأعود للنوم وكأني مخدر نتيجة إرهاق الليالي التي مضت. لأنه طالما كان الأمير حكيم بن عقلان بجواري كان النوم تبذيراً.

بعد يومين ذهبت لسحب مبلغٍ صغيرٍ أشتري به بعض الثياب

Twitter: @ketab_n

الضرورية ولأحول عن طريق البنك أجرة الغرفة لصاحبها، وكم دهشت لتحويل مكتب الأمير في لندن الذي يعتني بكل معاملات الأمير التجارية في أوروبا، مبلغاً يبلغ أضعاف ما اتفقت عليه مع المستشفى. وبعد ظهر ذلك اليوم حولت المبالغ التي أدين بها لأصدقائي شاكراً صبرهم وكرمهم. كفاني هذا المبلغ لتمويل سنتين من العمل الدؤوب في روايتي «الوجه المظلم للحب».

لكني في ذلك اليوم لم أستطع النوم لفرحي بانتهاء مرحلة العوز في حياتي. إشتريت ما استطعته ودعوت عشرة اصدقاء فقراء ليتذوقوا المطبخ العربي الأصلي. كتبت في اليوم التالي برقية لأشكره فيها، فلم يكن بالإمكان آنذاك أن نتراسل بالإنترنت أو الجوال.

لم أتلق رداً.

أتى الجواب من إذاعة لندن، خبر صغير في نهاية النشرة الإخبارية لـ (BBC)، وهو الحال عندما تكون المخابرات البريطانية متورطة في حدث ما. تحدث المذيع بغموض عن انقلاب في العائلة الحاكمة في إمارة الحكيم.

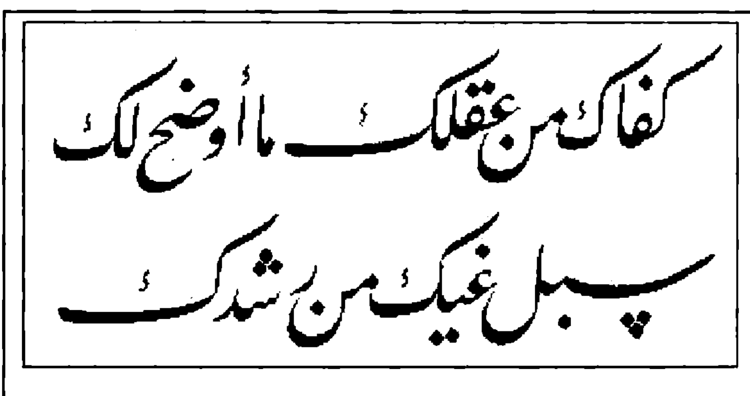
عيسى، أخو الأمير حكيم، قاد الحركة ضد أخيه وظهر في اليوم التالي على شاشة التلفزيون ليعلن، ملتحياً كالسلفيين، وبصوت أجش يقصد به تمثيل الأخ المفجوع بأخيه الذي انتحر «لأزمة نفسية». وعد الحاكم الجديد الأمة أن يسير بالبلاد حسبما تقتضيه الشريعة والتراث، ولم ينس بالطبع فلسطين وتحريرها ولولا ذاكرته التي التهمها الويسكي لحرر الإسكندرون وجنوب الأندلس.

Twitter: @ketab_n

ولم تنس الإذاعة البريطانية الإطراء على الحاكم الجديد «الليبرالي رغم تدينه» كما وصفه المذيع. تمثيلية أخرى سيئة الإخراج أمام جمهور مخدر بخوفه وهوس استهلاكه.

طمرت الكتيب الصغير تحت كومة أحزاني وأوراقي ولم أشأ بعد الحديث لأحد عن هواجسي اللغوية. مرت السنين وعندما بدأت في سنة ٢٠٠٤ بكتابة رواية «سر الخطاط الدفين» تذكرت كل ما كنت قد تحدثت به مع الأمير حكيم. أخرجت الدفتر وقررت أن أقرأه مرة ثانية.

وما أن قرأته حتى قررت أن أنشره بالعربية ليتعرف شعبنا إلى أبنائه البررة وليعرف هذا الشعب على قدرته أن ينجب حكماء أبناء عقل كالأمير صديقي، يضعون كل ما في يدهم لإنقاذ لغتهم.



Twitter: @ketab_n

كلمة أخيرة

لا شك أن كل الأحياء تتواصل وتتبادل المعلومات وبخاصة تلك الضرورية لبقائها بكثير أو قليل من الوسائل والإشارات الصوتية وغير الصوتية. واللغة هي إحدى تلك الوسائل وليست وحيدتها. هناك بالطبع هوة واسعة بين لغة الإنسان وبين وسائل الحيوانات في التواصل والتفاهم، حتى تلك المتقدمة التي يستخدمها الحوت والدلفين والقرد. فلغة الإنسان هي وحدها القادرة على التعبير عن دقائق نظرية وحوادث ماضية وآمال وأحلام مستقبلية، وبكلمة مختصرة: الإنسان هو الكائن الوحيد المتمكن من لغة تخضع لإرادته ويستعملها متعمداً حتى ولو لم تكن ضرورية لبقائه.

ولغة الإنسان تعقدت مرافقة وعيه لحياته ولمحيطه إذ لا معنى للغة من دون عقل ومن دون محيط إنساني يتم تبادلها وتطويرها من خلالهما.

الفكر له علاقة مباشرة باللغة وبالكلمة فهو يتألف من كلمات والكلمات هي التي تحمل الفكر في تشكيلاتها وتراكيبها. فالفكر والكلمة إذاً بلحمة بنائية وتوليدية. ومن هنا تبرز عظمة الجملة: «في البدء كانت الكلمة».

Twitter: @ketab_n

وقد شغلت العلاقة المعقدة بين لفظ الكلمة ومعناها، كما والعلاقة بين الفكر والكلمة المفكرين العرب منذ القدم (الجاحظ، الفارابي، أبو حيان التوحيدي، الزمخشري) وإلى يومنا هذا (الأخضر جمعي، جورج طرابيشي، هادي العلوي، طيب تيزيني).

اللغة أقدم من الكتابة والأبجدية، فالعلماء متفقون على أن الحضارة الإنسانية عمرها حوالى خمسين ألف سنة وأما الكتابة فعمرها لا يتجاوز خمسة آلاف سنة.

اللغة يمكنها أن تعيش قروناً بدون أبجدية لأن عطاءها وحتى تطويرها يمكن أن يتم شفاهياً، وهذا ما أنتج أكثر من ستة آلاف لغة على كرتنا الأرضية على امتداد مئات القرون، قبل وبعد اختراع الأبجدية وحتى يومنا هذا.

لا تملك إلا بضع مئات من كل هاتيك اللغات أبجدية أو رموزاً أو رسوماً. لكن الكتابة أعمق من مجرد تسجيل الكلام الشفهي فهي تذهب إلى أعماق لا يصلها الكلام الشفهي (في الفلسفة والعلوم مثلاً).

ليست الأبجدية بحد ذاتها الوسيلة الوحيدة لتسجيل اللغة لكنها ـ وكما اخترعها الفينيقيون ـ الأفضل من بين كل الوسائل الأقدم، التي تعتمد على الرسم والرمز. فبينما تتطلب الكتابة بالصينية إتقان آلاف الرموز يمكن للأبجدية، وبعدد بسيط من الأحرف التعبير حتى عن أعقد الأمور النظرية والفكرية.

الأبجدية العربية تنحدر من الفينيقية مروراً بالآرامية والنبطية.

Twitter: @ketab_n

والخط يمكن تسميته بشكل شاعري ظل الكلمة على الأرض أو بشكل علمي فيزيائي جسد اللغة المحسوس.

اللغة كائن حي يولد من أعماق الإنسان وينمو على آلاف الألسنة وفي آلاف العقول، يمرض ويعالج، يقوى ويضعف، وأيضاً ليس من الغريب أن يموت ككل الكائنات الحية...

هذا الكتيب تصريح عن حب لهذه اللغة وحروفها الجميلة. إنه مساهمة هاوٍ بمعنييها: العاشق، وغير الحرفي والأخصائي. أعطيت إسم هذه المساهمة «قرعة جرس» لأجل أجمل كائن ولده الإنسان: اللغة. قرعة جرس لإيقاظ كل محب للغتنا الجميلة، وهي مساهمة وليست دراسة أو بحث. فلا أنا باحث لغوي، ولا تسمح لي إمكانياتي في المهجر ولا رواياتي، التي تستهلك غالب قوتي ووقتي، بالقيام بمثل هذا العبء العظيم. لا بل أتصور في خيالي المتشائل دوماً (رحم الله إميل حبيبي) باحثاً (ة) ومفكراً (ة) عربياً (ة) يوجه (ت) فريقاً من الباحثات والباحثين المختصين باللغة للقيام بإصلاح جزء من أجزاء بيتنا اللغوي مجاوراً (ةً) بذلك مفكرين آخرين يرافقهم مساعديهم لاصلاح جوانب أخرى في هذا البيت. إن ما كتبته لا يريد سوى أن يكون دعوة صادقة لبدء حوار مفتوح وجريء يؤدي إلى إجراءات إصلاحية. هذا الحوار صار ملحاً لمكونات لغتنا التي ستتعرض لكارثة إن لم نبدأ بإنعاشها وتطويرها لتأخذ مكانها المناسب بين اللغات العالمية الحية.

هذا الكتاب نشأ عبر السنين وفي شكله الأول كان قصة لا تحمل

Twitter: @ketab_n

بين أسطرها أي ذكر لمراجع أو شواهد وأقوال من باحثين أمضوا عمرهم وهم يحاولون إصلاح هذه اللغة، لكني الآن، بعد ثمان وعشرين سنة، وعندما حاولت أن أنقل الصفحات المكتوبة باليد إلى شكل أفضل في الكومبيوتر، وجدت بعض نواحيه قد شاخت فجددتها ووجدت بعض الأخطار التي عالجتها آنذاك قد ازدادت وبعضها الآخر قد قل شأنه فعدلت ما يجب تعديله لأني أؤمن أن الكتابة تتقدم مع الحياة وتتغير بتغير كاتبها وزمنه، وأثناء نسخ وتنقيح ما كتبته باليد، وددت ذكر بعض أسماء ممن كافح محبة باللغة، عرفاناً بالجميل وكتعبير عن احترام عميق بغض النظر إن شاركت هؤلاء الكتّاب الرأي أم لا. لذلك ذكرت بعض المراجع التي ظهرت قبل وبعد كتابتي لمشروع هذا الكتاب، وصارت في متناول اليد سواء على شكل كتاب أم مخزّنة في الإنترنت (كمكتبة إلكترونية) ويمكن تحميلها بسهولة.

ولاحظت أن ما أنتج في العشرين سنة الأخيرة ممتاز ويدفع الحوار في الإتجاه الصحيح. وقد سرني ما وجدت وآلمني بنفس الوقت. سرني أن يلتفت الأخصائيون وليس الهواة أمثالي إلى الأخطار المحيطة باللغة وأن يساهموا بأبحاث راقية، لا تخشى أية مقارنة بالأبحاث العالمية، للدفاع عن اللغة وللتحريض على الإعتناء بها، وتسهيل قواعدها دون أي ابتذال وضبط معاجمها وتأييد الترجمة.

وبنفس الوقت يؤلمني هذا الوضع، لأن أبحاثنا لا تزال كما كانت

Twitter: @ketab_n

قبل ألف سنة، مجرد جهود فردية تصل إلى حدود التفاني والفناء صحياً دون أن تدرك السلطات الثقافية أن الأبحاث الفردية لا يمكن لها مهما كانت عبقرية أن تتفوق على أبحاث تقوم بها مجموعات من الباحثين على مدى عشرات السنين، مدعومة بكرم من الدولة، تنسق مع مجموعات أخرى لكي لا يضيع جهدها هباء.

بدل هذه الصورة المشرقة تسود الفوضى، ويجيبنا من نسأله عن السبب أن مصادر المصطلحات مختلف حسب الدولة الإستعمارية التي حكمت البلد، وماذا عن اللغة العربية المستقبلية؟ أليست واحدة من الخليج إلى المحيط؟ وهل يعقل أن نظل أسرى استعمار بعد خمسين أو ستين سنة من الإستقلال؟ هل يقبل عاقل بهذا؟ أوليس من الملح والضروري أن يُتّفَق على كل كلمة بشكل مركزي عند وضع مقابل لها بالعربية أنى كان مصدرها؟ أليست لغتنا العربية أهم من أن نترك مصيرها لأفراد أو مجموعات أو حتى لدولة من الدول؟ أليس هذا شأن يمس أعماق نفس كل عربي وشخصيته لكي لا نقول كرامته؟

وما هذا المستحيل الذي يعيق هكذا تنسيق. ولنأخذ مثال عملي لنتبين ما نشرحه:

تعمل لجنة مؤلفة من علماء لغة وترجمة من كل البلاد العربية (مندوبة أومندوب عن كل بلد) ويقومون مجهزين بتفويض صدر من حكام كل الدول العربية (وليس الجامعة العربية التي لا حول ولا قوة لها) بعملية جمع ورصد كل القواميس التي أنجزت حتى

Twitter: @ketab_n

الآن وتبدأ بتعميم لوحة من المبادئ التي تتحكم في إيجاد المصطلحات العلمية لوضع مصطلحات مقابلة لها مستندة في ذلك على علم المصطلح. هذا التعميم ملزم وكل دار نشر أو وزارة ثقافة تلتزم به لمنع الفوضى. وتوكل اللجنة لكل فرع من فروع المصطلحات مجموعة تأخذ كل ما توصل إليه الموسوعيون كأفراد أو مجامع لتصهرها متفقة في معجم واحد للكيمياء وآخر للفيزياء وثالث للطب ورابع للإقتصاد وخامس للفلسفة وهكذا ولا يهم أن يكون في أحد هذه المجالات جهد علماء مصريين هو الغالب في كميته وفي معجم آخر من خبراء لبنانيين وثالث يأتي خليطاً حسب اجتهاد علماء اللغة والمترجمين. إذ ليس من المقصود التفرقة والسيطرة الإقليمية بل إن الهدف هو توحيد كلمتنا وكسب ثقة القراء في كافة البلدان العربية والأجنبية. لأنه ساعتها فقط يثق القارئ التونسي أو الجزائري بأن العرب في الخليج أو العراق يستعملون نفس الإصطلاح.

تصدر هذه المعاجم بصورة أنيقة قابلة للقراءة وجميلة للعين واليد. لكن هذا الإصدار هو الخطوة الأولى. الخطوة الثانية والأهم هو فتح مجال عبر موقع محدد عالي التقنية والمصداقية لكل معجم يسمح بتحميل ما وصل إليه الإتفاق وهكذا يمكن للقراء أن يرجعوا للمعجم ويحملوه كاملاً لاستعماله أو أخذ ما يحتاجون إليه واستعمال المعلومة أينما كانوا كما في حالة ويكيبيديا. في هذه الصفحة يخصص ركن خاص ليكتب المهتمون القادرون اقتراحاتهم. (على

Twitter: @ketab_n

طريقة المعهد اللبناني كما ورد أعلاه) ويسمحوا للحوار لاختيار أفضل المقترحات لمصطلح جديد تثبته اللجنة بتحكيم المنطق ويصدر على شكل ملحق كتابي كل نهاية سنة ويلحق فوراً في المعجم الإلكتروني على الموقع. بهذا نصل ليس فقط إلى توحيد كلمتنا وجهودنا، بل إلى تسريع إنتاجية المصطلحات بدل السير ببطء وتخلف وراء المعاهد والموسوعات الأوروبية.

كل هذا كان له بذرة خيرة في مكتب التنسيق الذي ذكرناه والذي عرقل عمله حتى تاه نهائياً في أروقة الجامعة العربية. وهناك كما ذكرنا في هذا الكتاب تجارب خيرة وجميلة، فردية وجماعية ظلت معزولة.

هكذا وبمثل هذه الأبحاث المنظمة والمنسقة ننتج تراكماً لفظياً ولغوياً حديثاً وبناءً لا يهدمه توقف باحث عن العمل لسبب ما أو لموته، ولا يكرر نفسه عشرات المرات لأن كل باحث يعمل بعزلة عن الآخرين. لقد فاجأ الموت العبقري هادي العلوي، الذي قدم بمجهود عقله ويده ثماراً جريئة في اللغة والمجتمع، فاجأه ملاك الموت وهو لم يتم بعد مشروعه العظيم في معجم اللغة العربية. ترك ثغرة وكأن مكتبة مدينة كبيرة قد احترقت. فأين الباحثين الذين يتسارعون ويكملون طريقه حسبما خططه؟

يضاف إلى هذا الألم ألم آخر. هل من الصدفة أن يطارد عدد كبير من العلماء والمفكرين إقتصادياً، ثقافياً أو سياسياً بحماس وهمة أشد من مطاردة مهربي المخدرات والسلاح؟ لن أعدد أسماء شهداء وسجناء الكلمة لأن ذلك سيطول. سأكتفي بذكر هادي العلوي نفسه

Twitter: @ketab_n

الذي مثّل كل منهم بلحظات من حياته. فلقد اجتهد طول عمره وهرب بطول هذا العمر. لاحقه الظلاميون فهرب من بغداد إلى بيروت فقبرص، إلى لندن والصين. وظل طوال عمره متفانياً لقضية الفقراء، فقير الحال غني القلب، نقي النفس ومات في دمشق وعيناه تبكي بغداد. مات ومشروعه الكبير لم يكتمل بعد، أنجز ثلاثة قواميس للغة عربية عصرية تأخذ حاجات العلم والشارع بعين الإعتبار وكسر بشجاعة لا تضاهى قواعد أكاديمية مهترئة بإدخاله مفردات عامية مبررة وجميلة بدل تلك التعابير المحنطة.

سيرة حزينة أخرى أرويها قبل أن أختم حديثي: سُئِل قاتل المفكر الليبرالي الشجاع فرج فودة أثناء محاكمته: «لماذا اغتلت فرج فودة؟» فأجاب: «لأنه كافر» فسئل مرةً ثانية: «ومن أيٍّ من كتبه عرفت أنه كافر؟»، فأجاب: «أنا لم أقرأ كتبه»، فسئل للمرة الثالثة: «كيف؟» فأجاب القاتل: «أنا لا أقرأ ولا أكتب».

علينا إذاً أن نختار الطريق لنصبح عرب مفكرين أم مكفرين وموقفنا من لغتنا، لساننا وصوت إنسانيتنا العربي هو الحد الفاصل بين الخيارين.

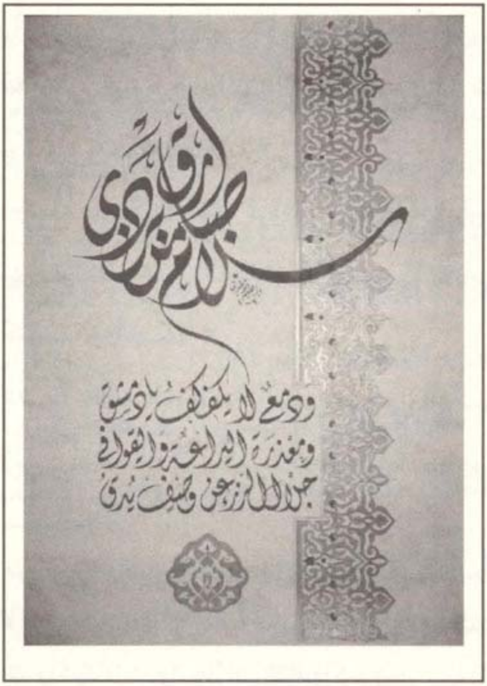
ولا يسعني الآن إلا تقديم الشكر وبكل تواضع لكل الذين أمدوني بكرم كبير بمساعدتهم في إنجاز هذه المساهمة وأولهم والدي رحمه الله، الذي علمني حب الكتاب واللغة، ولا يزال منظره نصب أعيني وهو ينحني فوق كتابه بعد استراحة قصيرة من عمله المرهق كخباز.

Twitter: @ketab_n

كانت مكتبته صغيرة لكنها كانت تضمُّ كتباً هامة.

كما أخص بالشكر الشاعر فوزي غزلان والشاعر والصحفي الكردي مروان علي والناثر والشاعر فادي عزام كما والخطاط والفنان عصمت أميرالاي لصبرهم ومساعدتهم الصادقة. ودوّن موقفهم إلى جانبي ما كان لهذا الكتاب أن يصبح، على الأقل، باقة ورد لحبيبتنا، لغتنا.

وليس من العدل ولا يصح أن أنسى شكري العميق لناشري الشجاع خالد المعالي (منشورات الجمل) فهو الذي حول صفحاتي المرتعشة لكتاب بغلاف يحميه ويوصله للقراء.



Twitter: @ketab_n

طرفة وداعية فيها عبرة لمن يعتبر

عندما أنهيت العمل من كتابي هذا الذي رافقني لسنين، أمتعني وعذبني، أذاقني مرارة الحنظل في لحظات الفشل وحلاوة العسل عند التوفيق في صياغة فكرة أو العثور على مرجع هام. أحببت في تلك الساعة أن أكتب حقيقة ما أشعر به، حقيقة شعور كل كاتب، كل باحث يصل في لحظة نشوة إلى قناعة أصابته الهدف (لئلا أجتر التعبير السائد أصاب كبد الحقيقة لأنه تعبير إجرامي يقتل الحقيقة إذا أصاب كبدها فمعاذ الله أن يكون هذا هدفي) ثم يكتشف وبطريق الصدفة[1] مرجعاً يقض مضجعه ويهدم صرح ثقته. هكذا هي الحياة وبرأيي فإن الكاتب العظيم ليس ذاك الذي يتجرأ على الكتابة، بل ذاك الذي يتجرأ على إعادة النظر بكل ما كتبه، لا بل إعادة كتابة كل ما كان قد صاغه على ضوء الحقائق التي أظهرت له خطأه أو عمقت صوابه إلى حدود لم يدر بها قبلا.

كتبت آنذاك جملة نسختها أثناء قراءتي لأحد المراجع بخط الثلث الجميل وعلقتها قبالتي على الجدار لأختم بها كتابي بشكل ذكي كما يحلم كل كاتب. والجملة هي:

«وختاماً أردد ما قاله العلامة الموسوعي الكبير أبو الفرج الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب أحدٌ كتاباً في يومه إلا قال في

---

(١) وهي صدفة من نوع خاص لا تنتج عن التنبلة بل كمنحة الحظ للنشيط وهدية السماء للمجتهد، والإنسانية تدين بالكثير لهذه الصدف التي كانت وراء اختراعات واكتشافات وانجازات ثقافية كبيرة.

Twitter: @ketab_n

غده: لو غُيرهذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

وما وددت قول غير ذلك».

عندما عدت الآن في خريف ٢٠١١ لتدقيق الكتاب للمرة الأخيرة قبل تسليمه للناشر وجدت مرجعاً يؤكد أن قائل هذه الحكمة ليس أبو الفرج الأصفهاني (المؤلف الشهير لموسوعة الأغاني) بل هو المؤرخ والأديب الشاعر عماد الدين الأصفهاني (يسمى أحياناً إختصاراً: العماد الأصفهاني) ولد في أصفهان عام ١١٢٥ وتوفي في دمشق عام ١٢٠١م. وقد رافق صلاح الدين الأيوبي وكان صديقاً للقاضي الفاضل، أحد أهم مستشاري صلاح الدين ووزيره المفضل. فتشت فوجدتني واحداً من آلاف الكتاب والباحثين العرب الذين عشقوا هذه الحكمة وصدّروا بها مقالاتهم وأبحاثهم. وكدت أستغني عنها لكثرة استعمالها. لكني ولمجرد الفضول أردت معرفة مسند ومرجع هذه المقولة، فلم أجد لمدة خمسة أيام ببحث يومي مضنٍ سوى أن هؤلاء الذين أخذوها كانوا ينقلونها عن بعضهم البعض ولا يتحققوا منها فوقعها جميل واسم الأصفهاني له شفيع كبير بأبي الفرج صاحب الأغاني.

كنت أقول لنفسي: قف عن هذا البحث فما هي إلا جملة لطيفة ظريفة وحكيمة فما الفرق إن قالها أبو الفرج أو عماد الدين أو أي

Twitter: @ketab_n

أصفهاني آخر..كدت أستسلم للواقع لولا أني عثرت على نسخة الكترونية لصفحة من جريدة الرياض السعودية ولأكتشف فيها مقال فريد[1] من نوعه يدل على عظمة باحثين يتحلون بما يفتقر إليه كثير من الكتّاب: ضمير لا يرضى بأنصاف الحلول وجلد على المثابرة وسعة في العلم، لو وجد مئة منهم في قرننا لكانت الثقافة العربية بخير.

واليوم وبعد تحققي من المصادر والمراجع أصحح هنا ما أخطأت فيه وأعيد جملتي:

وختاماً أردد ما كتبه القاضي الفاضل، العلامة والأديب الكبير[2] لصديقه عماد الدين الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب أحدٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيرهذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان

---

(١) العبَّادي، علي بن حسن: تصحيح مقولة تفشت بين العلماء والأدباء، جريدة الرياض، مقالة ثقافة الخميس، الخميس ١٣ رمضان هـ ـ ٣ سبتمبر ٢٠٠٩ مـ ـ العدد، ١٥٠٤٦.

(٢) وهو عبد الرحيم بن علي بن سعيد اللخْمي (٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ / ١١٣٥ ـ ١٢٠٠م) المشهور بلقب القاضي الفاضل، ولد بعسقلان في فلسطين وتوفي في القاهرة. إستوزره صلاح الدين فساس مُلكَه أحسن سياسة. وقد عرف صلاح الدين فضله فقال كلمته المشهورة: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم القاضي الفاضل». إشتهر برسائله الديوانية فعُد شيخ صناعة الكتابة في عصره (أنظر: البعلبكي، منير: معجم اعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٤٥).

Twitter: @ketab_n

أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1].

وما وددت قول غير ذلك.

رفيق شامي

المانيا، شتاء ٢٠١١

(١) وردت في كتاب: «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، حاجي خليفة، النسخة الإلكترونية نهاية الفصل الرابع من المقدمة، ص١٦ ـ أنظر أيضاً «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، مصطفى بن عبد الله (هو نفس الشخص حاجي خليفة) نسخة الكترونية، نهاية الفصل الرابع ص١٩ ـ أنظر أيضا «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، ملا جلبي (هو نفس الشخص حاجي خليفة)، دار الطباعة المصرية، القاهرة ١٢٧٤هـ (١٨٥٨م)، ص١٢.

Twitter: @ketab_n

الفهارس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١ ـ فهرس الأعلام

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(ب)

(ت)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(غ)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٢ ـ فهرس البلدان والأماكن والمواضع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٣ ـ فهرس القوافي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

رفيق شامي كاتب مهجريّ ينحدر من أصل آرامي (من قرية معلولا الشهيرة). تعلّم الفرنسية في لبنان والإنكليزية في دمشق. هاجر إلى ألمانيا حيث تعلّم اللغة الألمانية وأتقنها وحوّلها إلى لغته الأدبية. برز اسمه في العقدين الأخيرين في الأوساط الأدبية العالمية كروائي. وقد تُرجمت رواياته إلى أكثر من أربع وعشرين لغة وحازت على عدة جوائز عالمية.

في هذا الكتاب الفريد والأول من نوعه يقرع رفيق شامي جرس الخطر لينبّه من نام على الكوارث المحدقة بلغتنا الجميلة التي عشقها كاتبنا. وهو يقرع الجرس ليس كواعظ ممل ولا كخبير متكبّر، بل كروائي يشرح أصعب المفاهيم بطريقة شيقة تقتحم بذكائها العقل وتربط القلب بتشويقها عبر قصة الأمير الذي رافقه في رحلته عبر روابي اللغة وأدغالها.

لكن مهلاً، كيف يقوم روائي يعيش منذ أربعين سنة منفياً عن بلاده بعمل كهذا وكتّابنا الفطاحل لا يعنون بذلك وهم يعيشون في أحضان لغتهم؟

هذه المفارقة لها أسباب كثيرة سيفهمها من يقرأ هذا الكتاب.

@ketab_n